مطبوعات المجمع العلمي



تأليف

الدكتور جواد علي

الجزء السادس

شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة بغداد


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

تمهيد

هذا الجزء ، هو كالجزء السابق في تأريخ الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام ، وهو جزء متمم له وللأجزاء السابقة من هذا الكتاب . يبحث في اليهودية وفي النصرانية بجزيرة العرب ، وفي الحياة الدينية عامة عند ظهور الإسلام ، وفي نواح من الحياة الاجتماعية مما له علاقة بالحياة الدينية للجاهليين .

وللمستشرقين ولع خاص ، بموضوع اليهودية والنصرانية عند الجاهليين . وولعهم بذلك ، مبعثه في الغالب حرصهم على إراءة أن الإسلام دين مسروق من إحدى هاتين الديانتين ، أو من الديانتين معاً ، وأن ما ورد فيه هو إما نقل بتفهم من الكتب المقدسة ومن التفاسير ، وإما مسخ وتشويش لنقل وقع بغير فهم ولا علم . ثم هم في ذلك طوائف : طائفة تزعم أن أكثر ما نراه في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي هو من يهود ، لذلك تجهد نفسها لتجد سبباً قريباً أو بعيداً تستند اليه فيما تدعيه . وهذه الطائفة ذوو أكثريتها من المستشرقين اليهود ، وهم في أحكامهم هذه مندفعون بدافع العصبية والعاطفة . وطائفة أخرى تزعم أن ما نراه في الإسلام هو من النصرانية ، وأن أثر النصرانية في الجاهليين كان كبيراً ، وأن الرسول تعلم من النصارى ، كما زعمت قريش قبل قولهم هذا بمئين وألف من السنين ، كما أشير الى ذلك في القرآن الكريم . وهي طائفة تحوّل قولها هذا عن عاطفة وعصبية أيضاً كالطائفة الأولى .

أما أنا في كتابي هذا ، فلست بداعية ولا مبشر لدين من الأديان ، ولا أعتقد أن

باليهودية أو النصرانية أو الإسلام حاجة الى رأيي أو مساعدتي وتأييدي . فالأديان كلها لله ، وهي متممة بعضها بعضاً ، مكملة لما قبلها من نبوّات ورسالات . ثم أنها ليست ضعيفة هزيلة ، حتى تحتاج الى تقوية بإثبات أن الجاهليين كانوا على هذا الدين أو ذاك ، وأن الجاهليين ولا سيما شعراءهم وخطباءهم كانوا على اليهودية أو على النصرانية ، وأنهم كانوا متدينين لساناً وقلباً ، وأن الإسلام ضعيف نشأ على محاكاة وأخذ وسرقة ، فالإسلام لا يضيره ولا يثيره قول من يقول إنه مأخوذ عن يهودية أو عن نصرانية أو عن أية ديانة أخرى ، ولا يسره أو يزعجه أن يقال إن الجاهليين كانوا كلهم يهوداً أو نصارى ، إنه يرى نفسه أنه رسالة من رب العالمين الى الناس أجمعين ، وأن اليهودية ديانة سماوية ، وأن النصرانية ديانة سماوية كذلك ، وأن الإسلام ديانة سماوية أيضاً جاءت متممة للديانتين المذكورتين وللأديان الأخرى مكملة لها ، وأنها وحيٌ من الله .

وما دامت هذه الأديان ديانات من الله رب العالمين ، ومن منبع واحد ، فلا بد أن يكون في هذه الأديان ما تقتضيه طبيعة الوحي والإلهام من ذلك المصدر الذي ألهم هذه الأديان .

فأنا في هذا الكتاب لا أريد أن أسفه رأياً ، أو أن أؤيد رأياً وأتعصب له ، كما فعل من أشرت اليهم تلميحاً . فنحن في زمن صارت هذه الطرق من البحث فيه عتيقة بالية ، لا تفيد أصحابها شيئاً إن لم تسيء اليهم . وسبيلي كما قلت أن أذكر الآراء ، وأن أوضح ما بلغه أجتهادي من غير تعصب أو تحيز . وآفة العلم الهوى والأنحياز .

وبعد ، فقد جرت عادتي في الأجزاء السابقة أن أشكر من آزرني وساعدني في عملي هذا في المقدمة . وقد تكون طريقتي هذه طريقة بالية مملّة ، لا يرتاح اليها بعض القرّاء أو أكثرهم . أما أنا ، فأشعر أنها شيء قليل جداً من كثير يجب أن يقال دائماً وأن يذكر ، وأية إنسانية إذن إن جوزنا فيها غمط الحقوق ونكران الفضل ؟

ورأس من يجب التنويه بذكره في هـذا الجزء أيضاً هو أستاذي الأستاذ السيد محمد بهجة الأثري ، نائب الرئيس الأول للمجمع العلمي العراقي ، صاحب الفضـل الأول فى إخراج أجزاء هذا الكتاب . وقد كان وما زال حريصاً على أن يكون الكتاب فى أحسن حالة ممكنة في المادة وفي الإخراج ، وحريصاً على طبع بقيـة الأجزاء . ثم إنه أبدى لي ملاحظات قيمةً أفادتنى كثيراً ، وأرشدني الى أمور لم يكن قد وصل أجتهادي إليها ، شأن الأستاذ العالم الذي يسير على حكمة : « خير الناس من ينفع الناس » ، فله خالص شكري وتقديري .

ثم إن عليّ شكر السـيد كوركيس عوّاد ، مدير خزانة كتب مديرية الآثار القديمة العـامة ، لاستمراره على إمدادي بما أحتاج اليه من موارد لم تتيسر لديّ بطيب خاطر . وشكر السـيد قدري عبد الرحمان ، اللاحظ الفني في المجمع العلمي العراقي ، لمعاونته إياي فى قراءة مسوّدات الطبع ، وفى طبع الصور .

وختاماً لمقدمتي هذه ، لابد من أن أشير الى أن ما فى هذا الكتاب من صحيح أوفاسد ، ومن صواب أو خطأ ، هو لي وحدي ، وأنا المسؤول عنه ، لايؤاخذ به غيري ما ؟

جواد علي

الفصل الأول

اليهودية بين العرب

تحدثت في الجزء السابق عن أديان الجاهليين ومعتقداتهم وأصنامهم . وأتحدث فى هذا الفصل عن اليهودية فى جزيرة العرب ، وعن أثرها فى سكانها إن كان لها أثر ، وعن الجاليات اليهودية فيها عند ظهور الإسلام .

والحديث عن اليهودية بين العرب ، وعن وجود يهود في أنحاء من جزيرتهم ، لا يمكن أن يكون حديثاً تأريخياً مبنياً على العلم إذا ارتفعنا به الى الميلاد والى ما قبل الميلاد . ولا يعني كلامي هذا عدم وصول يهود الى جزيرة العرب ، وعدم اقامتهم في أماكن منها . فهذا كلام لا يمكن أن يقال ، ولا يمكن قبوله . إنما أريد أن أقول إننا لا نملك نصوصاً تأريخية تخولنا أن نتحدث عن اليهود فى جزيرة العرب قبل الميلاد حديثاً علمياً ، بأن نعين المواضع التي نزلوا فيها ، والأماكن التي وصلوا اليها ، وما فعلوه هناك ، وفى أي عهد كان ذلك ، ومن قادهم الى تلك الأنحاء ، ومن استقبلهم استقبالاً حسناً ، أو إستقبلهم استقبالاً سيئاً من الجاهليين ؟

ولما كانت فلسطين امتداداً طبيعياً للحجاز ، كان من الطبيعي اتصال سكانها بالحجاز ، واتصال سكان الحجاز بفلسطين ، وذهاب جاليات يهودية الى العربية الغربية ، للإتجار وللإقامة هناك ، خاصة بعد فتوح الدول الكبرى لفلسطين واستيلائها عليها ، وهجرة اليهود الى الخارج . فكانت العربية الغربية لاتصالها بفلسطين من الأماكن اللائمة المناسبة

لهجرة اليهود اليها ، واقامتهم فيها . ولا سيما عند مواضع المياه وفي الأرضين الخصبة المطرة .
غير أننا لا نستطيع ، كما قلت ، التحدث عن هجرة اليهود هذه الى هذه الأنحاء حديثاً علمياً يرتفع أكثر من مئة سنة عن ظهور الإسلام .

ولم يترك يهود جزيرة العرب لهم أثراً مكتوباً يتحدث عن ماضيهم فيها . وكل ما عثر عليه منهم ، نصوص معدودة . وجدت في اليمن ، لا تفصح بشيءٍ ذي بال عن اليهود واليهودية .
كذلك لم يصل الينا أن أحداً من المؤلفين والكتبة العبرانيين ذكر شيئاً عن يهود الجاهلية .
وليس لنا من تأريخ اليهود في جزيرة العرب الا ما جاء في القرآن الكريم وفي الحديث وكتب التفسير والأخبار والسير . فمادتنا عن تأريخ اليهودية في العربية ، لا ترتقي الى عهد بعيد عن الإسلام .

نعم ، لقد عثر على عدد من الكتابات النبطية في الحجر وفي مواضع أخرى من أرض النبط وردت فيها أسماء عبرانية تشير الى أن أصحابها من يهود ، ويعود بعضها الى القرن الأول للميلاد ، ويعود بعض آخر الى ما بعد ذلك مثل الكتابة التي يعود عهدها الى سنة ٣٠٧ ميلادية ، وصاحبها رجل اسمه « يحي برشمعون » أي « يحي بن شمعون » [١] . لا أستبعد أنا أن تكون لرجل نصراني غير أن هذه الكتابات شخصية ، ولا تفصح بشيءٍ ذي بال عن عقيدة أصحابها ، ولا عن تأريخهم في هذه الأرضين .

وعدم ورود نصوص مكتوبة بالعبرانية أو بغيرها منهم ، وعدم ورود شيءٍ عنهم في مؤلفات اليهود في الأقطار الأخرى ، يحملنا على التساؤل عن سرّ هذا السكوت . ألم يكن بين يهود جزيرة العرب من كان يحسن القراءة والكتابة بالعبرانية أو باللهجات العربية ؟ ثم ألم يكن بين يهود جزيرة العرب ويهود الأقطار الأخرى اتصال وتزاور ؟ ألم يظهر من بين يهود العربية من تفرس وتعلم واشتهر بفلسفة أو بفقه أو بعلم ؟ وهل تصح

(١) Islamic Culture, Vol., III, No. 2, April 1929, Judaeo-Arabic Relations in Pre-Islames Times, by Josef Horovitz, PP. 170

نسبة أندثار كتاباتهم الى اضطرارهم الى ترك ديارهم والهجرة الى الخارج بسبب اجلائهم عن جزيرة العرب فى الإسلام ؟ ولو أخذنا بهذا الفرض ، لجوبهنا بسؤال حرج ، هو : لم أزال المسلمون آثار اليهود المكتوبة ، ولم يزيلوا آثار الكتابات الوثنية وهي آثار بغيضة عند المسلمين ؟ هل بقيت كتابات الوثنيين بسبب أن الذين هجروا الأوثان وعبدوا الله حافظوا عليها ، لأنها تراث آبائهم وأجدادهم ، فبقيت سالمة قائمة . أما آثار اليهود ، فلم تجد من يرعاها ويحافظ عليها بعد هجرة أصحابها عنها ، فبليت وتلفت ، وهلكت مع المالكين ؟

ولكن ، ألم يحمل يهود الحجاز ، بعد اجلائهم عن أرضهم الى العراق وبلاد الشأم أو مصر أو أي مكان آخر ، آثارهم معهم ؟ ولم سكت الكتبة العبرانيون عن الإشارة اليهم والى آثارهم وتراثهم الأدبي ؟ إن هذه أسئلة تتبعها أسئلة عديدة أخرى تتعلق بهذ الموضوع ، من الصعب الإجابة عنها اجابة علمية مقنعة ، وأيدينا خالية فارغة من كل نص وحجة وسند . وليس من طبيعة الباحث العلمي الاستناد فى اجاباته الى الحدس والتخمين والظن . ولعل الأيام أن تتغير وتتبدل ، فتقبل الافصاح بشيء عن يهود جزيرة العرب ، وتسمح للأرض فتخرج شيئاً مما هو مختبىء فى جوفها ، فيه كتابات عن أولئك الناس .

يرى بعض المؤرخين اليهود أن يهود جزيرة العرب كانوا فى معزل عن بقية أبناء دينهم وانفصال ، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن يهود العربيـة مثلهم فى العقيدة ، بل رأوا أنهم لم يكونوا يهوداً ؛ لأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ، ولم يخضعوا لأحكام التلمود [1] . ولهذا لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء فى أخبار المؤلفين العبرانيين .

وكانت منطقة يثرب المركز الأكبر لليهودية عند ظهور الإسلام . أما اليمن ، فقد

(١) اسرائيل ولفنسون : تأريخ اليهود في بلاد العرب (القاهرة ١٩٢٧) « ص ١٣ » ، وسيكون رمزه : اليهود .

عرض فتح الأحباش لها يهودها للضغط ولا شك ، فلم يكن لهم عند ظهور الإسلام فى اليمن شأن يذكر . وأما العربية الشرقية ، فقد كانت فيها جاليات يهودية عند ظهور الإسلام ، دفعت الجزية فيمن دفعها من أهل الذمة ؛ لأنها فضلت الاحتفاظ بدينها على الدخول فى دين الله . وأما العربية الوسطى ، وأعني بها هضبة نجد ، فلم يشر أهل الأخبار الى وجود جاليات يهودية فيها . ولكن هذا لا يعني نفي ذهاب أسر اليها للاتجار والعيش فى تلك الأنحاء .

وقد انتشر اليهود جماعاتٍ جماعاتٍ أُستقرت فى مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر ، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من أعتداء الأعراب عليهم . وقد أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة فى جوارهم على دفع إتاوة لهم ، وعلى تقديم الهدايا اليهم لاسترضائهم . وكان من شأنهم أيضاً التفريق بين الرؤساء وإثارة الشحناء بين القبائل حتى لا تصفو الأحوال فيما بينها وتلتئم ولئلا يكون أتفاقها وألتئامها خطراً يتهدّد اليهود .

أما متى دخل اليهود منطقة يَـثْرِبَ وأستوطنوها ، وكيف أُستقروا فى خيبر والمناطق الأخرى ، فعلم ذلك عند الله .

وأما ما ذكره أهل الأخبار عن كيفية مجيء اليهود الى الحجاز وإقامتهم فى جوار يثرب ، فهو مما لا يعتمد عليه . ولا يوثق به . وليس فى بضاعتنا شيء نستطيع أن نقدمه عن هجرة اليهود من فلسطين وإقامتهم فى هذه الأرضين . وعلينا الإنتظار فى الزمن الحاضر حتى تجود الأيام علينا بنصوص قد تكشف لنا شيئاً من تأريخ هبوط أولئك القوم من بني إسرائيل فى الحجاز .

وليس الذي يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشاً الى الحجاز ، وأُستقرار ذلك الجيش فى يثرب بعد فتكه بالعماليق وبعد وفاة موسى ، ثم ما يذكرونه عن هجرة داوود مع سبط

يهوذا الى خيبر وتملكه هناك ثم عودته الى اسرائيل [1] وأمثال هذا إلا قصصاً من هذا النوع الذي ألفنا قراءته فى كتب أهل الأخبار ، لا أستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة أو من أسلم منهم ، لإثبات أنهم ذوو نسب وحسب فى هذه الأرضين قديم ، وأنهم كانوا ذوي بأس شديد ، وأن تأريخهم فى هذه البقعة يمتد الى أيام الأنبياء وأبتداء اسرائيل ، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين .

وقد أخذ أهل الأخبار ما رووه عن دخول اليهود الى يثرب في أيام موسى ، وما ذكروه عن إرساله جيشاً الى هذه المنطقة ، ثم ما رووه عن سكنهم القديم فى أطراف المدينة وفى أعالي الحجاز ، من سفر « صموئيل الأول » من التوراة [2] . وقد حسب أهل الأخبار العمالقة من سكان يثرب القدماء ، ومن سكان أعالي الحجاز ، فزعموا أن تلك الحروب قد وقعت فى هذه المنطقة ، وأن اليهود قد سكنوها لذلك منذ أيام موسى . وقد أخذ الأخباريون رواياتهم هذه من اليهود ، وممن دخل منهم فى الإسلام [3] .

أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود الى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشأم وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم الى الفرار الى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم ، فإنه يستند الى أساس تأريخي صحيح . فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفسطين أدى الى هجرة عدد كبير من اليهود الى الخارج ، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين . ومن هؤلاء المهاجرين على رأي الأخباريين بنو قريظة وبنو النضير وبنو بهدل . ساروا الى الجنوب فى اتجاه يثرب ، فلما بلغوا موضع الغابة ، وجدوه وبياً ، فكرهوا الإقامة فيه ، وبعثوا رائداً أمروه أن يلتمس لهم منزلاً طيباً ، وأرضاً عذبة ، حتى إذا بلغ « العالية » ،

---

(١) الأغاني (١٩/٩٤ وما بعدها) « أخبار أوس ونسب اليهود بيثرب وأخبارهم » ، ابن خلدون (٢/٨٨) .

(٢) صموئيل الأول : الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٥ وما بعد .

(٣) Noldeke , Beitrage , S. 52.

وهي بطحـان ومهزور وأديان من حرة على تلاع أرض عـذبة . بها مياه وعيون غزيرة ، رجع اليهم بأمرها ، وأخبرهم بما رآه منها ، فقر رأيهم على الإقامة فيها . فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان ، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم تلاعه وما سقى من بعاث وسموات [1] .

وسكن اليهود يثرب على زعم أهل الأخبار : سكنها منهم بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو قينقاع وبنـو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهـدل وبنو عوف وبنو القصيص ، سكن هؤلاء المدينة وأطرافها ، وكان يسكن معهم من غير بني اسـرائيل بطون من العرب ، منهم : بنو الحرمان حي من اليمن ، وبنو مرثد حي من بَلِـيّ ، وبنو نيف وهم من بَلِـيّ أيضاً ، وبنو معاوية حي من بني سُلَـيم ثم من بني الحرث بن بهثة ، وبنو الشظية حي من غَسان . وظل اليهود أصحاب يثرب وسـادتها ، حتى جاء الأوس والخزرج ، فنزلوها وأستغلوا الخلافات التي كانت قـد وقعت بين اليهود ، فتغلبوا عليهم ، وسيطروا على المدينة ، وقسموها فيما بينهم ، فلم يبق من يومئذ لليهود عليها سلطان [2] .

وتذكر روايات أهل الأخبار أن مجيء الأوس والخزرج الى يثرب كان بعد حادث سيل العرم . جاؤوا اليها لفقر حالهم ، والتماساً لوطن صالح جديد ، وأنهم حينما نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة . ولذلك قنعوا بالذي حصلوا عليه من أرض ضعيفـة موات ، ومن رزق شحيح . أما المال والثروة والملك والجاه ، فلليهود . بقوا على ذلك أمـداً حتى إذا ما ذهب مالك بن العجلان ، وهو منهم ، الى أبي جبيلة الغَساني رئيس غسان يومئذ ، ونزل عنده ، شكا لأمير غسان سوء حال قومه وما هم عليه من بؤس وضنك . فوعده أبو جبيلة أن يأتي على رأس جيش من قومه لمساعدته ، على أن يقوم بعد عودته ببناء حائر عظيم ، يعلن أنه بناه لأستقبال الأمير فيه ، وأن يطلب من اليهود الخروج لأستقباله والتشرف بزيارته في ذلك

---

(١) الأغاني (٩٤/١٩ وما بعدها) . (٢) الأغاني (٩٥/١٩) .

الحائر ، فإن فعلوه ، فتك بهم وأبادهم . فلما تم البناء ، ووصل الأمير فى الأجل الموقوت ، ودخل المدعوون رؤساء اليهود الحائر ، فتكت عساكر أبي جبيلة بهم وأهلكتهم ، وتمت الغلبة من يومئذ للأوس والخزرج ، وعاد أبو جبيلة الى مقر ملكه .

غير أن اليهود ظلوا مع هذه الغلبة يتهاترون مع الأوس والخزرج ويعترضونهم ويتناوبونهم ، فعمد مالك بن العجلان الى الحيلة ، فتظاهر أنه يريد الصلح معهم ، وأنه عزم على تسوية العداوات وطمس الحزازات ، وأنه لذلك يدعوا رؤساءهم الى طعام ، ليتفاوضوا مع سادات قومه فى أمر الصلح . فلما حضر رؤساء يهود ، فتك بعشرات منهم ممن أستجاب لدعوته ، وفرّ أحدهم ليخبر قومه بما حدث ، وحذر أصحابه الذين بقوا ، فلم يأت منهم أحد .

« فلما قتل مالك من يهود من قتل ، ذلّوا ، وقل أمتناعهم ، وخافوا خوفاً شديداً ، وجعلوا كلما هاجهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم لبعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، ولكن يذهب اليهودي الى جيرانه الذين هو بين أظهرهم ، فيقول : إنما نحن جيرانكم ومواليكم ، فكان كل قوم من يهود قد لجأوا الى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم »[1] ومنذ ذلك الزمن لم يبق لليهود على هذه الأرضين سلطان .

أما مالك بن العجلان ، فقد صوره اليهود شيطاناً ملعوناً ، وصوروه فى بيعهم وكنائسهم ، ليلعنونه كلّما دخلوا ورأوه ، وذكروه فى شعرهم فى أقبح هجاء قالوه ولا شك[2] .

---

(١) الأغاني (١٩/٩٥ وما بعدها) .

(٢) الأغاني (١٩/٩٦) ، Graetz, Geschichte der Juden, V, S. 431, ff., Hirschfeld, Essai de l'histoire des Juives de Medine, in Revue Etudes Juives VII, 1883, P. 173, Caussin de Perceval, Essai, II, P. 652, Wellhausen, Skizze, IV, P. 33, Nallino, Raccolta, III, P. 111.

ويفهم من روايات الأخباريين أن يهود الحجاز كانوا قبائل وعشائر وبطوناً ، منهم : بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو عكرمة ، وبنو محمر ، وبنو زعورا ، وبنو زيد ، وبنو بهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص « المصيص » ، وبنو ثعلبة [١] . غير أننا يجب ألا نتصور بالطبع أنهم كانوا أعراباً ، أي بدواً يتنقلون من مكان الى مكان ، بل كانوا حضراً أستقروا في الأماكن التي نزلوا فيها ، ومارسوا مهن أهل المدر ، كل جماعة مستقلة تحمل أسماً من تلك الأسماء التي ذكرها الأخباريون .

وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود بـ « الكاهنين » ، نسبوا بذلك الى جدهم الذي يقال له « الكاهن » . و « الكاهن » هو الكاهن بن هارون بن عمران على زعم بعض أهل الأخبار [٢] . فهم على هذه النسبة من أصل رفيع ومن نسب حسيب ، يميزهم عن بقية طوائف يهود . ولهذا كانوا يفتخرون بنسبهم هذا ، ويرون لهم السيادة والشرف على من سواهم من إخوانهم في الدين .

أما الكاهن في عرف العبرانيين ، فهو من كان يقدم الذبائح اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية ، ويقوم بخدمة الاحتفالات والتطهير والآنية المقدسة والنار المقدسة والمنارة الذهب والأثاث المقدس والتصويت بالأبواق المقدسة وحمل تابوت العهد والقضاء وتقدير المال للافتداء وتفسير الناموس للشعب ، وله ملابس خاصة يلبسها بعد الاحتفال بتنصيبه كاهناً . وعليه اتباع القوانين المقررة للكهان وتطبيقها بعناية تامة . وكان أول كاهن هارون ، ثم انتقلت الكهانة الى أبنه « العازار » . وكان لايسمح بدخول قدس الأقداس إلا للكاهن الأعظم ، وهو الناظر على الهيكل . ولأهمية هذه الوظيفة كانوا يحتفلون بتنصيب

---

(١) الأغاني (١٩/٩٥ وما بعدها) ، Noldeke, Beitrage, S. 54.

(٢) الأغاني (١٩/٩٥) ، Margoliouth, P. 59, Graetz, History of the Jews, III, P. 56

الكاهن الأعظم احتفالاً عظيماً يدوم سبعة أيام [1] .

ويرى « نولدكه » احتمال كون بني النضير وبني قريظة من طبقة الكهان في الأصل : هاجروا من فلسطين على أثر الحوادث التي وقعت فيها ، فسكنوا فى هذه الديار . وهنالك جملة عشائر وأسر يهودية تفتخر بإلحاق نسبها بالكاهن هارون شقيق موسى النبي [2] .

كذلك يرجع « أوليري » كأمثاله من المستشرقين أصل بني قريظة وبني النضير الى اليهود ، ويرى أنهم غادروا ديارهم وجاؤوا هذه المنطقة فى الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل في عام ٧٠ للميلاد وتنكيل « هدريان » باليهود في عام ١٣٢ للميلاد [3] .

ويرجع بعض بقية يهود جزيرة العرب نسبهم الى الكاهنين والى الأسباط العشرة كذلك ، فيدعون أنهم من تلك الأسباط المفقودة ، وأنهم من نسل قدماء يهود [4] . والواقع أن هذا ليس شيئاً خاصاً بهؤلاء اليهود ، بل هو شيء عام ما زال قائماً حتى الآن حتى بين الأسر . فالأسر الفقيرة المعدمة الخاملة التي لم يكن يعرف عنها شيء ما ، تكون من خيرة الأسر نسباً وشرفاً وحسباً ومالاً حين يساعدها الحظ فيصير لها نفوذ وجاه وغنى ومال . ولا يعجزها الحصول بالطبع على شجرة نسب توصل نسبها الى أرفع البشر من أنبياء وملوك بحسب رغبة الأسرة وما يكون عندها من جاه وما تقدمه للنسابين من أموال .

وقد كانت منازل بني النضير حينما غزاهم الرسول فى وادي بُطحان [5] وبموضع البُوَيْرة . ووادي بطحان ، هو أحد أودية يَثْرِبَ الثلاثة ، وهي : العقيق وبطحان

---

(١) الخروج : الإصحاح الثامن والعشرون ، أخبار الأيام الثاني ، الإصحاح ٢٦ الآية ١٨ ، أخبار الأيام الأول : الاصحاح ٢٤ الآية ، ٤ ومواضع أخرى ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٧١ وما بعدها) .

(٢) Noldeke, Beitrage, S. 55.

(٣) O'leary, P. 173 f.

(٤) Nallino, Raccolta, III, P. 99, Friedlaender, The Jews of Arabia and the Rechabites, in Jews quarterly Review, 1910 - 1911, P. 254.

(٥) بالضم ثم السكون ، وقيل بفتح أوله وكسر ثانيه وبفتح أوله وسكون ثانيه ، البلدان (٢/٢١٦) « بطحان » .

وقناة . وهو واد فيه مياه غزيرة وعيون ، اتخذ به اليهود الحدائق والآطام . وقد كان موضع البُوَيرة عامراً كذلك ، وهو من تيماء ، فيه نخل وزرع وأشجار . وقد غزاهم الرسول بعد ستة أشهر من غزوة أحد ، فأحرق نخلهم وقطع زرعهم وشجرهم لتطاولهم على المسلمين ، وفيه كان ابن أحطب من اليهود [1] .

ومن بني النضير ، كعب بن الأشرف ، وكان معاصراً للرسول ، وكان صاحب لسان ونفوذ . أبوه من طيء على رواية ، ومن بني النضير على رواية أخرى . أما أمه فهي من بني النضير باجماع الرواة . توفي أبوه — على رأي من يقول إنه من طيء — وهو صغير ، فحملته أمه الى أخواله ، فنشأ فيهم ، وقال الشعر عندهم ، وساد . ولما جاء الرسول الى يثرب ، كان كعب فيمن ناصب الرسول العداء فعلاً وقولاً ، فهجا الرسول ، وهجا أصحابه ، وظل هذا شأنه بالرغم من محاولة المسلمين استصلاحه واسترضاءه . حتى جنى عليه لسانه ، فأهدر النبي دمه ، فذهب اليه نفر من المسلمين ، فاقتحموا داره وقتلوه . وقد كانت له مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج [2] .

وكان بنو قينقاع أول اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء ، وكانوا يسكنون في أحياء يثرب ، وكانوا أغنياء على غير وفاق ووئام مع بقية أبناء قومهم بني قريظة وبني النضير .

(١) قال حسان بن ثابت في حرق البويرة :

لهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

فأجابه أبو سفيان :

يعز على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

فأجابه حسان :

أدام الله ذلكم حريقاً ... وضرم في طوائفها السعير

هم أوتوا الكتاب فضيعوه ... وهم عمي عن التوراة بور

وقال جبل بن جوال التغلبي :

وأوحشت البويرة من سلام ... وسعد وابن اخطب فهي بور

البلدان (٢/٣١٠ وما بعدها) ، البكري (١/٢٨٥) « طبعة مصطفى السقا » « بويرة » .

(٢) الأغاني (١٩/١٠٦ وما بعدها) .

وقد اشتركوا في يوم بُعاث ، ووقعت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة معارك فتك فيها ببني قينقاع ، وأصيبوا بخسائر كبيرة أضطرتهم على ما يظهر الى الالتجاء الى يثرب والاقامة فيها في حي واحد من المدينة [1] . ويرى « أوليري » احتمال كون بني قينقاع من أصل عربي متهود ، أو من بني أدوم [2] .

وقد تكون بعض القبائل اليهودية التي ذكر أسماؤها الاخباريون قبائل يهودية حقاً ، أي من الجماعات اليهودية التي هاجرت من فلسطين في أيام القيصر « طيطوس Titus » ، أو « هدريان Hadrian » ، أو قبل أيامها ، أوبعدها . ولكن بعضاً آخر منها ، لم يكن من أصل يهودي ، إنما كانت قبائل عربية دخلت في دين يهود ، ولا سيما القبائل المسماة بأسماء عربية أصيلة . ولبعض هذه الأسماء ، صلة بالوثنية تشعر أنها كانت على الوثنية قبل دخولها في دين يهود [3] . والظاهر أنها تهودت إما بتأثير التبشير ، وإما باختلاطها ودخولها في عشائر يهودية جاورتها فتأثرت بديانتها . وقد نسب الاخباريون انتشار اليهودية في اليمن الى تأثير بعض الأحبار على تبع اليمن ، وكان قد قدم يثرب في طريقه الى ملكه ، فنشر اليهودية في مملكته ، وبتأثيره دخل جمع من الناس في دين يهود . وذكر البكري أن بني حِشْنة بن عكارمة ، وهم من بليّ قتلوا نفراً من بني الربعة ، ثم لحقوا بتيماء « فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم ، فتهودوا ، فأدخلوهم المدينة . فكانوا معهم زماناً ، ثم خرج منهم نفر الى المدينة ، فأظهر الله الإسلام ، وبقيةٌ من أولادهم بها » [4] . وهنالك بطون أخرى عربية الأصل كانت على دين يهود [5] .

وقد اشتهر يهود خيبر من بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم . وخيبر موضع غزير المياه

---

(١) اليهود (ص ١٢٨ وما بعدها) . (٢) O'leary, P. 173. f.

(٣) Margoliouth, P. 60, Noldeke, Beitrage, S. 52, Wustenfeld, Geschichte Von Medina S. 28.

(٤) البكري (١/٢٩) « طبعة مصطفى السقا » ، Islamic Culture, III, Vol., 2, P. 177.

(٥) Noldeke, Beitrage, S. 55.

كثيرة ، وقد عرف واشتهر بزراعته وبكثرة ما به من نخيل . وعند اجلاء اليهود عن خيبر ، تفرقوا ، فذهب بعض منهم الى العراق ، وبعض آخر الى الشأم ، وبعض منهم الى مصر . وقد بقوا في كل هذه المواضع متعصبين لوطنهم القديم خيبر ، ينادون بشمارهم الذي كانوا ينادون به قبل الإسلام ، وهو « يا آل خيبر »[1] .

وقد عرف نسل يهود خيبر ممن تفرق في البلاد الاسلامية بـ « الخيابرة » ، فكان منهم في مصر ، وقد منحوا امتيازات خاصة لم تمنحها بقية الفرق من أبناء نحلتهم ، كما كان منهم قوم في العراق سكنوا المدائن « طيسفون » وبغداد .

وزعم أن يهود خيبر هم من نسل « ركاب » المذكور في التوراة[2] ، وأن « يوناداب » « جندب » « Jonadab » أبنه : تبدى مع أبنائه ومن أتبعه ، وعاش عيشة تقشف وزهد وخشونة « Nazirite life » ، وأن نسلهم هاجر بعد خراب الهيكل الأول الى الحجاز حتى بلغوا خيبر ، فاستقروا بها ، واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب ، وأنهم أقاموا فيها قلاعاً وحصوناً تحميهم من غارات الأعراب عليهم . ذكر بعض الأخباريين أنها سبعة حصون ، منها : حصن ناعم ، والقموص حصن بن أبي الحقيق وهو أقواها وأعزها وقد أقيم على مرتفع من الأرض حماه وعزز دفاعه ، وحصن الشق ، وحصن النطاة ، وحصن السلالم ، وحصن الوطيح ، وحصن الكتيبة « الكتيبة » . وقد أخرجوا منها وأجلوا عنها في زمان عمر بن الخطاب[3] .

ويظهر أنه لم تكن لليهود جاليات كبيرة في جنوب المدينة حتى اليمن ، لعدم إشارة أهل الأخبار اليهم ، وإن كنت لا أستبعد وجود أفراد وأسر منهم في مكة وفي عدن وفي المدن التي اشتهرت بالتجارة كبعض موانيء البحر الأحمر وموانيء سواحل العربية الجنوبية

(١) المشرق : السنة السادسة والثلاثون ١٩٣٨ (ص ١٥٢ وما بعدها) .
(٢) الملوك الثاني : الإصحاح العاشر ، الآية ١٥ ــ ٢٨ ، Hastings, P. 784
(٣) البلدان (٣/٤٩٥ وما بعدها) ، Graetz, III, p. 56.

والشرقية . غير أن وجودهم في هذه المواضع ، لم يكن له أثر واضح مهم ، فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار .

ولم يعثر على دليل مكتوب في وجود جاليات كبيرة من يهود في مكة . وقد زعم بعض المستشرقين أنهم كانوا يسكنون هذه المدينة قبل الإسلام ، وأنه كان لهم أثر فيها قبيل الإسلام وعند ظهوره . وكتبوا في اليهودية فيها ، وفي أثر يهود في الرسول وفي الإسلام[1]. ومبعث هذه ، العاطفة والتعصب . أما الموارد التي استندوا اليها ، فهي روايات الأخباريين . وقد عرفنا في مواضع متعددة من هذا الكتاب قيمة أمثال هذه الروايات ومبلغها من الصحة ، وكيف أنها لا تستند في الأكثر الى سند صحيح . وأستناد أولئك النفر الى روايات أهل الأخبار في أمثال هذه الأمور ، ورفضهم لها وطعنهم فيها وتوجيههم لها نقداً لاذعاً ، في أمور أخرى : كل أولئك أدلة قواطع على « العاطفة » التي تجيش في صدور هؤلاء .

وزعم نفر من المستشرقين أن مملكة لحيان التي تحدثت عنها سابقاً هي يهودية ، أو هي متأثرة باليهودية الى حد كبير ، وحجتهم وجود بعض الخواص اللغوية المشتركة مثل « ها » أداة التعريف وبعض الأسماء الواردة في اللغتين . غير أن ما ذكروه من مشاركات، لا يمكن أن يدل على وجود أثر ما لليهودية بين اللحيانيين ؛ فان الكتابات اللحيانية تمجد أصناماً لحيانية ، وأسماء الملوك اللحيانيين هي أسماء وثنية لا صلة لها بأسماء العبرانيين . وليست بين أيدي القائلين بتهود اللحيانيين حجة يمكن أن تشير ولو إشارة بعيدة الى تهود هؤلاء[2] .

لقد كان اللحيانيون الأولون سكان ددان « ديدان » وثنيون ، ما في ذلك شك ،

---

(١) R. Dozy, Israelieten te Mekka, Haarlim 1864.

(٢) Margoliouth, p. 69.

تعبدوا للأوثان ، ومنها : « عجلبون Aglibon » الصنم المعروف عنـــد نبط « تدمر » « Palmyra » كذلك ، ثم الصنم « ذو غابة » وهو صـــنم رجال القوافل وأصحاب التجارات . ونجد أسميها فى الـكتابات التي عثر عليها فى هذا الموضع ، كما نجد المعابد الوثنية وفى بعضها بقايا النـــذور التى قدمت الى تلك الأصنام . وما عثر على بعض الـكتابات العبرانية يعود الى القرن الثالث للميلاد ، أي بعد تدهور حالة هذا الموضع السياسية وتغلب النبط عليه . وقد سـكن العبرانيون فيه كما سـكنوا فى مواضع من وادي القرى الى ظهور الإسلام [1] .

وقد ذهب بعض المستشرقين ، استناداً الى دراسـة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الإسـلام ، الى أن أولئك اليهود لم يكونوا يهوداً حقاً ، بل كانوا عرباً متهودين ، تهودوا بتأثير الدعاة اليهود [2] . ولـكن الاستدلال من دراسة الأسماء على أصول الناس ، لا يمكن أن يكون حجة للحكم على أصولهم وأجناسهم . فالفرس والروم والهنود وغيرهم ممن دخل فى الإسلام ، تسموا بأسماء عربية ، وبعضها أسماء عربية خالصة . وتسمياتهم هذه لا تعني أن من تسمى بها كان عربي الأصل . ثم إن كثيراً من اليهود في الغرب وفى أمريكة وفى البلاد العربية والاسلامية ، سموا أنفسهم بأسماء غير عبرانية ، ولـكنهم كانوا وما زالوا على دين يهود . فالأسمـاء وحدها لا تكفي وحدهـا فى اعطاء رأي علمي فى تعيين الاصول والأجناس ، ولا سيا فى المواضع الكائنة على طرق التجارة والمواصلات وفى الاماكن التي يكثر فيها الاختلاط .

وللمستشرق ونكلر رأي فى هـذا الموضوع ، خلاصته : أن أولئـك اليهود لو كانوا يهوداً حقاً هاجروا من فلسطين الى هذه المواضع ، لـكانت حالتهم وأوضـاعهم ومستواهم

---

(١) Werner Caskel, Das Altarabische Königreich Libyan, S. 19

(٢) Margoliouth, p. 61. f.

الاجتماعي على خلاف ما كان عليه هؤلاء اليهود . كانت حالتهم أرقى وأرفع من الحالة التي كانوا عليها ، إذ لا يعقل ، على رأيه ، وصول جماعة الى ذلك المستوى الاجتماعي الذي كان عليه يهود جزيرة العرب لو كانوا من بلاد مستواها الثقافي والمدني أرقى من مستوى من عاصروهم كثيراً في شؤون الحياة . ومستوى الحياة في جميع نواحيها ، في فلسطين ، أرقى وأرفع من مستواها في الأماكن التي وجد فيها اليهود من بلاد العرب . فهم على رأيه عرب متهودون ، لا يهود مهاجرون [1] .

غير أن هناك من يؤاخذ وينكر على هذا الرأي ؛ لأن رأيه لا يمكن أن ينطبق على من ترك دياره وهاجر ، واستقر في موطن جديد لأمد طويل ، لأن الأوضاع المحيطة بالوطن الجديد سرعان ما تؤثر في المهاجرين ، ولا سيما اذا كانوا جماعات صغيرة أو جماعات ليست ذات بأس شديد ، فتجعلها تنصاع للمحيط الذي نزلت له بعض الانصياع ، فتفقد بعض خصائصها ، لتكتسب خصائص المجتمع الجديد . ثم إن اليهود الذين نزلوا في الحجاز ، كانوا يختلفون مع ذلك عمن كان في جوارهم أو بينهم ؛ إذ كانوا يشتغلون بالزراعة ويتهنون بعض المهن التي يأنفها العربي الأصيل ، كما أنهم كانوا لا يرغبون في القتال ، ولا يميلون الى الغزو والحروب ، ولم يشتركوا إلا اضطراراً وإلا بالحاح المصالح الضرورية فيها ، وهم يختلفون في هذه الناحية عن الأعراب [2] .

ويلاحظ أن يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها ويحافظون عليها محافظة شديدة ، كما حافظوا عليها في الأقطار الأخرى . فأكثر أسماء القبائل والبطون والأشخاص ، هي أسماء عربية ؛ والشعر المنسوب الى شعراء منهم ، يحمل الطابع العربي ، والفكر العربي . وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية ، لم يكونوا يختلفون اختلافاً كبيراً عن العرب ، فهم في أكثر أمورهم كالعرب فيما سوى الدين [3] . ولعل هذا

(١) Winckler, Mett. Vor. Asai. Ges., VI, S. 222

(٢) Margoliouth, p. 62.

(٣) Noldeke, Beitrage, S. 55. ff.

بسبب تأثير العرب المتهودة عليهم ، وكثرتهم بالنسبة الى من كان من أصل يهودي ، مما سبب تأثيرهم ، وهم ذوو أكثرية ، فى اليهود الأصليين الذين أثروا فيهم فأدخلوهم فى دينهم ، فأثروا هم فيهم ، وطبعوهم بطابع عربي .

ومن الأسماء التي قد تكون من أصل عبراني « زعورا » وهو اسم عبراني متأثر بلهجة بني إرم ، و « يساف » وقد يكون من « يوسف » ، و « نبتل » وقد يكون من « نفتالي » « Naftali » ، وأسماء أخرى [١] لم تتمكن من المحافظة على أصلها العبراني ، فتأثرت بخواص اللسان العربي . وليس بين أسماء البطون اليهودية الأحد عشر ، التي كانت فى الحجاز فى أيام ظهور الإسلام ، اسم تظهر عليه الملامح العبرانية غير الاسم الذي ذكرته وهو « زعوراء » [٢] .

وقد عاش اليهود فى جزيرة العرب معيشة أهلها ، فلبسوا لباسهم ، وتصاهروا معهم ، فتزوج اليهود عربيات ، وتزوج العرب يهوديات . ولعل كون يهود من أصل عربي ، هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس . والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود عند ظهور الاسلام هو الاختلاف فى الدين . وقد تمتع اليهود بحرية واسعة ، لم يحصلوا عليها فى أي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها فى ذلك العهد [٣] .

ويظهر من القرآن الكريم أن اليهود كانوا متمسكين جداً بأحكام دينهم ، وأنهم كانوا يحاجون الرسول ويتباحثون فيما بينهم فى أحكام دينهم ، وأنهم كانت لهم بيوت العبادة ومدارس يتدارسون فيها الأحكام ويعلمون أبناءهم أحكام دينهم ، وأنه كانت لديهم

---

(١) Noldeke, S. 56. Islamic Culture, 1929, III, No. 2, P. 186.

(٢) Margoliouth P. 60, Nallino, Raccolta, III, P. 104, H. Hirschfeld, Essai Sur l'histoire des Juifs de Médine, in Revue des Etudes Juifs, X, 1885, PP. 11. f.

(٣) Graetz, III, P. 58 f. 60.

كتب يدرسون بها ، ومنهم من كان يعرف العبرانية ويتكلم بها ويحافظ عليها ويكتب بها النشرات والعوذ .

أما عند ظهور الإسلام وعند هجرة الرسول الى المدينة ، فقـد كانت يثرب فى أيدي أصحابها الأوس والخزرج ، لهم السيطرة والسلطان ، ولليهود آطامهم وتلاعهم فى خيبر وفى تيماء وفى بعض قرى وادي القرى وفى أعالي الحجاز ، يتاجرون ، ويزرعون ، ويقرضون الأموال بالربا الفاحش للأعراب ، ويحترفون بعض الحرف مثل الصياغـة ، وهي حرفة اشتهروا بها منذ القديم ، ويعقدون الأسواق ليقصدها الأعراب للامتيار .

ولـكن اليهود مع ما كان لهم من تلاع وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين لم يتمكنوا من بسـط نفوذهم وسـلطانهم على الأرضين التي أنشئوا مستوطناتهم فيها ، ولم يتمكنوا من إنشاء ممالك وحكومات يحكمها حكام يهود ، بل كانوا مستقلين فى حماية سادات القبائل ورؤسـائها ، يؤدون لهم إتاوة فى كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ومنع الأعراب من التعدي عليهم . وقد لجأوا الى عقد المحالفات معهم ، فكان لـكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين .

وكان جلّ اعتماد اليهود فى هذه المنطقة عند ظهور الإسلام على التجارة ، ومعاطاة الربا والزرع ، وبعض أنواع الصناعة : كالصياغة ، وتربية الماشية والدجاج ، وصيد الأسماك فى أعالي الحجاز على ساحل البحر الأحمر . وأشتهروا بالاتجـار بالبلح والبر والشعير والخمر ، وكانوا يجلبون الخمر من بلاد الشأم . وكانوا يبيعون بالرهن ، يرهن المشترون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهم ما يحتاجون اليه . وقد ورد أن الرسول رهن درعاً له عند يهودي من أهل يَـثْرِبَ فى مقابل شعير كان به حاجة شديدة اليه [1] .

ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود ، النسيج وهو من اختصاص نسـائهم على

---

(١) البخاري (٢/١٦ ، ٤٥) ، فتوح البلدان (٦٠) ، اليهود (ص ١٨) ،
Islamic culture, 1929, III, No. 2, 187.

الأكثر ، والصياغة وقد أختص بها بنو قينقاع ، والحدادة [1] وهي صناعة يأنف منها العرب ويزدرونها ويرونها من المهن المقوتة الحقيرة .

ولم يكن من مصلحة اليهود ، وهم أهل زرع وضرع ومال وتجارة وأرض ثابتة وقصور وآطام فى الأرضين التي حلّوا بها من جزيرة العرب ، أن يشتركوا فى الحروب أو يشجعوا وقوعها فى ديارهم وفى جوارهم ، بل كان من مصلحتهم أن يعمّ الاستقرار البلاد التي يقيمون فيها ، ليعيشوا عيشة هنيئة ، وليبيعوا ما عندهم من الأعراب وليشتروا منهم ما عندهم من سلع وليقبضوا أموالهم منهم والأرباح التي استحقت على تلك الأموال .

وفى النزاع الذي يقع بين القبائل ، لم يكن من مصلحتهم تأييد حزب على حزب ،خوفاً من الوقوع فى أخطاء تجر عليهم أخطاراً ومهالك هم فى غنى عنها وفى مأمن من شرها . ثم إنهم بتحزبهم لطرف يغضبون الطرف الآخر ، فيضمر عندئذ شراً لهم ، فيخسرون بذلك مشترياً وبائعاً ، وهم أناس أصحاب سوق وتجارة . غير أن الظروف كانت تكرههم فى بعض الأحيان على الاشتراك فى الحرب ، وعلى إثارة الحرب أيضاً متى وجدوا فى اثارتها فائدة لهم ومصلحة ترتجى كأن يَنْهكوا العدوّ بحرب مع عدوّ آخر بإيقاع الفتنة واشمال النيران ، كما أوقعوا بين الأوس والخزرج ، لإضعاف الطرفين معاً ، حتى لا تبقى لهم قوة تهددهم وتكون خطراً عليهم .

وفى يوم بعاث استمان الأوس ببني قريظة والنضير ، فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا اليهم يحذرونهم من سوء عاقبة الاشتراك فى هـــذا النزاع ، فتوقفوا غير أنهم عادوا ، فعاونوا الأوس ، وانضم اليهم بنو النبيت . فلما كسب الأوس الحرب ، كسب بنو قريظة والنضير والنبيت غنائم من الخزرج ، وخرجوا فى هذا اليوم منتصرين بأنتصار الأوس [2] .

---

(١) Islamic Culture, III, 2, P. 187. (1939).

(٢) ابن هشام (٣/٩٤) ، اليهود (ص ٦٢ وما بعدها) .

والموضع الثاني الذي عشّشت فيه اليهودية وباضت ، هو اليمن . ففي هذه الأرض من جزيرة العرب ظهر اليهود فيهـا ظهوراً واضحاً ، وصارت ديانة البلاد الرسميـة . أما كيفية مجيئها وانتشارها هنالك ، ومتى كان ذلك ، فليس لدينا معارف واضحة دقيقة عن ذلك . ويزعم أهل الأخبار أن تبعاً ، وهو التبع « تبان أسعد أبو كرب » ، اهتدى الى هذه الديانة عند اجتيازه بيثرب وهو عائد الى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي ايران ، وذلك بتأثير بعض الأحبار عليه ، ومنذ ذلك الحين صارت هذه الديانة ديانة رسمية للبلاد .

وتجعل بعض روايات الأخباريين اسم هذا التبع « تبع بن حسان » أو « حسّان » ، وهو « تبع الأصغر » ، أو « أبو كرب بن حسان بن أسـعد الحميري » أو غير ذلك . وتزعم أن حبرين من أحبار اليهود من بني قريظة عالمين راسخين في العلم ، هما اللذان هديا التبع الى اليهودية ، وأبعداه عن عبادة الأوثان (١) .

وقد يكون لهذه الروايات شيء من الصحة ، غير أني أرى أن دخول اليهودية الى اليمن مَرَدُّهُ أيضاً الى اتصال اليمن منذ عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشأم . وفي قصة سليمان وملكة سبأ إشارةٌ الى تلك الصلات ، والى هجرة جماعات من اليهود الى هذا القطر عن طريق الحجاز ، بعوامل متعددة ، منها : التجارة والهجرة الى الخارج . ليس بسبب احتلال الرومان لفلسطين فقط ، بل بسبب تنازع اليهود أنفسهم فيما بينهم ، وطلبهم الرزق والمعاش في الخارج أيضاً . وقد جرت عادة المؤرخين نسبة هجرة اليهود الى خارج فلسطين الى هدم الهيكل في أيام « طيطس » والى احتلال « هدريان » فقط . وهنا خطأ ؛ لأن هجرة اليهود الى الخارج كانت معروفة قبل هذا العهد بأمد طويل ، ثم إن اليهود وجدوا في الخارج

---

(١) الطبري (٩٠١/١ وما بعـدها) « طبعة ليدن » ، الأغاني (١٠٩/١ وما بعدها) ، Caussin de Percevol, Essai, 1, 91. ff., Nallino, Raccolta, ، (١٢٠/١٣ وما بعدها) III, PP. 88.

مجالا للمعيشة والرزق أوسع جـداً من مجالهم في فلسطين . ولهذا رأينا أكثر اليهود الذين نقلهم بخت نصر معه الى بابل قد فضلوا البقاء في أرض بابل على العودة الى الديار التي عاشوا فيها ، بالرغم من النداءات والالتماسات التي وجهها اليهم أنبياؤهم وزعماؤهم للعودة الى القدس .

وقد تحدثت في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب عن ارسال القيصر « أغسطس » قائده « أوليوس غالوس » لاحتلال العربيـــة السعيدة . وقد ذكر المؤرخ اليهودي « يوسفوس » أن « هيرود » أرسـل خمس مئة رجل من حرسـه الخاص الى القيصر ، ليأمر بارسالهم مع القـائد الى العربية السعيدة ، وأنهم كانوا عوناً حسناً للقـائد في حملته تلك . ولـكن ، هل بقي أحد من هؤلاء الرجال الذين أرسـلهم ملـكهم لمساعدة القيصر في اليمن ، أو عادوا في جملة من عاد من رجال هذه الحملة الخاسرة التي أتت على رجالها أكثر الأمراض .

وقد أشار حبر يسمى « رباي عاقبة Rabbi Aqiba » ، في حوالي سنة « ١٣٠ م » ، الى زيارته لملك عربي كوشي كانت زوجته كوشية كذلك ، والى تحدثه معــــه . ويراد بـ « كوش » الأحباش غير أن بعضهم كان يقصد بها العربية الجنوبية كذلك . ولا يستبعد أن يكون مراد الحبر بذلك اليمن ، أو منطقة أخرى من العربية الجنوبية [١] . غير أننـا لا نعرف الدوافع التي حملته على القيام بهذه الزيارة ، هل ذهب الى هنـاك لزيارة جماعـة من أبناء دينه كانوا قد استقروا في تلك البلاد ، أو ذهب لمجرد السياحة والاطلاع ؟ .

واستدل بعض المستشرقين بنص دونه « شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد » على سدّ مأرب ، وردت فيه جملة « بعل سمين وأرضن » ، أي « رب السماء والأرض » على تهوده بحجة أن هذه العبارة تشير الى التوحيد الخالص ، والتوحيد الخالص هو عقيدة يهود . غير أن هذه الجملة وان كان فيها اعتراف بالتوحيد ، لا تحتم أن لصاحبها دخل لليهودية . ثم إن كلمة

---

(١) Islamic Culture, III, 2, p. 190 (1929), Josephus, Antiquitate, XV, 3, 29.

« بعل » من المصطلحات التي لا يمكن أن يستعملها يهودي أبداً ؛ لأنها من مصطلحات الوثنيين . وقد كانت في اليمن وفى أماكن أخرى من جزيرة العرب والعالم ديانات تعترف بالتوحيد ، وهي مع ذلك ليست يهودية ولا نصرانية . وهذه الديانة التي تدين بـ « بعل سمين وأرضن » ، قد تكون من ديانات التوحيد ، ولكنها لم تكن يهودية ولا نصرانية [1]، كما أن عبادة الرحمان ، وهي عبادة أنتشرت بعد الميلاد فى اليمن ، هي ديانة توحيد . غير أنها لم تكن يهودية ولا نصرانية ، ولكن ديانة مستقلة أخرى قد تكون نتجت من دخول اليهودية أو النصرانية اليمن ؛ غير أننا لا نتمكن فى الزمن الحاضر من اعطاء رأي علمي عن أثر الديانتين فيها حتى نقف على نصوص كتابية ، تشير صراحة الى وجود أثر لهاتين الديانتين فى ديانة عبادة الرحمان .

وللمستشرقين كلام فى أصل يهود اليمن ، ومبلغ خلوص دمهم . ولا أظن أن فى الامكان فى الزمن الحاضر البت فى ذلك ، والاتجاه الغالب أن أكثر يهود اليمن هم من أصل عربي . ومَرَدُّ قسم كبير من جهلنا بأحوال يهود اليمن ، بالقياس الى معارفنا عن يهود الحجاز . الى فتح الحبش للعربية الجنوبيه الغربية . فقد أخذ هذا الفتح أنفاسهم ، واُضطر قسماً منهم ، ولا شك ، الى الفرار من اليمن الى الخارج . وأظن أن كثيراً منهم فرّوا الى الحجاز ، الى منطقة يثرب حيث إخوانهم فى الدين . ومن هنا على ما أعتقد كان ما ذهب اليه أهل الأخبار عن بعض قبائل يثرب ، من أن منها من كان من قبائل يرجع نسبها الى اليمن . وقد دخل قسم منهم ، ممن فضلوا البقاء فى اليمن ، فى النصرانية ، خوفاً ومحافظة على الأنفس والمال . ولما طرد الحبش من اليمن ، لم يكن أمام اليهود متسع من الوقت لاستعادة مركزهم السابق ، ولهذا عندما ظهر الإسلام ، ودخل أهل اليمن فيه ، لم نجد لهم ذكراً وشأناً ومعارضة له ، كما كان أمر يهود يثرب وشمال الحجاز مع الرسول .

---

(١) Islamic culture, 1929, III, 2, P. 191, Margoliouth, Relations, P. 68.

وللمستشرقين كلام أيضاً في مدى نفوذ اليهودية في اليمن ، وفي ظهور دولة لهم في ذلك القطر . فمنهم من زعم أن اليهود كوّنوا مملكة في القرن الأول قبل الميلاد ، ومنهم من زعم أن تلك الدولة ظهرت بعد القرن الثاني للميلاد ، ومنهم من جعلها في نهاية القرن الخامس للميلاد [١] ، وكل آرائهم هذه في تلك الدولة مبنية على الحدس والظن . وأستند بعضهم الى روايات أهل الأخبار عن التبع « تبان أسعد » والى ما رووه من تعذيب « ذي نُواس » للنصارى وتنكيله بهم ، وهو من يهود . ورأيي في أمثال هذه النظريات ، مفهوم واضح ؛ إذ قلت مراراً إن ابداء أحكام في أمور كهذه بغير استناد الى سند كتابي ودليل آثاري ، شيء غير ممكن ، وأن أكثر روايات أهل الأخبار لا تصلح أن تكون حجة أبداً ؛ لأنها قائمة في الغالب على أوهام وأساطير ولا سيما في الحوادث البعيدة عن الإسلام ، وإن كان بعضها قائماً على واقع من التأريخ ، غير أن بُعد زمن الحادث ، وعدم اعتماد الناس على التدوين ، جعلهم يتخبطون فيه ، ويمزجون الظن والخيال به حتى تغلب على الواقع ، ولا سيما بعد ان صارت تجارة الحكاية عن الماضين تجارة نافقة رابحة بعد أيام الجاهلية ، ، وصارت لهذه البضاعة أسواق ، وظهر لها طلاب ومشترون ، ففتش تجارها على هذه البضاعة ، فإن عجزوا عن ادراكها والعثور عليها ، عمدوا الى خبرتهم ودرايتهم ، لتجد لهم المادة المطلوبة والسلعة المرغوب فيها . وفي هذا المجال كان هشام بن الكلبي وأبوه سيّدَيْ أولئك التجار . وقد كان يأخذ من الشيبة ومن النصارى واليهود ، أو يدعي أنه يأخذ منهم ، كما ادعى أنه أخذ من أديرة النصارى . ومن هنا اختلط الحق عنده بالباطل ، واتصف بالكذب . فعلينا الآن واجب التميز بين ما ترك لنا من بضاعة وتراث كبير من الأخبار ، لمعرفة الصحيح منها من المغشوش المصنوع .

وقد فسر بعض المستشرقين دخول التبابعة في اليهودية ، وجعلهم اياها ديانة للدولة ، بأن

---

(١) اليهود (ص ٣٧ وما بعدها) .

أولئك التبابعة كانت بهم حاجة شديدة الى مساندة حزب قوي لهم فى تنظيم أمور الدولة الداخلية ولا سيما الأحوال المالية فيها ، ولم يكن لهم من يساعدهم فى هذا المضمار غير اليهود . أما النصارى ، فلم يكن ليوثق بهم ، ولا يعتمد عليهم ؛ لأنهم على اتصال بالروم وبالحبش إخوانهم فى الدين . وأما رجال الدين الوثنيون ، فقد كانوا طائعين للدولة سائرين على نهجم القديم . ولهذا لم يكن من يصلح لهذه المهمة غير اليهود ، فعهدوا اليهم الإشراف على شؤونهم المالية . وبلغ تأثير هؤلاء اليهود على التبابعة حداً جعلهم يدخلون فى ديانتهم ويؤمنون بما كانوا يؤمنون به [١] .

وليس للقائلين بهذا الرأي سند تأريخي يعتمدون عليه فى اثبات رأيهم هذا ، وكل ما عندهم هو فرض وتخمين ، أخذوه من اشتهار اليهود بتنظيم أمور المال والاشراف على الصيرفة وادارة المصارف « البنوك » ، ومن أستعانة الملوك بهم فى القديم لتنظيم موازناتهم المالية . ونتائج تبنى على قياس كهذا القياس ، لا يقام لأحكامها وزن .

وليس من السهل تصور انصياع سياسة الدولة وملوكها لأناس ليس من شأنهم ووظائفهم إلا تحصيل المال وجمعه للحكومة . نعم ، يكون لهم نفوذ وأمر ، ولكنّ النفوذ شيء ، وادخال الملك وحاشيته فى دين ما ، ثم جعل ذلك الدين ديناً رسمياً للدولة ، شيء آخر لا صلة له بإقناع القوم للعمل على تجميع المال [٢] .

نعم ، إن وجود اليهودية بين الحميريين أمر مقرر لاشك فيه . ورد ذلك فى الأخبار النصرانية وفى الأخبار الاسـلامية . ذكر المؤرخ النصراني « فيلوستورجيوس Philostorgius » فى حوالي سنة ٤٢٥ م أن أهل سبأ كانوا يتبعون فى « السبت » سنّة ابراهيم ، ولكنه ذكر أيضاً أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر ومعبودات أخرى ، وأن بعضاً منهم كان

(١) Margoliouth, P 62, Hartmann, Die Arabische Frage, S. 45.

(٢) Margoliouth, P. 62

على دين يهود ، وأنه قاوم رسالة « ثيوفيلس Theophilus » الذي أرسله القيصر قسطنطين (٣٤٠-٣٦١ م) للتبشير بين الحميريين . وذكر المؤرخ «ثيودورلكتور Theodorus Lector» ، وهو من رجال النصف الأول للقرن السادس للميلاد ، أن الحميريين كانوا فى بادىء أمرهم على دين يهود ، دخلوا فيه فى أيام ملكة سبأ المعروفة بقصتها مع سليمان ، بدعوتها إياهم الى هذا الدين . ولكنهم كما يقول هذا المؤرخ عادوا فارتدوا الى الوثنية ، ثم دخلوا بعدئذ فى النصرانية فى أيام القيصر « أنسطاس Anastasius » ٤٩١ - ٥١٨ م . ولم يشر هذا المؤرخ الى وجود اليهودية بين الحميريين ، كما أنه لم يشر ولا المؤرخ الآخر الى تهود أحد من ملوك حمير . ولاهماله الاشارة إلى تهود التبابعة شأن بالطبع [١] .

ولهذا لا استطيع أن أتحدث عن دولة يهودية قامت فى اليمن فى أي عصر كان من العصور ، لا قبل الميلاد ولا بعده ، ولا عن ملك حكم البلاد كلها . وكل ما أستطيع أن أتصوره هو أن قيلاً أو أقيالاً دخلوا فى تلك الديانة ليس غير .

أما قضية تعذيب نصارى نجران ، فليس من الضروري أن يكون تبع اليمن أو القيل الذي عذب النصارى يهودياً ؛ فقد يجوز ، وهو الغالب فى نظري ، أن يكون وثنياً قام بتعذيبهم واُضطهادهم لأسباب سياسية [٢] ، فقد كان الأحباش ، وهم نصارى ، طامعين فى الاُستيلاء على اليمن ، وقد اُستولوا عليها سابقاً . وكان الروم يشجعونهم ويحرضونهم على الفتح للمكاسب التي سيحصلون عليها ، إنْ فتح الأحباش اليمن ، ودخلت البلاد فى النصرانية . وفى هذا الفتح اُنتصارٌ كبير لسياسة الروم على الفرس ، واُنتصار لتجارة الروم البحرية ، وهي تجارة نافقة رابحة ، تمر من مضيق باب المندب . وقد كان ساحله الشرقي فى أيدي الحميريين . وأنا لا أستبعد أن يكون أغنياء اليهود وبعض الأقيال المتهودين هم الذين

---

(١) Margoliouth, P. 62. f., Migne, Patrologia Graeca, XXXV, P. 211, Islamic Cultur, 1929, III, 2, P. 190. f, Philostorgius, Hist, Eccl., III, 5.

(٢) Islamic Culture, 1929, III, 2, P 198

حرضوا تبّعاً على اضطهاد النصرانية ومقاومتّها ، بحجة أنها ديانة الروم والحبش ، وأن النصارى اخوانهم فى هذا الدين ، وأنهم يميلون اليهم . ويعاونونهم ويتراسلون معهم سراً ، وأنهم يرغبون فى دخول النصرانية الى اليمن وفى اُستيلاء الحبش عليها ، ليكون لدينهم الاستعلاء على هذه الأرضين . فهم من هذه الناحية عنصر خطر ، وقوم هدّامون يريدون هدم المملكة وقلب أوضاعها وتغيير دينها وتراثها الى أمثال ذلك . وهذا مما هاج تبّعاً ، وحمله على تعذيب نصارى مملكته ، وحملهم بالقوة على تغيير دينهم . ولهذا التفسير سند قوي من القرآن ، هو ما جاء فى سورة (البروج) عن أصحاب الأخدود : « قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (١) .

أما الذي حمل اليهود على تحريض حاكم اليمن ، أو قَيْل نجران ، على تعذيب النصارى واُضطهادهم ، فهو غضبهم على الروم حماة النصرانية ، لاُضطهادهم يهود بلادهم ، واُتباعهم سياسة معادية لليهود : سياسة نستطيع أن نسمها بالسمة المعروفة في أيامنا ، وهي « الحركة اللاسامية » المناهضة لليهود . فتحريض اليهود على اضطهاد النصرانية والقضاء عليها ، هو إذن عمل انتقامي يَغيض اخوان نصارى اليمن فى الخارج ، ويجبرهم على التفكير فى تغيير سياستهم تجاه اليهود ، وهو فوق ذلك تشفٍّ من طائفة قام إخوانها في الدين بتعذيب إخوانهم فى الدين . ثم إن هؤلاء أنفسهم ، فى نظرهم ، من المعادين لليهود ، فوجودهم فى اليمن ، وانتشار النصرانية فيها ، يهددان مصالح اليهودية فيها ، ويقضي عليها . ففعلوا ما فعلوه فيما بعد بالنسبة الى الرسول بعد هجرته ليثرب ، وادراكهم ما سيحل بهم ان إنتشر الإسلام ، فأعلنوا حرباً عليه : بألسنتهم ، وبتحريض قريش ، وبإرسال أخباره اليها ، وبإثارة القبائل لمهاجمة الرسول ومدينته . فلما لم يرتدعوا عن عملهم ، ولم يأخذوا بنصح الرسول لهم ، أدبهم

---

(١) الآية الرابعة وما بعدها .

بالقوة . ثم لم يتوبوا ، حتى آل الأمر الى اخراجهم من ديارهم فى أيام عمر اُضطراراً ، لحماية الإسلام من خطر الفتنة والهدم .

وقد تحدثت آنفاً عن تعذيب نصارى نجران ، وأشرت الى رسالة شمعون الأُرشامي ، وهو من بيت أرشام « بيت أرشم » التي أرسلها من الحيرة الى رئيس دير « جابولا » في ضواحي حلب : يخبره فيها بما سمعه عن حادث التعذيب من رسول صادف أن أتى من ملك حمير الى المنذر ملك الحيرة يحمل اليه رسالة تبع فى النصارى ، وهو يرجو فيها أن يفعل فى نصارى مملكته ما فعله هو فى نصارى قومه ، وأن يسعى فى تحويلهم عن النصرانية ومنعهم عن تقديس الصليب . وهي رسالة نشرت وطبعت فى روما سنة ١٨٨١ م وطبعت فى سنة ١٨٩٠ م في ضمن « أخبار الشهداء والقديسين » ، ونقلت من السريانية الى العربية ، وطبعت في مجلة المشرق (١) .

يذكر شمعون أنه خرج من الحيرة برفقة القسيس « مار ابراهيم بن أوفروس » الذي أوفده القيصر يوسطنيان الى المنذر ملك الحيرة للتوسط عنده بعقد صلح بينه وبين الروم ، وذلك فى ٢٠ كانون الثاني من سنة ٨٣٥ من تأريخ الاسكندر المصادف سنة ٥٢٤ للميلاد حتى إذا بلغا موضع الرملة ، وجدا المنذر هنـاك ، ووجدا قومه « العرب الوثنيين والمعدّيين » فى سَوْرة غضب على النصارى ، ووجدا رسولاً كان قد جاء من اليمن الى المنذر يحمل رسالة ملك حمير فيما فعله فى نصارى قومه وفى تنكيله بهم . وقد تحدث اليهما بنطرسة وخيـلاء ، وأخبرهما بتبجح عما صنعه ملك حمير فى النصارى وكيف استولى على نجران وذبح عـدداً كبيراً منهم . وهي لذلك رسـالة مهمة فى وصف هذا الحادث أخذت من فم شاهد عيان ، غير أن فيها مجالاً ولسماً للنقد ، ومواضع يجب أن نتلقاها بحذر شديد .

---

(١) المشرق : السـنة الحادية والثلاثون ، أيار ١٩٣٣ (الصفحـة ٣٢١ وما بعدها) ، المطبعة الـكاثوليكية ، بيروت .

أثارت رسالة ملك حمير الى المنذر امتعاضاً كبيراً في نفوس نصارى قومه . وقد همّ الملك نفسه كما يدعى شمعون بأتباع ما فعله ملك حمير ، غير أن قائداً من قواد جيشه ، وكان نصرانياً ، قام فامتشق حسامه ، وأعلن أمام المنذر أنه إن فعل ذلك فلن يسكت ، وأنه سيبذل نفسه فى سبيل دينه ومعتقده . فلما رأى الملك ذلك منه ، لم يفعل شيئاً احتراماً لمنزلته عنده .

وغرض شمعون من كتابة رسالته هذه وتوجيهها الى الأسقف ، هو وقوف الأساقفة عليها ، ليبلغوها رئيس أساقفة الاسكندرية ، ليكتب الى النجاشي بنجدة الحميريين وارسال جيوشه الى اليمن ، وليطلع عليها أساقفة انطاكية وطرسوس قيليقية وقيصرية قفدوقية والرها وبقية المدن ويذيعوا ما فيها فى أتباعهم ليتخذوا موقفاً موحداً فى مساعدة اخوانهم في الدين ، وليعلموا بما حلّ بهم فى اليمن من فتنة يهود وتحريضها .

وقد اختتمت الرسالة بهذه الجمل : « أما أساقفة المدن الرومانية كلها الأولون والآخرون ، فيؤجرون لليهود بيوت الكنائس ومحلات عظام الشهداء ، فيهدمونها تحت الصليب ، طمعاً فى نيلهم قيراطاً من المال ينتفعون به . وإن اليهود الكائنين فى طبرية يرسلون سنة فسنة ووقتاً فآخر كهنة منهم الى هناك لإثارة السجس بين نصارى الحميريين . فلو كان الأساقفة نصارى وليسوا بشركاء لليهود ، ويودّون أن تستقيم النصرانية ، لرغبوا الى الملك وعظمائه ، ليولوا القبض على رؤساء كهنة طبرية وبقية المدن ، ويلقوهم فى السجن . ولا نقول هذا لنجازي سيئة بسيئة ، بل ليتوثقوا منهم بكفلاء حتى لا يعودوا يرسلون رسائل وأشخاصاً وجيهين الى ملك الحميريين ، فيصب صاعقة الأرزاء على شعب المسيح فى حمير ، مثلما كل ما تقدم لنا ذكره من ضروب الشرور والأسواء ، ويهدّدونهم بحرق مجامعهم وكنيسهم إن لم يقوموا بهذا الأمر ، بل يتوعدونهم بالطرد من تحت الصليب واستيلاء النصارى عليهم ، حتى إذا بلغ ذلك مسمع ملك الحميريين تأخذه الشفقة على رفاقه

اليهود ، فيكف عن اضطهاد النصارى »[1] .

ويفهم من هذه الجمل أن يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين ، بل إنهم كانوا على اتصال بهم ، وأن أحبار طبرية كانوا يرسلون رجالا منهم الى اليمن ومعهم أموال ووجوه الى يهودها وملكها وكبارها للتأثير فيهم ولتوثيق صلاتهم وروابطهم بهم . وقد نسب شمعون حادث تعذيب نصارى نجران الى أحبار طبرية ، فطالب الأساقفة أن يحرضوا الحكومة والنصارى على الضغط على يهود فلسطين وعلى طبرية خاصة ، ليكتبوا الى يهود حمير بالكف عن التحرش بنصارى اليمن ، وعن تهديدهم بانزال العقوبات بهم انتقاماً منهم إن لم يسدوا لهم النصح .

وقد عثر فى اليمن على نص مكتوب بالمسند ، وردت فيه كلمة « يسرائيل » و « رب يهود » . ويدل هذا على أن صاحبه كان على دين يهود . عثر عليه المستشرق كلاسر ، ونشره المستشرق ونكلر ، وهذا هو : « تبرك سم رحمنن ذ بسمين ويسرال والههمو رب يهود . ذ هرد عبدهمو وشحرم وامهو بم (؟) وحشكتهو شمسم واولدهمو ذمم (؟) وابشمر ومار وكل ابهه »[2] .

وأما كتابته بلهجتنا ، فعلى هذا المنوال : « تبارك اسم الرحمان الذي فى السماء واسرائيل والهه رب يهود الذي ساعد عبده شحراً وأمه بم (؟) وزوجته شمساً وأولاده ذمم (؟) وابشمر ومثاراً وكل أهله « بيته » »[3] .

غير أن من الباحثين من يشك فى صحة نقل هذا النص نقلا صحيحاً تاماً ، ولم يتأكد من صحة نقل كلمة « اسرائيل » ، ثم إن الإشارة فى هذا النص الى « الرحمن » تشير الى

(١) هذه ترجمة حرفية نقلتها من مجلة المشرق : السنة الحادية والثلاثون ، حزيران ١٩٣٣ (ص ٤١٦ وما بعدها) .

(٢) Glaser, 394 - 395, Revue des Études Juives, 1891, Vol., 23, P. 122, Winckler, AOF, I, S. 337.

(٣) Winckler, AOF, I, S. 337

عبادة إلّـه هو غير إلّـه اسـرائيل ، عبادة مستقلة ظهرت فى اليمن وكان لهـا أتباع ، كما أن الأسماء الواردة فى هـذا النص لا تشير الى يهودية أصحابها ، ولهـذا لم يروا الاستعجال فى الحكم على ديانة صاحب هذه الكتابة [1] .

وقد ورد فى أخبار الشهداء الحميريين : أن أحباراً من فلسطين من « طبريا Tiberias » ، كانوا قد جاؤوا إخوانهم فى الدين يهود اليمن وسكنوا معهم [2] . واذا صح هذا الخبر ، دلّ على اتصال يهود العربية الجنوبية باخوانهم فى فلسطين .

واليهودية وان ضعفت فى اليمن بدخول الحبشة فيها ، بقيت مع ذلك محافظة على كيانها ، فلم تنهزم ، ولم تجتث من أصولها ، وبقيت قائمة فى هـذه البلاد فى الإسلام كذلك فلم يجل أهلها عنها كما أجلي أهل خيبر ، وظلت بقيتهم هناك الى سُفنيّات قريبة حيث غادروها على أثر حوادث فلسطين .

واللغة التي كان يتكلم بها اليهود ، هي اللهجات العربية التي كان يتكلم بها أهل المناطق التي ينزلونها . ولتكلم اليهود فى كل قطر يحلّون فيه بشيء من الرطانة ، لا يستبعد أن تكون لغتهم العربية التي كانوا يتكلمون بها عربية تشوبها الرطانة العبرانية [3] . ولكن هـذا لا يمنع من وجود أناس فيما بينهم كانوا يتكلمون ويكتبون بالعبرانية ، ولا سيما أنهم كانوا يستعملون العبرية فى دراسة أمورهم الدينية وفى كتابة النشرات والتعاويذ ، كما كانوا يستعملونها فى السحر . وقد وردت اشارات الى ذلك فى كتب الحديث .

ويروي رواة الشعر شعراً جاهلياً زعموا أن قائليه هم من يهود . وأكثره أبيات لشعراء لا نعرف من أمرهم شيئاً ، لعلها بقايا قصائد . أما القصائد ، فينسب أكثرها الى السموأل

---

(١) Margoliouth, P 68 (٢) Islamic Culture, 1926, III, 2, P 198

(٣) Nallino, Raccolta, III P 105

ابن عادياء صاحب حصن الأبلق فى تيماء ، وصاحب قصة الوفاء المشهورة [1] . وهذا الشعر المنسوب الى اليهود ، لا يختلف فى طريقة نظمه وفى تراكيبه ونسقه عن شعر الشعراء الجاهليين الوثنيين ، ولا نكاد نلمس فيه أثراً لليهودية ولا للعبرانية . فألفاظه عربية صافية نقية مثل الفاظ أهل الجاهلية ، وافكاره على نمط أفكار الجاهليين . ويصعب أن نجد فيه أثراً للتوراة والتلمود ، مما يحملنا على التفكير فى صحة هذا الشعر وفى درجة تعمق صاحبه وتفهمه لدين يهود .

ومن الشعراء اليهود الذين روى الأخباريون شيئاً من شعرهم : السموأل بن عادياء ، وأوس بن دنى وهو من بني قريظة [2] ، وكعب بن سعد القرظي ، وسارة القريظية [3] ، و « سعية بن غريض بن عادياء » [4] ، و « الربيع بن أبي الحقيق » (وهو من بني قريظة على رأي ، ومن بني النضير على رأي آخر ، وكان ممن اشتركوا فى يوم بعاث ، وقد ناصب أولاده العداء للرسول) ، وأبو الديال « أبو الزناد » وله شعر فى رثاء يهود تيماء الذين أجلاهم الرسول ، و « شريح بن عمران » وقد أورد له البحتري فى الحماسة بضعة أبيات ، وكعب بن الأشرف وهو ممن عاصر الرسول وممن ناصبه العداء ، وأبو رافع اليهودي .

وروي أن جعفر بن محمد الطيلسي جمع أشعار اليهود فى ديوان ، ويظهر أنه أخذ ذلك من كتاب للسكري . ويقال إن الموفق بالله أخا الخليفة المعتمد العباسي طلب من الوزير اسماعيل بن بلبل أن يقدم اليه ديواناً فى شعر اليهود ، فطلب الوزير من العالم اللغوي الأديب « المبرّد » أن يقدم اليه ديواناً فى شعر يهود ، فأخبره المبرد أنه لا يعرف شعراً ليهود .

---

(١) الأغاني (١٩/٩٥ وما بعدها) ، اليهود (ص ٢٣) .

(٢) الأغاني (١٩/٩٤) « أخبار أوس ونسب اليهود النازلين بيثرب وأخبارهم » ، « السموأل بن حيان بن عادياء » ، الميداني : الأمثال (٢/٢٧٦) ، السموأل بن أوفي بن عادياء » ، المشرق السنة الثانية عشرة (١٩٠٩) ، (ص ١٦٢) .

(٣) Margoliouth, p. 76.

(٤) الأغاني (١٩/١٠٠) .

فطلب الوزير من العالم « ثعلب » أن يقدم اليه ما عنـده من شعر لليهود ، فأجابه أن لديه ديواناً من شعرهم ، فقدمه اليه [1] .

وقد كانت بين المبرد وثعلب خصومة شديدة ومنافسة عنيفة ، فلعل هذا الخبر هو من مرويات الجماعة المتعصبة لأحد الطرفين فى الطعن فى أحدهما والحطّ من شأنه ، فقد تحزب طلاب العلم وانقسموا جماعتين ، كل جماعـة كانت تنتصر لصاحبها ؛ اذ لا يعقل ألا يكون للمبرد علم بشعر لليهود ، وقد ذكر من سبقه مثل أبي تمام فى حماسته والجمحي فى طبقـات الشعراء كما ورد فى الأصميات شعراً لهم [2] ، كما أن فى كتابه الـكامل نتفاً من شعرهم ، أو لعلّ إنكاره لشعرهم بمعنى أن أكثر ما نسب اليهم من شعر هو فى نظره مزيف مصنوع ، ولهذا لم يُعْـنَ بجمع ما ورد عنهم [3] .

والمبرد من الحذاق فى الشعر العارفين به ، نجد في كتابه « الـكامل » آراء قيمـة في الشعر والنثر . يذكر الأبيات وأصحابها ، ثم يشير الى الروايات التي روت عنها والتي تنسبها الى أشخاص آخرين [4] . وقد كان من كبـار الأدباء ، ومن الحاذقين في نظم الشـعر ، حتى ليقال إنه كان ينظم الأبيات ويصنعها على ألسنة الأعراب والشعراء الماضين ليوردها شواهد لمسائل لغوية معضلة ، وحين يُسأل عن أمور مشكلة محرجة يرى أن مما يغض من شأنه ومن مقدرته ألاّ يجيب عنها ، زعموا أنه ورد الدينور « زائراً لعيسى بن ماهان ، فأول ما دخل عليه وقضى سلامه ، قال له عيسى : أيها الشيخ ما الشاة المجثمة التي نهى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عن أكل لحمها ؟ فقال : هي الشاة القليلة اللبن مثل اللجبة . فقـال : هل من شاهد ؟ قال : نعم ، قول الراجز :

لم يبق من آل الحميد نَسَمَهْ   إلا عنيز لجبـــة مجثّمة

---

(١) Margoliouth, P. 75.

(٢) طبقات الشعراء للجمحي (ص ٧٠ وما بعدها) .

(٣) Margoliouth, p 74

(٤) الـكامل (١/٦٦) « القاهرة ١٩٣٦ م » .

فإذا الحاجب يستأذن لأبي حنيفة الدينوري . فلما دخـــل ، قال له : أيها الشيخ ، ما الشاة المجثمة التي نهينا عن أكل لحمها ؟ فقال : هي التي جثمت على ركبها وذبحت من خلف قفاهـا . فقـال : كيف تقول ، وهذا شيخ أهل العراق - يعني أبا العبّاس المبرّد - يقول : هي مثل الاجبة ، وهي القليلة اللبن ؟ وأنشده البيتين . فقـال أبو حنيفة : أيمـان البيعة تلزم أبا حنيفة إن كان هذا التفسير سمعه هذا الشيخ أو قرأه ، وإن كان البيتـان إلا لساعتها هذه . فقال : صدق الشيخ أبو حنيفة ، فإنني أنفت أن أرِدَ عليـك من العراق وذكري ما قد شاع ، فأول ما تسألني عنه لا أعرفه »[1] .

وأنا لا أستبعد أن تكون هـذه القصة من وضع خصوم المبرد ، وضعوهـا كما وضعوا أشياء أخرى عليه للطعن فيه . غير أن هذا لا يعني نفي وقوع الصنع والافتعال . فالأمثال الواردة فى الكتب والحوادث العديدة المروية ، لا تترك مجالاً لهذا النفي .

والشعراء اليهود الذين ذكرهم الجمحي في كتابه « طبقات الشعراء » هم : السموأل بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقيق وهو من بني النضير ، وكعب بن الأشرف ، وشريح بن عمران ، وشعبة بن غريض ، وأبو قيس بن رفاعة ، وأبو الذيّال ، ودرهم بن زيد . وقد ذكر لهم أبياتاً مما قالوه من الشعر[2] .

والسموأل ، وهو من سادات يهود الحجاز ومن أثريائهم وملاكهم ، شاعر كذلك ؛ بل هو أحسن شعراء اليهود الجاهليين حظاً فى الخلود . بقيت أشعاره ، وحفظت قصائده ، ولم يبخل علماء الشعر عليه ، فجمعوا شعره فى ديوان . ولم يشأ الزمان أن يبخل عليـــه ، فهيأ له من طبعه . ولا تزال تلك القصة قصته مع مخلفات أمرىء القيس مضرب الأمثال . وصير هذا الشاعر الملاك المرابي مثلاً وقدوة للأوفياء ، فضرب به المثل ، وقيل : « أوفى

---

(١) ارشاد الأريب (١/١٢٦) « أحمد بن داوود أبو حنيفة الدينوري » .

(٢) (ص ٧٠ وما بعدها) .

من السموأل » ، ولعل القصيدة المبتدئة بهذه الأبيات :

وفيت بأدرع الكندي ، إنني إذا ما ذمّ أقوام وفيت

وأوصى عاديا يوماً بألاّ تهدمَ يا سموأل ما بنيت

بنى لي عادياً حصناً حصيناً وماء كلما شئت أستقيت ،

هي التي خلدت هذه القصة ، وصيرت لها فروعاً وذيولاً ، وهي قصة تجعل الكندي المقصود بها الشاعر الشهير أمرأ القيس ، وهي التي خلدت أسم صاحب ذلك الحصن .

ونجد هذه القصة فى قصيدة للأعشى ، يقال إنه قالها مستجيراً بأبن السموأل شريح ، ليفكه من أسره ، وكان قد وقع أسيراً فى يد رجل كلبي كان الأعشى قد هجاه ، ثم ظفر به الكلبي ، فأسره وهو لايعرفه ، فنزل بشريح بن السموأل ، وأحسن ضيافته . فلما مرّ بالأسرى ، قال الأعشى أبياتاً يمدحه فيها ، ويمدح أباه ، ويذكر كيف أن أباه أختار أدراع الكندي ، وأبى إلا أن يسلمها الى آله وذويه ، على أن يسلمها الى آسري أبنه اذا أطلقوه . وهي أبيات نجته من أسر الكلبي ، ففرّ منه بعد أن وهبه لشريح وهو لايعرف به . فلما عرف به ، ندم . ولكن ندمه هذا لم يفده شيئاً لأنه جاء بعد فوات الوقت [1] .

ويروي الأخباريون ورواة الشعر أشعاراً أخرى للأعشى قالها في مدح السموأل وفى وصف حصنه وفى سرد قصة وفائه ، نجد فيها مصطلحات وجملاً وكلمات ترد أيضاً فى الشعر المنسوب الى السموأل . وهذا مما يحملنا على التفكير فى كيفية حدوث ذلك ووقوعه . أحدث ذلك لوقوف الأعشى على شعر السموأل واقتباسه منه ، باعتبار أن السموأل أقدم عهداً منه ، أم حدث بتوارد الخواطر والمعاني فهو من قبيل المصادفة ليس غير ، أم صنع فيما بعد على لسان السموأل بعد شيوع هذا الشعر المنسوب الى الأعشى فى صاحب الأبلق الفرد ، أم الشعران مصنوعان صنعا فى الاسلام ووضعا على لسان الرجلين ؟ وبالجملة أن أكثر ما ينسب

---

(١) الأغاني (١٩/٩٩ وما بعدها) .

الى السموأل ، هو من النوع المصنوع الذي شك فيه ، وبعضه مما نسب الى غيره من الشعراء .

أما جامع شعر السموأل فى ديوان ، فهو ابراهيم بن عرفة الملقب بنفطويه (٣٢٣ - ٣٢٤ هـ) ، من مشاهير علماء العربية . وبعض ما هو مذكور في هذا الديوان[١]. مثل قصيدته الشهيرة :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

مذكور فى حماسة أبي تمام ، وبعضه من مرويات الأصمعي[٢] . ولم يذكر نفطويه جامع الديوان سنده فى رواية هذا الشعر . وهذا السند مهم جداً عند المؤرخ للوقوف على كيفية حصول هذا العالم على شعر السموأل ، ولمعرفة صحة نسبته اليه .

وفى الشعر المنسوب الىالسموأل جزء ، منحول مصنوع ، وُضع عليه ؛ وجزء منسوب الى غيره ، وقد أشار اليه العلماء . ونحن اذا قمنا بغربلته وتنقيته نجد أقله له وأكثره لغيره قد يكون من صنعة شاعر آخر ، وقد يكون من وضع وَضَعة الشعر ومفتعليه . ثم إذا فحصنا هذا القليل الذي يتفق أهل الأخبار على أنه له ، لا نجد فيه ما يشير الى وجود أثر لدين يهود فى هذا الشعر .

وقد استدل الأب لويس شيخو على نصرانية ذلك الشاعر[٣]. من قصيدة نسبت الى

---

(١) طبع هذا الديوان في بيروت (سنة ١٩٠٩ م) في مجلة المشرق .. « الصفحة ١٦١ وما بعدها » ، كما نشره عيسى سابا بعنوان « شعر السموأل » ببيروت كذلك ، وأعاد نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين بعنوان « ديوان السموأل » صنعة أبي عبد الله نفطويه وطبع ببغداد سنة ١٩٥٥ م .

(٢) Winckler, P 76 f

(٣) Nallino, Raccolta, III, P 105, Nöldeke Samaual in Zeitschrift für Assyriologie · XXVII 1912 S 177 ff Wellhausen Zum Koran in ZDMG · LXVII 1913 S· 630 · Eisenburg, Zu Samaw'al, in ZDMG · LXVIII 1914 · S 644 al - Samaw'al ibn Ädiya in Zeitschrift für Assyriolagie XXVI 1912. S 318

السموأل ورد فيها شيء من القصص الديني ، والأب شيخو لا يكتفي بنصرانية السموأل وحده ، بل يرى أن النصرانية هي ديانة جميع الشعراء الجاهليين ، ولهذا ألف فيهم كتابه « شعراء النصرانية » ، وتحدث فيه عنهم على أنهم نصارى مؤمنون بدين المسيح . وقد فاته شيء واحد لا أدري كيف عزب عن باله ، عفا الله عنه ، هو : تعيينـــه مذهبهم في النصرانية ، ونصه على ترهبهم وتنسكهم ولبسهم المسوح على طريقة الرهبان .

ومن القصائد المنسوبة الى السموأل ، قصيدة مطلعها :

ألا أيّها الضيف الذي عابَ سادتي ألا اسمع جوابي لست عنك بغافل

ختمها بهذا البيت :

وفي آخر الأيام جاء مسيحنـا فأهدى بني الدنيا سلامَ التكامل[1]

وهي قصيدة منحولة تختلف في أسلوب نظمها وفي العرض العام عن طرق النظام المألوفة في الشعر قبل الإسلام ، والشعر المنسوب الى السموأل . وقد وردت فيها كلمة « رحمانهم » وأشير فيها الى قصة ابراهيم الخليل ، والذبيح ابنه ، والى تســميته باسرائيل ، ثم الى الأسباط . وقصة بني اسرائيل مع فرعون مصر . وقد أغرق الله فرعون في البحر ، والى القدس والطور ، وأمثال ذلك .

وهذه القصيدة هي ردّ لأقوال رجل يظهر أنه عاب بني اسرائيل ، وتهجم عليها ، فأثار هذا التطاول صاحب هذه الأبيات فنظمها في الردّ عليه ، وفي الفخر بقومه ، مستشهداً على ذلك بالقصص الوارد في التوراة عن بني اسرائيل وعن الانبياء : ابراهيم واسحاق ويوسف ، وختمها بالبيت الذي رويته منها عن مجيء المسيح ، وقد دعاه بـ « مسيحنا » ؛ لأن المسيح من اليهـود . ذكر المسيح فيها بعد حديثه عن موسى وتكليم الرب له على جبـل الطور ، وهو انتقال فجائي غريب ليست له صلةٌ ما بالأبيات المتقدمة .

---

(١) شعر السموأل (بيروت ١٩٥١) « تحقيق وشرح عيسى سابا » (ص ٥٣) .

والحوادث المذكورة فى هذه القصيدة ، والاستشهادات التي أستشهد بها الشاعر ، وإن كانت مما هو مذكور فى « الكتاب المقدس » بجزءيه ، تدلّ على أن ناظمها قد استعان في نظم المصطلحات التي أستعملها وطريقة تعبيره عن الحوادث بالقرآن الكريم ، وبالقصص الوارد في كتب سير الرسل والأنبياء ، وأن الغاية من نظمها هو إثبات مجيء المسيح ، وقد جاء . وشهادة شاعر يهودي مفيدة ولا شك فى هذا الباب .

ولم ترد هذه القصيدة فى ديوان السموأل ولا فى كتب الأدب القديمة . وعدم ورودها فى تلك الموارد ، دليل بالطبع على أنها مما وضع بعد تدوين شعر السموأل فى الديوان المنسوب اليه وفى كتب الأدب القديمة ، وأن هذه القصيدة هي من الشعر المصنوع المتأخر بالنسبة الى بقية ما نسب اليه .

وليس في حادث تنصير السموأل ، أو أمية بن أبي الصلت ، أو امرئ القيس ، أو غيرهم من الشعراء ، غرابة ؛ إذ نجد أمثال ذلك عند كثير من الأمم . وقد ألحق الأخلاف والسلاف وغيرهم عدداً من العلماء والأدباء والبارزين بهم للفخر والتباهى ، ووضعت بعض المذاهب الاسلامية أشعاراً على ألسنة بعض الأئمة والبارزين من العلماء للاستدلال بها على أنهم من أهل ذلك المذهب . وقد حشرها المترجمون من رجال المذهب فى ذلك المذهب . فليس غريباً عجيباً إذن ما نراه من عدّ شيخو السموألَ في عداد نصارى الجاهليين ، ومن تحمس المستشرقين اليهود في دفاعهم عن يهوديته ، وعدّهم اياه يهودياً دماً ولحماً من الأبوين [1] .

وللسموأل آراء دينية نراها فى هذا الشعر المنسوب اليه ، في بعضه إقرار بالبعث والحساب ، وأن المليك وهو الرب يجازي الإنسان على ما قام به وما فعله من خير أو شر [2] ،

(١) Zeitschrift für Assyriologie, 1912, S. 179

(٢) شعر السموأل (ص ٢٦) .

وأن الله قد قدر كل شيء وقضى به ، وأن كل ما قدره كائن ولكل رزقه [١]، وأن الإنسان ميت من يوم يولد ، فيه جرثومة الموت ، ولد من ميت ، ثم يموت ، ثم يبعث تارة أخرى للحساب والكتاب ، ولكل أجل [٢] .

وفي قصيدة تائية :

نطفة ما منيت يوم منيت ... أمرت أمرها وفيها بريت

كنها الله في مكان خفي ... وخفي مكانها لو خفيت

وهي في كيفية نشوء الإنسان من منيٍّ يُمنى ، وهي فكرة يظهر أن صاحب هذا الشعر اقتبسها من القرآن الكريم . وقد تطرق في هذه القصيدة الى ما ذكرته من اعتقاده بالموت وبالبعث بعده وبالحساب والثواب والعقاب ، والى سليمان والحواريّ يحيى وبقايا الأسباط أسباط يعقوب دارس التوراة والتابوت . والى انفلاق البحر لموسى وأشار الى طالوت وجالوت[٣] . والإشارات الموجزة هذه ، وإن كانت لقصص موجود في التوراة ، لم يعتمد الشاعر عليها ، بل اعتمد على القرآن الكريم[٤] . فـ « طالوت » مثلاً غير مذكور في التوراة ، إنما ذكر في القرآن الكريم ، وهو اسم الملك « شاؤول »[٥]. وأما « جالوت »، فلفظة وردت في كتاب الله كذلك ، وهي تقابل « Goliath » في العهد القديم [٦].

---

(١) ليس يعطى القوي فضلا من الرز ... ق ولا يحرم الضعيف الشخيت

بل لكل من رزقه ما قضى الا ... ه وإن حز أنفه المستميت

شعر السموأل (ص ٢٨) .

(٢) شعر السموأل (ص ٢٩ ، وما بعدها) .

(٣) وبقايا الأسباط أسباط يعقو ... ب دارس التوراة والتابوت

وانفلاق الأمواج طورين عن مو ... سى وبعد الملك الطالوت

ومصاب الإفريس حين عصى الا ... ه واذ صاب حينه الجالوت

شعر السموأل (ص ٢٧) ، ديوان السموأل (ص ٢٥) .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٤٦ وما بعدها .

(٥) Ency , IV , P 642

(٦) Ency , I P, 1008, Hastings, P. 303

وشعر فيه هذه المصطلحات وهذه المعاني ، لا يمكن أن يكون شعراً يهودياً جاهلياً ، بل لا بد أن يكون من الشعر المصنوع المنظوم فى الإسلام ، وشأنه فى ذلك شأن اكثر القصائد المنسوبة الى أمية بن أبي الصلت [1].

فليس فى شعر السموأل إذن شيء خاص من الأشياء التي انفردت بها يهود ، وهذا الفخر الذي نراه فى اسرائيل وفى الأسباط هو فخر بقوم على نمط فخر القبائل بقبائلهم ، وليس شيئاً من دين . ثم ان بنا حاجةً الى إثبات أنه من نظم السموأل حقاً ، وأنه ليس من نظم إنسان آخر قاله على لسان السموأل فى مدح اليهود وفى الفخر بهم . ولا عجب أن يقوم إنسان بوضع شعر على لسان السموأل أو غيره من الشعراء الجاهليين ، فكتب الأدب مليئة بشواهد تذكر أسماء قصائد منتحلة ، وضعت على ألسنة شعراء جاهليين ، وأسماء من انتحل ذلك الشعر . ولم يكن انتحال الشعر عملاً سهلاً ، إذ لا بدَّ له من قدرة وعلم ومعرفة بأساليب شعر الماضين . وقد كان حمّاد الراوية ، وهو أديب كبير وراوية شهير ، على رأس طبقة المنتحلين الوضّاعين للشعر .

ثم إن وضع الشعر وتأليف الكتب فى تأييد قوم ، صنعة كانت معروفة فى أيام العباسيين . وقد اُتهم بعض رؤساء أهل الأدب فى العصر العباسي بتأليف الكتب فى تأييد اليهود ، بل فى ايراد شُبَهٍ على المسلمين ، للطعن فى الإسلام ، في مقابل دراهم يبيعها لهؤلاء المتاجرين بالتأليف من الشعوبيين وأعداء الإسلام .

وأشهر القصائد والأشعار المنسوبة الى السموأل ، القصيدة المقولة فى الفخر التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

وهي قصيدة شهيرة معروفة تعد نموذجاً فى الفخر والحماسة وفى حسن النظم ، ولذلك تحفظ فى المدارس حتى اليوم ، ويضيف اليها بعض العلماء هذا البيت :

---

(1) Zeitschrift für Assyriologie 1912. S. 178

هو الأبلق الفرد الفرد الذي سار ذكره يعزّ على من رامه ويطول

وبعض العلماء يزيد عليها وينقص منها أبياتاً أخرى . وهي مع ذلك مما يعزوه بعض العلماء الى شعراء آخرين ، فعزاها بعضهم الى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، أو عبد الله بن عبد الرحمان ، وقيل ابن عبد الرحيم الأزدي ، وهو شاعر شامي إسلامي [1] .

ولم يرد فى ديوان السموأل ولا فى بعض الكتب الأخرى البيت المتقدم ، وأعني به قوله :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعزّ على من رامه ويطول

ولعدم وروده فى ديوانه أهمية بالطبع ؛ إذ يجوز أن تكون هذه الزيادة متعمدة لاثبات أنها من شعر السموأل حقّاً ، وآية ذلك ورود « الأبلق الفرد » فى هذه القصيدة ، وليس هناك حصن بهذا الاسم غير هذا الحصن .

وينسب بعض الرواة القصيدة المذكورة الى شاعر اسلامي آخر يسمى دكين الراجز [2] .

فترى من هذا مبلغ الاختلاف فى صحة نسبة هذه القصيدة الى السموأل .

وينسب الى السموأل قوله معتذراً لرجل من ملوك كندة :

وإن كان ما بُلّغت عني فلامني صديقي وحزت من يدي الأنامل

وقد ذكر هذا البيت ، وكذلك بيت آخر معه فى ديوانه . غير أن بعض العلماء ينسبها الى معدان بن جواس بن فروة السكوني الكندي [3] .

وللمستشرق نولدكة تعليقات قيمة ونقد عميق لهذا الشعر المنسوب الى السموأل ، يستحسن الرجوع اليها والى أمثالها مما كتبه العلماء من صنوه ، للوقوف على آرائهم فى

---

(١) ديوان السموأل (ص ١٠ وما بعدها) ، الحماسة (ص ٤٩) ، العيني (٢/٧٧) ، الأمالي (١/٢٧٢) ، Zeitschrift für Assyriologie 1912 S. 176

(٢) الأغاني (٩/٢٦٢) « طبعة دار الكتب المصرية » .
Zeitschrift fùr Assyriologie 1912 S. 176

(٣) ديوان السموأل (ص ٤٣ وما بعدها) ، سمط اللآلىء (٤٥٧) ، الحماسة (٢/٤٢) .

صحة نسبة هذا الشعر [1] .

وللأخباريين روايات تختلف بعض الاختلاف فى أسم والد السموأل ، فمنهم من جعله عادياء ، ومنهم من دعاه أوفى ، ومنهم من سماه حيان [2] . وهم يقولون إنه يهودي ، ويقولون أحياناً إنه من غسان ، وغسان بالطبع ليست من يهود . ومنهم من قال: إن والده من يهود ، أما أمه فكانت من غسان [3] . فهو إذن ذو نصفين ـ اذا صح التعبير ـ نصف يهودي ، ونصف آخر عربي . ثم هم يذكرون أنه كانت له صلات وثيقة بأمراء غسان ، ولصلته هذه بهم قصده أمرؤ القيس ، طالباً وساطته له عند الحارث بن أبي شمر الغساني ، ليوصله الى قيصر ، فينال بمساعدته حقه من خصومه [4]. أما نحن ، فلا يهمنا من أمر السموأل فى هذا المكان شيء ، وكل ما يهمنا منه هنا هو ما له صلة بدين يهود ، وعقيدة يهود الجاهلية فى الحجاز .

ولا يستبعد بعض المستشرقين أحتمال كون السموأل من أصل عربي ، هو من غسان . تهود فى جملة من تهود من العرب ، لا سيما أن فى منطقة يثرب أحياء نص على أصلها العربي ، دخلت فى هذا الدين . وقد ذهب بعضهم الى احتمال وجود رجلين بهذا الاسم : رجل غساني عربي ، وآخر يهودي [5]. ونحن نرى أن أكثر هذا الاختلاف الذي يرويه أهل الأخبار فى أصل السموأل ، هو من ناحية الأب بأعتبار أن الأصل فى النسب عند العرب للأب . وهو عرف لا ينطبق بالطبع على قواعد العلم ، فكما أن للأب دخلاً فى النسب وفى

---

(١) Zeitschrift für Assyriologie 1912 S 173 ff

(٢) الأغاني (١٩/٩٨) ، الأغاني (٣/١٢) ، الميداني (٢/٢٧٦) ، التاج (٧/٣٨٢)، المشرق : السنة الثانية عشرة (١٩٠٩) (ص ١٦٢) اليهود (ص ٢٧) ، معاهد التنصيص (١/١٣١) ، Zeitschrift für Assyriologie 1912 S 175

(٣) الأغاني (١٩/٩٨) ، المشرق العدد المذكور . (٤) الأغاني (١٩/٩٨ وما بعدها) .

(٥) Zeitschrift für Assyriologie 1912, 174

الدم ، فإن للأم دخلاً فيها أيضاً لا يقل عن أثر الأب فى النسب وفى الدم .

وفى هذا البيت المنسوب الى الأعشى :

أرى عاديا لم يمنع الموت ماله　　　وفرد بتيماء اليهودي أبلق

ما يشير الى يهودية السموأل ، وهو يشير أيضاً الى غنى عادياء وكثرة ماله .

وقد عرف حصن السموأل بالأبلق ، وبالأبلق الفرد ، وهو حصن مشرف على تيماء . وقد ذكر الأخباريون أنه إنما دعي الأبلق ، لأنه كان فى بنائه بياض وحمرة . وكان أول من بناه عادياء أبو السموأل . وذكر ياقوت الحموي أن موضعه على رابية فيها آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنه من العظمة والحصانة ، وهو خراب [1] . ولست أرى أن الأبلق أو الأبلق الفرد هي تسمية ذلك الحصن ، إنما هي صفة له ، أخذت من البيت :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره　　　يعزّ على من رامه ويطول

وهو بيت ينسب قوله الى السموأل . ومن أبيات أخرى تنسب الى الأعشى . وورد فى أبيات منسوبة الى الأعشى أن باني الأبلق هو سليمان ، قال :

بناه سليمان بن داوود حِقْبةً　　　له أَزَجٌ عالٍ وطيء موثق

يوزاي كبيدات السماء ودونه　　　بلاطٌ ودارات وكلس وخندق [2]

ولكن هذا البيت يناقض ما ينسب الى السموأل من شعر فيه أن باني ذلك الحصن ، هو أبوه عادياء . ولست أستبعد أن يكون أكثر هذا الشعر من الشعر المصنوع فى الإسلام . وأما نسبة بناء الحصن الى سليمان ، فهي من الأمور المألوفة التي رأينا أمثلة منها فى الفصول المتقدمة من أجزاء هذا الكتاب ، وردت من أساطير روجها اليهود بين العرب فى الجاهلية وفى الإسلام عن عظمة سليمان وبنائه الأبنية العظيمة . وقد خصصوا سليمان دون سائر

---

(١) البلدان (٨٦/١) ، القزويني آثار البلاد (ص ٤٨) ، المشرق (١٩٠٩) (ص ١٦٣).

(٢) البلدان (٨٧/١) .

رجال اليهود بالبناء ، لبنائه الهيكل الذي أدهش العبرانيين ولا شك ، ولم يكن لهم عهد بمثل هذا البناء من قبل . ومن يدري ، فلعلّ هذه الابيات المنسوبة الى الأعشى هي من عمل أناس فى الإسلام كلفهم اليهود صنعها ، للتفاخر والتباهي بمآثرهم الماضية ، أو أنها حقاً من قول الأعشى ، صنعها لليهود بعد أن فك شريح أسره وأعطاه شيئاً من المال ، والمال مالك لكل لسان .

ونحن إذا تتبعنا الشعر المنسوب الى السموأل ، نجد معظمه كما قلت منتحلاً موضوعاً ، صنع فيما بعد . وإذا تتبعنا سيرة هذا الشخص وما قيل فيه ، نجد أكثره مما لا يستطيع الثبات للنقد . ولعل هذا هو الذي حمل بعض المستشرقين على الشك لا فى شعر السموأل وحده ، بل فى شخصية السموأل نفسها ، فذهبوا الى أنها من اختراع أهل الأخبار ، اخترعوها لما سمعوه من قصص مذكور فى التوراة عن « صموئيل » [1] .

وقد نسب بعض المستشرقين بقاء شعر السموأل وعدم ذهابه فى الإسلام الى أهله الذين دخلوا فى الإسلام ، وبقوا فى أماكنهم من تيماء ، فلم يكن من الهين عليهم نبذ شعره وتركه ، ولهذا حافظوا عليه ، فكانت محافظتهم هذه عليه سبب بقائه حتى اليوم [2] .

وقد ذكر الأخباريون أسماء ثلاثة أولاد للسموأل . أولهم شريح الذي تحدثت عنه . وثانيها حوط وثالثها منذر ولا نعرف من أمرهما غير الإسم . ويظن أن حوطاً هو الذي وقع فى الأسر فذبح [3] .

أما سعية بن غريض « شعبة بن غريض بن السموأل » « شعية » ، فهو أخو السموأل على رواية لأبي الفرج الإصبهاني ، وهو حفيده على رواية أخرى . أورد له الاصبهاني جملة أبيات في

---

(1) Margoliouth P. 72 Winckler Mith . Vor. Asia . Ges. Bd . VI S. 262.

(2) Islamic Culture, III, 2 P. 190 (1939)

(3) المشرق (١٩٠٩) (ص ١٦٣) .

أثناء كلامه على السموأل[1]. وهو شقيق السموأل إذا أخذنا برواية من جعل والد السموأل « غريض بن عادياء ». أما إذا أخذنا برواية من ينسبه الى عادياء ، فلا يكون « سعية » شقيقاً للسموأل حينئذ. ويذكر أنه كان غنياً صاحب أملاك وأموال ، يعقد المجالس ، وينادمه قوم من الأوس والخزرج ، وأن بعض ملوك اليمن أغار عليه فاُنتسف من ماله حتى اُفتقر ولم يبق له مال ، ثم عاد اليه حاله ؛ وأنه عاش طويلاً الى أيام معاوية ، وأنه دخل فى الإسلام ، وأن معاوية رآه يصلي في المسجد الحرام ، فطلب حضوره ، وسأله عن شعر أبيه الذي يرثي به نفسه ، فأنشده قصيدته :

يا ليت شعري حين أندب هالكا ما ذا تؤبنني به أنواحي

ويذكر رواة هذا الخبر أن سعية كان شيخاً طاعناً فى السن يومئذٍ ، وأنه لم يكن يرى حقاً لمعاوية فى الخلافة ، ولذلك لم يقبل أن يسلم عليه بالخلافة ، وأنه أجاب أجوبة فيها خشونة وجفاء ، وأن الخليفة كف أصحابه من الإساءة اليه قائلاً لهم : قد خرف الشيخ ، فأقيموه . فأخذ بيده فأقيم[2] .

والقصيدة المذكورة ، ينسبها بعض الرواة الى السموأل . وهذه النسبة تجعل السموأل أباً لسعية لا أخاً له . أما إذا جعلناها من شعر عريض ، والد سعية ، فلا يكون هناك إشكال ما من ناحية نسبة القصيدة ، غير أن علينا حينئذ جعل عريض أباً للسموأل كذلك ، لكونه شقيقاً لسعية . وأنا أستبعد خبر رؤية معاوية لسعية وكلامه معه ، إذ لا يعقل تصور بلوغ سعية هذا العمر بحيث يدرك أيام خلافة معاوية ، ويحاجّه على النحو الذي يذكره أهل الأخبار ، وأرى أنه مفتعل مصنوع ، وضع لأغراض سياسية مفهومة واضحة . وهو أسلوب لجأ اليه الأخباريون في حالات عديدة أخرى سياسية وغير سياسية ، لتأييد شيء

---

(١) الأغاني (١٩/١٠٠) ، طبقات الشعراء لابن سلام (ص ١١١) ، اليهود (ص ٣١) ، Noldeke , Beitrage . S. 64. ff.

(٢) Noldeke , Beitrage . S. 68 ff.

يريدونه أو نفيه ، لِما رسخ في الأذهان من أن شهادات أهل الكتاب وأقوالهم ذات قيمة عظيمة ، لأنهم أصحاب العلم الأول ، ولهم الإحاطة بأمور لا يعرفها غيرهم ، وخاصةً إذا نعت من نسب الخبر اليه بأنه حِبر من الأحبار .

وذكر البحتري في « حماسته » أسم شاعر يهودي آخر ، هو : عريض بن شعبة ، ونسب اليه هذا الشعر :

ليس يعطى القوي فضلا من الرز ق ولا يحرم الضعيف الخبيثُ

بل لكل من رزقه ما قضى اللـ ـه ولو كدّ نفسه المستميت [1]

وهو من شعر السموأل على رواية بعض الأخباريين ، يروونه له مع شيء من الاختلاف في عدد من الكلمات [2] .

أما الربيع بن أبي الحقيق ، فهو من بني قريظة على رواية ، أو من بني النضير على رواية أخرى . وقد اشترك في يوم بعاث ، وعاصر النابغة الشاعر الشهير ، وخلف جملة أولاد ناصبوا الرسول العداء [3] .

وكل من ذكرت من الشعراء ، هم من أهل هذه المنطقة ، أي يثرب فما فوقها ، أما يهود اليمن وبقية أنحاء جزيرة العرب ، فلم يشر أحد من الأخباريين الى أسم واحد منهم . ولا بد أن من بينهم من كان ينظم الشعر ويقوله ، فَلِمَ أهمل أهل الأخبار ذكر الشعراء اليهود في الأنحاء الأخرى من العربية ؟ الواقع أن ذلك ليس خاصاً بيهود وحدها ، إنما هو شيء عام ؛ فان جمهرة شعراء الجاهلية هم من سكّان الحجاز ونجد والأقسام الشمالية من جزيرة العرب ، وليس من بينهم من كان من سكان اليمن والعربية الجنوبية أو الشرقية ، وإن زعم

---

(١) Noldeke S 71

(٢) ليس يعطى القوي فضلا من الرز ق ولا يحرم الضعيف الشخيت
بل لكل من رزقه ما قضى اللـ ـه وإن حز أنفه المستميت
شعر السموأل (ص ٢٧ وما بعدها) .

(٣) Noldeke S 72 ff

الأخباريون أنهم من أصل يماني قحطاني ، ذلك أن قضية الأصول والأنساب تختلف عن الإقامة الفعلية في مكان ما . وقد كان أهل اليمن سكّان البلاد يتكلمون بلهجات تختلف عن لهجات أهل الحجاز والشمال عند ظهور الإسلام ، ويكتبون بها ، فلا يعقل نظمهم الشعر بلهجة بعيدة عنهم ، ما دامت لهم لغة كتابة وتدوين .

وإذا كان أهل الأخبار وحفظة الشعر قد حفظوا لنا شيئاً من أشعار يهود ، فإنهم لم يحفظوا لنا شيئاً من كلام الأحبار والربانيين منهم ، ولم يحفظوا لنا أنموذجات من كتبهم بالعربية إن كانت لهم كتب بهذه اللغة في الجاهلية . لقد روى كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وأمثالهم من مسلمة يهود قصصاً عن الرسل والأنبياء والجنّة والنار وأمثال ذلك ، ولكنهم لم يرووا لنا شيئاً عن أخبار يهود الحجاز ويهود اليمن ، ولم يرووا كذلك شعرهم وأدبهم ولم يتحدثوا عن تأثيرهم في العرب أو تأثر العرب بهم ، فلم اقتصروا يا ترى على هذه الناحية وأهملوا النواحي الأخرى مع أنها مهمة جداً ؟ أكان هذا التقصير تقصيرهم ، أم تقصير الأخباريين الذين لم يرغبوا في الحصول على معارف عن هذه الأمور ، أم كان تقصيراً مَرَدّه الى الطرفين .

هذا مجمل عن تأريخ اليهود في جزيرة العرب . أما أثرهم في الجاهليين ، وحياتهم الدينية في جزيرة العرب ، فسوف نخصه بفصل خاص مستقل يكون موضعه بعد الكلام على النصرانية بين العرب قبل الإسلام .

الفصل الثاني

النصرانية بين الجاهليين

ولم تكن اليهودية ، الديانة السماوية الوحيدة التي وجدت لها سبيلا الى جزيرة العرب ، بل وجـدت ديانة سماوية أخرى طريقاً لها الى العرب ، هي الديانة النصرانيـة . وهي ديانة أحدث عهداً من الديانة الأولى ؛ لأنها قامت بعـدها ، ونشأت على أسسها ومبادئها ، ولكنها كانت أوسع أفقاً وتفكيراً من الأولى . فبينما حبست اليهودية نفسها في بني اسرائيل ، وجعلت آلهها إله بني إسرائيل شعب الله المختار ، جعلت النصرانية ديانتها ديانة عالمية جاءت لجميع البشر . وبينما قيـدت اليهودية أبناءها بقيود تكاد تضبط حركاتهم وسكناتهم ، وفرضت عليهم فروضاً ثقيلة ، نجـد النصرانية أكثر تساهلاً وتسامحاً ، قام رجال الدين النصارى منذ أول نشأتها بالتبشير بها ، وبنشرها بين الشعوب ، وبذلك تميزت عن اليهودية التي جمدت ، واقتصرت كما قلت على بني اسرائيل .

ولفظة « النصرانيـة » و « نصارى » التي تطلق في العربيـة على أتباع المسيح ، من الألفاظ المعربة . يرى بعض المستشرقين أنها من أصل سرياني هو « نصرايا Nasraya »[1]، ويرى بعض آخر أنها من «Nazarenes» التسـمية العبرانيـة التي أطلقها اليهود على من أتبع ديانة المسيح . وقد وردت في العهد الجديد في « أعمال الرسل » حكاية على لسان

---

(1) Ency., III, P. 848.

يهود [١] . ويرى بعض المؤرخين أن لها صلة بـ « الناصرة » التي كان منها « يسوع » ، حيث يقال « يسوع الناصري » ، أو أن لها صلة بـ « الناصريين Nazarenes، Nasarenes » احدى الفرق القديمة اليهودية المتنصرة . وقد بقي اليهود يطلقون على من اتبع ديانة المسيح « النصارى » ، وبهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم ، ومن هنا صارت « النصرانية » علماً لديانة المسيح عند المسلمين .

ولعلماء اللغة الاسلاميين آراء في معنى هذه الكلمة وفي أصلها ، هي من قبيل التفسيرات المألوفة المعروفة عنهم في الكلمات الغريبة التي لا يعرفون لها أصلاً . وقد ذهب بعضهم الى أنها نسبة الى الناصرة التي نسب اليها المسيح [٢] .

ولم أعثر حتى الآن على نص جاهلي منشور وردت فيه هذه التسمية . أما في الشعر الجاهلي ، فقد ذكر أن أمية بن أبي الصلت ذكرهم في هذا البيت :

أيام يلقى نصاراهم مسيحهُمُ والكائنين له وداً وقربانا [٣]

وذكر أن شاعراً جاهلياً ذكر النصارى في شعر له ، هو :

اليك تعدو قلقاً وضينها معترضاً في بطنها جنينها

مخالفاً دينَ النصارى دينُها [٤]

وذكر أن جابر بن حُنيّ قال :

وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض الى دم

وذكر أن حاتماً الطائي قال في شعر له :

وما زلت أسعى بين ناب ودارة بلحيانَ حتى خفت أن أتنصّرا [٥]

---

(١) أعمال الرسل : الاصحاح ٢٤ الآية ٥ ، Ency. Reli. Ethi., III, P. 574 f.

(٢) اللسان (٧/٦٨) ، تاج العروس (٣/٥٦٨) .

(٣) النصرانية (٢/١٨٧) . (٤) النصرانية (٢/١٧١) .

(٥) النصرانية (٢/٢٢٤ وما بعدها) .

غير أن هـذه الأبيات وأمثالها إن صح أنها لشعراء جاهليين حقاً، هي من الشعر المتأخر الذي قيل قبيل الإسلام. أما قبل ذلك، فليس لنا علم بما كان العرب يسمون النصارى به من تسميات.

والذي نعرفه أن قدماء النصارى حينما كانوا يتحدثون عن أنفسهم كانوا يقولون : « تلاميذ Disciples » و « تلاميذ المسيح »، ذلك أنهم كانوا ينظرون الى المسيح نظرتهم الى معلم يعلمهم. وكذلك نظروا الى حوارييه، فورد « تلاميذ يوحنا »، ويُقصَدُ بذلك المسيحيون [1]. وهـذه التعابير من أقدم التعابير التي استعملها النصارى للتعبير عن أنفسهم.

كذلك دعا قدماء النصارى جماعتهم بـ « الإخوة Brethren » للدلالة على الجماعة، وبـ « الأخ » للتعبير عن المفرد؛ ذلك لأن العقيدة قد آخت بينهم، فصار النصارى كلهم اخوة في الدين. ثم تخصصت كلمة « الاخ » برجل الدين [2]. ودعوا أنفسهم « القديسين Saints » [3] و « المؤمنين Believers » [4] و « المختارين » « الأصفياء » « Elect » و « Chosen » و « المدعوين Called » ويظهر أنها لم تكن علمية، وإنما وردت للإشارة الى التسمية التي تليها. و « الكنيسة، Ecclesia »، وتعني « المجمع » في الإغريقية،

---

(١) انجيل مرقس : الاصحاح الثاني، الآية ١٨.

(٢) « وفي تلك الأيام قام بطرس في وسط التلاميذ. وكان عدة أسماء معاً نحو مئة وعشرين، فقال : أيها الرجال الإخوة .. »، اعمال الرسل : الاصحاح الأول، الآية ١٥ وما بعدها،
Ency. Reli. Ethi., 3, P. 573

(٣) « بولس المدعو رسولا ليسوع المسيح، بمشيئة الله، وسوستانيس الأخ الى كنيسة الله التي في كورنتوس المقدسين في المسيح يسوع المدعوين قديسين مع جميع الذين، يدعون باسم ربنا يسوع المسيح » رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنتوس : الاصحاح الأول، الآية الأولى وما بعدها.

(٤) أعمال الرسل : الاصحاح الخامس : الآية ١٤، « بولس رسول يسوع المسيح. بمشيئة الله الى القديسين الذين في أفسس والمؤمنين في المسيح »، رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس الاصحاح الأول : الآية الأولى وما بعدها.

بمعنى المحل الذي يجتمع فيه المواطنون . فكنى بها عن المؤمنين وعن الجماعة التابعة للمسيح . و « الفقراء » و « الأصدقاء » [1] .

وقد عرف النصارى بـ « Christians » نسبة الى « Christos » اليونانية التي تعني « المسـيح Messiah » ، أي المنتظر المخلص الذي على يديه يتم خلاص الشعب المختـار . و « يسوع » هو « المسيح » ، أي المنتظر المخلص الذي جاء للخلاص كما في عقيدة أتباعه ، ولذلك قيل لهم أتباع « المسيح » . فأطلقت عليهم اللفظة اليونانية ، وعرفوا بها ، تمييزاً لهم عن اليهود . وقد وردت الـكلمة في أعمال الرسل وفي رسالة بولس الأولى الى أهل كورنتوس [2] .

أما في القرآن الـكريم وفي الأخبار ، فلم ترد هـذه اللفظة اليونانية الأصل . ولهذا نجـد أن العربية اقتصرت على إطلاق « نصارى » و « نصراني » و « نصرانيـة » على المسيحيين تمييزاً لهم عن أهل الأديان الأخرى .

ويلاحظ أن هذه الألفاظ والجمل لم تكن تسميات أي أعلاماً لأتباع المسيح ، إنما هي تعابير نجـدها في اليهودية وفي الإسـلامية وفي الأديان الأخرى للتعبير عن شعور أهل تلك الديانة والى روابطهم في العقيدة وفي الإيمان . وتعبير « تلاميذ المسيح » ، هو التسمية المسيحية التي أخذ منها مصطلح « Christians » اليوناني الذي استعمل ولا يزال مستعملاً في اللغات الغربيـة للتعبير عن النصارى ، وصار مصطلحاً وعلـماً عليهم في الغرب بفضل الـكنيسة الغربية . أما الـكنائس الشرقية ، فقد استعملت في الغالب المصطلح الشرقي ، وبها تأثر الجاهليون فأطلقوا لفظ « نصارى » على أتباع المسيح .

ليس في اسـتطاعة أحـد تعيين الزمن الذي دخلت فيه النصرانية الى جزيرة العرب .

---

(١) Ency. Reli. Ethic., 3, P, 574.

(٢) أعمال الرسل : الاصحاح الحادي عشر : الآية ٢٦ ، الاصحاح ٢٦ ، الآية ٢٨ ، رسالة بولس الأولى الى أهل كورنتوس : الاصحاح الرابع ، الآية ١٦ ، Hastings, P. 127.

وتحاول مؤلفات رجال الكنائس ردّ ذلك التأريخ الى الأيام الأولى من التأريخ النصراني[1]، غير أننا لا نستطيع اقرارهم على ذلك ؛ لأن حججهم في ذلك غير كافية للإقناع . ولذلك، فليس من الممكن تثبيت تأريخ لانتشارها في هذه الأماكن في الزمن الحاضر، وليس لنا إلا التفتيش عن أقدم الوثائق المكتوبة للوقوف عليها بوجه لا يقبل الشك ولا التأويل . ونحن أمام بحث علمي، يجب أن تكون العاطفة بعيدة عنه كل البعد .

وإذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة، فإن دخول النصرانية اليها كان بالتبشير وبدخول بعض النساك والرهبان اليها للعيش فيها بعيدين عن ملذات الدنيا، وبالتجارة وبالرقيق ولا سيما الرقيق الأبيض المستورد من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة . أما هجرة نصرانية كهجرة يهود الى الحجاز أو اليمن، فلم تحدث ؛ ذلك أن النصرانية انتشرت في انبراطورية الروم والساسانيين بالتدريج، ثم صارت ديانة رسمية للقياصرة وللروم وللشعوب التي خضعت لهم، فلم تظلّ النصرانية أقلية هناك، لتضطر إلى الهجرة جماعة وكتلة الى بلد غريب . لذلك كان حديثنا عن نصارى العرب من حيث الأصل والأرومة، يختلف عن حديثنا عن أصل يهود اليمن أو الحجاز .

وبفضل ما كان المبشرين من علم ومن وقوف على الطب والمنطق ووسائل الإقناع وكيفية التأثير في النفوس، تمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فأدخلوهم في دينهم، أو حصلوا منهم على مساعدتهم وحمايتهم . فنسب دخول بعض سادات القبائل ممن تنصر الى مداواة الرهبان لهم ومعالجتهم حتى تمكنوا من شفائهم مما كانوا يشكون منه من أمراض . وقد نسبوا ذلك الى فعل المعجزات والبركات الإلهية، وذكر بعض مؤرخي الكنيسة أن بعض أولئك الرهبان القديسين شفوا بدعواتهم وببركات الربّ، النساءَ العقيمات من مرض العقم فولدن أولاداً، ومنهم من توسل الى الله أن يهب لهن ولداً

(1) راجع النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، القسم الأول، تأليف لويس شيخو، بيروت ١٩١٢ .

ذكراً ، فاستجاب دعوتهم ، فوهب لهم ولداً ذكراً ، كما حدث ذلك لضجعم سيد الضجاعمة ، إذ توسل أحد الرهبان الى الله أن يهب له ولداً ذكراً ، فاستجاب له . فلما رأى « ضجعم » ذلك ، دخل في دينه و « تعمّد » هو وأفراد قبيلته [١] . ومنهم من شفى بعض الملوك العرب من أمراض كانت به مثل « مار ايشوعزخا » الراهب . ذكروا أنه شفى النعمان ملك الحيرة من مرض عصبي ألم به ، وذلك باخراجه الشيطان من جسده [٢] .

وفي تواريخ الكنيسة قصص عن أمثال هذه المعجزات المنسوبة الى القديسين ، كالتي نسبوها الى القديس سمعان العمودي (المولود نحو سنة ٣٦٠ م) يذكرونها على أنها كانت سبباً في هداية عدد من الأمراء وسادات القبائل الى النصرانية ، وبفضل تنصرهم دخل كثير من أتباعهم في هذا الدين [٣] . وكالتي نسبوها الى القديس « أفتيميوس » الذي نصر بفضل هذه المعجزات جمعاً من الأعراب وأسكنهم في أماكن خاصة أنشأ فيها كنائس أطلق عليها في اليونانية ما معناه « المحلة » أو « المعسكر » [٤] .

ولم يعبأ المبشرون بالمصاعب والمشقات التي كانوا يتعرضون لها ، فدخلوا مواضع نائية في جزيرة العرب ، ومنهم من رافقوا الأعراب ، وعاشوا عيشتهم ، وجاروهم في طراز حياتهم ، فسكنوا معهم الخيام ، حتى عرفوا بـ « أساقفة الخيام » و بـ « أساقفة أهل الوبر » ، وبأساقفة القبائل الشرقية المتحالفة وبأساقفة العرب البادية . وقد ذكر أن مطران « بُصْرَى » كان يشرف على نحو عشرين أسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان وقد نعتوا بالنعوت المذكورة ، لأنهم كانوا يعيشون في البادية مع القبائل عيشة أهل الوبر [٥] .

---

(١) النصرانية (١/٣٥) ، Sozomene, Hist. Eccl., VI, 38. « والمعمودية ...... ماء أصفر للنصارى يقدس بما يتلى عليه من الانجيل . يغمسون فيه ولدهم معتقدين أنه تطهير له كالختان لغيرهم ... » ، تاج العروس (٢/٤٣٢) ، القاموس (١/٣١٧) .

(٢) الديورة في مملكتي الفرس والعرب للقس بولس شيخو (ص ٣٢ ، ٤٧) .

(٣) النصرانية (١/٨١ وما بعدها) .

(٤) المشرق : السنة الثانية عشرة ، الجزء ٥ ، آذار (١٩٠٩) (ص ٣٤٤ وما بعدها) .

(٥) النصرانية (١/٣٧) .

ودخلت النصرانية جزيرة العرب مع بضاعة مستوردة من الخارج ، هي تجارة الرقيق من الجنسين ، فقد كان تجار هـذه المادة المهمة الرابحـة يستوردون بضاعتهم من أسواق عالمية مختلفة ، ولـكن أثمن هذه البضاعة وأغلاها هي البضاعة المستوردة من انبراطوريتي الروم والفرس ، لميزات كثيرة امتازت بها عن الأنواع الأخرى المستوردة من إفريقية مثلاً . فقد كان صنفها من النوع الغالي الممتاز بالجمال والحسن والاتقان ، ثم بالابتكار وبالقيام بأعمال لا يعرفها من هم من أهل إفريقية . ومن الروميات الجميلات والصقلبيات والجرمانيات من صرن أمهات لأولاد عُدّوا من صميم العرب . وقد كان أكثرهن ، ولا سيما قبيل ظهور الإسلام ، على النصرانية . ومن بينهن من خلدت أسماؤهن لتتحدث للقادمين من بعدهم من الأجيال عن أصولهن في العجم وعن الدين الذي كنّ عليه .

وقد ناط أهل مكة وغيرهم من قريش ومن سائر مضر والقبائل الأخرى بهؤلاء الرقيق أداء أعمال مهمة ، مثل أعمال البناء التي هي من اختصاص أهل المدن . وأكثر الرقيق هم من أهل المدن ، وكذلك القيام بأعمال الكتابة والاشتغال بالزراعة وأمثال هذه من الأمور التي لا يجيدها في العادة إلا من كان من أهل الحضر المستقرين المتقدمين (١) .

وقد أثرت الأديرة تأثيراً مهماً في تعريف التجار العرب والأعراب بالنصرانية . فقد وجد التجار في أكثر هذه الأديرة ملاجيء يرتاحون فيها ومحلات يتجهزون منها بالماء ، كما وجدوا فيها أماكن للهو والشرب : يأنسون بأزهارها وبخضرة مزارعها التي أنشأها الرهبان ، ويطربون بشرب ما فيها من خمور ونبيذ معتق امتاز بصنعه الرهبان . وقد بقيت شهرة تلك الأديرة بالخمور والنبيذ قائمة حتى في أيام الإسلام . ومن هؤلاء الرهبان ومن قيامهم بشعائرهم الدينية ، عرف هؤلاء الضيوف شيئاً عن ديانتهم وعما كانوا يؤدونه من شعائر . وقد أشير الى هؤلاء الرهبان الناسكين في الشعر الجاهلي ، وذكر عنهم أنهم كانوا

Wellhausen, Reste, S. 231. f. (١)

يأخذون المصابيح بأيديهم لهداية القوافل فى ظلمات الليل [1] .

وقد كانت هذه الأديرة ، وهي بيوت خلوة وعبادة وانقطاع الى عبادة الله والتفكير فيه ، مواطنَ تبشير ونشر دعوة . وقد انتشرت حتى فى المواضع القصيّة من البوادي . وإذا طالعنا ما كتب فيها وما سجله أهل الأخبار أو مؤرخو الكنائس عن أسمائها ، نعجب من هذا النشاط الذي عرف به الرهبان فى نشر الدعوة وفى اقامة الأديره للاقامة فيها فى مواضع لا تستهوي أحداً . وهي متقاربة عديدة فى بلاد العراق وفى بلاد الشأم . بل نجد لها ذكراً حتى فى الحجاز ونجد وفي جنوبي جزيرة العرب وشرقيها : تتلقى الاعانات من كنائس العراق والشأم ومن الروم ، حتى تمكنت من التبشير بين أكثر القبائل . ولولا ظهور الإسلام ونزول الوحي على الرسول فى الحرمين ، لكان وجه العالم العربي ولا شك غير ما نراه الآن . كان العرب على دين النصرانية وتحت مؤثرات ثقافية أجنبية ، هي الثقافة التي إتسمت بها هذه الشيع النصرانية المعروفة حتى اليوم .

وطبيعي أن يكون انتشار النصرانية فى العرب ببلاد الشأم واضحاً ظاهراً أكثر منه في أي مكان آخر . وأقصد ببلاد الشأم ما يقصده علماء الجغرافيا العرب من هذا المصطلح . فقد كان لعرب هذه الديار علاقة مباشرة واتصال ثقافى بغيرهم من سكان هذه الأرضين الذين دخل أكثرهم فى الديانة النصرانية ، والذين صارت هذه الديانة ديانة بلادهم الرسمية بعد دخول الروم فيها واتخاذهم النصرانية ديناً رسمياً للدولة منذ تنصر أول قيصر من القياصرة ، فكان من أول واجبات الروم السعي فى تنصير الشعوب الخاضعة لهم ، لا تقرباً الى الله وحده ، بل لتمكين سلطانهم عليهم ، و « أستعمارهم » بالرابطة الروحية التي تربط تلك الشعوب بالروم ، واخضاعهم روحياً لهم ، والخضوع الروحي لأمة أخرى هو شر أنواع « الاستعمار » . لهذا كان من سياسة البيزنطيين نشر النصرانية بين أتباعها وفى الخارج

---

(1) Wellhausen, Reste, S. 232.

وارسال المبشرين والاغداق عليهم ومدهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير ، وبالفعلة لبناء الكنائس الفخمة الجميلة على طراز فني أنيق جميل غير معروف بين من سيبشر بهذا الدين بينهم . وبذلك تبهر عقولهم ، فتشعر أن للدين الجديد مزايا ليست فى دينهم ، وأن معابدها أفخم من معـابدهم ، ورجال دينها أرقى من رجال دينهم . وبذلك يأتون اليها ، وللبهرجة والفخفخة أثر عظيم فى كثير من الناس ، فالعين عند أكثر البشر ، تقوم مقـام العقل . وقد يكون ما قام به الأحباش فى اليمن من انشـاء الكنائس المطلية فيها وتفننهم فى تزويقها وتجميلهـا وفى فرشـها بأنخر الرياش والفراش لصرف الناس عن الكعبة كما يذكر أهل الأخبار دليلاً على ما أقول .

ويلي هؤلاء ، عربُ العراق ، لاحتكاكهم بالنصارى ولانتشار النصرانيـة في العراق بالرغم من أن ديانة الحاكمين لهذا القطر كانت ديانـة أخرى ، وأن النصرانيـة لم تكن في مصلحة الفرس . غير أن الفرس لم يكونوا يبشرون بدينهم ، ولم يكن يهمهم دخول الناس فيه ، إذ عدّت المجوسية ديانة خاصة بهم ، وهـذا ممـا صرف الحكومة عن الاهتمام بأمر أديان الخاضعين لها من غير أبناء جنسها ، إلا إذا وجدوها تتعارض مع سياستهم ، وتدعو الى الإبتعاد عنهم . ثم إن النصرانية التي انتشرت فيها لم تكن من النصرانيـة المتشيعة للروم ، ولهذا لم تجد من هذه الناحية ما يهدد سياستها بالأخطار ، فغضت النظر عنهـا ، وإن قاومتها في بادىء الأمر واضطهدتها ، وفتك ملوكها بعدد من الداخلين فيها ، اشارت اليهم كتب مؤرخو الكنيسة في تواريخهم عن الشهداء القديسين (١) .

ووجدت النصرانية بعد بلاد الشـأم والعراق لها مواضع أخرى دخلت اليها ، هي أطراف جزيرة العرب ، كالعربية الغربية والجنوبية والشرقية . وتفسير دخولها الى هـذه

---

(١) هنالك عدة مؤلفات في هذا الموضوع ، راجع منها :
Georg Hoffmann Auszüge aus Syrischen Akten Persischer Märtyrer, Leipzig, 1880.

الأرضين واضح ، هو اتصالها بطرق القوافل البرية والبحرية في البلاد التي انتشرت فيها النصرانية ، ومجيء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل اليها . وتجار النصارى ، لم يكونوا على شاكلة تجار يهود : كانوا يرون أن التجارة هي كسب مادي ، ولكن التبشير مع التجارة ربح مضاعف ، هو ربح فى الدارين : الدنيا والآخرة ، فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم فى البلاد التي ينزلونها لنشر دينهم فيها . ثم إن في انتشار دينهم بين سكان هذه المواضع التي يطرقونها كسباً لهم ولبلادهم ، وأكثرهم من الروم . فإنهم يجدون بتنصر الغرباء ، إخواناً لهم يرون رأيهم ، ويعطفون عليهم . ثم إنهم سيفضلونهم فى تعاملهم معهم على غيرهم ، وسيتساهلون معهم ولا شك . ثم إنهم سيقربونهم بتنصيرهم من العالم النصراني ، وممثل هذا العالم وحماته هم الروم .

ولاتصال الحجاز بفلسطين مهد النصرانية وببقية بلاد الشأم ، كان من الطبيعي مجيء النصرانية منها ودخولها الى هذه البلاد . ونجد أخبار الفتوح تشير الى أسماء أمراء عرب كانوا على هذا الدين ، يحكمون جملة مواضع من أعالي الحجاز ، صالحهم الرسول على أداء الجزية ، مثل « دومة الجندل » و « أيلة » و « تيماء » . وقد كان فى يثرب ومكة والطائف نفر منهم عند ظهور الإسلام ، دخلوا فيمن دخل من أهل الكتاب والوثنيين فى الإسلام[1] . ومن بين هؤلاء من كان من أصل عربي ، غير أن أكثرية نصارى هذه المدن كانت من الأعاجم الروم والأحباش وبني إرم ، جاؤوا اليها رقيقاً أو تجاراً طلباً للرزق .

ويلاحظ أن النصرانية لم تتمكن أن تعشعش فى مستوطنات على نمط مستوطنات اليهود جنوبيّ دومة الجندل وفدك وأيلة حتى اليمن . فقد كان لليهود حتى موضع يثرب مستوطنات ، رأينا أنها كانت خصبة غنية بالمياه . ذوات زرع ونخيل . أما النصرانية ، فلم يكن لها فى

---

(١) المشرق : السنة ١٩٣١ (ص ٨٢١) ، Eduard Sachau , Zur Ausbreitung des Christentums in Asain , Berlin , 1919 , S. 69.

هذه المواضع ولا في التي تليها حتى اليمن ما كان ليهود . ثم نلاحظ شيئاً آخر هو أن الغالبية العظمى في المنطقة الممتدة من يثرب حتى نجران وصنعاء كانت وثنية ، وأعني بذلك أنها لم تكن على يهودية ولا نصرانية ، إنما كانت تتعبد للأصنام وللأرواح ، ويدل هذا على أنها كانت ذات تمسك شديد بسنة آبائها وأجدادها ، وبما ورثته من عبادات وتقاليد ، وعلى أن جذور الوثنية كانت شديدة متينة عميقة في هذه التربة ، لذلك لم تفلح فيها اليهودية ولا النصرانية ، ولم تجد لها فيها موضعاً تنمو فيه كما وجدته في اليمن أو في أعالي الحجاز .

وقد كان من هؤلاء النصارى من لا يحسن العربية ، ولا يستطيع التكلم بها . ومنهم من كان يرطن بها أو يُخطيء كثيراً حين يتكلم بها ، لكونه من أصل غير عربي . وفي القرآن الكريم : « ولقد نعلم أنّهم يقولونَ إنّما يعلّمه بشر . لسانُ الّذي يُلحِدونَ اليه أعجميٌّ ، وهذا لسان عربي مبين »[1] . وقد نزلت هذه الآية لمناسبة ما كانت تقوله قريش من أن الرسول يتعلم من رجل نصراني ، زعموا أنه كان يختلف اليه فيأخذ منه . فنزل الوحيّ بأن الرجل المذكور ، رجل أعجمي لا يحسن النطق بالعربية ، والوحي لسان عربي مبين ، فكيف تقولون إنما يتعلمه الرسول من ذلك الإنسان الأعجمي الغريب .

غير أن من أهل مكة والطائف وبقية أنحاء الحجاز من كان قد أخذ النصرانية من أهل الحيرة ، وذلك لاتصال أهل هذه المدن بإمارة الحيرة بالتجارة ، فكان جماعة من تجار مكة والطائف يذهبون اليها لبيع ما عندهم من أموال ، ولشراء ما في العراق من سلع عراقية وأموال وصلت الى أهل العراق من الصين والهند وايران . وقد كان لهذه الإمارة على بعدها عن مكة أثر ثقافي وديني خطير في أهل مكة على ما يفهم من روايات أهل الأخبار .

أما اليمن التي عرفت اليهودية ، فقد عرفت النصرانية كذلك ، وعاصرتها فيها ، ثم تعرضت لمنافسة اليهودية لها وتحرشها بها كما رأينا ذلك في القصص المروي عن شهداء

---

(١) النحل : الآية ١٠٣ .

نجران . ويظهر من وقوع هذا التعذيب بالنصارى فى عهد لم يكن بعيداً جداً عن الإسلام ، أن النصرانية لم تكن قبل هـذا العهد قد أنتشرت أنتشاراً أدى الى شعور الحكّام أنهـا أصبحت خطراً على مصالحهم ، وأن فى سكوتهم عنها تهديد لمصالحهم ، وأن اليهودية لم ترَ أنها كانت على جانب من القوة قبل هذا العهـــد حتى تقف أمامها بالمرصاد . فلما تقوت النصرانيـة ، وتربص الحبش لليمن بالمرصاد بتحريض من الروم ، والحبشُ نصارى مثـل الروم يعطفون عليهم ويميلون اليهم بحكم روابط الدين وإن كانوا من منهب آخر ومن كنيسـة أخرى ، ثم إن لهم أطماع ومصالح سياسـية فى هذه الأرضين المهمة المقابلة لهم . والتى لا يفصلها عنهم غير فاصل بحري ضيق ، وجد أضداد النصرانية من الوثنيين واليهود فى سكوتهم عنها تهديداً لمصالحهم ، وهدماً لكيانهم ، فقاوموها وحاربوا أهلها . ولـكن استيلاء الحبش على اليمن ، وفتحهم للبلاد ، فتح لها الآفاق وفسح فى المجـال للمبشرين أن ينصروا القوم . فلما ثار أهلها على الحبش وطردوهم ، كانت النصرانية ديانة جماعة كبيرة من أهل اليمن فيهم السادات والأشراف وكثير من أهل القرى والمزارعين ، وكانت كفتها عند ظهور الإسـلام هي الراجحة فى اليمن على كفة اليهود .

وللأخباريين قصص عن انتشار النصرانية فى اليمن ، زعم بعضهم أنها دخلت بتبشير رجل من بقية الحواريين الصالحين اسمه « فيميون Faymiyun » أو « فيميون Phemion » أو « قيمون » أو « ميمون » ، وكان من الزهاد السيّاح : ساح فى البلاد ، وكانت تصدر عنه الـكرامات والمعجزات . اتصل به رجل من أهل الشام أسمه « صالح » ، وتوغلا فى بلاد العرب ، وأختطفتهما سيارة من العرب ، فباعوهما بنجران ، وأهلها من بني الحارث بن كعب من بني كهلان . وكانوا يعبدون العـزّى على صورة نخلة ، وصارا من نصيب هؤلاء . وقد تمـكن « فيميون » من اقناع سيده وصاحبه ببطلان ما هو عليه وقومه من عبادة ، وأتى بمعجزة أقنعتهم بصدق دينه حينما دعا الله يوم عيد العـزّى أن يرسل عليها ريحاً صرصراً عاتية تخنى عليها ، فأتت الريح عليها وأستأصلتها ، فآمن بدينه أهل نجران ، وعين

« فيميون » أحدهم واسمه « عبد الله بن الثامر » رئيساً عليهم ، وجعلهم تحت رعاية أسقف اسمه « بولس » (١) .

وتنتهي أسانيد روايات الأخباريين الى وهب بن منبه الأبنوي ومحمد بن كعب القرظي، وهما من مسلمة يهود (٢) . وليس في رواياتهم ما يكشف عن المورد الذي أخذا منه : أهو مورد يهودي أم مورد نصراني ؟ والخلاصة أن روايات أهل الأخبار عن « فيميون » ينتهي سندها بهذين الرجلين اللذين أمدّا الأخباريين بكثير من قصص بني اسرائيل وأساطيرهم .

وزعم بعض الأخباريين أن الذي أدخل النصرانية ونشرها في الحميريين ، هو التبع عبد كلال بن مثوب : أخذ التبع نصرانيته بزعمهم من رجل من غسان ذكروا أنه كان قد قدم عليه من الشام . فلما علمت حمير بتنصر التبع وبتغيير دينه وإعراضه عن عبادتها ، وَثَبَتْ بالغساني فقتلته (٣). وقد أشير الى تنصره في القصيدة الحميرية (٤) .

وقد ورد اسم « عبد كلال » في النص « Cis, I, 6 » وذلك بمناسبة تشييده داراً اسمها « يرث » . وقد ورد فيها اسم « الرحمن » . وورود « الرحمن » في هذه الكتابة التي يعود

---

(١) ابن هشام (٢٠) ، الطبري (٩١٨/١) « طبعة ليدن » ، البلدان (٧٥٤/٤) ، ابن خلدون (٥٩/٢) وفي تأريخ فطاركة المشرق « حيان » ، وكان من أهل نجران ، تنصر في الحيرة ، وتنصر على يده خلق من حمير والحبشة ، (ص ٣٣) ، النصرانية (٥٩/١) ، ذخيرة الأذهان (١٦٥/١) ، O'leary , P. 143 , Hitti , P. 61.

(٢) الطبري (١٠٣/٢ وما بعدها) ، Nallino Raccolta III · P. 123.

(٣) الطبري (٨٦/٢) : « ذكر ما كان من الأحداث في أيام يزدجرد بن بهرام وفيروز بين عمالها على العرب وأهل اليمن » ، النصرانية (٥٥/١ وما بعدها)، Nallino Raccolta III P. 124.

(٤) أم أين عبد كلال الماضي على ... دين المسيح الطاهر المساح
النصرانية (٥٥/١) .

عهدها الى سنة ٥٧٣ من التقويم الحميري المقابلة لسنة « ٤٥٨ » للميلاد [١] ، يشير إلى أن عبد كلال لم يكن نصرانياً ، وإنما كان على عبادة الرحمان .

أما الكتبة النصارى ، فإن منهم من يرجع تأريخ دخول النصرانية فى اليمن الى « متى » ، ومنهم من يرجعها الى « برتلماوس » ، ومنهم من يرجعها الى « بنتانوس » [٢].

وقد نسبت كتابات حبشية محفوظة في المتحف البريطاني دخول النصرانية في اليمن الى مبشر أسمته « أزقير Azkir » ، ذكرت أنه دخل اليمن وتمكن من اقناع التبع « شرحبيل يكف » بالسماح له بإنشاء كنيسة فى أرضه ، فأقامها ، غير أن قَيْلَيْن من أقيال « نجران » اعترضا على ذلك وعارضا في بقاء هذه الكنيسة ، وهدماها وحطما الصليب ، وهذان القيلان هما : ذو ثعلبان وذو قيفان [٣].

وورد أيضاً أن الانبراطور قسطنطين بن قسطنطين الأكبر « قسطنطين الثاني » (٣٣٧ — ٣٦١ للميلاد) ، كلف « ثيوفيلوس الهندي Theophilus Indes » أن يذهب الى اليمن لمقابلة التبع واقناعه باقامة كنائس فى بلاده . فذهب اليها ، وناظر يهودها وأفحمهم ، وأقنع التبع فسمح له بانشاء كنيسة في « ظَفارِ » العاصمة ، وكنيسة أخرى في عدن ، وفى هذه المدينة جالية من الروم . وكان هذا المبشر قد أنشأ كنيسة فى « هرمز » [٤].

ولم تكن الدوافع التي حملت الانبراطور على إرسال هذا المبشر الى اليمن دوافع منبعثة

---

(١) Corpus Inscriptionum Semiticarum , 1 , 6 Cruttenden 3, Fresnel 3 Halevy 3 Glaser 7, Nallino Raccolta, III P. 124.

(٢) النصرانية (١/٥٢ وما بعدها) .

(٣) Briti. Muss. Orient. , 686, 687, 688, 689, Winckler S. 329.

(٤) النصرانية (١/٥٦) .

Migne Patr. Gr. LXV Col. 459 - 637 Hitti P 61 Conti Rossini un documento sul Cristianesimo nello, iemen P 710 Nallino Raccolta III P. 123.

عن عواطف دينية خالصة ، بل كانت في الأصل دوافع سياسية واقتصادية . فقد أراد بارسال هذا المبشر ، وباقامة الكنائس فى اليمن إيجاد منفذ للروم يدخلون منه الى هذه البلاد الغنية ، وتكوين حزب يؤيدهم فى سياستهم ويتشيع لهم . واكتساب اليمن التي بيدها مفتاح السيطرة على البحر الأحمر ، كما كان يأمل بذلك تحريض حكومة اليمن على أعداء الروم وهم الفرس .

وذكر أيضاً أن أحد الأساقفة ممن كان فى اليمن ، كان قد اشترك فى أعمال مجمع « نيقية » الذي انعقد سنة ٣٢٥ للميلاد [١] . وفى اشتراك أسقف عن اليمن دليل على وجود النصرانية فيها فىالقرن الرابع للميلاد .

وقد كانت نجران أهم موطن للنصرانية في اليمن ، ولعلها الوطن الوحيد الذي رسخت هذه الديانة فيه في هذه البلاد . وقد اشتهرت نجران بالحادثة التي وقعت فيها ، حادثة تعذيب النصارى ، وبما ذكره أهل الأخبار عن الكنيسة التي أنشأها الأحباش فيها وعرفت بـ « كعبة نجران » عند الأخباريين كما عرفت بـ « بيعة نجران » أيضاً وهي التسمية الصحيحة القديمة ؛ إذ كان أهل اليمن يطلقون على الكنيسة « البيعة » كما ورد ذلك في نص أبرهة الذي دونه عند انتهائه من ترميم سدّ مأرب وإصلاحه .

ويذكر الأخباريون أن بني عبد المدان بن الديّان الحارثي هم الذين بنوها : بنوها على على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة لها ، وكان فيها أساقفة مُـعْـتَـمّـون ، وهم الذين جاؤوا الى النبي ، ودعاهم الى المباهلة . ويذكرون أيضاً أنها كانت قبة كبيرة من أَدَم من ثلاث مئة جلد : كان إذا جاءها الخائف أَمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفد أرفد ، وكانت على نهر بنجران ، وكانت لعبد المسيح بن دارس بن عدي بن معقل ، وكان ينفق عليها من غلة هذا النهر [٢] .

---

(١) النصرانية (١/٥٧) ، Nallino Raccolta III P 122, Caetani Annali I p. 125

(٢) البلدان (٨/٢٦٣) « نجران » .

وتذكرنا قصة « ابن الكلبي » عن أصل « كعبة نجران » ، وأنها كانت من أدم ، بما نعرفه عن خيمة « يهوة » إله العبرانيين ، وتعبد بني اسرائيل له فيها قبل بناء الهيكل ، واعتقادهم أنها خيمة مقدسة ، واحجامهم عن الدخول اليها ، لوجود الأسرار المقدسة فيها ، ومن اتخاذ العرب للقباب الحُمْر المصنوعة من الأدم . ومن يدري ؟ فقد تكون رواية ابن الكلبي هذه عن قبة نجران صحيحة ، وقد تكون تلك القبة على شاكلة خيمة يهوة ، خيمة مقدسة ، كانت لأهل نجران قبل دخولهم في النصرانية . فلما دخلوها ، لم تذهب عنها قدسيتها ، بل حوّلوها الى كنيسة ، ثم بنوا بيعة فى موضعها فيما بعد .

وقد كان الروم يمدون هذه البيعة بالمال ، كما كانوا يمدون المبشرين بالفعلة وبالمساعدات المادّية لبناء الكنائس والأديرة . والكنائس والأديرة وإن كانت بيوت تقوى وعبادة ، كانت بيوت سياسة ودعاية وتوجيه . ونشر النصرانية مهما كان مذهبها ولونها ، مفيد للروم ، فالنصراني مهما كان مذهبه لا بد أن يميل الى إخوانه فى العقيدة والدين ، ففي انتشار النصرانية فائدة من هذه الناحية كبيرة للبيزنطيين .

وقد كان لنصارى اليمن كنائس أخرى غير كنيسة نجران : فقد كانت لهم كنيسة عظيمة في « صنعاء » ، كما كانت لهم كنيسة فى ظَفار . وقد أبدع الأحباش فى تزيين كنيسة صنعاء وتجميلها ، وأنفقوا عليها مبالغ طائلة . وقد عرفت بـ « القُلَّيْس » من أصل « اكلسيا Ecclysia » اليوناني بمعنى الكنيسة ، وموضعها الآن جامع صنعاء على ما يظن [١] .

وقد أبدع الأحباش فى تشييد كنيسة ظفار وتزيينها كذلك ، وعهدوا بتدبير شؤونها الى أسقف شهير يقال له « جرجنسيوس » . وكل اليه النجاشي تنصير الحميريين . وهو مؤلف « كتاب شرائع الحميريين » وله مناظرات مع اليهود [٢] .

---

(١) النصرانية (١/٦٤) .
(٢) النصرانية (١/٦٤) ، Migne Patr. Gre, 86, 567-620

وأنشأ الأحباش لهم كنيسة أخرى بمدينة « مأرب » . وقد احتفل « أبرهة » بها ، وأشار اليها فى النص الذي دونه عن ترميم سدّ مأرب ، وعين لها أسقفاً للقيام بأداء الشعائر بها . وقد أنفق عليها مالاً طائلا حتى أنجز البناء . وقد فعلوا ذلك فى مواضع أخرى من اليمن لترويج النصرانية والقضاء على الوثنية ، وبهذه الطريقة كان ساستهم يحاولون التأثير فى أهل اليمن للسيطرة عليهم روحياً ، فلا يشعرون عندئذ بأنهم غرباء عن الأحباش .

أما بقية العربية الجنوبية والشرقية ، فقد عرفت النصرانية بتأثير التبشير أيضاً ، ولكنّا لا نستطيع أن نتحدث عن تغلبها على الأكثرية الساحقة من الناس . أما العربية الوسطى ، وهي نجد ، فليس فى استطاعتي التحدث عن التنصر فيها ، لانتفاء ورود شيء عنها فى روايات أهل الأخبار . ولكن هذا لا يعني انتفاء وجود بعض النصارى فيها ، وقعود المبشرين عن الذهاب الى تلك الأنحاء .

وتزعم بعض التواريخ الكنيسية وجود أساقفة على العربية الشرقية فى حوالي سنة ٢٢٤ للميلاد ، وذُكر أسقفٌ اسمه عبد يشوع ، ذكر أنه بشر فى هذه المنطقة ، وأنه بنى فيها ديراً ، وذلك فى أواخر القرن الرابع للميلاد . ومن الأماكن التي ذكر أنها كانت تابعة لأسقفية العربية الشرقية « بيث قطرايا Beth Katraya » أي « قطر » موضع « درين » وهو « دارين » فى جزيرة « تاروت » وموضع « مشماهك » وهو « سماهيج » فى جزيرة « المحرق » ، وذكرت أسماء ثلاثة أساقفة كانوا به ما بين سنة « ٤١٠ » و « ٥٧٦ » للميلاد . وموضع « خطا Hatta » ، وهو « الخط » ، أي الساحل المقابل للبحرين . وقد ذكر اسما أسقفين كانا فى هذه المنطقة ما بين « ٥٧٦ » و « ٦٧٦ » للميلاد . و « Haghar » أي « هَجَر » ، وقد ذكر وجود أسقفين فيه ما بين « ٥٧٦ » و « ٦٧٦ » للميلاد . وموضع « مزون Mazun » وهو « عُمان » فى الزمن الحاضر ، وقد ذُكر أربعة أساقفة فيه ، تولوا أعمالهم فى « ٤٢٤ » و « ٥٤٤ » و « ٥٧٦ » و « ٦٧٦ » للميلاد (١).

---

(١) Eduard Sachau, Zur Ausbreitung des Christentums in Asien, S. 59.

والنصرانية مثل اليهودية لم تترك لنا كتاباً جاهلياً أو كتابات جاهلية كثيرة فيها شيء مفيد عن انتشار النصرانية في جزيرة العرب قبل الإسلام ، فاعتمادنا في تأريخها في الجاهلية هو على ما جاء في القرآن الكريم عن نصارى العرب ، وعلى ما جاء في الحديث النبوي وفي شروحه عنها ، وكذلك في الشعر المنسوب لبعض الشعراء الجاهليين ممن كانوا على هذا الدين ، مثل عدي بن زيد العبادي ، ثم على ما جاء في بعض كتب المؤلفين النصارى ، وأكثرهم من السريان ، من لمحات عن نصارى بلاد العرب . وهي لا تخلو في الغالب من خطأ وهفوات ، لعدم اطلاع أصحابها على أحوال النصارى هناك .

ولا يمكننا أن نتصور أن النصرانية التي عرفها العرب كانت كالنصرانية التي عرفت عند البيزنطيين ، أو عند الرومان وبقية الأوربيين . لقد كانت نصرانية شرقية [1] ، وهي في الغالب سطحية ، حتى ليمكن أن نقول إن بعضهم كان نصرانياً بالاسم ، ولا سيما في المواضع البعيدة المنعزلة ، وبين الأعراب . ثم إن أكثرهم اتبعوا الكنائس الشرقية ، فكان الغساسنة عند ظهور الإسلام مثلاً من القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح « Monophysite » ويعرفون بـ « اليعقوبية » وباليعاقبة .

وكان نصارى الحيرة في هذا الزمن أيضاً على مذهب « نسطور » ، لذلك قيل لهم « نساطرة Nestorians » حتى إن كلمة « النصارى » التي تطلق في العربية على جميع أتباع تعاليم المسيح هي تسمية ، في أصلها علم لفرقة من فرق النصارى الشرقيين ، عرفت بـ « نصرايا Nasraya » في السريانية ، ثم تغلبت وعمت حتى صارت في العربية علماً لجميع الفرق النصرانية وكنائسها من غير تفريق [2] .

لقد اصيبت النصرانية بما أصيبت به أكثر الأديان ، فظهرت فيها شيع وفرق ، تخاصمت فيما بينها وتجادلت . وكان أكثر جدالها في موضوع طبيعة المسيح وعلاقة الأم

---

(١) Wellhausen, S. 232.

(٢) Horovitz, Koran untersuchungen, S. 144, Ency., III, 848.

بالابن ، وفى موضوع النفس ، وقد عقدت لذلك جملة مجامع كنيسية للنظر فى هذه الآراء والحكم على صحتها أو فسادها ، وفى أمر أصحابها ، اجتمع فيها مندوبون من مختلف الأماكن، وبينهم بعض الأساقفة العرب . غير أنها لم تتمكن من القضاء على النزعات المختلفة ، فظهرت فيهـا جملة مذاهب ، حرمت المجالس أصحابهـا ، وحكمت ببدعتهم وبخروجهم على التعـاليم الصحيحة ، وطلبت من بعضهم الرجوع الى الدين الصحيح ، غير أن منهم من أصر على رأيه ، وتحزب له ، وبشر به ، فوجد أنصاراً وأعواناً انتموا اليه وتسموا به .

والواقع أنه لم يـكن من السهل على الداخلين فى النصرانية فهم قضية معقدة كهذه القضية ، وهي قضية تصورية فكرية أكثر منها عقيدة دينية . ولذلك كان من الطبيعي وقوع الاختلاف فيها ، وتشتت آراء النصرانية بالقياس اليها ، خاصة وهي حديثة عهد ، وأكثر الداخلين فيهـا هم ممن دخلوا حديثاً فى هـذا الدين ، وليس لهم الإدراك العميق والخيال الواسع لفهم موضوع كهذا الموضوع . ثم إن النصرانية لم تـكن ديانة محلية ، بل هى كالإسلام ديانة عالمية ، لم توجه لأمة خاصة من الأمم ، ولهذا كان اختلاف الناس فىهذا الموضوع مفهوماً متوقعاً ، لاختلاف المدارك والثقافات ، فظهرت المذاهب والشيع فى هذه الديانة ، واتهم كل مذهب المذاهب الأخرى بالهرطقة والجنوح عن الصواب .

لقـد فتح « بولس » وأتباع المسيح الآخرون ميداناً واسعاً من الجدل فى موضوع المسيح : هـل المسيح إنسـان ، أو هو رب ، أو هو من خلق الرب ؟ وهل هو والربّ سواء ، أو هو منفصل عن الربّ ؟ هذه الأسئلة وأمثالها مما يتصـل بطبيعة المسيح شغلت رجال الـكنيسة ، وكتلتهم كتلاً : كل كتلة ترى أن رأيها فى طبيعـة سيدها هو الرأي الصواب ، وأنه هو الدين الحق القويم ، وأن ما دونه ضلال وباطل . لذلك كفر بعضها بعضاً ، واتهمت كل واحدة منهـا الأخرى بالهرطقة والبدعة ، فكان من هذا الاختـلاف ظهور المذاهب فى هذا الدين الجديد .

لقد كان الناصريون الأولون ، وهي التسمية القديمة التي عرف بها النصارى ، في فوضى فكرية . فلم تكن تعاليم المسيح مفهومة عندهم ولا مهضومة ، وكانت تفاسير تلاميذه غير منسقة ولا مركزة تركيزاً يكفي لتوجيه الناصريين وجهة معينة واحدة . ثم إن تعقب اليهود والرومان للنصارى وتنكيلهم بهم ، وخوف الناصري على حياته وعلى ماله إذا تظاهر بدينه : كل هذه كان لها أثر خطير في المجتمع النصراني الأول . ولولا جلد بعض التلاميذ وتفانيهم في الدعوة ، وتركيزهم لتعاليمها وتبويبها وصقلها ، لما كان للنصرانية ذكر باق حتى الآن .

وليس في استطاعة أحد الزعم بأن هذه النصرانية التي تركزت وتثبتت على هذه الصورة التي نشهدها ، هي النصرانية التي جاء بها المسيح وكان عليها الناصريون ، أي أقدم أتباع عيسى . فالنصرانية هي سلسلة تطورات وأفكار وآراء وضعها البارزون من الآباء ، ثم إنها كأكثر الأديان تأثرت بمؤثرات عديدة لم يكن من الممكن على الداخلين فيها التخلص منها . فدخلت فيها وصارت جزءاً منها ، مع أن بعضها مناهض ومناقض لمبادىء هذا الدين .

وتولد عن هذا الجدل ظهور « الآريوسية » أتباع « آريوس » و « السبيلية » « Sabellians » وأتباع الثالوث « Trinitarians » ومذاهب أخرى نبعت من تلك البلبلة الفكرية التي أظهرها الاختلاف في طبيعة المسيح . أثار رأي « آريوس Arius » في طبيعة المسيح وفي حكمه على الثالوث رأي المعاصرين له من رجال الكنيسة في الاسكندرية ، وفي مقدمتهم الأسقف « الاسكندر » و « أثاناسيوس Athanasius » . ونظراً الى ما أحدثته هذه الآراء اللاهوتية من انقسام وتفرق في صفوف النصارى ، كان له حدث خطير في الأحوال الداخلية للانبراطورية . عزم الامبراطور « قسطنطين » باني القسطنطنية على عقد مؤتمر للتوفيق بين هذه الآراء وتنسيقها ، فعقد مجمع « نيقية Nicaea » ، حضره « آريوس » للدفاع عن نفسه وحضره جمع من الأساقفة المخالفين له لمحاكمته ولاثبات

هرطقته وخروجه على الايمان الصحيح . وكانت النتيجة الوحيدة لهذا المؤتمر وضع بيان دقيق عن الثالوث ، والحكم بفساد رأي آريوس[١] وبخروجه على عقيدة النصرانية الصحيحة ، ووضع تعريف للايمان الصحيح[٢] .

وعقب هذا المجمع الذي انعقد في سنة « ٣٢٥ » للميلاد وحدد معنى النصرانية وأصولها ، عدة مجامع عقدت للنظر فى أمثال هذه المشكلات الخطيرة التي جابهت الكنيسة ، عقد بعضها فى القسطنطنية فعرفت بها ، وعقد بعض آخر فى « أفسوس » « ٤٣١ م » وفى « خلقدونيا Chalcedon » « ٤٥١ م » . ولكنها لم تستطع أن تعيد الوحدة الى الكنيسة ، فانقسمت الى عدة كنائس ، وحدث الانفصال الأكبر فى سنة (١٠٥٤ م) حيث تجزأت الكنيسة الكبرى للانبراطورية الى كنيستين : كنيسة غربية استعملت اللغة اللاتينية لغة رسمية لها ، وكنيسة أرثودكسية هي الكنيسة الاغريقية الأصلية ، وذلك بسبب خلافات بسيطة ليس لها أثر خطير فى صميم العقيدة . أما الشرق ، أي آسية وإفريقية ، فقد سبق نصاراه نصارى الغرب فى تحطيم وحدة الكنيسة ، فظهرت عندهم الكنيسة النسطورية والكنيسة اليعقوبية ، فى زمان مبكر سبق عهد انفصال الكنيسة اللاتينية عن الاغريقية بزمان طويل .

وقد وصلت الينا أسماء من حضر بعض تلك المجامع الكنيسية ، واشترك فى جدالها ومناقشاتها ووقع على قراراتها ومحاضرها ، وبينها أسماء أساقفة بشروا بين العرب ، وأساقفة يظهر أنهم كانوا من أصل عربي بدليل أسمائهم العربية الخالصة أو المنقولة الى اليونانية والسريانية . وقد عرف بعضهم بأساقفة الخيام ، لمرافقتهم للأعراب ومعيشتهم بينهم فى

(١) Ency. Religi. and Ethic., I, PP. 775. ff. « Arianism »
راجع عن مجمع « نيقية » مجلة المشرق السنة الثالثة والعشرون (١٩٢٥) العدد ٧ (ص ٤٨١ وما بعدها) .

(٢) خلاصة تأريخ الكنيسة : لـ « لومند » ترجمة الخوري يوسف البستاني ، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين ، بيروت ١٨٨١ ، في جزءين . (١/١٧٤ وما بعدها) .

الخيام معيشة الأعراب [1] . ومن أساقفة الأعراب أسقف عرف باسم « بطرس » وقد وقع على أعمال مجمع « أفسوس » بصفة كونه « أسقف محلة العرب » [2] ، والأسقف « تاوتيموس أسقف العرب » الذي وقع على أعمال مجمع أنطاكية الذي انعقد عام ٣٦٣م[3] .

فالأساقفة الذين كانوا يديرون أمور النصارى العرب ويبشرون بين القبائل الوثنية ، أسهموا في الجدل الديني الذي قام أكثره على بحث موضوع طبيعة المسيح ، واشتركوا فيه ، وبذلك نقلوا الى العرب هذه الأبحاث اللاهوتية التي شغلت بال العالم المتمدن منذ القرن الأول الميلاد فما بعده ، وكانت أهم مشكلات النصرانية يومئذ مشكلة شغلت بال المؤمنين، ثم بال الحكومة البيزنطية بعد تنصرها وبال أتباعها المؤمنين ، وشغلت العالم الغربي حتى بعد عصر « النهضة » ، مشكلة أطاحت برؤوس آلاف من الناس باسم الكفر والايمان ، البدعة والحق . وكان في جملة ما أسهم فيه رؤساء أديرة إقليم العربية وضع رسالة مضمونها دستور الإيمان ، كتبها أولئك الرؤساء ، ووجهوها الى يعقوب البرادعي ، ردّوا فيها على رأي يحي النحوي في تثليث الجوهر الفرد ، وذلك بين السنتين ٥٧٠ و ٥٧٨ للميلاد . وقد وقعها ١٣٧ رئيساً لـ ١٣٧ ديراً في إقليم العربية الممتد من شرقي بلاد الشأم الى الفرات [4] .

والنساطرة ، هم أتباع البطريق « نسطوريوس Nestorius » من « جرمانيقية » « Germanicia » ، وهي « مرعش » المتوفى سنة « ٤٥٠ م » ، وله رأي ومقالة في طبيعة المسيح . فجعل للمسيح طبيعتين « اقنومين » : أقنوم الإنسان يسوع ، وأقنوم الله الكلمة ، وذكر أن « مريم » هي بشر ولدت بشراً هو المسيح الذي هو إله من ناحية

---

(١) النصرانية (١/٣٣ وما بعدها) .
(٢) المشرق : العدد ١٢ . الجزء الخامس (ص ٣٥٣) .
(٣) النصرانية (١/٣٤) .
(٤) النصرانية (١/١٠٥ وما بعدها) .

الأب الإلـه فقط [1] . وقد انتشرت تعاليمه هذه ، خاصة فى البلاد التي كانت تحت سيطرة الفرس . وقد كان للسياسة دخل فى انتشار مذهب « نسـطور » المعارض للأرثودكسية الرومية فى هذه الديار ؛ إذ وجد النساطرة مقاومة من الروم ، لمخالفتهم لهم ، فذهبوا الى بلد أملوا أن يتمتعوا فيه بحريتهم فى ممارسة شعائرهم الدينية ، لمعارضته للانبراطورية البيزنطية وتشجيعه كل حركة مناوئة لها ، ثم لأنها حكومة ذات دين آخر بعيد عن النصرانية ، فهي لا تتدخل فى أمور المذاهب النصرانيـــة إلاّ إذا كانت مشايعة للروم ، وليست النسطورية من هذا القبيل .

وتستند تعاليم نسطور وآراؤه الى الجدل الذي أثاره من تقدمه من الآباء فى موضوع طبيعة المسيح ، والانشقاق الذي حدث نتيجة لهذا الجدل . وأكثر من أثر فيه وكوّن له رأي فى المسيح هو « ديودورس Diodorus » أسقف « طرســـوس Tarsus » و « ثيودور المصيصي Theodore » « ٣٩٣—٤٢٨ م » تلميذ « ديودورس » . وفى « انطاكية » وقف « نسطور » على آراء هذين العالمين ، وكان قد ترهب وسكن هذه المدينـــة فى عام « ٤٢٨ م » وتحمس لها وبشر بها بين الناس ، فأثار عليه غضب رجال الكنيسة المعارضين لتلك الآراء ، فصاروا يندددون به . وبما يقوله ويبشر به ، وعدّوه ملحداً خارجاً على تعاليم الكنيسة الصحيحة وعلى مبادىء الدين القويم .

ولنشاطه فى بث هذه الأفكار وعدم تراجعه عنها ، طلب اليه المثول أمام مجلس اجتمع فيه كبار رجال الدين لمحاكمته عرف بـ « مجمع أفسوس » انعقد فى عيد العنصرة من عام « ٤٣١ م » ، وبعـد محاكمات ومنـاظرات قرر المجتمعون الحكم بهرطقـــة هذه الآراء وبمخالفتها للمبادىء العامة التي تدين بها الكنيسة ، وبذلك كان الحكم على نسطور وأتباعه

---

(١) ، Shmid, S. 441 f. المشرق : السنة ١٩٣١ (ص ٦١٥) « في المجمع الأفسسي سنة ٤٣١ م » . « لا يدع أحد مريم أم الله لأنها كانت امرأة ، ومن المستحيل أن يولد الله من امرأة » ، Paul Pelliot, Christianity in Central Asia in the Middle Ages, P. 304, Lecture Given to the Central Asian Society on April, 30, 1930,

بالضلال والإلحاد[1] وبعزله من أسقفية القسطنطنية حكما رسمياً . ومعنى ذلك مقاومة القائلين بهذه الآراء واضطهادهم والتضييق عليهم فى حكومة لها كنيسة خاصة ترى أنها على الحق وأن ما دونها على عمى وضلال .

وكانت « الرها Edessa » أهم مركز ثقافى للنساطرة ، ومن أهم معاقل الأدب السرياني . أمها كثير من طلبة العلم السريان للتثقف بها ، ولا سيما في عهد الأسقف « ايباس Ibas » (٤٣٦ — ٤٥٧ م) الذي انتخب أسقفاً لهذه المدينة بعد وفاة أسقفها « ربولا Rabbula» فى عام « ٤٣٦ م » . غير أن الأحوال لم تستمر فى مصلحتهم ، ففي عام « ٤٥٧ » السنة التي توفي فيها « ايباس » انتخب « نونوس Nonnus » أسقفاً للمدينة ، وكان هذا متأثراً بالآراء البيزنطية كارهاً للنسطورية ، لذلك رأى النساطرة الارتحال عنها الى مكان آخر يكونون فى مأمن فيه من الاضطهاد والشعور بالضيق ، ورأوا أن أحسن مكان موافق لهم هو أرض أعداء الروم ، فهاجروا اليها وبينوا للفرس أن آراءهم مناقضة لآراء كنيسة الحكومة البيزنطية ، وأنهم لذلك كارهون للبيزنطيين ، وأنهم يرجون الأمن والسلامة وحرية العقيدة فى أرض « الشاهنشاه » .

وأظهر « ملك الملوك » استعداده لحماية النساطرة ومنحهم الحرية الدينية وحرية التبشير بمذهبهم بين رعاياه ، كما أظهر رغبته فى الاستفادة من علمهم ودرايتهم ، فاختارهم للأعمال التي لم يكن فيها متخصصون من أتباعه ، وسمح لهم بالتدريس وبتهذيب الناس وبتعليمهم الفلسفة اليونانية ، ولا سيما فلسفة « أرسطو » والطب ، وغدت مدينة « سلوقية » «Seleucia» على نهر دجلة قبالة العاصمة « طيسفون » مركزاً ثقافياً خطيراً ينافس

---

(١) المشرق : السنة ١٩٣١ ، تشرين الأول (٧٣٠ وما بعدها) ، ادى شير (٢/١٣٠) ، التأريخ الكنسي لسقراط (٣٤٠) ميخائيل اليعقوبي (١٧٥) ، الشرق المسيحي (١٩١٠ (٣٩٠) ، السمعاني المكتبة الشرقية (٤/٤) ، خلاصة تأريخ الكنيسة (٢٤٩/١ وما بعدها) ، O'leary, p. 133

« نصيبين Nisibis » التي احتلت في النسطورية مكانة « الرها » ، وصار هذا المركز من أهم معاقل النسطورية والتبشير فى العراق وفى سائر أنحاء انبراطورية الفرس [١] .

وقد نشط هؤلاء النساطرة لنشر مذهبهم فى الانبراطورية الســـاسانية وفى ما وراء حدود هذه الانبراطورية ، فنقلوا تعاليمهم الى تركستان والصين والهند ، حتى ليمكن أن يقال إن تأريخ النصرانية فى أواسط آسية وفى الشرق الأقصى ، هو تأريخ النسطورية من هذا الزمن الى أواخر القرون الوسطى [٢] . وقد نقل هؤلاء معهم معارف قيمة فى الطب وفى بقية فروع العلم الأخرى ، كما نشروا الثقافة السريانية بين من بشروا بمذهبهم بينهم . وقد نقلوا الى هذه البلاد فلسفة أرسطو خاصة إذ كان أكثرهم على هذا المذهب فى الفلسفة [٣] .

وقد سمح الساسانيون للنساطرة بانشاء مجالس طائفية لادارة شؤونهم يديرها أساقفة منهم . وبعد أن كانت « نصيبين Nisibis » مركز النساطرة الأكبر بعد الرها ، صارت مدينة « سلوقية » المقابلة لمدينـــة « طيسفون » مركزاً مهماً للنسطورية فى الشرق ، وموضعاً خطيراً فى إدارة شؤون التبشير فى الإنبراطورية الساسانية وفيما وراء حدود هـذه الانبراطورية من أرضين .

ومن هؤلاء النساطرة تعلم أهل الحيرة العرب النسطورية أيضاً ، ومن أهل الحيرة انتقلت الى جزيرة العرب . ولما كانت السريانية هي اللغة الرسمية لهذه الكنيسة ، صارت هذه اللغة بهذه الصفة لغة نصارى العرب ، بها يرتلون صلواتهم في الكنيسة وبها يكتبون ، وان كانت بعيدة عنهم غير مفهومة لدى الأكثرية منهم . لقد كانت على كل حال لغة رجال

---

(١) راجع عن تعاليم نسطور : أدي شير (٢/١٣٠) ، المشرق ١٩١٠ (ص ٣٩٠) ،
Socrates Scholasticus, His Eccl.. VII, 29-35, O'leary, pp. 133, Ency Reli. Ethi., Q, pp. 323.

(٢) Paul Pelliot, Christianity in Central Asia in the Middle Ages, p. 306

(٣) O'leary, p. 136

الدين . وجلهم من رجال العلم فى ذلك الزمن ، فهي عندهم لغة للدين وللعلم ، كما كانت اللاتينية لغة للدين والعلم عند الغربيين والعربية عند المسلمين .

وقد أشار أهل الأخبار الى تنصر بعض ملوك الحيرة ، ونسبوا اليهم بناء الأديرة والكنائس ، كما أشار الى ذلك بعض مؤرخي الكنيسة ، كالذي ذكروه عن « المنذر » ، وعن النعمان بن المنذر وعن غيرهما [1] . غير أننا لا نستطيع اقرار ذلك بوجه عام ، ولا بد من التريث ؛ إذ يظهر أن أكثر ملوك الحيرة كانوا على الوثنية . وإذا كان كثير من ملوك الغساسنة قد دخلوا فى النصرانية فإن ظروفهم تختلف عن ظروف ملوك الحيرة . فقد كان الروم ، وهم سادة بلاد الشأم ، على هذه الديانة ، وكانوا يشجعون انتشار النصرانية ويسمون لها ، ولهذا كان لهذه السياسة أثر فى الغساسنة أصحاب الروم ، وهم على اتصال دائم بالطبع بحكم بلاد الشأم . أما فى العراق ، فلم تكن هذه الديانة ديانة رسمية للحكومة ، إنما انتشرت بفضل المبشرين ، ولهذا انتشرت بين سواد الشعب ، ولم تنتشر بين الملوك . ولم تضغط الحكومة الساسانية على ملوك الحيرة للدخول فى هذه الديانة التي لم يكونوا أنفسهم داخلين فيها ، فهي بالإضافة اليهم ديانة غريبة ، لا يعنيهم موضوع انتشارها ، ولا يهمهم شأنها ما دامت لا تتعارض وحكمهم فى العراق .

غير أن النصرانية وجدت سبيلها بين بعض الأسر الرفيعة من أهل الحيرة . وقد ذكر أن « العبّاد » كانوا جميعاً على هذا الدين . وقد تحدثت سابقاً عن رأي الأخباريين فى هذه التسمية ، وذلك فى أثناء كلامي على تأريخ الحيرة ، وهي تسمية أرى أن لها صلة بالعبادة وبالمسيح . وقد أطلقت خاصة على نصارى الحيرة لتمييزهم عن الوثنيين .

وقد عثر على آثار كنائس فى خرائب الحيرة ، وأشار أهل الأخبار الى وجودها ووجود بيع وأديرة فيها . وقد ذكر ياقوت الحموي أسماء عدد من الأديرة كانت بالحيرة أو

---

(١) النصرانية (١/٩١ وما بعدها) .

بأطرافها وبالبادية يقصدها نصارى العراق ، منها : « دير ابن بُرّاق » بظاهر الحيرة ، ودير ابن وضّاح بنواحي الحيرة ، وديارات الأساقف وهي جملة أديرة كانت بالنجف ظاهر الكوفة بحضرتها نهر الغدير ، ودير الأُسكون « وهو بالحيرة راكب على النجف وفيه قلالي وهياكل وفيه رهبان يضيّفون من ورد عليهم » . ودير الأعور بظاهر الكوفة بناه رجل من إياد يقال له الأعور من بني حذافة بن زُهر بن إياد ، ودير بني مرينا بظاهر الحيرة عند موضع جفر الأملاك ، ودير الجرعة بالحيرة وهو دير عبد المسيح على رواية ، ودير الجماجم ، ودير حنظلة منسوب الى حنظلة بن أبي عفراء بن النعمان وهو عمّ إياس بن قبيصة وكان قد نسك وتنصر وبنى هذا الدير ، ودير حنظلة بالحيرة وهو منسوب الى حنظلة بن عبد المسيح بن علقمة ، ودير حنة وهو بالحيرة كذلك بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع تقابله منارة عالية كالمرقب تسمى القائم لبني أوس بن عمرو بن عامر ، ودير السوا بظاهر الحيرة يتحالفون عنده ، ودير الشاء ، ودير عبد المسيح وهو بظاهر الحيرة بموضع الجرعة بناه عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة ، ودير علقمة بالحيرة منسوب الى علقمة بن عدي ابن الرميك بن توب بن أسس بن ربّى بن نمارة بن لخم ، ودير قُرة وهو دير بإزاء دير الجماجم بناه رجل اسمه قرة من بني حذافة بن زهر بن اياد في أيام المنذر بن ماء السماء ، ودير اللُّجّ وهو بالحيرة بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس ، ودير مارت مريم وهو دير قديم من أبنية آل المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبي الخصيب مشرف على النجف ، ودير مار فايثون بالحيرة أسفل النجف ، ودير مر عبدا بذات الأكيراح من نواحي الحيرة منسوب الى مر عبدا بن حنيف بن وضاح اللحياني كان مع ملوك الحيرة ، ودير ابن المزعوق وهو دير قديم بظاهر الحيرة ، ودير هند الصغرى منسوب الى هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالحُرقة وكانت به قبور أهلها بنته هند في أيام « خسرو

---

(١) راجع معجم البلدان (١١٩/٤ وما بعدها) « القول في ذكر الأديرة » .

أنوشروان » وفى زمن مار افريم الأسقف .

هذه أسماء أخترتها من بين أسماء أديرة أخرى كثيرة ذكرها الشابشتي [1] وياقوت الحموي ؛ لأن لها صلة بالحيرة وبما جاورها وبالعرب سكان هذه الأرضين . أما ما ذكره هذان المؤرخان وغيرهما ، فهو شيء كثير يتحدث عن مدى تغلغل النصرانية فى العراق وفي الجزيرة وفي بلاد الشأم ، وهي بين نسطورية ويعقوبية في الغالب . ونجد على تسميات بعضها الصبغة الإرمية كما في تسمية « مار افريم » و « مار عبدا » و « مار فايثون » وغيرها ، وكلمة « مار » من كلمات بني إرم ، كما نجد الصبغة النصرانية للأعلام واضحة على بعضها كما في عبد المسيح وحنة ومارت مريم وأمثال ذلك ، وهي من الأعلام التي اختصت بالنصارى . غير أن الأعلام الأخرى ، وهى أعلام ليست ذات طابع نصراني ، تشير الى أن نصارى الجاهلية لم يكونوا يتقيدون في تسمياتهم بالتسميات النصرانية الصرفة ، بل كانوا يسمون أنفسهم بالتسميات الأخرى المستعملة عند العرب الوثنيين .

وقد قربت النصرانية نصارى العرب من ثقافة بنى إرم ، وجعلتهم يتأثرون بها الى حد كبير . فقد كان النساطرة واليعاقبة يستعملون لهجتي بني إرم في دراستهم وفي شمائرهم الدينية . ولغة بني إرم هى لغة العلم عندهم ، فكان من الطبيعي استعمال نصارى العرب لهذه اللغة في بيعهم وأديرتهم وكنائسهم وفي دراستهم للدين وما يتصل باللاهوت من علوم . ومن هنا استعمل كُتّابهم قلم بني إرم في كتاباتهم ، ومن هذا القلم تولد القلم النبطي المتأخر الذي تفرع منه القلم العربي القديم الذي تولدت منه جملة أقلام في الإسلام .

وقد أخرجت مدينة الحيرة عدداً من رجال الدين ، مثل مار إيليا وأصله من الحيرة ، والقديس حنانيشوع وهو من عرب الحيرة ومن عشيرة الملك النعمان [2] ، والقديس مار يوحنا [3] ، و « هوشاع » الذي حضر مجمع اسحاق الجاثليق عام ٤١٠ م ، وشمعون الذي

---

(١) الديارات : مطبعة المعارف بغداد ١٩٥١ تحقيق كوركيس عواد .
(٢) الديورة في مملكتي الفرس والعرب (ص ٣٢ وما بعدها) .
(٣) المصدر نفسه (ص ٤٧) .

أمضى أعمال مجمع « يهبالا » الذي انعقد سنة ٤٨٦ م ، وشمعون الذي حضر مجمع « اقاق » و« ايليا » المنعقد سنة ٤٨٦ م وأمضى فى سنة ٤٩٧ قرارات مجمع « اباي » ، و« ترساي » الذي تحزب سنة ٥٢٤ م لنرساي الجاثليق ضد « اليشاع » و « افرام » ، و « يوسف » ، وقد حضر مجمع « أيشوعياب الارزني » الذي انعقد سنة ٥٨٥ م ، وشمعون بن جابر الذي نصر الملك النعمان الرابع فى سنة ٥٩٤ على ما يذكره مؤرخو الكنيسة [١] .

ومن الحيرة أيضاً انتقلت النسطورية الى اليمن . وصلت اليها بالتبشير وبواسطة القوافل التجارية ، فقد كانت بين اليمن والحيرة علاقات تجارية وثيقة ، وكانت القوافل التجارية تسلك جملة طرق فى تنمية هذه العلاقات وتوثيقها . وقد قوي هذا المذهب ولا شك بعد دخول الفرس الى اليمن ، لما عرف من موقف رجاله من كنيسة الروم ، ولما كان لأصحابه من نفوذ فى بلاط « الشاهنشاه » ومن صداقته [٢] .

وتعزو التواريخ النسطورية انتشار النصرانية فى نجران الى رجل اسمه « حسّان » أو « حنّان » أو « حيان » ذكرت أنه ذهب فى أيام « يزدجرد » « ٣٩٩ — ٤٢٠ م » الى « القسطنطنية » للاتجار . فلما أنجز ما ذهب اليه ، عاد الى وطنه سالكاً اليه طريق « الحيرة » ، وهناك اتصل بنصاراها ، ودخل في النصرانية التي استهوته ، فلما بلغ نجران مدينته ، نشط فيها بنشر الدعوة اليها بين الناس حتى دخل فيها كثير منها ومن بقية حمير [٣] .

وفى بعض الموارد أن جماعة من اليعاقبة كانت قد التجأت الى الحيرة فراراً من الاضطهاد الذي أصابها فى ديار الشأم ، وذلك فى أيام « البطريق سيلاس Silas » « ٥٠٥ ـ ٥٢٣ م » ،

---

(١) أدي شير (٢/٢٠٨) .

(٢) النصرانية (١/٥٩ وما بعدها) ، Assemani, Bibl. Orient., 3, 603.

(٣) Eduard Sachau, S. 68, Chro. Seert, I, II, 330. f., Nallino, Raccolta, III, P. 123.

غير أن نساطرتها لم يسمحوا لها بالبقاء فيها ، فاضطرت الى الهجرة الى نجران ، وفى نجران بشرت بمذهبها بين أهلها [١] .

غير أن من الصعب علينا تعيين المذهب الذي كانت عليه أكثرية نجران ونصارى اليمن ، فان ما ورد عنهم فى الموارد الاسلامية التي تحدثت عن كيفية مجيء النجرانيين الى الرسول للدخول فى الإسلام لم تتحدث عن هذا الموضوع [٢] .

وقد بقيت النسطورية قائمة فى اليمن فى أيام الإسلام ، ففي الأخبار الكنيسية أن رئيس البطارقة النساطرة « طيموثاوس » ، نصب فى أواخر القرن الثامن للميلاد أسقفاً لنجران وصنعاء ، اسمه « بطرس » ، وأن ابن النديم صاحب الفهرست التقى براهب من نجران يدعى حسان ، كان قد أنفذه جاثليق النساطرة الى الصين ، فعاد منها سنة « ٣٧٧ » للهجرة ، وأخبره بعجائب تلك البلاد . وذكر أنه فى حوالي سنة ١٢١٠ للميلاد كان فى منطقة صنعاء خمسة أساقفة للنساطرة ، وأسقف فى مدينة زبيد وأسقف فى نجران ، وأنه كان فى حوالي سنة ١٢٥٠ للميلاد أسقف فى عدن [٣] .

إن بقاء النصرانية فى نجران يشير الى أن ما ذهب اليه كثير من المؤرخين من إجلاء أهل الكتاب بأمر الخليفة عمر بن الخطاب عن جزيرة العرب ثم بقية الخلفاء الذين ساروا على حكم : « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » فيه مبالغة [٤] . والظاهر أن الإجلاء كان قاصراً على المواضع التي تعرضت فيها جاليات أهل الكتاب فيها للإسلام بسوء . فطبق على يهود منطقة يثرب وشمال الحجاز الذين وقفوا موقفاً معادياً شديداً من الإسلام ،

---

(١) Chro. Séert, II, 144, Eduard. Sachau, S. 68.

(٢) Eduard Sachau, S. 68.

(٣) النصرانية (٦٧/١) .

(٤) « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً » ، البلدان (٢٦٣/٨) .

وساعدوا فى اثارة الفتن على المسلمين ، ومن يدري فلعلهم ولعل أهل الكتاب عموماً ساعدوا فى قيام الردة وتشجيع المتنبين والمرتدين للقضاء على الخطر الذي زعموه ، خطر ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة ، وقيام دولة موحدة كبيرة فيها . ومن يدري أيضاً ، فلعل الروم والأحباش كانوا أيضاً في جملة من كان يحرض أهل الكتاب على الدس للإسلام ، وهذا مما حمل الخليفة ومن جاء من بعده على اتباع قاعدة اجلاء الدساسين من أهل الكتاب مهما كان نوعهم عن جزيرة العرب لحماية الإسلام من خطر الفتنة ومن الردة، ولم تكن قواعده قد تركزت واستقرت استقراراً تاماً بعد .

أما اليعاقبة ، فقد انتشر مذهبهم بين عرب بلاد الشأم والبادية (١) ، وقد اصطدم هذا المذهب بالكنيسة الرسمية لانبراطورية الروم ، فعارضوا قرارات مجمع « خلقيدون » ، ولم يرضوا بمشاركة الخلقيدونيين ، كما عارضوا النساطرة واصطدموا بهم ، وجرت معارك دموية بين الطرفين .

واليعاقبة « Jacobite Church » ، ويدعون بـ « المنوفسيتيين Monophystte » « Monophysite » أيضاً أي القائلين بالطبيعة الواحدة ، لقولهم إن للمسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً فقيل لهم من أجل ذلك « أصحاب الطبيعة الواحدة » ، هم مذهب من مذاهب الكنيسة الشرقية ، نسبوا الى « يعقوب البرادعي Jacob Baradaeus » ويسمى بـ « جيمس James » أيضاً المولود فى حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد فى مدينة « الأجة » « Tella, Tela » من أعمال نصيبين فى شرق « الرها Edessa » والمتوفى في سنة ٥٧٨ للميلاد . ولد فى أسرة كهنوتية ، وتتلمذ لـ « ساويرس » الذي صار رئيساً على بطريركية أنطاكية فى عام ٥١٤ للميلاد ، ثم اضطر الى مغادرة أنطاكية الى مصر لاختلافه مع رجال الدين فى هذه المدينة في طبيعة الرب ، إذ كان يقول بوجود طبيعة واحدة فى المسيح ، ومنه

---

(١) Ency. Brita., 12, P. 859.

أخذ يعقوب رأيه هذا فى المسيح .

ذهب « يعقوب » مع « سرجيوس Sergius » فى حوالي سنة ٥٢٨ للميلاد الى القسطنطنية ، لحمل القيصرة « ثيودورة Theodora » على التأثير فى الكنيسة وحملها على الكف عن اضطهاد اخوانه القائلين برأيه فى طبيعة المسيح . وقد مكث فى القسطنطنية خمسة عشر عاماً ، وسعى سعياً حثيثاً في نشر مذهبه والتبشير به ، وهذا ما أوقعه فى نزاع مع بقية رجال الدين لخروجه على تعاليم المجمع « الخلقيدوني » الذي عين التعاليم الثابتة فى طبيعة المسيح .

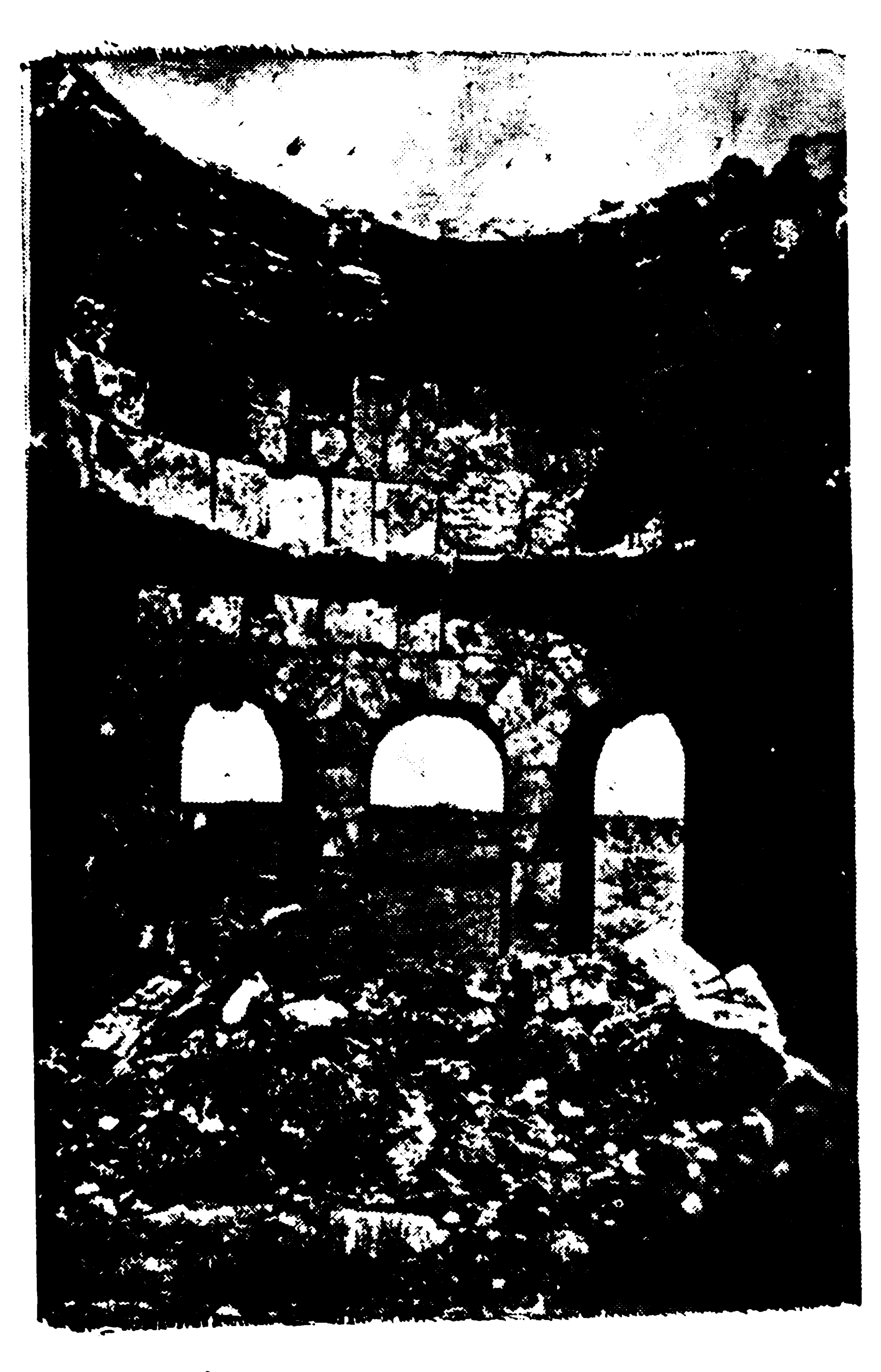
وكان من جملة تلاميذ « يعقوب » والمبشرين بتعاليمه « احودمة ، أحودمي » الشهيد الذي اغتيل بأمر كسرى أنوشروان فى ٢ آب من سنة ٥٧٥ م . وكان من المبشرين النشيطين ، ذهب الى « بني تغلب » وبشر بينهم ، وقد عرف هؤلاء بالأعراب سكنة الخيام ، وأقام بينهم كهاناً ورهباناً ، وبنى لهم ديراً عرف فى السريانية بـ « عين قنا » أي « عين الوكر » وديراً آخر بتكريت سمي « دير جلتاني » ؛ وكانت فى أيامه أسقفيّتان على العرب : أسقفية عرفت بأسقفية العرب ، وأسقفية التغلبيين أو « السن » وكرسيها بـ « عاقولا » « عاقول » و « عاقولا » هي الكوفة . أما كرسي أسقفية العرب ، فكان فى الحيرة [١] .

كذلك كان من تلاميذه « جيورجيس » « جرجيس » و « غريغور » ، وقد تمكنا بنشاطهما وتبشيرهما من نشر هذا المذهب فى بلاد الشأم وبين الأقباط والأرمن [٢] .

---

(١) ذخيرة الأذهان (٣٠٣/١) .

(٢) وللقائلين بالطبيعة الواحدة جملة أسماء ، منها المنوفيستيون والأوطاخيون نسبة الى أوطاخي من القائلين بالطبيعة الواحدة ، والديوسقوريين . راجع : أدي‌شير : تأريخ كلدو وآشور (١٣٢/٢) ، ذخيرة الأذهان (٢٠٨/١) ، النصرانية (٣٨/١ وما بعدها) ، المشرق : السنة الأولى ، الجزء ٦ (ص ٢٤٩) ، خلاصة تأريخ الكنيسة (٢٨٨/١ وما بعدها) .
Ency. Relig. Ethi., XII, PP. 172, Ency. Brita., 12, P. 860, Burkitt, Early Eastern Christianity, 1904.



الرصافة : من بقايا معبد صغير مسدس الأضلاع

المشرق : س ١٩٣٦ (مقابل ص ٢٥١)

وقد دخل أكثر الغساسنة في هذا المذهب ، وتعصبوا له ، وطالما توسطوا لدى الروم في سبيل حملهم على الكف عن اضطهادهم والتنكيل بهم . ظلوا مخلصين لهذا المذهب الى ظهور الإسلام . وقد نعت بعض ملوكهم بنعوت تدل على تنصرهم وتدينهم ، مثل : المحبين للمسيح والمؤمنين . وقد وردت في بعض المخطوطات اشارة الى كاهن دعي بـ « كاهن ذي العزة والمحب للمسيح البطريق المنذر بن الحارث » ، كما أنعم القياصرة على بعض ملوك الغساسنة بألقاب لا تمنح في العادة إلاّ لمن كان على دين النصرانية [1] .

وتذكر تواريخ اليماقبة قصصاً عن بعض هؤلاء الملوك يشير الى ذكائهم وتمسكهم في قواعد هذا المذهب وتعلقهم به ، ودفاعهم عنه ، وافحامهم بذكائهم وبعلمهم أيضاً لخصوم هذا المذهب من أصحاب المذاهب الأخرى ممن أرادوا اقناعهم بالخروج من المذهب اليعقوبي ونبذه ، مع ميلهم الى التوفيق بين المذاهب ومنع الفرقة بين النصارى ، كالذي ذكروه من مناظرة وقعت بين « البطريرك » افرام (٥٢٦ — ٥٤٥) وهو من بطاركة الملكيين والحارث بن جبلة ملك الغساسنة وهو على اليعقوبية ، وقد أفحم فيها الملك الحارث خصمه على ما يدعيه اليماقبة بذكائه وبقوة بديهته وحجته [2] ، وكالذي رووه عن تعنيف « المنذر بن الحارث » للبطريرك « دوميان » في أثناء زيارته للقسطنطنية ، لتهجمه على اليماقبة واثارته بهذا الهجوم الفرقة بين النصارى ، وطلبه منه الاتفاق مع « فولا » بطريرك « المنوفيزيستيين » أي اليماقبة على التآخي وتوحيد المساعي ، وكالذي ذكروه عن هذا المنذر أيضاً من كتابته الى القيصر « طيباريوس » للتدخل في حمل البطريرك والأساقفة على ايقاف حملاتهم على اليماقبة ، ولكي يسعى في اطلاق الحرية لجميع النصارى

---

(١) راجع عن انتشار المذهب اليعقوبي وعن المذهب النسطوري : ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان ، تأليف القس بطرس نصري الكلداني (١/١٣٢) ، النصرانية (١/٣٦) ، O'leary, P. 192

(٢) المشرق السنة الرابعة والثلاثون (١٩٣٦) (ص ٦١ وما بعدها) .

أن يصلي كل واحد منهم أينما شاء وحيثما شاء [1] .

ويظهر أن بعض الضجاعمة الذين كانوا يتولون حكم عرب الشأم قبل الغساسنة كانوا على دين النصرانية . غير أننا لا نستطيع أن نحكم على أي مذهب من مذاهب النصرانية كانوا . فذكروا أن « زوكوموس » ، وهو « ضجعم » جد الضجاعمة تنصر على يد أحد الرهبان ، وذلك أن هذا الرئيس كان متلهفاً الى مولود ذكر ، فجاءه هذا الراهب ، وتضرع الى الله أن يهبه ولداً ذكراً ، فلما استجاب الله له تعمد وتبعته قبيلته [2] .

وكان لليعاقبة مشهد مقدس يحجون اليه للتبرك به والنذر له ، هو مشهد القديس « سرجيوس » « سرجيس » في مدينة « سرجيوبوليس Sergiopolis» وهي « الرصافة » . وكان عرب بلاد الشأم اليعاقبة يتيمنون به ، ويضعون صورته مع الصليب على راياتهم أملاً في الفوز في المعارك . والى هذا القديس أشار الشاعر الأخطل بقوله :

لما رأونا والصليب طالعاً	ومار سرجيس وموتاً ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعا	خلّوا لنا راذان والمزارعا [3]

مما يدل على أن شهرة قبر هذا القديس ظلت بين النصارى حتى في أيام الإسلام .

وطالما قصد الأعراب كنيسة هذا القديس لتعميد أبنائهم هناك [4] . وقد كانوا يعقدون العقود عند قبره ، ويقسمون الأيمان عنده ، دلالة على التشديد فيها وصدقهم في الوفاء . وكان أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به ، ويقصدونه للتبرك به ، على عكس نصارى الحيرة الذين امتهنوا القبر في حروبهم مع الغساسنة ، واعتدوا على المدينة .

---

(١) المشرق : الجزء المذكور (٦٤) .　　(٢) النصرانية (١/٣٥) .

(٣) ديوان الأخطل (ص ٣٠٩) ، المشرق السنة الرابعة والثلاثون ١٩٣٦ كانون الثاني (٢/٢٤٧) ، النصرانية (١/٩٩) .

(٤) النصرانية (١/١٠٤) ، Riv. di. Studi. Orientali., I, P. 577, ff.



الرصافة : الباب الشمالي

نقلت من مجلة المشرق ، س ١٩٣٦ (مقابل ص ٢٥٠)

وقد كان نصارى الحيرة على مذهب « نسطور » ولذلك ، لم تكن لسرجيوس في نفوسهم منزلة ومكانة .

والنساطرة واليعاقبة والفرق الأخرى وإن عدت فرقاً منشقة خارجة على الكنيسة الرسمية للانبراطورية استعملت في كنيستها لغة شرقية هي لغة بني إرم ، لم يهجر رجالها اليونانية واللاتينية ، ولم يتبرؤوا منها . لقد كانت اليونانية واللاتينية ضرورية جداً بالقياس اليها لفهم الأناجيل وكتب التفاسير والفقه . ثم إنهم كانوا يدرسون الفلسفة والمنطق والعلوم الأخرى ، وهي باللغتين المذكورتين . ولتعليم أبناء هذه المذاهب تلك الكتب ، ترجموها الى لغتهم ، فساعدوا في نشر الأفكار اليونانية في المواضع التي وصلت اليها هذه المذاهب ، وساعدوا على الاتصال الثقافي بين الشرق والغرب .

وقد قام حفدة هؤلاء بترجمة تلك الكتب من السريانية في الغالب الى العربية ، فأتموا بذلك مشروعاً انسانياً عظيما ، بدأ به أجدادهم قبل الإسلام ، ثم سعى حفدتهم في انجازه في الإسلام .

ومن فرق النصرانية الشرقية « الركوسية » . وقد ذكر الأخباريون أن « الركوسية دين بين النصارى والصابئين » [1] ، وذكر أن النبي قال لحاتم الطائي : إنك من أهل دين يقال لهم الركوسية [2] . واذا صح هذا الحديث ، كان هذا المذهب من المذاهب التي كانت معروفة عند العرب عند ظهور الإسلام .

وهناك شيع عقائدها مزيج من اليهودية والنصرانية . وجدت سبيلها في جزيرة العرب ،

---

(١) أسد الغابة (٣/٣٩٢) ، المشرق السنة ١٩٠٣ (ص ٥٧٤ ، ٧٧٧ ، ٩٢٨) ، ١٩٠٥ (ص ٥٠٤) ١٩٠٧ (ص ١١٢٠) ١٩٠٨ (ص ٤٨٠) ، ١٩٣٧ ، (ص ٧٣ وما بعدها) .

(٢) اللسان (٧/٤٠٥) ، تاج العروس (٤/١٦٣) .

مثل الناصرين و « الابيونيين Ebionites » و « الـكسائيين Elkesaites » [١] .

أما « الأبيونيون Ebionites » ، فجماعة من قدماء اليهود المتنصرين عرفوا بهـذه التسمية العبرانية الأصل التي تعني « الفقراء » ، لا يعرف عن كيفية ظهورهم ونشـــوء عقيدتهم على وجه صحيح أكيد . وكل ما يمكن أن يقـال عن معتقداتها إنها مزيج من اليهودية والنصرانية ، وإنها نصرانية بنيت على أسس ودعائم يهودية ، فهي نصرانيـــة يهودية في وقت واحد .

وقد ذهب بعض قدماء المؤرخين الى أنهم إنما دعوا بهذه التسمية نسبة الى مؤسس هذا المذهب المسمى « ابيون Ebion » . غير أن من الصعب اثبات صحة هذا الرأي . وهم يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون ، وينكرون رأي « بولس » الرسول في المسيح ، ويحافظون على حرمة يوم السبت « Sabbath » وحرمة يوم الرب . وقد ذهب بعض قدماء من تحدث عنهم الى أنهم فرقتان بالقياس الى مولد الابن المسيح من العذراء [٢] .

ومن الشيع اليهودية النصرانية شيعة « الناصريين Nazarenes » ، وهم فرقة معارفنا عن أصلها وعن كيفية ظهورها قليلة كذلك . وأكثر ما نعرفه عنها مستمد مما كتبه عنها « افيفـانيوس Epiphanius » و « جيروم Jerome » . وقد أدخلهم « أفيفانيوس » في جملة « الهراطقة Heretics » ، وذكر أنهم كانوا يقرؤون النسخة العبرانية لانجيل متي « The Gospel of Mathew » وأنهم ظهروا في غور الأردن .

وقد اعترفوا بألوهية المسيح « ابن الله » ، قائلين إنه ولد من العذراء مريم ، واعترفوا برسالة القديس « بولس » ، كما حافظوا على ناموس موسى « Mosaic Law » « شريعـة

---

(١) النصرانية (١/١١١ وما بعدها) .

(٢) Ency Brita. . Vol. 7, P. 881 , «Ebionites» , Hastings , Ency. Reli. Ethic., 3 , P. 574.

موسى » ، وهم يرون أن ميلاد المسيح شيء خارق للمادة ، وأنه « المولود الأول من الروح القدس » (١) .

وأما « الكسائيون Elkesaites » ، ففرقة يظهر أنها ظهرت فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد فى وادي الأردن ، ومعناها اللغوي « القوى الخفية » فى لغة بني إرم ، وقد نبعت من اليهودية . وهي تنسب الى رجل اسمه « Elkesai » صاحب كتاب نسب اليه ، ويحافظ الكسائيون على الختان وعلى حرمة يوم السبت وعلى سائر أحكام الشريعة الموسوية ، وينسب اليه أنه كان يرى تحريم أكل اللحوم . والظاهر أن ذلك من وضع المستخفين بتعاليمه . وإنما كان يحرم أكل ذبائح الوثنيين وما أهل للأوثان . وقد حتم على أتباعه التوجه الى بيت المقدس فى صلواتهم ، ومنع التوجه الى الشرق . وهو يعتقد بوجود إله واحد ، وباليوم الآخر ، وبملائكته . ويرى أن الشياطين هي النجوم الكائنة فى المناطق الشمالية من السماء (٢) .

ومن أهم تعاليم « الكسائيين » الاغتسال ، أو ما يقال له « التعميد Babtism » ، وذلك بالاغتسال فى النهر أو فى البئر لغسل الأدران من الأجسام وتطهيرها . ويسمّي المغتسلُ « باسم الله العليّ العظيم » ، ويستعمل الغسل فى الشفاء من الآفات كذلك ، مثل عض الكلب المكلوب أو الحيوانات المؤذية واخراج الأرواح الشريرة من الجسم . ولذلك يمكن تسمية هذه الفرقة بالمغتسلة ، لجعلها الغسل من أهم أركان الدين .

وللخبز والملح أهمية خاصة لدى أصحاب هذا المذهب ، فهما بمثابة العهد عندهم . وهم فى ذلك على شاكلة يهود ، حيث يتمثل العهد « Convenant » عندهم بالملح وبالخبز (٣) ،

---

(١) Hastings, Ency. Reli. Ethic., 5, P. 141, Ency. Brita., 16, P. 178.

(٢) Hastings, 5, P. 263.

(٣) اللاويون الاصحاح الثاني ، الآية ١٣ ، العدد الاصحاح الثامن عشر الآية ١٢ ، أخبار الأيام الثاني الاصحاح ١٣ الآية ٦ .

ويقسمون بها الأيمان . وللأيمان عندهم قدسية كبيرة ، فلا يجوز لأي انسان كان أن يحنث بيمينه ، وأن يخالف ما أقسم عليه ، وإلا كان عقابه عظيماً عند الله .

وقريب من مذهب « الكسائيين » فى الاغتسال ما يذهب اليه الصابئيون فيه . فللغسل لتطهير الجسم من الآثام الظاهرة والباطنة ومن الأرواح الشريرة مقام كبير عند الصابئة ، ولهذا نراهم يختارون السكنى عند الآبار والأنهار .

ووجدت فرقة في بعض جهات بلاد العرب عرفت بـ « الفطائريين Collyridiens » بالغ أصحابها فى عبادة مريم وفى تأليهها ، وكانوا يقدمون لها نوعاً من القرابين أخصها أقراص العجين والفطائر ، لذلك عرفوا بالفطائريين . وقد ذكرهم « أفيفانيوس » فى كتاب الهرطقات [1] .

وعلى عكس هؤلاء كان من دعوا بـ « Antidicomarianites » ، وهم الذين أنكروا على مريم دوامها فى التبتل ، فسمّوا لذلك بالمعادين لمريم [2] .

وذكر أن فرعاً كان من الأريوسية ، أي من أتباع « أريوس » ، كان معروفاً بين العرب أطلق عليهم القديس « ايلاريوس » اسم « أقاقيين » نسبة الى « أقاقيوس » . كانوا يقولون إن المسيح ليس هو ابن الله ، لأن من قال ذلك جعل لله زوجة [3] .

ونذكر من بين من نسب الى النصرانية من الشعراء عدي بن زيد العبادي ، وهو من أهل الحيرة ، ومن أسرة كان لها شأن فى هذه الإمارة وفى بلاط « ملك الملوك » . كان يتقن العربية والفارسية ، وتوصل بفضل اتقانه للغتين الى الحصول على وظيفة مهمة جداً عند الفرس ، هي الوساطة بين أمراء الحيرة و « كسرى » ، وهي وظيفة جد خطيرة ، تجعل لصاحبها نفوذاً واسماً خاصة عند الأعراب ، حيث يكون الموجه الفعلي لهم ، وصاحب النفوذ العملي فيهم بما يقدمه للسلطات عنها وعن رؤسائها من تقارير .

---

(١) النصرانية (١/١١٣) . (٢) النصرانية (١/١١٣) .
(٣) النصرانية (١/١١٣) .

الفصل الثالث

اليهودية عند ظهور الاسلام

كانت اليهودية والنصرانية عند ظهور الإسلام فى جزيرة العرب معروفة ليس الى نكران وجودها فيها من سبيل ، ولا يعني وجودها فيها أنها كانت مجرد شيء موجود معروف ، بل نعني أنها كانت ذات حياة وحركة ونشاط . وقد كان القسيسون خاصة أهل نشاط وحركة ، يتنقلون مع القبائل ، ويقصدون الأماكن القصيّة للدعاية . أما اليهودية فقد كانت قانعة بما أوتيت ، وبما كسبته من مواطن وتجارة ، إن وجدت سبيلاً الى اقناع سادات القبائل والأمراء والملوك بالتهود وبالدخول فى دعوتها ، فذلك خير وتوفيق ؛ وإن لم تجد فى هؤلاء ميلاً الى اليهودية ، رضيت منهم با كتساب العطف والحماية ورعايتهم فى تحصيل ديونهم والأرباح التي يحصلون عليها من الربا ، وبالسماح لهم بالتجارة والبيع والشراء ، وهو ما يصبو اليه كل يهودي .

لذلك نستطيع أن نقول إن اليهودية كانت من ناحية الدعاية عند ظهور الإسلام جامدة خامدة ، لا يهمها نشر الدين بقدر ما تهمها المحافظة على الحياة وعلى المركز الذي توصلت اليه وعلى تجارتها التي تعود عليها بمال غزير . فكانت لهذا لا تهتم بحركة إلا اذا وجدت فيها فائدة لها ، ومنفعة ترتجى منها ، ولا تحارب رأياً إلا اذا وجدت أنه سيكون خطراً عليها ، فحاربت النصرانية فى اليمن لما رأت أن في انتشارها خطراً يهددها وقد يقضي عليها . ولما وجدت أن الروم يسيرون على سياسة معادية للساميين ، ونقصد بالساميين اليهود ، وأن

النصرانية مهما كانت كنيستها ، هي فرع من شجرة واحدة هي الشجرة التي يقدسها الروم ، فامتداد أي فرع كان منها الى اليمن ، كفيل بإلحاق الأذى الذي لاقاه إخوانهم من البيزنطيين . وحاربت الإسلام بعد هجرة الرسول الى المدينة ، لمّا تبين لها أنه دين يدعو الى ربّ العالمين ، وأنه لم يكن على نحو ما ظننته حينما سمعت بدعوة الرسـول وهو فى مكة ، وعندئذ ظهر الصراع بين اليهودية والإسلام فى الحجاز .

ولسنا نجد بين القبائل العربية يهوداً وفدوا اليها وأحباراً سكنوا بينها لإقناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين يهود . نعم ، لم يفعل اليهود هذا كما فعله النصارى ، ولهذا انحصرت سكنى اليهود عند ظهور الإسلام فى هـذه المواضع الخصبة وطرق المواصلات والتجارة البحرية والبرية من جزيرة العرب ، وانحصر عملهم فى الزراعة وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها ، ولا يزالون يمارسونها حتى الآن ، وفى تعاطي الربا والاشتغال بالتجارة . وهي أمور جعلت لهم نفوذاً عند رؤساء القبائل والأمراء والملوك ، وخلقت لهم بغضاء وأعداء بين السواد الأعظم من الناس ، بسبب اشتطاطهم فى أخذ الربا وحصولهم على غنى فاحش وأموال طائلة بطرق سهلة يأنف العربي القيام بهـا ، لاعتقاده أنها مما لا تتفق ومروءة إنسان شريف حرّ .

وقد كانت لليهود مدارس يتدارسون فيها أحكام دينهم ، وأحبار وحاخامون يعلمونهم أمور دينهم . وهم يكتبون بالعبرانية ، وتعرف عند الأخباريين أيضاً بالكتابة التي كتب بها الزبور . وفى كتب الأخبار والتواريخ إشارات الى اتّصال بعض رجال مكة ويثرب باليهود والاستفسار منهم عن أمور الرسل والأنبياء والماضين وعن بعض الأحكام ، وفيها كلمات عبرانية دخلت الى العربية باتصال العرب بهؤلاء اليهود ، كما أن هنالك قصصاً عبرانياً وجد له سبيلاً الى العربية يرويه القصاصون عن الرسل والأنبياء ، وأساطير لا يشك فى كونها إسرائيلية الأصل .

ولكن ، هل كان اليهود أنفسهم يقومون بنشر أقاصيصهم وأمور دينهم بين الناس ؟ وهل كان أحبارهم يلقنون غير اليهود أحكام التوراة والتلمود ؟ وهل فعل اليهود ذلك أو لم يفعلوه ؟ وهل ترجموا شيئاً من التوراة والتلمود الى العربيـة ؟ أو لم يترجموا شـيئاً منها ؟ الواقع أن الإجابـة عن أسئلة كهذه وعن أسئلة تشابهها ليست أمراً سهلاً هيناً ، فليس فى الذي بين أيدينا اليوم شيء يفيـدنا فى الإجابة عنها ، ولم يترك لنا الشعر المنسوب الى الجاهليين ما يفيـدنا أيضاً فى هـذا الباب ، كما أن روايات الأخباريين صامتة ساكتة لا تتحدث عن شيءٍ ما من هذا القبيل . وما نجده من قصص اسرائيلي وأخبار لها صلة أو بعض صلة بالتوراة وبالتلمود ، مردّه الى أناس عاشوا فى الإسـلام ، فيهم من أسلم لسانه وكفر قلبه من يهود ، فعمل على ادخال ما وعاه عقله من فهم لليهودية على نحو ما كانت عليه فى جزيرة العرب فى الإسلام ، وفيهم مسلمون أخذوا ما رووه من يهود لا أظن أن علمهم باليهودية كان راسخاً ، كما أخـذوا ما رووه من النصارى ، فشاع ذلك بين المسلمين فى الإسلام . فليس له إذن بالجاهلية صلة وثيقة وعلاقة ، ومن حقنا إذن أن نؤجل البحث فيه الى أيام الإسلام .

لقـد عُنِيَ المستشرقون بالبحث فى هذه الأمور ، وذهبوا كل ناحية بحثاً عن أثر يفيد فى هذا الباب ، ومحفزهم الأعظم فى ذلك هو إثبات أن الإسلام أخذٌ واقتباسٌ وتحريفٌ لليهودية والنصرانية . وقد انقسموا فى ذلك فرقتين متعصبتين : فرقة ترى أن الأثر الأكبر هو لليهودية ، وأن الإسـلام لذلك هو من أصل يهودي . وفرقة ترى أنه من النصرانية ، وأن النصرانية كانت منتشرة بين العرب قبيل الإســـلام ، فما جاء فى الإسلام هو من منبع نصراني . على أن هناك فريقاً آخر يتوسط بين الفريقين ، فيقـدم اليهودية أحياناً ، ويقدم النصرانية حيناً آخر ، وقد يذهب الى الأصول السامية المشتركة عند جميع الساميين فى بعض الأحيان .

ومن هؤلاء المتأثرين بالنظرية اليهودية المستشرق « دوزي » ، فقد ذهب مذهباً بعيداً جداً فى أثر يهود فى العرب قبل الإسلام ، حتى زعم أن بطون بني شمون هي التي عمرت الحرم ، وأن شعائر الحج هي من أصل إسرائيلي [1] . وقد فات دوزي كما فات غيره من القائلين بهذا الأثر أن ماتراه من قصص فى بطون الكتب وما يرويه أهل الأخبار هو نتاج قصص رواه نفر معروف من الأخباريين ، وقد أخذوه من نفر معروف أيضاً من أهل الكتاب من يهود ونصارى ومن مسلمة أهل الكتاب فى العراق وفى بلاد الشأم والحجاز ، وليس له صلة ما بالجاهلية ، وإنما حدث بعد وفاة الرسول ، فهو لا يصلح أن يكون دليلاً على أثر اليهودية فى الجاهليين .

وقد ذهب دوزي الى أن لليهود أثراً فى العرب حتى فى أسماء أيام الإسبوع ، فالسبت تسمية يهودية ، وعروبة وهي التسمية القديمة ليوم الجمعة هي تسمية يهودية كذلك ، ذلك أن اليهود كانوا يطلقون هذه التسمية على كل يوم يقع قبل السبت وقبل الأعياد . وقال بهذا الرأي وزاد عليه « ولفنسون » اليهودي فى كتابه « تأريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام [2] » وهو كلام يعوزه الإثبات والحجة . وكل ما استندوا اليه روايات أوردها الأخباريون . وروايات أهل الأخبار ضعيفة فى الغالب ، ثم إنها وضعت فى الإسلام بتأثير أهل الكتاب . ومن هنا لا يجوز لنا قبول هذه الروايات بالقياس الى بحثنا فى الجاهليين .

ومن هؤلاء المغالين فى أثر اليهودية فى العرب وفي الاسلام ، « ابراهيم كايكر » « Abraham Geiger » في كتابه « ماذا أخذ محمد من اليهودية ؟ Was hat Mohammed aus dem Judenthume aufgenommen ? » [3] و « سمث R. B. Smith » [4] وغيرهما ممن

---

(١) اليهود (ص ٨٧) ، Dozy, Israeliten te Mekka
(٢) اليهود (ص ٨٤ وما بعدها) .
(٣) Abraham Geiger, Was hat Mohammed aus dem Judenthume aufgenomen ?, Bonn , 1833. Leipzig, 1902
راجع ترجمته الانكليزية . F. M. young, Judaism and Islam, Madras, 1898.
(٤) R. B. Smith, Mohammed and Mohammedanism, London, 1889.

ذهبوا الى وجود أثر كبير لليهودية فى العرب وفي الإسلام بوجه خاص [١].

وإذا كان لليهود أثر فى الجاهليين ، فإن أثرهم محصور بالطبع في الجاهليين الذين كانوا على اتصال مباشر بهم ، ثم هو أثر محدود يقتصر على المثقفين من أهل الجاهلية ممن كان لهم رأي وبصر وتفكير فى شؤون الكون والحياة . وهو لا يتجاوز فى نظري ما نعرفه من أثر يهود فيمن يختلط بهم من غير أبناء دينهم ، فى الزمن الحاضر وفى سائر الأزمان . فليس من طبع اليهودي ولا من طبع دينه الاهتمام بتعليم غير اليهود أحكام يهود وشريعتها . فاليهودية ديانة قومية خاصة بهذا الشعب ، وان كان اليهودي قد قام بنشر أساطير يهود وقصص رجاله من أنبياء وملوك ، فهذا شيء ، وذاك شيء آخر . هذا تبجح بالماضي ، وتباه بالأيام السالفة ، وايصال لسبب الحاضر بسبب الماضي ، ثم ايناس للخاطر وترفيه عن النفس ، وإفهام للشعوب التي يعيشون فيما بينها معيشة الأقليات بأنهم كانوا فى الماضي شيئاً ، كانوا شيئاً عظيماً ، بل فوق العظمة ، وأنهم من صلب جماعة لم تخرج أنبياء فقط ، بل أخرجت أبطالاً وانبياء أبطالاً أمثال داوود وسليمان ، وأن مجدهم القديم آتٍ لامحالة ، وأنهم سيكونون الناس . وهذا شيء لاعلاقة له بحكم ولا بشريعة ودين . ولهذا أشاعوه وأذاعوه ونشروه في الجاهلية وفى الإسلام ، ومن بقاياه هذا الذي نجده فى كتب الأخباريين .

أما قضية الاشتراك فى الألفاظ ووجود كلمات عبرانية فى العربية ، فلا يمكن أن تكون دليلاً على أن تلك الكلمات هي من أصل عبراني دخل الى العربية بالاقتباس والأخذ من العبرانيين . فالعرب والعبرانيون ، هم من مجموعة لهجاتها متقاربة ، وأصول كلماتها مشتركة . فللحكم فى أخذ أحدهم عن الآخر ، يجب الرجوع الى موضوع السامية ، وورود هذه الكلمات عند الساميين ، ثم إلى الاختلاط والاتصال التأريخي بين الشعوب السامية . ولا

Abraham Katsh, Judaism in Islam, New york, 1954. (١)

أدري لِمَ نرْجِعُ كل فكرة دينيـة أو اجتماعية أو غيرها نراها عند العرب الجاهليين الى أصل عبراني أو إرمي ، ولا نرجعها الى أصل عربي أو الى أصل سامي مشترك ؟ إن الحكم في قضية يجب أن يقوم على أدلة قاطعة مقنعة ، وليس في أيدينا اليوم دليل ما من هذا النوع . اللهم ، إلا الألفاظ ، والألفاظ ، وإن كانت مهمة جداً في الدراسات المقارنة ، ليست على كل حال دليلاً قاطعاً .

لقد كان من السهل في الماضي ، أي قبل عثورنا على نصوص عربية جاهلية في جزيرة العرب ، الادّعاء بأن الكلمة الفلانية من أصل عبراني ، وأن الفكرة الفلانية مأخوذة عن العبرانية ، وأن الرأي الفلاني رأي أخـذ من يهود . أما اليوم ، وقد عثرنا على نصوص جاهلية عديدة بلهجات متعددة وعلى نصوص بلغة النبط وبلغة بني إرم وبلغات سامية أخرى ، فينبغي التفتيش عن طرق جـديدة من طرق البحث لإعطاء أحكام في المعطي والآخذ ، في المؤثر وفي المتأثر ، ثم في الأصول المشـتركة التي يتفق فيها جميع الساميون لمعرفة المؤثر الصحيح والناقل الآخـذ ، وإلّا كانت أحكامنا فجّة ناقصة متأثرة بالعاطفـة والنزعـات .

ولقد خلا الشعر الجاهلي عن الكلام على اليهودية ، وطبيعة روايات أهل الأخبار هي ما عرفناها ، فمصدرنا الوحيد عن اليهودية عند العرب وعند ظهور الإسلام هو القرآن الكريم ، وما ورد فيه من اشارات عن التوراة وعن أحكامهم فيه ، ثم ما أفاضت فيه من ذلك كتب الحديث والتفسـير وروايات أهل الأخبـار ، واليهود المذكورون هم بالطبع يهود أهل الحجاز . فمن القرآن الكريم ومن الحديث وكتب التفسـير وما يتعلق بالسيرة النبويـة نستمد علمنا عن هؤلاء اليهود عند ظهور الإسلام .

عرف اليهود عند الجاهليين بـ « اليهود » « يهود » ، وبـ « بني اسرائيل » ، وقد وردت التسميتان في القرآن الكريم . كما أشار القرآن الكريم الى تهودهم ايضاً بلفظتي « هوداً »

و « هادوا » [1] . وقد تغلبت كلمة « يهود » عليهم . وأصلها من « يهودا » [2] ، « يهوذا » ، وهم سبط من أسباط بني اسرائيل ، سموا بهذا الاسم تمييزاً لهم عن الأسباط العشرة الذين سمّوا « اسرائيل » الى أن تشتت الأسباط وأسر يهوذا ، فمن ثمّ دعي جميع نسل يعقوب « يهوداً » [3] . ويهودا جدّ هذا السبط ، هو رابع أولاد يعقوب في عرف العبرانيين ، وقد عينه أبوه حاكماً على إخوته الأحد عشر سبطاً ، فاستمر رئيساً وحاكما الى أن مات ، فانتقلت الرئاسة الى أولاده الى أيام موسى حيث قسم العبرانيين بعد خروجهم من مصر الى أربع فرق ، جعل في مقدمتها الفرقة التي فيها سبط يهودا . وبعد وفاة سليمان ، انقسمت مملكة العبرانيين الى قسمين : مملكة يهودا وسبط بنيامين وعاصمتها القدس ، وقد عرفت بيهودا ؛ لأن أكثريتها من هذا السبط . ومملكة اسرائيل ، وهي من بقية الأسباط العشرة ، وعاصمتها مدينة « شمرون » وهي نابلس ، الى أن انقرضت ، فصاروا كلهم بالقدس تحت طاعة ملوك يهودا ، الى أيام بختنصر حيث أجلاهم الى بابل . فعرفوا لذلك ببني يهودا ، وقيل للواحد منهم يهودي ، وصارت التسمية علماً على جميع العبرانيين [4] .

ولفظة يهود ، أعمّ من لفظة عبرانيين وبني اسرائيل ، ذلك أن لفظة يهود تطلق على العبرانيين وعلى غيرهم ممن دخل في دين يهود وهو ليس منهم . وقد أطلق الاسرائيليون وأهل يهوذا لفظة يهود على أنفسهم وعلى كل من دخل في ديانتهم تمييزاً لهم عن غيرهم ممن

---

(١) البقرة الآية ١١٣ وما بعدها ، المائدة ١٨ ، ٥١ ، ٨٢ ، ٧٨ ، آل عمران ، ٦٧ ، الشعراء الآية ١٩٧ ، الأحقاف الآية ١٠ ، البقرة الآية ٤٠ وما بعدها ، الآية ٤٧ ، ٨٣ ، ٢١١ ، ومواضع أخرى ، البقرة الآية ٦٢ ، ١١٠ النساء الآية ٤٥ ، ١٥٨ ، المائدة الآية ٤٤ ، ٤٧ ، الجمعة : الآية ٦ .

(٢) الملوك الثاني : الاصحاح السادس عشر ، الآية ٦ .

(٣) قاموس الكتاب المقدس (٥٢٧/٢) .

(٤) القراؤون والربانون (ص ١١ وما بعدها) .

لم يكن على هذا الدين ، وهم الغرباء [١] .

وقد أطلقت لفظة « بني اسرائيل » على الاثني عشر سبطاً الذين خرجوا من مصر الى فلسطين ، إلى أن كانت ثورة « يربعام » ، فانحازت الأسباط العشرة وألفت مملكة اسرائيل . أما السبطان الباقيان ، فقد كونا مملكة يهودا [٢] . وقد أستعمل العبرانيون لفظة « عبرانيين » مرادفةً لـ « اسرائيليين » ، ولكنهم كانوا يُؤْثِرُون عليها لفظة « اسرائيليين » . وبعد السبي سموا يهوداً ، غير أن كلمة « عبرانيين » ظلت مستعملة للدلالة على من تمسك بلغته وثقافته تميزاً له عمن أُستعمل اللغة اليونانية [٣] .

وقد كان اليهود ينعتون من جاورهم من العرب بالأميين . ولا يعنون بهذه الكلمة ، كما يتوهم الكثير ، الجهلَ بالقراءة والكتابة ، بل يعنون بها شيئاً بمعنى القوم « كوييم » « جوييم » ، أي الغرباء [٤] ؛ لأنهم في نظر أنفسهم هم الشعب المختار الذي اختص بالوحي والنبوّة والأنبياء . أما غيرهم ، فكانوا قد حُرِمُوها ، إذ لم يعطوا هذه المزايا التي أُمتاز بها بنو إسرائيل ، فهم غرباء وشعوبٌ من الدرجات الدنيا ويعرفون عندهم بـ « كوييم » « Goyim » جمع « كوى ، جوى Goi » . فهي تسمية عامة تطلق على كل من هو غير يهودي [٥] .

فلفظة « أمي » هي مرادفة لـ « كوى Goi » العبرانية التي يراد بها « الغرباء » و « الدخلاء » ، وهي تقابل « Ethnos » في اليونانية . وهذه اللفظة اليونانية معناها

---

(١) « وهم أعم من بني اسرائيل ، لأن كثيراً من أجناس العرب والروم وغيرهم قد دخلوا في اليهودية وليسوا من بني اسرائيل » ، صبح الأعشى (١٣/٢٥٣) ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٥٢٨) ، Hastings , P. 455.

(٢) قاموس الكتاب المقدس (١/٩٣ وما بعدها) .

(٣) قاموس الكتاب المقدس (٢/٦٦) .

(٤) المشرق : جزء تشرين الثاني ١٩٣١ (ص ٨٢٠) .

(٥) القراؤون والربانون : مراد فرج (١٨٢) . « شركة مطبعة الرغائب بمصر » ، A. J. Katsh, Judaism in Islam, New York, 1954, P. 73.

« الشعب » . فاليهود كانوا يميزون أنفسهم عن غيرهم من الشعوب باسم « بني اسرائيل » و « يهود » ، وينعتون غيرهم بما قدمت من نعت . أما قدماء الإسرائيليين ، فكانوا إذا تحدثوا عن إسرائيل كأمة أي جماعة « People » قالوا « عم » . أما إذا أرادوا شعباً « Nation » ، قالوا : « كوى Goi » [1] . وقد رأينا أن كلمة « عم » كانت معروفة عند العرب الجنوبيين . وقد تحدثت عنها في الجزء الخامس من هذا الكتاب .

وقد ورد في القرآن الكريم : « فإنْ حاجُّوك ، فَقُلْ : أسلمتُ وجهي لله ومن اتَّبَعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأُميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدَوْا ، وإن تولَّوْا فإنما عليك البلاغُ ، واللهُ بصيرٌ بالعباد » [2] . والمراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى . أما الأُميّون ، فقصد بهم الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب [3] . ومصطلح « كوي » عند العبرانيين في هذا المعنى تقريباً وإن كان في حكم العلمية ، فقد قصد به عندهم كل من ليسوا يهوداً ، وهم في نظرهم وثنيون .

وورد في آية أخرى : « هو الذي بَعَثَ في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا من قبل لفي ضَلالٍ مبين » [4] . وقد ذهب المفسرون الى أن المراد من الأميين في هذه الآية من لا يحسن القراءة والكتابة. ولكن منطوق معنى الكلمة في هذه الآية لا يختلف عن منطوق معناها في الآية السابقة . وما جاء بعد هذه الكلمة من : « رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة » لا يشير حتماً إلى أمّية القوم بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة ، بل معنى الوثنية وعدم انصياعهم لأحكام كتاب الله ، أي الكتب المنزلة والحكمة . ولهذا خاطبهم بقوله : « يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا

(١) Hastings, P. 646.　　(٢) آل عمران : الآية ٢٠

(٣) تفسير الطبري (٣/١٤٣ وما بعدها) ، الكشاف (١/١٨١) ، تفسير الطبرسي (١/٤٢٢) .

(٤) الجمعة الآية ٢ .

من قبل لفي ضلال مبين » . وهذا الخطاب يلائم هذا المعنى ويناسبه .

وللأمية اليوم معنى آخر هو العامّية . وأقصد بالعامّية الجهل بالأمور وعدم الفهم والإدراك . وفرق بين هذا المعنى وبين الجهل بالقراءة والكتابة ، إذ يجوز أن يكون الإنسان عامياً في تفكيره ورأيه وثقافته بصورة عامة مع تمكنه من القراءة والكتابة . وكم من دارس في الغرب حامل لشهادات عالية هو أمي في تفكيره وفي تصرفه في أمور الحياة بالنسبة الى نفسه وبالنسبة الى علاقاته بالآخرين .

وفي القرآن الكريم في مَعْرِض كلامه على اليهود : « ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيَّ وإنْ هم إلاّ يظُنُّون . فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يَكْسِبُون » (١) . والمقصود بالكتاب في هذه الآية التوراة . وواضح منها أيضاً أن المراد منها ليس الجهل بالقراءة والكتابة ، وإنما العاميّة والتلاعب بأحكام التوراة . وعدم وقوف عامة يهود عليها وفهمهم لها إنما كان وقوفهم على « أماني » أي ملفقات وأكاذيب وضعها وصنعها الأحبار للحصول على ملك ومال باُسم الشريعة والتوراة (٢) .

ويفهم من هذه الآية أن عامة يهود لم تكن تفقه شيئاً من التوراة ، إنما كانت تتلقى وتأخذ ما يقوله ويشرحه لهم علماؤهم ، وعلماؤهم في العربية هم الأحبار .

والظاهر أن غالبية يهود لم تكن تعرف العبرانية أيضاً ، وإنما كان شأنها شأن أكثرية يهود العالم : تدين باليهودية وتقيم الشعائر والفروض ، ولكنها لا تحسن لغتها ، ولا تفقه اللغة الأصلية للعهد القديم ؛ لتكلمها بلغة البلاد التي تقيم فيها وتثقفها بثقافتها .

وكيف نزعم أن الجاهليين كانوا أميين جميعاً ، ليس بينهم قارىء أو كاتب ، وقد كان

---

(١) البقرة الآية ٧٨ وما بعدها .

(٢) الكشاف (١/٧٨) ، الطبرسي (١/١٤٤) ، روح المعاني (١/٣٠١) . تفسير الجلالين (١/١١) .

كثير منهم يقرأون ويكتبون ؟ بدليل آثارهم الكتابية التي تركوها لنا ، وبدليل ما يورده لنا أهل الأخبار من وجود أناس بين قريش كانوا يقرأون ويكتبون ، وبدليل ما أوردوه عن صحيفة لقيط وعن الحنفاء من أنهم كانوا يقرأون ويكتبون ولهم علم ونظر فى علم الأولين . وقد كان لتفسير كلمة الجاهلية بالجهل ، الذي هو ضدّ العلم دخل كبير فى تكوين هذه الفكرة المغلوطة عن أميّة الجاهليين ، ولا شكّ .

وقد كانت لليهود مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم ، وأيامهم الماضية ، وأخبار الرسل والأنبياء ، وما جاء فى التوراة والتلمود والمشنا ، وغير ذلك . عرفت بين الجاهليين بـ « المدراس » و « بيت المدراس »[1] « المدراش » . وأطلقوا على الموضع التي يتعبد اليهود فيه « الكنيس » و « كنيسة اليهود » تميزاً لهذه الكنيسة عن « الكنيسة » التي هي لفظة خاصة بموضع عبادة النصارى[2] .

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الكنيسة كلمة معربة من « كنشت » وهي لليهود ، والبيعة للنصارى . وذهب بعض آخر الى أنها متعبد الكفار مطلقاً[3] .

وقد أخذ الجاهليون مصطلحهم هذا من العبرانيين ، من لفظة « مدْراش Midrash » التي هي من أصل « درش darash » التي تقابل « درس » فى العربية ، وتؤدي هذه الكلمة المعنى المفهوم من لفظة « درس » العربية تمام الأداء . ويقصد بالمدراش درس نصوص التوراة « Bible » وشرحها وتفسيرها وايضاح الغامض منها وأسرارها وأمثال ذلك ، وينهض بذلك المفسر الشارح « درشن Darshan » ، ولكل طريقة وأسلوب . وقد نجمت عن هذه الدراسة ثروة أدبية ودينية طائلة للعبرانيين . نتجت من اتّباع جملة

---

(١) اللسان (٣٨٢/٧) ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (١٢٠/٢) ، صحيح مسلم (١٢٢/٥) ، البخاري « كتاب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب » الحديث ٦ .

(٢) اللسان (٨٣/٨) ، المعرب (٨١) ، النصرانية القسم الثاني الجزء الأول (ص ٢٠١) .

(٣) تاج العروس (٢٣٥/٤) .

طرق فى الشرح والتفسير ، منها « مدراش هلاخة Midrash Halaehah » ، و « مدراش هاكاده Midrash Haggadah » ، وتختلف هذه فى كيفية اتباع طرق العرض والشرح والتفسير [1] .

ولم يكن المِدْراس « المدراش » موضع عبادة وصلوات حسب ، بل كان الى ذلك دار ندوة ليهود ، يجتمعون فيه في أوقات فراغهم لاُستئناس بعضهم ببعض وللبحث فى شؤونهم ، وللبت فى القضايا الجسيمة الخطيرة على اُختلاف درجاتها . فهو اذن مجمع الأحبار ومجمع الرؤساء والسادات وأصحاب الشرف فيهم ، واليه كان يقصد الجاهليون حين يريدون أمراً من الأمور أو الاستفهام عن شيء يريدون الوقوف عليه ، واليه ذهب الرسول وكبار المسلمين لمحادثة يهود ومجادلتهم فيما كان يحدث بينهم من خلاف أو من أمر يريدون البت فيه . ويقال إنهم عرضوا أمام الرسول كتبهم ، فكان يقرأها له بعضهم ممن دخل فى الإسلام كعبد الله بن سلام أو بعض المسلمين ممن كان له علم وفهم فى العبرانية لغة يهود .

وعرفت مساجد اليهود ، أي المواضع التي كانوا يصلون بها ، بالمحاريب جمع مِحْراب . وقد جاءت الاشارة اليها فى بيت شعر منسوب الى « قيس بن الخطيم » [2] . أما فى النصرانية ، فقد خصصت الكلمة بصدر الكنائس ، وذلك على ما يفهم من الكلمة فى الإسلام [3] .

وعرف علماء اليهود ورجال دينهم ـ فى الإسلام ـ بـ « الأحبار » جمع « الحَبْر » وبـ « الربانيين » ، وقد وردت الكلمتان فى القرآن الكريم [4] . وللاسلاميين آراء فى

---

(١) Ency. Brita., 15, P. 458, Moore, Judaism, 1, 125, uni. Jew. Ency., VII P. 538. f.

(٢) Margoliouth, P. 73.

(٣) النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٧٤) .

(٤) المائدة الآية ٤٤ ، ٦٣ ، التوبة الآية ٣١ ، ٣٤ .

أصل « الحَـبْر »[1] ، وهم يذكرون أن من معانيها العالم ، والرجل الصالح[2] . واللفظة من الألفاظ المعرّبة عن العبرانية ، أصلها « حبر Haber » وجمعها « حبريم Haberim » ، ومعناها « الرفيق Comrade » و « Associate » ، وكانت ذات مدلول خاص ومعنى معين . وقد أطلقت فى العهد التلمودي على العضوية فى جمعية معينة ، فأطلقت فى العصر الأول والثاني للميلاد على من كان من « الفروشيم » ، وهم شيعة يهودية أقسمت على نفسها بمراعاة النصوص الدينية « اللاويّة » على نحو ما نزلت وعلى نحو ما يفعله اللاويّون . وللفظة « حبر » أهمية كبيرة عند اليهود ؛ فإنها تشير الى العلم والمعرفة ، وإن كانت لا تصل الى درجة « رابي Rabbi » . ولا تزال مستعملة عندهم فيمن درس الشريعة اليهودية والعلوم الشرعية وتقدم فيها وأتقن الأحكام ، وقضى بين الناس ، غير أنها دون درجة « Rabbi »[3] . فهي فى العبرانية بمعنى عالم ولكن دون المعنى المفهوم فى العربية عند علماء اللغة الاسلاميين ، فهذا المعنى هو فى مقابل لفظة « رابي » ، أي « ربّان » لا « حبر » .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من رجال يهود ممن أدركوا الإسلام ، ذكر عنهم أنهم كانوا أحباراً ، وأنهم كانوا أصحاب علم بالتوراة وبكتب الأنبياء . وفى مقدمة من ذكروا ، عبد الله بن صورى الأعور ، قالوا : إنه لم يكن بالحجاز فى زمانه من كان أعلم بالتوراة منه ، وإنه كان من بني ثعلبة بن الفطيون . ويقولون : إن الفطيون كلمة تقال لمن يلي أمر اليهود وملكهم ، كما أن النجاشي تقال لمن يلي ملك الحبشة[4] .

أما « الربانيون » ، فهم العلماء بالحلال والحرام والأمر والنهي ، على رأي بعض العلماء الاسلاميين . وقال بعض آخر : الربّان العالم الراسخ فى العلم والدين ، أو العالم العامل المعلّم ،

(١) حبر بالضم وبالكسر . (٢) تاج العروس (٣/١٢٠) ، اللسان (٥/٢٢٨) .
(٣) اليهود (ص ٢٠) . The Universal Jewish Ency., Vol., 5, P. 143.
(٤) ابن هشام (٢/١٣٦) « حاشية » ، « طبعة محمد محي الدين عبد الحميد » .

أو العالي الدرجة فى العلم . صار لها مدلول خاص فى الإسلام ولا سيما عند المتصوفة . وفرق بعضهم بينها وبين الأحبار بأن جعل الأحبار أهل المعرفة بأنباء الأمم وبما كان ويكون ، وذهبوا الى أنها من الألفاظ المعربة عن العبرانية أو السريانية [1] . وهي من الألفاظ التي وردت فى القرآن الكريم فى أثناء الكلام على علماء يهود [2] .

ولفظة « رابي Rabbi » ، لفظة مؤلفة من كلمتين هي : « ربّ » و « ي » الضمير المتكلم ، فهي « ربّي » فى العربيـة ، وهي تقابل كلمة « ربوني Rabboni » في كتابات تدمر بلهجة بني إرم [3] ، ويراد بـ « رب Rab » أستاذ . فـ « ربي » بمعنى « أستاذي » . وأما « ربينو Rabbénu » ، فهي « ربّنا » في عربيتنا ، وتعني أستاذنا . و « ربّان » « Rabbàn » فى لهجة بني إرم [4] ، وتطلق على العالم المتبحر فى علوم الشريعة ، فهي بمعنى أستاذ فى الدين ، ويخاطب بها رجل الدين . أما علماء الدين ، فلا يطلقونها على أنفسهم حين التحدث عن أنفسهم ، بل يقولون « Talmidhé Hakhàmim » أي « تلميذ الحكيم » [5] .

ومعنى « رب » فى عبرانية التوراة « السيد » و « العظيم » . أما فى العبرانية المتأخرة ، فتعني « السيد » ، وذلك نقيض « ‘ébhedh » أي « عبد » ، و « Rab » هي أصطلاح يهود بابل. أما « Rabbi » ، فاصطلاح يهود فلسطين . أما « ربّان Rabban » ، فقد أطلقتها بعض الفرق المسيحية على الراهب القسيس . وقد يفرق بين هذه الألفاظ من حيث أستعمالها بالنسبة الى منازل رجال الدين ودرجاتهم [6] .

---

(١) تاج العروس (١/٢٦٠) ، « والربن المتقدم فى شريعة اليهود » ، (٩/٢١١) ، المعرب للجواليقي (ص ١٦١) .

(٢) المائدة : الآية ٤٤ ، ٦٣ ، آل عمران الآية ٧٩ .

(٣) Hastings , P. 780. (٤) Ency. Brita., 18 , P. 860.

(٥) Ency. Brita., 18 , P. 860.

(٦) اللؤلؤ المنثور في تأريخ العلوم والآداب السريانية : تأليف أغناطيوس أفرام الأول برصوم ، حمص ١٩٤٣ (ص ٤٩٩) ، Ency. Brita. , 18 , P. 860 , Uni. Jew . Ency. , 9, P. 48.

وكلتا « ربي » و « ربّان » وإن كانتا من المصطلحات القديمة ، بدأ شـيوعهما واطلاقهما على رجال الدين خاصة منذ القرن الأول للميلاد . ولم يكن الربّانيون فى أيام التلمود يأخذون أجوراً على أعمالهم ، بل كانوا يقومون بذلك قربة الى الله . ولهذا كانوا يشتغلون بالتجارة وببعض الحرف للتعيش منها . وقد كانوا يتمتعون بحرمة عظيمة فى المجتمع . فإذا غادر أحدهم موضعه الى مكان آخر ، شيعه أهل ذلك الموضع الى مسافات بعيدة ، كما يستقبله أهل الموضع المقصود من مسافات بعيدة عنه . وإذا جلس فى مكان ، خيم السكوت عليه أحتراماً له . وكان على الربّان بأعتباره ممثلاً للتوراة أحترام نفسه ، والأمتناع عن القيام بأعمال عديدة مثل الشرب أو الأكل في الأسواق وفى المحلات العامة ، إلا إذا كان ذلك لاحتفالات دينية ، وعليه لبس ملابس خاصة تميزه عن بقية الناس . وبالجملة ، فانه لما كان رجل الدين وممثل شريعة الله ، لزمه أحترام منزلته ومكانته ، وعلى الناس إطاعته ؛ وإلا خالفوا شريعة الله .

ويتبين من القرآن الكريم أنه قد كان للأحبار والربّانيين نفوذ عظيم على اليهود ، فكانوا يطيعون أوامرهم ويفعلون ما يأمرونهم به ، وأن غالبيتهم لم تكن تفقه شيئاً ولا تعرف من أحكام دينها إلا ما يقوله لهم أولئك الأحبار [١] . وبعض هؤلاء الأحبار هم من المقيمين فى جزيرة العرب فى المواطن التي أقامت فيها يهود ، وبعض منهم كان يأتى الى يهود العرب من فلسطين ، ولا سيما من « طبرية » التي اكتسبت شهرة عظيمة بعد خراب « أورشليم » حيث استقر فيها « السنهدريم » وغدت مركزاً عظيم للعلوم عند اليهود [٢] وفيها جمعت « المشنا » « المشنة Mishna » و « الماسورة » الكتاب الذي يبين كيفية تحريك كلمات التوراة .

أما « المشنا » « المِشْنَه » ، فيقصد بها مجموعة من التفاسير الواردة عن التوراة تسمى

---

(١) التوبة الآية ٣١ . (٢) قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٦) .

« هلوخوث Halachoth » ، أي القوانين والأحكام ، رتبها وجمعها « يهودا النـاسي » « Judah Hanasi » المعروف بـ « الرئيس Rabbi » . وآخرون ، وذلك في أوائل القرن الثالث للميلاد .

ولد يهودا الناسي سنة ١٣٥ م وتوفي حوالي سنة ٢٢٠ م ، واكتسب شهرة عظيمة في فهم الشريعة والأحكام عند اليهود ، حتى لقب عندهم بلقب « هـانسي Ha - Nasi » ، أي الأمير ، وهو لقب مهم جـداً كان أول من ظفر به ممن جاء بعد « هيلل Hillel » ، وبلقب « رابي Rabbi » وهو من الألقاب المحترمة المهمـــة كذلك ، وبلقب ثالث هو « القدس ha - qadosh » وهو لقب يتحدث بنفسه عن منزلة هذا العالم في نفوس يهود .

لم يـكن « يهودا » أول من كتب « المشنة » ، بل لقد سبقه الى تفسير التوراة علماء عديدون جاؤوا قبله بمئات من السنين ، فسروها بالمشافهة والرواية ، كما فسروها كتابة . وقد اشتهرت كلها عند الأحبار والمشتغلين بتفسير التوراة . ولما كان من الصعب المحافظة على المتون بطريق الرواية والحديث ولا سيما بعد ظهور اختلاف في هذه الروايات ، فقـد جمعت تلك الروايات ، وكان جمعها بعد أيام « شماي Shammai » و « هيلل Hillel » . وقـــد عرفت هذه المشنة بـ « المشنة السابقة Mishna Rishonah » . ومن جملة من كانت له قدم وسابقة « رابي عقيبا Rabbi Aqiba » و « رابي مئير Rabbi Meir » وآخرون ، غير أن كتب « المشنة » التي وضعها هؤلاء لم تبلغ شهرة « مشنة » « يهودا الناسي » ، لاشتمالها على ما ورد سابقاً ، ولتمحيصها في اللغة وفي تفسير مواضع غامضة من التوراة . وقد ساعده في عمله هـذا تلاميذه ، وكتبها بأسلوب الإصحاحات المتأخرة من العهد القديم وبالعبرانية الحديثة التي كانت شائعة في فلسطين في القرن الثاني للميلاد [١].

وتتألف « المشنة » من أقسام ، وتسمى « سَدريم Sedarim » ، وهي كلمة إرمية

---

(١) Hastings , P. 890.

بمعنى « سفر Orders » . ويتألف كل سفر من جملة فصول « Massechtoth » ، ويتألف كل فصل من أقسام أخرى تسمى « perek » وكل قسم من فقرات « مشنة Mishnah » .

ويسمى السفر الأول من هذه الأسفار الستة بـ « زرعيم Zera'im » أي « الزراعة » لتناوله الزراعة واستغلال الأرض . ويتكون من أحد عشر فصلا . أما السفر الثاني ، فيسمى بـ « موعيد Mo'ed » أي الأعياد . ويتناول البحث في حرمة السبت « Sabbath » والأعياد ، ويتألف من اثنى عشر فصلا . وأما السفر الثالث ، فيسمى « نشيم Nashim » أي النساء ، ويبحث في الزواج وفي الطلاق وفي الأسرة ، ويتألف من سبعة فصول . وأما السفر الرابع ، فيسمى « نزكين Nezikin » ، أي الأذى « الأضرار » . ويبحث في الأضرار والجنايات وأنواع الأذى والعقوبات ، ويسمى أيضاً بـ « يشوأوث Yeshu' oth » أي ضمان الضرر ، ويتألف من عشرة فصول . وأما السفر الخامس ، فيسمى بـ « قودشيم « Qodashim » أي في الأشياء المقدسة وهو في الذبائح والنذور ، وما يقدم للمعابد وأمثال ذلك ويتألف من أحد عشر فصلا . وأما السفر السادس ، فيسمى بـ « تهاروث « Tohàroth » أي الطهارة ، وهو في اثنى عشر فصلا ، وهو في الطهارة والنجاسات(١) .

وقد تضمنت أسفار المشنة ما ورد عن السلف من آراء في التحليل والتحريم ، والإباحة والحظر ، وفي الفصل في المشكلات ، وفي الأمور الأخرى التي أشرت اليها وغير ذلك مما له علاقة بتنظيم حياة الانسان . ونسب فيها كل رأي الى قائله ، ولذلك نجد فيها روايات متناقضة متضاربة وفتاوى متعددة جمعت فيها كلها على أنها أحاديث من غير نقد ولا ترجيح . وهذا ما اضطر بعض علماء التلمود الى استعمال الرأي للترجيح بين الروايات ، تجنباً لهذا التناقض الذي يربك رجال الدين اذا طلب منهم حكم من الأحكام(٢) .

وأما « الماسورة Massorah » ، فكتاب في ضبط كلمات التوراة وبيان مواقعها من

---

(١) القراؤون والربانون (ص ٣٦ وما بعدها) ، Univer. Jew. Ency., 7, P. 581, f. Hastings, P. 890.

(٢) القراؤون والربانون (ص ٣٨) .

الاعراب [١] ، لئلا يقع فيها أختلاف . ويقال لضابطي النص « Massoretes » وإذ كانت هنالك قراءات متعددة وأختلافات نشأت عن تهيب قدماء العبرانيين من تدوين نصوص الأسفار ، دوّنت النصوص « Kethibh » في المتن ، ودونت مختلف القراءات « Qeré » في الحواشي [٢] .

و « المشنة » هي أحد جزءي « التلمود » ، ويقال للجزء الثاني الـ « كمارة » « Gèmàrà » . و « الكمارة Gémàrà » كلمة إرمية الأصل من « كمر » « جمرُ » ، أي أتم وأكمل ووفى وعلّم ، ويقصدون بها مجموع المناظرات والتعاليم والتفاسير التي قام بها كبارُ الربّانيون بعد أنتهاء « المشنة » . وهم يعتقدون أن أولئك العلماء قد أتموا العمل الذي بدأ به الأنبياء والربانيون وأكملوه بهذا الإنتاج الذي جمعوه ، ولهذا أطلقوا عليه هذه الكلمة « كمارة » أي التمام والكمال والأنتهاء . وتكمل « الكمارة » المشنة ، وأطلقوا على الأثنين اسم « التلمود » [٣] .

وتعني الـ « تلمود Talmud » التعليم والتهذيب « Learning, Teaching » في العربية ، من « لَمَدَ » ، ومنها لفظة « تلميدا Talmidà » بمعنى « التلميذ » أي طالب علم [٤] . ويقسمه العلماء الى قسمين : تلمود فلسطيني ، وتلمود بابلي . ويقولون للأول تلمود « يروشلمي Jerushalmi » ، وللثاني تلمود « بابلي Babli » ؛ لأن الأول هو من وضع أحبار فلسطين ، وضعوه هناك ولا سيما في « طبرية » التي كانت المركز الرئيس للحركة العلمية عند اليهود بعد الميلاد . والثاني ألفه أحبار اليهود الذين سكنوا العراق .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٦) . (٢) Hasings, P. 909.

(٣) القراؤون والربانون (ص ٣٩) ، قاموس الكتاب المقدس (١/٢٩٠ وما بعدها) .
Univer. Jew. Ency., 10, 160, Hermann Strack, Introduction to the Talmud and Mishna, 1931.

(٤) القراؤون والربانون (ص ٣٨) ، معجميات عربية — سامية جونيه (لبنان) ١٩٥٠ (ص ١١٤ وما بعدها) .

وقد أثر التباين الثقافى فى هذين القطرين في التلمودين ، فظهر الأثر الثقافي العراقي في التلمود البابلي ، كما ظهر الأثر الثقافي الفلسطيني في التلمود الفلسطيني ، فبينما نرى طابع المحافظة على النقل والرواية من غير إبداء أي رأي واجتهاد أو مناقشة أو ترجيح في التلمود الفلسطيني ، نرى التلمود البابلي وقد تحرر من طريقة أهل الرواية والنقل بعض التحرر ، وظهر فيه شيء من المناقشات والترجيح والرأي والاجتهاد [1] . ومن هنا كان التلمود البابلي أغنى مادة من ناحية استعمال الرأي والاجتهاد عند الأحبار ، وأعمق أثراً فى دراسة التطور الفكري وتطور المعرفة عند العبرانيين . وكان أضخم من التلمود الفلسطيني إذ بلغ حجمه ثلاثة أمثاله [2] .

والتلمود مادة ضخمة من روايات ونقول تحتاج الى نقد وترتيب وتصنيف . وهي ، على كونها أهم ما تركه الأحبار من أثر وتراث ، غير منسقة ، ولا مبوبة تبويباً يتناسب مع وحدة الموضوع والترتيب المنطقي ، وفيها الى ذلك تعابير ومصطلحات لا تسهل ترجمتها ترجمة صحيحة تطابق الأصل . وهي خليط ، جمع كل شيء مما حفظ عن الأنبياء والأحبار : فيها قضاء ، وفيها أحكام ، وفيها قصص وفيها أساطير ، وفيها آراء لأحبار فى موضوع واحد تمثل وجهات نظر متباينة [3] ، وهي على الجملة تمثل عقلية أصحاب المذاهب المحافظة التي تتمسك بحرفية النقل وبقدسية الروايات ، ولا تذهب مذهب الرأي والاجتهاد .

هذا والتلمود الفلسطيني أقدم عهداً من التلمود البابلي ، وقد كمل فى نهاية القرن الرابع للميلاد ، أما التلمود البابلي ، فقد كمل فى القرن السادس للميلاد [4] .

وللتلمود قدسية عظيمة عند العبرانيين ، وهو عند الربّانيين مثل التوراة ، وحي نزل من الله على موسى . ولكن التوراة مكتوبة ؛ لأن الله أنزلها وَحْياً مكتوباً على موسى .

(١) Hastings , P. 891. (٢) Ency Brita., 21, P. 770.

(٣) Ency Brita., 21, P. 771.

(٤) القراؤون والربانون (ص ٣٩) ، Hastings, P. 891

أما التلمود ، فهو وحي غير مكتوب ، لأن الله أمر موسى ألاّ يكتبه ، وإنما يبلغه مَنْ بعده روايةً ، لذلك عرف عندهم بالتوراة الشفوية وبالتوراة غير المدونة . ولهذا رجح كثير من المتدينين حفظ التلمود وروايته ، محافظة على هذا العرف الذي رسخ فى أذهانهم من أن الله لم يأمر موسى بتدوينه وإنما كلفه حفظه وروايته للناس [1] . ولكن أنَّى للذاكرة أن تتمكن من حفظ مجلدات ضخمة من كلام منثور ، فيه روايات متناقضة ، وآراء متضاربة ، ثم روايته على نحو ما قيل بألفاظه وبحركاته التي ضبط بها . ولهذه الصعوبات اُضطروا الى تدوينه وضبطه ، قام بذلك أحبار فلسطين ثم أحبار بابل ، فكان من ذلك تلمود فلسطين وتلمود بابل كما ذكرت .

وقد طبع جزءا التلمود منفصلين عن الآخر . ولم يطبعا معا [2] . ويظهر أن سبب ذلك ما توارثوه عن اُختلاف وجهة نظرهم الى التلمودين .

وقد عرف الأحبار — الذين عاشوا فى ما بين وفاة « هليل Hillel » و « شماي Shammai » فى « حوالي سنة عشرة قبل الميلاد » ووفاة « يهودا الناسي Judah Hanasi » بعد سنة « ٢٠٠ » للميلاد — بـ « المعلمين Tannaim » من كلة « تنّا Tanna » ومعناها « التعليم » . وهم خلفاء « السوفوريم Soforim » ، يبلغ عددهم أكثر من « ٢٠٠ » « معلم » [3] . وبعد الفراغ من « المشنة » فى عهد « يهودا الناسي » هجر اليهود تسمية الأحبار المشتغلين بالمشنة « المعلمين Tannaim » ، وصاروا يسمونهم « أمورايم Amoraim » أي الشراح والمفسرين [4] .

أما « السُوفوريم Soforim » أو « الكتّاب » ، فمن مصدر « سَفَر » بمعنى كتب وحسب وعدّ وأحصى وأخبر وأنبأ وحبر وفقه وأبان وعلم ، ومنه « السفر » أي

---

(١) القراؤون والربانون (ص ٤٢) .
(٢) Uni. Jew. Ency., 10, P. 160.
(٣) Uni. Jew. Ency., 10, P. 170. (٤) Hastings, P. 891.

الكتاب . ويراد بهم طبقة حبست نفسها على نسخ التوراة وحفظ التواتر والعناية بالفقه والتعليم . وهم من أيام « عزرا Ezra » « منتصف القرن الخامس قبل الميلاد » الى ظهور علماء المشنة [١] . وقد قام « السوفوريم » بتفسير التوراة « Torah » للناس ، والتوراة أساس الشريعة عند العبرانيين [٢] .

وفي أواسط القرن الأول للميلاد ، تطوّر معنى لفظة « هاخاميم Hachamim » الى معنى « السوفريم Soferim » ، أي الحبر المتخصص بالشريعة ، ثم أستعملت في هذا المعنى كلمة أخرى هي « ربانيم » أي الربانيون [٣] .

و « أمورايم Amoraim » من « أمر Amar » أي تكلم وترجم . وقد أطلقت على من كان يقف الى جانب الحبر أو الواعظ ليعيد ويشرح للحاضرين ما يقوله الحبر والواعظ وغيرهما من كبار رجال الدين عن أمور الشريعة ، وذلك بصوت هادىء جهوري مفهوم . فإذا كان الخطاب بالعبرانية ، قام الـ « أمورايم » بترجمته الى الإرمية الدارجة التي كان يتكلم بها سواد اليهود يومئذ . وقد عرف هؤلاء في الأصل بـ « متركمن Meturgeman » « مترجمان » و « تركمن Turgeman » « ترجمان » ، وذكرت هذه اللفظة في التلمود الفلسطيني . ومنذ القرن الثالث للميلاد حلّت « أمورايم » محل هذه اللفظة [٤] .

وأطلقت أيضاً ، منذ وفاة يهودا الناسي « سنة ٢١٩ م » ، الى الانتهاء من التلمود البابلي حوالي سنة (٥٠٠) للميلاد ، على الذين كانوا يفسرون المشنة . وقد نعت « أمورايم » فلسطين وخوطبوا بـ « ربي Rabbi » . أما « أمورايم » بابل ، فقد نعتوا

---

(١) القراؤون والربانون (ص ٢٨ وما بعدها) .

(٢) Uni. Jewi. Ency., 9, P. 587.

(٣) Uni. Jew. Ency., 9, p. 587, Ency. Reli. Ethi., 11, p. 271. ff., Jew. Ency., 11, p. 123.

(٤) Uni. Jew. Ency., I, P. 277, Jewish Ency., I, P. 527, f., Dubnow, Weltgeschischte des Jüdischen, Bd. 2.

وخوطبوا بلفظة « رب Rab » و « مار Mar » [1] .

وفي طرق التفسير والشرح بين « الأمورايم » الفلسطينيين والبابليين فروق ، فقد تجنب الفلسطينيون التفاسير والشروح الطويلة ، وساروا على طريقة أسلافهم « المعلمين » « Tannaim » ، ولم يتعمقوا في نقد النصوص اللغوية والصعوبات الأخرى ، وخالفهم البابليون ، فكانوا يشرحون كلمات المشنة ويتعرضون لكل معضلة لغوية يرونها في النصوص ، ليحاولوا شرحها وتفسيرها ، ويبدوا رأيهم فيها دون أن يتقيدوا تقيداً حرفياً بآراء أسلافهم الشراح « المعلمين » . وبذلك كوّنوا آراءً وأفكاراً جديدة كثيرة ، وحلّوا معضلات عديدة ، حتى قيل عنهم إن في استطاعة « الأموارايم » البابلي إدخال الفيل من سم الخياط [2] .

ولا بد لنا من الإشارة الى الـ « هَلاخة Halachah » و « الهكادّه Haggadah » . ومعنى الأولى « الطريقـة » و « الذهاب » ، ومعنى الثانية « حدّث » و « قصّ » . وقـد وردت الأولى على هـذه الصورة « هلخوت Halakhoth » أي « الطرق » بصيغة الجمع ، ويعنون بها العرف والعادات والشعائر المحفوظة والمروية عن قدماء العبرانيين والتي دونت وجمعت فيما بعد [3] ، ويراد بها الشريعة التي لم تنزل مـدونة ، فهي مقدسة ، لأنها دستور سماوي يجب العمل به ، وإن لم ينزل مكتوباً على موسى . فهو يشمل عندهم ما يقال له شريعة موسى غير المـكتوبة « halachah Lemosheh Misinai » [4] .

ويرى نقدة التوراة أن التوراة « تورا Tora » نفسها هي « هلاخة Halachah » في الأصل . أما المتدينون ، فيرون أن « التوراة » هي الشريعة المـكتوبة المنزلة على موسى . أما « الهلاخة » ، فهي شريعة أوحاها الله الى موسى ، غير أنه أوحاها اليه وحياً من غير تدوين .

(1) Uni. Jew. Ency., I, P. 277.
(2) Uni. Jew. Ency., I, P. 278.
(3) Hastings, P. 891.
(4) Uni. Jewi. Ency., 3, 173.

وتشمل « الهـكادة Haggadah » القصص والحـكايات المروية عن التوراة ، مثل قصص الأنبياء والأبطال والأساطير التي لها صلة بهذه الموضوعات ، وتشمل أيضاً التنجيم والطب والسحر والفلسفة وما الى ذلك مما له علاقة بالدين وكل ما له صلة بالأساطير الشعبية « Folklore » عند العبرانيين [1] .

وهناك « هلاخة » غير قانونية « Apocryphal Halakhah » ، وقد نعتوها بهذا النعت لأن « يهودا الناسي Jehuda hanasi » لم يضمها الى « المشنة » ، إنما جمعها ودونها عدد من الأحبار أهمهم وأشهرهم « Rabbi Chijja » . وقـد ضمت في مجموعة واحدة عرفت بـ « بريثه Baraitha » . ولإغفال « يهودا الناسي » لها وعدم تدوينه لها ، عَدَّها المتدينون غير قانونية [2] .

وقد أطلق القرآن الكريم على أسفار اليهود ، أى كتبهم المقدسة « التوراة » [3] . وعرفت بهـذه التسـمية في الحديث وفي كتب التفسير ، وصارت علماً لها فى الإسلام . كذلك أطلقت هذه اللفظة على معابد اليهود ، ولم يعرف ورودها فى الشعر الجاهلي خلا بيتاً ينسب الى شاعر جاهلي يهودي اسمه « سماك » [4] .

ولفظة « توراة » من الألفاظ المعربة ، ومعنى « تورا Törah » فى العبرانية « الشريعة » . وقد قصد بكلمة « توروث Töröth » فى « سفر الخروج » فرائض الله وشريعته [5] . وهي تشمل الأحكام المحفوظة ، أي الأحكام التي توارثها الآباء عن

---

(١) Hastings, P. 891.

(٢) Hastings, P. 891, H. Strack, Einleitung in Talmud and Midrash, (5 Ausgabe) (1921), Bd. 2, S. 99. ff., uni. Jew. Ency., 2. P. 79.

(٣) آل عمران : الآية ٣ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٩٣ ، المائـدة : ٤٦ وما بعدها ، ٤٩ ، الصف : الآية ٦ ، الفتح : الآية ٢٩ ، الجمعة : الآية ٥ .

(٤) Ency., IV, P. 706.

(٥) سفر الخروج : الاصحاح الثامن عشر ، الآية ١٥ .

الأجداد وعملوا بها عرفاً وعادة من غير أن يكون لها أصل مكتوب ، ويقال لها « Törāh Shebe' al peh » ، والأحكام المدونة المنزلة وتسمى « Törāh Shebbikh 'Thabh »[1]

وأصل معنى « توره » « تورا » اللغوي في العربية « دلّ » و « أورى » و « هدى »[2] . ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء في أصل الكلمة ، حتى ذهب بعضهم الى أنها عربية . ولكن ذوي أكثريتهم ترى أنها عبرانية ؛ لأن لغة موسى كانت العبرانية ، وبهذه اللغة نزلت التوراة . ثم هم يختلفون في تعيين حدود التوراة ، فيرى بعضهم أنها خمسة أسفار[3] ، ويرى بعض آخر أنها أكثر من ذلك ، وأنها تشمل الزبور ونبوة أشعيا وسائر النبوات ، لا يستثني إلا الأناجيل[4] .

وليس في القرآن الكريم تحديد لأسفار التوراة ، ولكن اقتران اسم موسى بها في بعض الموارد منه يشير الى أن المراد بها ما يقال له بـ « الأسفار الخمسة Pentateuch » عند الغربيين . من أصل يوناني مركب من كلمتين ، هما « Penta » بمعنى « خمسة » و « Teuchos » بمعنى « كتاب » . ويقابل هذا التعبير جملة « Hamishah Humshe Torah » العبرانية التي تختصر أيضاً فيقال « خمش Humash » بمعنى الأخماس الخمسة للشريعة . ويراد بها ما يقال له أسفار موسى ، وهي : التكوين «Cenesis» ، و« الخروج » « Exodus » ، و « اللاويين Leviticus » ، و « العدد Numbers » ، و « التثنية » « Deuteronomy » . وهذه الأسفار الخمسة هي الأسفار المنزلة المكتوبة التي نزلت على موسى على رأي قدماء العبرانيين . ثم توسعوا في مدلول اللفظة فيما بعد ، فأطلقوها على جميع

---

(١) Hastings, P 532, Ency. Religi., 7, P 587, Guignebert, The Jewish World in The Time of Jesus, London, 1939, PP 62, Adolphe Lods, Israel from its Beginnings to the Middle of The Eighth Century, Landon 1932, P 312 f

(٢) اللسان (٢٠/٢٦٥ وما بعدها) « ورى » ، تاج العروس (١٠/٣٨٩) ، القراؤن والربانون (١٧٩) ، Uni. Jew. Ency., 10, p. 267, Katsh, p. 191.

(٣) صبح الأعشى (١٣/٢٥٤ وما بعدها) .

(٤) Katsh, p. 191.

الأسفار التي يقال لها الـ « العهد القديم » ، وأطلقتها بعض الفرق على غيرها من الأسفار ، مثل : « الأنبياء Nebiim » ، و « الأسفار » « الـكتب » « Kethubim »[1] .

وقد أورد القرآن الكريم في مخاطبة يهود وتقريعهم قصصاً عن الأنبياء والمرسلين والأمم القديمة ، منه ما هو مذكور عندهم في الأسفار الخمسة ، ومنه ما هو وارد عنـدهم في « الهـكاده » وفي « المشنة » . ولما كان احتكاك الإسلام بيهود كان لأول مرة في منطقة يثرب ، صارت معظم الاشارات الواردة فى القرآن الـكريم الى التوراة فى السور المدنية لمخاطبة الوحي لهم ، وتوجيه الكلام مباشرة اليهم ، ولم ترد تلك التسمية في الآيات المـكيّة إلا في موضع واحد هو في سورة الأعراف[2] .

والمراد من « الـكتاب » الذي أنزل على موسى ، والمذكور في مواضع من القرآن الـكريم التوراة [3] ، أي هـذه الأسفار الخمسة التي نتحدث عنهـا . وهو تعبير قرآني لا نستطيع أن نقول إنه كان من مصطلحات الجاهليين ، كما أننا لا نستطيع نفي ذلك ، إذ يجوز أن يـكون الجاهليون قد أطلقوه على تلك الأسفار ، أو على العهـد القديم كله ، بمعنى هذه الأسفار وبقية ما ورد فيها من أخبار الأيام والملوك والأنبياء .

ولما تقدم ، قصد بعبارة « أهل الـكتاب » الواردة في مواضع من القرآن الـكريم اليهودُ في الغالب ؛ لأنهم أصحاب كتاب موسى ، وبينهم كان نزوله ، ولذلك عرفهم به .

ولم يشر القرآن الى لغة التوراة عند يهود الجاهليين ، ولـكن المفسرين وعلماء الحديث يشيرون الى أنها كانت بالعبرانيـة ، وأنهم كانوا يفسرونها لمن يسألونهم من يهود أو من غيرهم مثل المسلمين بالعربيـة [4] . ولم نجد في الشعر الجاهلي مقتبسات من التوراة ،

---

(١) uni. Jew. Ency., 10, P. 268, Katsh, P. 191. f.

(٢) الأعراف : الآية ١٥٧ ، Ency., IV, P. 706.

(٣) « ولقد آتينا موسى الـكتاب » ، البقرة : الآية ٧٨ ، روح المعاني (٣١٦/١) ، تفسير الطبرسي (١٥٥/١) .

(٤) « عن أبي هريرة : كان أهل الـكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية =

وأكثر هذا الشعر هو في المدح والهجاء وفي وصف أمور الحياة ، وليس لهذه صلة مباشرة بالكتب المقدسة وبأمور الدين . أما الكتابات الجاهلية ، فلم يرد فيها ما يشير الى التوراة حتى الآن . ولذلك ، فكل ما نعرفه عن التوراة عند اليهود أو النصارى العرب قبل الإسلام ، هو هذا الذي ورد في القرآن الكريم وفي كتب التفسير والحديث .

أما « الزبور » و « الزبر » ، فقد وردتا في القرآن الكريم . ويراد بـ « الزبر » في بعض الآيات مثل : « وإنّه لَفي زُبُرِ الأوّلين » [1] الكتب المنزلة القديمة . وقد وردت الكلمتان في بعض الشعر المنسوب الى الجاهليين كامرئ القيس [2] والمرقش الأكبر [3] وأمية بن أبي الصلت [4] . وذكر علماء اللغة أن معنى زبر كتب ونقش [5] . ويرى بعض المستشرقين احتمال كونها من الكلمات العربية الجنوبية . ويرى بعض آخر أنها من أصل « مِزْمور Mizmor » العبراني . و « مزمور Mazmör » في اللهجة السريانية ، و « مزمور Mazmùr » في الحبشية . أخذت الكلمة وأجري عليها بعض التغيير حتى

= لأهل الإسلام . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله » ، « كتاب تفسير القرآن » سورة البقرة : ٢ رقم ١١ » ، البخاري (١٩٨/٣) « طبعة ليدن » .

(١) الشعراء : الآية ١٩٦ .

(٢) أتت حجج بعدي عليها فأصبحت ... كخط زبور في مصاحف رهبان

وينسب اليه أيضاً هذا البيت :

لمن طلل أبصرته فشجاني ... كخط زبور في عسيب يماني

شرح ديوان امرىء القيس ، تأليف السندوبي (ص ١٨٤) قصيدة رقم ٨٦ . النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٨٤) .

(٣) وكذاك لا خير ولا ... شر على أحد بدائم

قد خط ذلك في الزبو ... ر الأوليات القدائم

اللسان (١٦/٣) ، النصرانية : القسم الثاني الجزء الثاني (ص ١٨٤) .

(٤) وأبرزوا بصعيد مستو جرز ... وأنزل العرش والميزان والزبر

كتاب البدء (١٤٦/٢) ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٨٤) .

(٥) النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٨٥) .

صارت على هذا الشكل [١] .

وقد وردت لفظة « الزبور » مفردةً في موضعين من القرآن الكريم ، في سورة النساء [٢] وفي سورة الأنبياء [٣] . أما في الموضع الأول فقد ورد فيه « وآتينا داود زبوراً » ، ومعنى هذا أن زبوراً أو كتاباً من الكتب المنزلة نزل على داوود . أما الموضع الثاني ، فقد أشير فيه الى « زبور » معرف بأداة التعريف « ال » « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون » . ولكن لم يضف الى أسم نبي من الأنبياء كما رأينا في الموضع السابق . وقد فسر بعض المفسرين كلمة « الزبور » في هذا الموضع بمعنى الكتاب وكتب الله المنزلة ، أي على التعميم لا التخصيص [٤] .

ويراد بالزبور ما يقال له « المزامير » في الترجمات العربية للتوراة ، و « Psalms » في الانكليزية ، من أصل « Psalmos » اليونانية التي هي ترجمة لفظة « مزمور Mizmor » العبرانية ، ومعناها المدائح والأناشيد . وهي أناشيد شعرية تُرنّم في حمد الإله وتمجيده ، ولذلك قيل لهذه المزامير « تحلّيم Tehillim » في العبرانية . و « Tillim » على سبيل الاختصار ، و « Tillin » في لهجة بني إرم [٥] .

وعدة المزامير « ١٥٠ » مزموراً ، وهي تختلف في الطول وفي القصر ، وتكون ثلث ما يقال له « كتوبيم Kettubim » في العبرانية بمعنى الكتب ويراد بالثلثين الآخرين الشريعة « التوره Torah » التي تعني أسفار موسى . وهي الأسفار الخمسة التي تحدثت عنها سابقاً ، و« الأنبياء Prophets » . ولا يعرف أصحاب هذه المزامير ، إنما ينسب ثلاثة وسبعون منها الى « داوود » ، ولذلك عرفت بمزامير داوود [٦] . ولعل هذه المزامير هي

---

(١) Ency., IV., P. 1184.
(٢) الآية ١٦٣ .
(٣) الآية ١٠٥ .
(٤) تفسير الجلالين (٢/٣٣) .
(٥) Uni. Jew. Ency., 9, P. 13.
(٦) Uni Jew. Ency, 9. P. 16

زبور داوود المذكور فى القرآن الكريم .

ويفهم من بيت منسوب الى الشاعر أمية بن أبي الصلت أن المراد بـ « الزبر » الكتب التي تدون فيها أعمال الإنسان من خير أو شر فيحاسب عليها [١] . فالزبر فى هذا المعنى بمثابة « الكتاب » فى الإسلام ، أي الكتاب الذي يقدم لكل إنسان يوم القيامة ، وفيه ما قام به من عمل ليحاسب عليه . وقد رأينا القرآن الكريم قد استعمل « الزبر » بمعنى الكتب أيضاً ، غير أنه خصصها بالكتب المنزلة على الأنبياء ، أي الكتب السابقة للقرآن الكريم .

يظهر مما تقدم أن الجاهليين أو بعضهم كانوا يزون مثل اليهود والنصارى وجود كتب منزلة ، وأن المتقدين منهم بوجود حساب وكتاب بعد الموت كانوا يعتقدون أن كتاباً سيعرض أمامهم يوم الحشر ، فيه أعمال كل إنسان من شر وخير ، وآيةُ ذلك أُستعمال كلمة « الزبر » بهذا المعنى فى تلك المواضع المذكورة من الشعر الجاهلي إن صح أن ذلك الشعر هو حقاً من صنع شعراء جاهليين .

وقد أشار القرآن الكريم الى وجود اختلاف بين بنى اسرائيل فى فهم كتاب الله وتفسيره ، وأنهم أنقسموا لذلك شيعاً وأحزاباً [٢] . ولا يستبعد أن يكون هذا الاختلاف شاملاً ليهود الحجاز أيضاً ، كأن يكون أحبارهم قد ساروا فى اتجاهات مختلفة فى التفاسير وفى شرح الأحكام ، وكان أصحابهم يتعصبون لهم ويتحزبون ، على نمط الأعراب فى عصبيتهم لقبائلهم ، وفى اتباع أقوال ساداتهم دون تعقل وتفكير . أما مواضع الاختلاف

---

(١) وأبرزوا بصعيد مستو جرز وأنزل العرش والميزان والزبر

النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٨٤) .

(٢) آل عمران ١٩ ، فصلت ٤٥ ، النمل ٧٦ ، الجاثية ١٦ . الشورى ١٤ .

ومواطن الفرقة التي كانت تفرق فيما بينهم ، فلا نعرف اليوم من أمرها شيئاً ؛ لأنها لم تدون ولم تذكر ، ولم يشر القرآن اليها ، ولكنها على كل لا تخرج ولا شك عما نعرفه من خلاف فى أوجه النظر فى المسائل المعروفة حتى اليوم فى أمور الفروع .

ولم يظهر فى يهود جزيرة العرب من حاز على شهرة فى العلم والفقه والتأليف والخطابة على نحو ما ظهر بين يهود العراق أوفلسطين أو مصر ، وإلاّ لاشتهر أمره وذاع خبره ، كما ذاع خبر علماء يهود بابل وفلسطين ومصر . ولا يمكن أن تكون عزلتهم عن بقية يهود الأقطار المذكورة سبباً كافياً في تعليل عدم شيوع اسم أحد من هؤلاء ؛ إن قضية عزلتهم عن بقية إخوانهم فى الدين ، هي نفسها تحتاج الى سند يثبت وجود تلك العزلة . فمواضعهم في أعالي الحجاز ، على اتصال ببلاد الشأم ، وهي لا تبعد كثيراً عن مساكن إخوانهم فى فلسطين . ثم إنهم كانوا على اتصال مستمر بهم بالتجارة ، وقد كانوا يشترون حاصل بلاد الشأم من خمور وحبوب وما شاكل ذلك ، وينقلونه الى يثرب ، يذهبون اليها للتعامل والاتجار ، فكيف يكون يهود جزيرة العرب في معزل عن غيرهم مع وجود الأسفار والتجارة لا سيما أن أحبار طبرية — كما ذكرت — كانوا يأتون الى يهود اليمن ليلقنوهم أمور الدين ، ولا يستبعد أن يكون من بين أولئك الأحبار من ذهب الى يهود يثرب أو خيبر أو تيماء .

فالقضية ، على ما يظهر ، ليست قضية عزلة يهود جزيرة العرب عن بقية يهود وانفصالهم بذلك ثقافياً وعلمياً عن بني دينهم انفصالاً يؤثر في مستواهم الثقافى والعلمي ، فيجعلهم دون غيرهم من اخوانهم فى العلم والثقافة ، إنما يظهر أن هنالك جملة عوامل حالت دون نبوغ أحد فيهم . فيهود جزيرة العرب مهما قيل عنهم وعن رقيهم وارتفاع مستواهم عن مستوى من كان فى جوارهم ، لم يكونوا في ثقافتهم وفي مستواهم الاجتماعي أرقي من الفلاحين وسكان القرى وما اليها فى العراق أو فلسطين أو مصر ، كما أن حالتهم المادية لم

تمكن على مستوى عالٍ بحيث يمكن أن تقاس بالأحوال المادية التي كان عليها اليهود الآخرين فى الأرضين المشار اليها ، أو أصحاب تلك الأرضين من غير يهود . ثم إن عددهم مهما قيل فيه ، لم يكن كبيراً . وقد رأينا أن رجالهم المحاربين لم يكونوا يتجاوزون كلهم فى الحجاز كله بضعة آلاف ، وفى مثل هذا العدد والظروف والأحوال لا يمكن بالطبع أن تتوفر الامكانيات المساعدة على البحث والتتبع والتعمق فى العلم .

وقد كان للجاهليين الذين لهم اتصال باليهود علم بأن اليهود كانوا لا يتناولون جميع أنواع اللحوم ، بل كانوا يبيحون أكل بعض ، ويحرمون أكل بعض آخر . وهم يقولون للذي يبيحون أكله « كَشِير » ، أي الطاهر الحلال أو الصحيح ذبحه . وأما المحرم الذي لا يجوز أكله ، فيقولون له « طَرِف » « طريف » ، ويقصدون بذلك كل ما لا يحل أكله من بهيمة أو طير ، لنوعه كالخنزير والغراب ، أو لعيب فيه كالنطيحة والمتردية والموقوذة والمنخنقة والمقبورة ، أو ما كان ذبحه غير شرعي [1] . وقد أشير الى ذلك فى مواضع من القرآن الكريم . وطبيعي مراعاة يهود جزيرة العرب فى الجاهلية وما بعد الجاهلية لهذه الأحكام ، لأنها جزء من الدين ، بل هي من أهم العلامات الفارقة التي ميزت اليهودية عن بقية أهل الديانات .

ونحن لا نستطيع أن نتصور أن سواد يهود الجاهلية كانوا على علم بالكتابة وبالقراءة ثم بأحوال دينهم وأموره . وفى القرآن الكريم أن هذا السواد كان جاهلاً ليس له علم ولا خبر بأمور دينه وشريعته ، وأنه محوك مقلد لما يقوله له أحباره وربانيوه . فكل ما كانوا يقولونه له ، كانوا يرونه حقاً وعلماً . مع أن من بين أولئك من كان دجّالاً ليس على درجة من دراية وعلم ، ومن كان ينطق بالباطل ولا يخشى الكذب ، لينال بذلك كسباً ومالاً ؛

---

(١) القراؤون والربانون (ص ١٨٢) .

وأنه كان لهؤلاء على أتباعهم ومقلديهم سلطان عظيم .

ولما كانت اللغة العبرانية لغة الدين عند العبرانيين ، وبها نزل الوحي على « موسى » ، فلا بد أن يكون لعلمائهم ورجال دينهم فى جزيرة العرب علم بتلك اللغة وفقه بها . ولـكن هـذا لا يعني ضرورة كونهم كعلماء طبرية أو قيصرية فى فلسـطين أو بعض المواضع التي اشتهرت بعلمائها فى التلمود بالعراق ، ولست أستبعد أن يكون لهم علم بلغة بني ارم أيضاً ؛ لأن هذه اللغة كما نعلم كانت لغة العلم والثقافة قبل الميلاد وبعده ، وبها كتبت كتب عدة من التلموديين ، ثم إنها انتشرت بين سواد الناس حتى صارت لغة سواد يهود يتكلمون بها ولو برطانة وبلهجة خاصة هي اللهجة التي يمتاز بها سواد اليهود فى كل قطر يعيشون فيه .

أما سواد يهود جزيرة العرب فى الجاهلية ، فلا أظن أنهم كانوا يتكلمون العبرانية أو لغة بني إرم ، إنما أرى أنهم كانوا يتكلمون لهجة من هذه اللهجات العربية . أعني لهجة العرب الذين كانوا يميشون بينهم وينزلون بين أظهرهم ، ولم يرد فى الأخبار ما يفيـد أنهم كانوا يتحادثون بالعبرانيه . بل الذي ورد أن عامتهم لم تكن تعرف تلك اللغة ، وأن الخاصة منهم والمزاولين لحرفة الـكتابة والسحر كانوا يعرفونها ويكتبون بها ، وبها يعوذون أنفسهم وغيرهم من الناس .

وقد حافظ يهود جزيرة العرب على حرمة السبت ، ويومُ السبت من الأيام المقدسة التي يجب مراعاة حرمتها مراعاة تامة ، فلا يجوز ليهودي الاشتغال فيه ، والقيام ببعض الأفعال . ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنسه بالاشتغال فيه يكون قد أُرتكب جرماً عظيماً .

ولم يكن عند اليهود خطيئة أعظم من عدم حفظ يوم السبت ، إلا عبادة الأوثان [1] . والسبت هو « شباث Shabbath » فى العبرانيـة بمعنى راحـة ، لأنه يوم الربّ ، فيـه أُستراحَ ، وأمر عباده بالاُستراحة فيه وباركه . وقد أمرت الوصية الرابعـة بمراعاة حفظ

---

(١) قاموس الـكتاب المقدس (٥٣٧/١) .

حرمة يوم السبت[1] .

وقد وردت اشارات الى يوم السبت فى مواضع من القرآن الكريم ، فى معرض الكلام على بني إسرائيل ، وأشير فى بعضها الى أخذ موسى العهد منهم بوجوب مراعاة حرمة هذا اليوم ، والى نقضهم له وعدم مراعاتهم جميعاً لهذا العهد ، والى أنهم اُعتدوا فيه[2] . وفى هذه الاشارات دلالة على أن من اليهود عامةً مَنْ خالف حرمة هذا اليوم ، فلم ينفذ ما ورد فى أحكام شريعته عنه . ولكن هذا عام غير خاص بيهود العرب الجاهليين ، وإنما يشير الى خروج بعض بنى اسرائيل على أحكام دينهم وعدم مراعاتهم لها ، وهذا اليوم من أقدس الأيام في نظرهم .

وليس فى الذي بين أيدينا من أخبار ما يفيد أن العرب الجاهليين كانوا ينظرون الى السبت نظرة يهود اليه ، ولم يبلغنا أن أولئك الجاهليين كانوا يقدسون يوماً معيناً من أيام الأُسبوع ويستريحون فيه فلا يشتغلون فيه ولا يمارسون عملاً من الأعمال . إن حرمة الأيام نشأت من عقائد دينية ذات صلة بالآلهة ، كأن توجد صلة بإله من الآلهة وبين يوم من الأيام ، فيخصص به ويكون ذلك اليوم مقدساً له ، وعيداً يكرس لذلك الإله ، كالذي رأيناه من اعتقاد اليهود بالسبت لاستراحة الإله فيه بعد اُنتهائه من خلق الكون في ستة أيام ، ومن طلبه من عبيده بني اسرائيل تكريس ذلك اليوم لذلك له ، وعدم اشتغالهم البتة فيه . ولم يترك لنا أحد من الأخباريين أو غيرهم خبراً أو أثراً يفيد أن الجاهليين كانوا قد خصصوا يوماً معيناً من أيام الاسبوع بإله من الآلهة ، فجعلوه خاصاً به ، لا يشتغل الإنسان فيه إلا بالتعبد له والتفكير فيه .

---

(١) الخروج : الاصحاح العشرون ، الآية ٨ .

(٢) الأعراف : الآية ١٦٢ ، النحل : الآية ١٢٤ ، البقرة : الآية ٦٥ ، النساء : الآية ٤٦ ، ١٥٣ .

وقد فسر علماء اللغة السبت بأنه الراحة والسكون والقطع وترك الأعمال ، وعلل بعضهم تسميته بما ورد من أن الله أمر بني اسرائيل بالاستراحة فيه ؛ ذلك بأن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام آخرها يوم الجمعة ، وانقطع في اليوم السابع ، وهو يوم السبت ، عن العمل طلباً للراحة ، فسمي ذلك اليوم سبتاً لذلك[1] . وهو تعليل أخذ ولا شك من موارد يهودية . أخذ في الإسلام من مسلمة أهل الكتاب .

وقد عرف يهود يثرب بمعرفتهم السحر والاتقاء منه ، وبعلمهم بالتعاويذ ، فكان

---

(١) « السبت : الراحة والسكون والقطع وترك الأعمال. وسبت يسبت سبتاً استراح وسكن.... والسبت يوم من الاسبوع معروف ، وهو السابع منه . وإنما سمي به لأن الله تعالى ابتدأ الخلق فيه ، وقطع فيه بعض خلق الأرض . ويقال أمر فيه بنو اسرائيل بقطع الأعمال وتركها . وفي المحكم إنما سمي سبتاً لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد الى يوم الجمعة ولم يكن في السبت شيء من الخلق . قالوا : فأصبحت يوم السبت منسبتة أي قد تمت وانقطع العمل فيها . وقيل سمي بذلك لأن اليهود كانوا ينقطعون فيه عن العمل والتصرف ... قال الأزهري وأخطأ من قال : سمى السبت لأن الله أمر بني اسرائيل فيه بالاستراحة وخلق هو عز وجل السماوات والأرض في ستة أيام آخرها يوم الجمعة ، ثم استراح وانقطع العمل فسمي السابع يوم السبت . قال وهذا خطأ لأنه لا يعلم في كلام العرب سبت بمعنى استراح ، وإنما معنى سبت قطع ولا يوصف الله تعالى وتقدس بالإستراحة لأنه لايتعب والراحة لا تكون إلا بعد تعب وشغل وكلاهما زائل عن الله تعالى . قال : واتفق أهل العلم على أن الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت ولم يخلق يوم الجمعة سماء ولا أرضاً . قال والدليل على صحة ما قال ما روى عن عبد الله بن عمر قال : خلق الله التراب يوم السبت وخلق الحجارة يوم الأحد وخلق السحب يوم الأثنين وخلق الكروم يوم الثلاثاء وخلق الملائكة يوم الأربعاء وخلق الدواب يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة فيما بين العصر وغروب الشمس.

قال شيخنا : وصحح في شرح المهذب أن أول الاسبوع الأحد لما رواه عبد الله بن سلام : ان الله ابتدأ الخلق فخلق الأرض يوم الأحد والاثنين والسماوات يوم الثلاثاء والأربعاء وما بينهما يوم الخميس والجمعة . قال القرطبي وهو قول ابن مسعود وغيره من الصحابة . وتعقب البيهقي ما رواه مسلم : أي حديث خلق الله التربة يوم السبت : الحديث بأنه لا يحفظ ومخالف لأهل النقل والحديث . قال وهو الذي جزم به أبوعبيدة . وقال : ان السبت هو آخر الأيام ، وإنما سمي سبتاً لأنه سبت فيه خلق كل شيء وعمله أي قطع وبه جزم في التفسير في البقرة . وقال الجوهري وسمي يوم السبت لانقطاع الأيام عنده . وقال السهيلي في الروض لم يقل بأن أوله الأحد إلا ابن جرير . واستدل في شرح المهذب بخبر مسلم عن أبي هريرة السابق ، ولهذا الخبر صوب الاسنوي كالسهيلي وابن عساكر أن أوله السبت .. . » ، تاج العروس (١/٥٤٧ وما بعدها) ، اللسان (٢/٣٤٢) .

المشركون يلجؤون اليهم إذا احتاجوا الى السحر أو إذا أُعترضتهم مشكلات يرون أنها لا تحل إلا بقراءة التعاويذ عليها . وقد ذكر المفسرون أن اليهود عملوا السحر للنبي ، عمله رجل أُسمه لَبيد بن الأعصم او بناته وهو من يهود يثرب ، وطريقتهم وضع السحر في عُقَد وقراءتهم على كل عقدة ونفثهم عليها ، فعملوا السحر ووضعوه في طلحة دفنوها في قعر بئر ، وقد تأثر الرسول منه ، الى أن نزل الوحي عليه بتعيين موضعه واستخراجه ، فأخرج وبذلك بطل السحر [١] ، كما أشير الى سحر اليهود في الحديث [٢] .

وسحر سحرة اليهود وكذلك تعويذهم هو بالعبرانية ، يسحرون ويعوذون بها حتى للمشركين ، فقد ورثوا السحر والرُّقَى والتعاويذ من أجدادهم . ولاعتقاد أولئك بأن لهذه الأمور صلةً بالدين ، وهي جزء منه ، وبأمر من الله ، كان من الطبيعي أن تكون بلغة الدين ، ولغةُ الدين هي العبرانية ، ولعلها كانت بلهجة بني إرم أيضاً . وهي لهجة

---

(١) « وقال جمهور المفسرين : إن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم في احدى عشرة عقدة في وتر ودسه في بئر ذي أروان ، فمرض النبي صلى الله عليه وسلم واشتد ذلك عليه ثلاث ليال فنزلت المعوذتان وأخبره جبرائيل بموضع السحر ، فارسل علياً بطلبه وجاء به . وقال جبرائيل إقرأ السورتين ، فكان كلما يقرأ آية تنحل عقدة فيجد بعض الراحة والخفة حتى أتمها فكأنما أنشط من عقال .

طعنت المعتزلة في هذه الرواية ... » ، تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبري (٣١/٢٠٩) ، تفسير الطبرى (٣١/٢٢٦ وما بعدها) ، « قالوا : ان لبيد بن اعصم اليهودي سحر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم دس ذلك في بئر لبني زريق ، فمرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فبينما هو نائم إذا أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فأخبراه بذلك وإنه في بئر دوران في جف طلعة تحت راعوفة . والجف قشر الطلع والراعوفة حجر في أسفل البئر : يقوم عليها الماتح . فانتبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعث علياً والزبير وعماراً فنزحوا ماء تلك البئر ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الجف ، فاذا فيه مشاطة رأس وأسنان من مشطه ، واذا فيه معقد . فيه احدى عشرة عقدة مغروزة بالابر .. ... » ، تفسير الطبرسي (٥/٥٦٨) ، تفسير روح المعاني (٣٠/٢٨٢ وما بعدها) .

(٢) البخاري : باب السحر ، عمدة القاريء (٢١/٢٧٩ وما بعدها) « الحديث رقم ٧٧ وما بعده .

تغلبت على العبرانية عند سواد يهود ، لاكتساحها اللغات الأُخرى قبيل الميلاد وبعده ، وصيرورتها لغة العلم والثقافة في الهلال الخصيب . وقد عرف المتكلمون بها بالاشتغال بالسحر ، أخذوه عن أسلافهم القدماء (١).

ومعارفنا عن يهود جزيرة العرب مستمدة من الموارد الإسلامية . والسبب فى ورود خبرهم في هذه الموارد ، هو اصطدامهم بالإسلام ، ومقاومتهم له حينما دعاهم الرسول الى الدخول فيه ، فنزل فيهم الوحي ، وأشير اليهم فى الحديث ، وذُكروا فى الغزوات وفى كتب التفسير . ومن هنا تجمعت معارفنا عن يهود الجاهلية . ولهذا نجد الحديث عن يهود الجاهلية لا يرتقي كثيراً عن عصر النبوة ، ولا يبتعد عنه ، بل هو يتصل به ثم لا يمتد كثيراً بعده ، إذْ ينتهي في أيام الخليفة عمر بسبب إجلائه اياهم من جزيرة العرب .

ويتبين من الآيات المكيّة ، وهي أقدم عهداً من الآيات المدنية ، أن اتصال الرسول باليهود اتصالاً مباشراً إنما كان في يثرب . أما في مكة ، فلم يكن لليهود فيها شأن يذكر ، لذلك لا نجد في الآيات المكيّة ما نجده في الآيات المدنية ، ولا سيما المتأخر منها ، من تقريع لليهود وتوبيخ لهم ، لوقوفهم موقفاً معادياً من الإسلام ، واتفاقهم مع المشركين في معارضة الرسول ومقاومته . وقد بدأ اليهود يعارضون الرسول والاسلام ، حينما طلب اليهم الدخول فى الإسلام والايمان برسول الله ، وحينما تبين لهم أن الأمر سيفلت من أيديهم ، وأن الرسول ليس كبقية رجال قريش أو غير قريش سهل الانقياد مطواعاً لهم ، وأن تعاليم الاسلام ستفسد العرب عليهم ، ولا سيما بعد تحريم الربا . والربا مورد مهم كان يدر ربحاً عظيماً على يهود ، لهذا وجدوا مصلحتهم في معارضته ومقاومته وفي الاتفاق مع

---

(١) « ان الرقى يكره منها ما كان بغير اللسان العربي .... وفي موطأ مالك رضي الله تعالى عنه : ان أبا بكر الصديق رضى الله تعالىعنه دخل على عائشة وهيتشتكي ويهوديةترقيها ، فقال أبو بكر : أرقيها بكتاب الله . يعني : بالتوراة والانجيل ...... فروى عن مالك جواز رقية اليهودي والنصرانى للسلم ، إذا رقى بكتاب الله » ، عمدة القاريء (٢٦٢/٢١) .

المشركين عليه .

وليس في هـذا الذي يذكره بعض المستشرقين عن وجود يهود في مكة قبل الإسلام وعن أثرهم فيها سندٌ ما يمكن أن يعول عليـه . فلو كان لهم نفوذ فيها أو رأي مسموع ، لسمعنا به كما سمعنا بخبرهم في يثرب ، ولكان لهم حيّ خاص بهم ، ومكانـة بين رجال قريش ، كالذي كان عليه يهود يثرب في أتصالهم بأهلها من الأوس والخزرج [١] .

ولا أظن أن أهل مكة كانوا كما صورهم بعض الباحثين على علم بالتوراة ، أو أنهم كانوا ينظرون اليها باحترام عظيم . وقـد أستشهد « ولفنسون » بالآية : « إنّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى ، صُحُفِ ابراهيمَ وموسى » [٢] على الرأي المذكور [٣] . ولا أجد في هذه الآية ولا في آية أخرى ما يمكن أن يكون شاهداً لهذا الرأي . وكيف يمكن احترام أهل مكة للتوراة ، وقد كانوا على وثنية وتعصب في عبادة الأصنام ؟ وما ورد في القرآن الكريم من أمثال هذه الآيات ومن اشارات الى الصحف والأنبياء والمرسلين ، لا يعني أن قريشاً كانت مؤمنة بها ، أو أنها كانت تنظر اليها نظرة تقدير واحترام ، أو أنها كانت على علم بالمذكور كله أو بعضه ، إنما هو خطاب لهم وإنذار ، وأكثره موجه الى أهل الكتاب . وأما الموجه منه الى قريش وبقية عبدة الأوثان ، فلا يدل على أنه وجه اليهم لمعرفتهم به ، وإنما وجه اليهم لِلَفْتِ أنظارهم الى وجوب الايمان بالرسول والتصديق به ، وإلا حدث لهم ما حدث لمن كذب بالرسل والأنبياء من الماضين ممن يعرف خبرهم أهل الكتاب . ومن لا علم له بتلك الأمم الماضيـة ، فعليه بالرجوع الى أهل الكتاب ، للاستفسار منهم عنهم . فالآيات المذكورة تتحدث عن شيء معروف عند الجاهليين مفهوم لديهم ، إنما هي لإنذارهم ووعظهم بما ورد في الصحف المعروفة عند أهل الكتاب عنهم ،

---

(١) اليهود (ص ٩٤) ، M. Watt, Muhammad at Mecca, P 27, Lammens, Arabie, 1-49

(٢) سورة الأعلى : الآية ١٩ . (٣) اليهود (ص ٩٥) .

فهي شواهد وعبر . من لم يصدق الرسول بها ، فعليه مراجعة تلك الصحف والمؤمنين بها ، للوقوف عليها والاتعاظ بما ورد فيها . فإذا كان ما ذكر من ذلك وارداً فيها ، فليس لهم من عذر فى عدم الإيمان بالرسول .

أما أشتغال اليهود بالرّبا للأرباح الطائلة التي كانوا يجنونها منه ، فيمكن ادراكه من الآيات الواردة عنه فى القرآن الكريم ، هذه الآيات التي تحمل عليهم لأنغماسهم به . وقد كان تحريمه فى الإسلام ضربة قاصمة لظهورهم ، لأن هذا المورد كان من أهم الموارد التي كانوا ينتفعون منها ويعيشون عليها . ولا يعني الربا اقراض مال بمال ، فقد كان اليهود يرابون بالأشياء العينية كالقمح والشعير فى مقابل أضعافها عند استحقاق الأجل . وفى مقابل أشياء عينية من نوع آخر يزيد ثمنها أضعافاً على ثمن ما أخذ ، لأن النقود بأنواعها لم تكن كثيرة يومئذ ، فكان أكثر التعامل بالعينيات .

وقد أمل المسلمون أن يساعد اليهود الإسلام على الوثنية وأن يقفوا منه موقف ودّ أو حياد ، ذلك بأنهم أصحاب كتب منزلة ودين توحيد ، والإسلام قريب منه ، وقد اعترف بالأديان السابقة له ، ونزه الأنبياء والمرسلين ، وهو دين توحيد كذلك . ثم إن الرسول تودد اليهم حين دخوله يثرب ، وأمنهم على أموالهم وأنفسهم ، وزارهم وطمأنهم ، ثم تعاهد معهم في صحائف كتبت لهم ، فيها العهد بالوفاء لما اشترط لهم ، ما داموا موفين بالوعد وبالعهد . وقد طلب الى جميع المسلمين الوفاء بما جاء فيها ، ومنعوا من التجاوز والتطاول على من فى يثرب من يهود [1] . وجعل لليهود نصيباً فى المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم النفقة معهم فى الحروب [2] .

ولهذا أنّبهم الرسول تأنيباً شديداً على اتصالهم بالمشركين وتأييدهم لهم على المسلمين

---

(١) ابن هشام (٣/٧٤ ، ١٩٧) ، الروض الأنف (٢/١٦) ، « كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينه وبين اليهود » .

(٢) الروض الأنف (٢/١٧) .

مع ما بينهم وبين المشركين من بون شاسع في العقيدة واختلاف شديد في الرأي . وذكرهم أن دينهم الذي يتحمسون له ويتظاهرون بالموت في سبيله ، هو نفسه ينهاهم عن الالتجاء الى المشركين ومناصرة أي نوع كان من أنواع الشرك على عقائد التوحيد . فكيف جوزوا لأنفسهم تحريض قريش وغطفان وغيرهما من المدافعين عن الشرك ومن المتهالكين في عبادة الأصنام على الرسول ، وهو يدعو الى الايمان بإله واحد أحد ، ويجاهد في محو الشرك والأصنام .

لقد كان نفر من رؤوسهم وسادتهم مثل سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري ونفر آخرين من بني النضير ومن بقية يهود هم الذين هاجوا المشركين على الرسول ، وهم الذين حزبوا عليه الأحزاب . « خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم الى حرب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق » [١] . وفي قولهم هذا لقريش ، وتفضيلهم الشرك على التوحيد ، وتحريضهم قريشاً على الرسول ، نزل الوحي في تقريعهم وتسفيههم : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » [٢] .

وقد رهن الرسول درعاً من حديد عند يهودي على مقدار من الشعير كان في حاجة شديدة اليه ، لافتقاره الى قوت يعيل به نفسه ونساءه . فلما حان الموعد ، أدى ما عليه لذلك اليهودي وتسلم الدرع [٣] . وقد كان اليهود يحتكرون تجارة الحبوب .

---

(١) ابن هشام (٢/١٨٧) « حاشية على الروض الأنف » .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٠ .

(٣) البخاري : الربع الثاني (ص ٩) « طبعة لودلف قرهل » ، الأحاديث ذوات الأرقام ١٤ ، ٣٣ ، ٨٨ من كتاب البيوع .

ولم تكن علاقات اليهود مع المسلمين سيئة فى الأيام الأولى من مجيء الرسول الى يثرب . رأت جمهرة يهود أن الإسلام دين أعترف بالأنبياء ، وأنه دين توحيد وأنه فى جملة أحكامه قريب من أحكام ديانتهم وقواعدهم ، وأنه يناهض الأوثان ، وقد أشاد بفضل بني اسرائيل وبتفوقهم على غيرهم بظهور الأنبياء من بينهم ، ثم إن قبلته الى القدس ، وقد تسامح معهم فأباح للمسلمين طعام أهل الكتاب : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان »[1] ، وقد تسامح الإسلام معهم وحفظ ذممهم فلم تَرَ فى أنتشاره بين أهل يثرب ما يضيرهم شيئاً أو يلحق بهم أذى ، فهادنوه ولم يلجؤوا الى مخاصمته .

ولكننا مع ذلك لانستطيع أن نتحدث عن صلات اليهود بالرسول فى الأشهر الأولى من هجرته الى يثرب بشيء من الجزم والوضوح[2] ، فما وصل الينا لايتحدث عن ذلك بشيء ، وأكثر ما أورد علينا هو عن العهد الذي ظهر فيه العداء بين اليهود والإسلام .

والظاهر أن يهود يثرب كان لهم علم بظهور الرسول فى مكة ، وأن بعض من أسلم من أهل يثرب قبل هجرة الرسول الى هذه المدينة كان قد أبلغهم خبره ، وفاوضهم فى أمره . وقد أظهروا لهم فهماً لعقائده لاشتراكها مع اليهودية فىالتوحيد ، ولذلك أظهروا استعدادهم لعقد حلف سياسي معه ووقوفهم موقف ودّ منه أو موقف حياد على الأقل . غير أنهم لم يظهروا لهم رغبتهم فى تبديل دينهم والدخول في الإسلام ، لِما رسخ فى أذهانهم من أن اليهودية هي ديانة يهود ، وأن ما دونها باطل . فلما وجهت الدعوة اليهم للدخول فيه ، امتعضوا منها ، ومن هنا أخذوا يخاصمون الرسول[3] .

---

(١) المائدة : الآية ٤٨ .

(٢) M. Watt, Muhammad at Medina, P. 196.

(٣) M. Watt, Muhammad at Medina, P 195 f.

فلما انتشر الإسلام ، ودخل أهل يثرب فيه أفواجاً ، وتوجه المسلمون اليهم يدعونهم الى الدخول فيه والى مشاركتهم لهم في عقيدتهم باعتبار أنهم أهل دين يقول بالوحي ويؤمن بالكتب المنزلة ، فهم لذلك أولى بقبول هذه الدعوة من الوثنيين ، ادركت جمهرتهم أن الإسلام إذا استمر على هذا المنوال فى المدينة من التوسع والانتشار ومن توجيه دعوته الى اليهود أيضاً ، فسيقضى على عقيدتهم التي ورثوها وهي عقيدة لا تعترف بقيام نبي من غير بني اسرائيل ولا بكتب غير التوراة والكتب التي دونها علماؤهم ، ثم هم يرون إن النبوة قد ختمت ولن يكون المسيح إلا منهم ، فكيف يعتقدون بنبي عربي وهو من الأميين[1] ؟

وقد رفض اليهود الدخول فى الإسلام ، وأبوا تغيير دينهم ، ودافعوا عن عقيدتهم وتمسكوا بها ، ورفضوا التسليم بما جاء فى رسالة الرسول من أن الرسول نبي أرسل للعالمين كافة وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن القرآن كتاب مصدق من الله ، وأن أحكامه مؤيدة لما جاء فى التوراة ناسخة لبعضها . وقد جادلوا فى ذلك ، وانبرى أحبارهم للدفاع عن عقيدتهم ولمجادلة من يأتي اليهم من المسلمين لإقناعهم فى الدخول فى الإسلام . ونجد فى القرآن الكريم صوراً من جدلهم هذا ومن محاجتهم الرسول فى دعوته ، كما نجد مثل ذلك فى الحديث النبوي وفي كتب السير .

ويتبين من نتائج دراسة صور هذا الجدل والخصام الذي وقع بين اليهود والمسلمين ، وهو خصام مهم خطير ، أن الخصومة كانت فى مرحلتها الأولى رفضاً لدعوة الرسول اياهم للدخول فى الإسلام ، وتمسكاً شديداً بعقيدتهم وبدينهم وبما ورد عندهم من أن النبوة قد بدأت وانتهت فى بني اسرائيل ، ثم تطورت واشتدت عنفاً وقوة لما تبين لهم أن الإسلام يرفض نظريتهم هذه ، وأنه قد حرم أموراً ستؤثر فى مستقبلهم ، وقد ألف بين قلوب أهل يثرب وأوجد منهم كتلة واحدة ، وأنه سيحد من سلطانهم لا محالة ، وأن ملكهم سيزول ،

---

(١) اليهود (ص ١٢٢) .

فوسعوا مقاومتهم له ، واتصلوا بمن وجدوا فيه حقداً وبغضاً للرسول ، وبمن تأثر سلطانه بدخول الإسلام فى يثرب من أهلها ، ثم لما وجدوا أن كل ذلك غير كاف ، تراسلوا مع أعداء الرسـول فى خارج يثرب من قريش ، لتوحيد خططهم معهـم ، ولحملهم على مهاجمة المسلمين فى مدينتهم ومعقلهم قبل أن يستفحل أمرهم ويقوى مركزهم ، فيعجزون جميعاً هم وأهل مكة عن التغلب عليهم والقضاء على الرسول .

وهكذا بدأت خصومة اليهود للإسلام خصومة فكرية ، هم يرفضون الاعتراف بنبوة الرسول ، وبأن دعوته موجهة اليهم ، ويرفضون نبوة فى غير بني اسرائيل ، والرسـول يدعوهم الى الايمـان بالله والى الدخول فى دعوته المبنيـة على الايمان بنبوته وبنبوة الأنبياء السابقين ، ثم تطورت هـذه الخصومة الى معارك وحروب ، والحروب كلهـا بالطبع تبدأ نزاع فى الآراء والأفكار والمعتقدات ثم تتحول الى صراع ونزال .

ومن أشهر اليهود الذين حقدوا على النبي وأبغضوه وسعوا للايقاع به ، حيي بن أخطب، وأخواه : أبو ياسر بن أخطب وجُدَيّ بن أخطب[1] ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع ابن أبي الحقيق ، وسلام بن الربيع بن أبي الحقيق وهو أبو رافع الأعور الذي قتله أصحاب الرسول بخيبر ، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق ، وعمرو بن جحاش ، وكعب بن الأشرف ، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، وكردم بن قيس حليف كعب ابن الأشرف ، وكل هؤلاء من بني النضير ، وعبدالله بن صوري الأعور[2] ، وابن صلوبا ،

---

(١) « جـد بن أخطب » « جدي بن أخطب » و « حدي بن أخطب » ، الروض الأنف (٢/٢٤) .

(٢) « عبد الله بن صورى الأعور . وكان أعلمهم بالتوراة ، ذكر النقاش أنه أسلم لما تحقق من صفات محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة وانه هو . وليس في سيرة ابن اسحاق ذكر اسـلامه » ، الروض الأنف (٢/٢٤) .

وهما من بني ثعلبة بن الفطيون[1] ، وزيد بن اللُصيت « اللصيب »[2] ، وسعد بن حنيف ، ومحمود بن سيحان « سبحان » ، وعزير بن أبي عزير ، وعبد الله بن صيف « ضيف » ، وسويد بن الحارث ، ورفاعة بن قيس ، وفنحاص ، وأشيع ، ونعمان بن أضنا « أمنا ؟ » ، وبحري بن عمرو ، وشاس بن عدي ، وشاس بن قيس ، وزيد بن الحارث ، ونعمان بن عمرو ، وسكين بن أبي سكين ، وعدي بن زيد ، ونعمان بن أبي أوفى أبو أنس ، ومحمود بن دحية ، ومالك بن الصيف « الضيف » ، وكعب بن راشد ، وعازر ، ورافع بن أبي رافع ، وخالد ، وإزار بن أبي إزار « آزر بن أبي آزر » ، ورافع بن حارثة ، ورافع بن حريملة ، ورافع بن خارجة ، ومالك بن عوف ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وكل هؤلاء من يهود بني قينقاع[3].

أما الذين حاربوا الإسلام من بني قريظة ، فكانوا : الزبير بن باطا بن وهب ، وعزّال ابن شَمْويل « سموال » ، وكعب بن أسد وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب ، وشمويل بن زيد ، وجبل بن عمرو بن سكينة ، والنحّام بن زيد ، وفردم « قردم » بن كعب ، ووهب ابن زيد ، ونافع بن أبي نافع ، وأبو نافع ، وعدي بن زيد ، والحارث بن عوف ، وكردم ابن زيد ، وأسامة بن حبيب ، ورافع بن رميلة « زميلة » ، وجبل بن أبي قشير ، ووهب بن يهوذا .

أما من بقية بطون يهود ، فكانوا : لبيد بن أعصم وهو من يهود بني زريق ، وكنانة

---

(١) « وذكر ثعلبة ابن الفطيون . والفطيون كلمة عبرانية ، وهي عبارة عن كل من ولي أمر اليهود وملكهم ، كما أن النجاشي عبارة عن كل من ملك الحبشة وخاقان ملك الترك » « عبد الله بن صوريا » ، الروض الأنف (٢/٢٤) . وقد أسلم على ما جاء في بعض الروايات . ابن هشام (٥/١٣٦) .

(٢) « ابن اللصيب » ، ابن هشام (٢/١٣٦) .

(٣) ابن هشام (٢/١٣٦ وما بعدها) ، الروض الأنف (٢/٢٤) ، « تسمية اليهود الذين نزل فيهم القرآن » .

ابن صُوريا « صوريا » وهو من بني حارثة ، وفردم « قردم » بن عمرو وهو من يهود بني عمرو بن عوف ، وسلسلة بن برهام وهو من يهود بني النجار [١] .

وتجد في القرآن الكريم أمثلة من أسئلة وجهها اليهود الى الرسول لاحراجه ولإظهار فساد دعوته بزعمهم . سألوه أن يأتي لهم بمعجزة [٢] ، وسألوه أن يأتي لهم بكتاب من السماء [٣] ، وسألوه أسئلة عن أشياء مذكورة في التوراة ، وسألوه عن أشياء أخرى عديدة ، وأوحوا الى غيرهم من المشركين بأسئلة مماثلة ليلقوها على الرسول لامتحانه وإحراجه ، وقد نزل الوحي بالردّ عليهم ، وبتأنيبهم على أقوالهم هذه ، وبتذكيرهم بما قام به أجدادهم وأسلافهم فى مقام أنبيائهم من عدم التصديق برسالتهم ومن الطعن بهم ومن إصرارهم على عبادة الأوثان والكفر بالتوحيد [٤] .

ورفض رؤساء يهود أن يمدوا المسلمين بالمال ، وكانوا وهم فى أول عهدهم بيثرب فى ضنك شديد ، فالمهاجرون فقراء لا مال لهم ، ومن كان صاحب مال منهم وسعة ترك ماله فى

---

(١) ابن هشام (٢/١٣٧ وما بعدها) . وتختلف الموارد في ضبط هذه الأسماء ، الروض الأنف (٢/٢٤) .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٣ ، « نزلت في كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، ووهب بن يهوذا ، وفنحاص بن عازورا وجماعة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : أتزعم أن الله أرسلك الينا ، وأنه أنزل علينا كتاباً عهد الينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فاذا جئتنا به صدقناك . فأنزل الله هذه الآية . » ، تفسير القرطبي (٤/٢٩٥) ، « كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوه وفنحاص بن عازوراء وحيي بن أخطب . أتوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا هذا القول ... » تفسير روح المعاني (٤/١٤٤) .

(٣) سورة النساء : الآية ١٥٣ ، ابن هشام (٢/١٩٨ وما بعدها) « تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد » ، (٢/٤٣) « حاشية على الروض » ، « سألت اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم أن يصعد الى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه على صدقه دفعة واحدة ، كما أتى موسى بالتوراة ، تعنتاً له صلى الله عليه وسلم . » تفسير القرطبي (٦/٦) ، (تفسير روح المعاني (٦/٦ وما بعدها) .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٠١ ، ابن هشام (٢/١٦٧ ، ١٧١ ، ٢٠١) ، « تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد » .

مكة ونجا بنفسه ، والذين دخلوا في الإسلام من الأنصار لم يكونوا على سعة ومال كثير .
وقد حضّ النبي المسلمين على التبرع بما يستطيعون ، وأرسل أبا بكر الى رؤساء يهود ليستقرض منهم مالاً يستعين به على أموره موصياً إيّاه ألاّ يشتطّ في كلامه وألاّ يلحق بهم أذى إذا ما رفضوا إجابته . فلما دخل أبو بكر « بيت المِدْراس » موضع عبادة يهود ، وجد يهود قد اُجتمعوا الى رجل منهم يقال له : فنحاص سيد بني قينقاع وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له أشيع . فلما حدثه أبو بكر بما جاء به ، وعرض عليه كتاب رسول الله ، قرأه ، حتى إذا انتهى منه ، قال : قد اُحتاج ربّكم أن نمدّه ! ويقال إنه هو أو حُيَي بن أخطب أوغيره قال حينما سمع نزول الوحي بآية : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ، والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » (١) : « يا محمد ، فقير ربك يسأل عباده القرض ؟ » (٢) . فنزل الوحي : « لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ، ونحن أغنياء . سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حقّ ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق » (٣) .

وللقضاء على الإسلام وهو في عقر داره ، عمد اليهود الى استغلال الأحقاد والبغضاء الكمينة التي كانت تعتلج في نفوس أهل يثرب من الأوس والخزرج من أيام الجاهلية ، فأثاروها ، كما اُستفادوا مما كان بينهم وبين رجال من المسلمين من الحلف والجوار في الجاهلية للاحتماء بهم وللاتقاء بهم مما قد يلحق بهم من أذى في اثارة الفتنة . وقد استجاب لدعوتهم نفر حديثو عهد بالإسلام كانوا قد اُطمأنوا الى يهود من أيام الجاهلية ، دون أن يعرفوا ما وراء هذه الاستجابة من شرّ ونتائج خطيرة على الدين الذي دخلوا فيه .

---

(١) البقرة : الآية ٢٤٥ ، تفسير روح المعاني (٢/١٦٢) ، تفسير القرطبي (٣/٢٣٧) .
(٢) « أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى : من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ، فقالوا : يا محمد ، فقير ربك يسأل عباده القرض ؟ . » ، تفسير روح المعاني (٤/١٤١) .
(٣) آل عمران : الآية ١٨١ . تفسير الطبرسي (٤/٥٤٧ وما بعدها) .

ولكن عيون المسلمين كانت مفتّحة ، رأت خطط يهود هذه فحذرت تلك الجماعة من التصديق بأقوالهم ومن الاطمئنان اليهم ، ونهوا عن الاتصال بهم . ونزل الوحي بذلك فى الآية : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد ايمانكم كافرين » (١) . وقد قصد بهذا الفريق من الذين أوتوا الكتاب — اليهودَ . وفى بعض الروايات أن المقصود هو « شماس بن قيس اليهودي » (٢) ، وكان قد عمد الى الدسّ بين الأوس والخزرج للغرض المذكور حتى كادت تقع فتنة خطيرة بين الحيين ، لو لا وصول نبئها الى الرسول ، إذ تنادى كل من الأوس والخزرج بندائهم فى الجاهليــة ، وحميت نفوسهم ، وحملوا أسلحتهم . فلما سمعوا كلام النبي ، وهو يذكّرهم بالإسلام وسمعوا الوحي ينزل فيهم ، ندموا على ما صنعوا ، وثابوا ، وعرفوا أن ذلك من كيد ذلك النفر من يهود ، قصدوا به إثارة الفتنة وإحداث الشقاق (٣) .

---

(١) آل عمران : الآية ١٠٠ . تفسير الطبرسي (٤/٤٨٠) .

(٢) روح المعاني (٤/١٦) .

(٣) ابن هشام (٢/١٨٣) ، المعجم المفهرس : الفصل الثالث (ص ٣٩٣) ، « قال ابن اسحاق : ومر شأس بن قيس ، وكان شيخاً قدعسا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من الفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه ، فقال : أعمد اليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار .

قال ابن اسحاق : ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب : أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة ، وغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة ، السلاح السلاح ، فخرجوا اليها ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للاسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم . فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس ، فأنزل الله تعالى في شأس بن =

وعمدت يهود الى إضعاف الإيمان فى نفوس المسلمين وزعزعة ثقتهم بالاسلام ، باثارتهم الشكوك فى قلوبهم وتلقينهم إياهم أن ما فى الإسلام تحريف لبعض ما جاء فى التوراة ، وأن فى القرآن تناقضاً ، وأن أحكامه يلغي بعضها بعضاً ، وأمثال ذلك من مزاعم ومطاعن ، ودعوا من اتصلوا بهم من المسلمين الى الكفر بالإسلام : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . يا أهل الكتاب ، لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب ، لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ » [1] .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من يهود دخلت فى الإسلام وتعوذت به ، ولكنها كانت فى حقيقة الأمر من المنافقين ، من هؤلاء : داعس ، وسعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيب « اللُّصَيت » [2] ، والنعمان بن أوفى ، ورافع بن حريملة وهوالذي قال فى حقه رسول الله بتبوك : « اليوم مات منافق عظيم النفاق » ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وسلسلة بن برهام وكنانة بن صويرا « صُوريا، » . كل هؤلاء كانوا يستممون

= قيس وما صنع : قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بالله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » ، ابن هشام (٢/١٨٣ وما بعدها) .

(١) آل عمران : الآية ٦٩ وما بعدها .

(٢) « زيد بن اللصيت ويقال ابن اللصيب فيما قال ابن هشام » ابن هشام (٢/١٣٦) « تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد » ، « وزيد بن اللصيت الذي قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بسوق بني قينقاع ، وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لايدري أين ناقته ! ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه الخبر بما قال عدو الله في رحله ودل الله تبارك وتعالى رسوله صلى عليه وسلم على ناقته : إن قائلا قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدري أين ناقته ، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها ، فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها . » ، ابن هشام (٢/١٤٩ وما بعدها) « تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد » .

الى أحاديث المسلمين ، ويظهرون الإسلام [1] . ولكنهم كانوا يبطنون الكفر به . كان إسلامهم للتجسس عليه ، ولنقل أخبار الرسول وما يريد عمله الى اليهود والى حلفائهم المشركين . وكان جلوسهم الى بعض المسلمين لاستراق الحديث منهم ، ولإثارة الشكوك في قلوب المستضعفين منهم ، وللإتصال بمن كان على شاكلتهم من الأوس والخزرج . أظهر الاسلام على لسانه وأبطن الكفر به عميقاً في قلبه ، للعمل معاً — سراً وبستار من التقوى والإيمان — على تقويض الإسلام ، وأثارة الفتنة بين المسلمين . وقد اتخذوا من المساجد مقراً آمنا لعملهم ، فما كان أحد في نظرهم ليظن أن المساجد ستكون مواضع تجسس وتخريب ، وما كان في رأيهم أن يشك أحد فيهم ، وهم بين قيام وقعود : أوجههم الى القبلة ، وألسنتهم تتحرك بتلاوة آيات الله البينات . ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد ، شكوا في تهجدهم هذا الزائد ، وارتابوا في تحرك ألسنتهم وفي التصاق بعضهم ببعض ، ولما تبين لهم صدق ما ذهبوا اليه ، وأن ألسنتهم لم تكن تنطق بالحق ، بل كانت تمتمة بما كان المنافقون يتسقطونه من أخبار ، ويحكونها لينقلها من يسمعها الى جماعته من المشركين ويهود ، انقضوا عليهم فأخرجوهم من المساجد معلنين للملأ نفاقهم وخطرهم على الإسلام [2] .

ولإبطال أثر هذه الفتن ، نزل الوحي بالنهي عن الاتصال باليهود والاطمئنان اليهم وبقطع صلتهم بهم خوفَ الفتنة عليهم : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا بطانةً من

---

(١) المحبر (ص ٤٦٩ وما بعدها) .

(٢) الروض الأنف (٢/٢٦ وما بعدها) ، « فاجتمع يوماً في المسجد ناس ، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافتي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد اخراجاً عنيفاً ، فقام أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب الى عمرو بن قيس أخي بني غنم بن مالك بن النجار وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية : فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد وهو يقول : اتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة ؟؟. ثم أقبل أبو أيوب أيضاً الى رافع بن وديعة أحد بني النجار فلببه بردائه ثم نتره نتراً شديداً ، ولطم وجهه ، ثم أخرجه من المسجد ، وأبو أيوب يقول له : أف لك منافقاً خبيثاً ، ادراجك يامنافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ...

ففي هؤلاء من أحبار يهود والمنافقين من الأوس والخزرج نزل صدر من سورة البقرة الى المائة منها ... » ، ابن هشام (٢/١٥٠ وما بعدها) .

دونكم لا يألونكم خبالاً ، ودّوا ما عنتّم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر . قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبّونهم ولا يحبّونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم ، قالوا : آمنا ، وإذا خَلَوْا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل : موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور »(١). فقطعت هذه الآيات على المسلمين مباطنتهم لليهود والركون اليهم ، للأضرار التي لحقت بهم من هذا الاتصال (٢) .

وقد غاظ اليهودَ ما رأوه من استخفاف المسلمين بهم ، ومن تحويل القبلة من القدس الى مكة . ولقد هاجهم تغيير القبلة سبعة عشر شهراً من اقامة الرسول فى المدينة ، إذْ رأوا فى هذا التغيير دلالة على تحول خطير سيكون فى الإسلام ، يهدد اليهود بتحول خطير ضدّهم . وجاء نفر منهم — كما يقول أهل الأخبار ، منهم : رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الأشرف — الى النبي ، يقولون له : يا محمد ، ما ولاّك عن قبلتك التي كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملّة ابراهيم ودينه ؟ إرجع الى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك (٣) .

---

(١) آل عمران : الآية (١١٨ وما بعدها) . (٢) تفسير روح المعاني (٣٧/٤) .

(٣) تفسير الطبري (٢/٢ وما بعدها) تفسيرالنيسابوري (٢/٢ وما بعدها) « حاشية على تفسير الطبري » ، تفسير الطبرسي (٢٢٢/٢ وما بعدها) ، ابن هشام « وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب . فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك » ، عمدة القاري (٢٤١/١) ، صحيح مسلم (٦٥/٢) « كتاب الصلاة » ، (١٤٢/٢) ، أسباب النزول للسيوطي (٣٣/١) « حاشية على تفسيرالجلالين » ، « قال ابناسحاق : ولما صرفت القبلة من الشأم الى الكعبة ، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الأشرف ورافع بن أبي رافع والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق . فقالوا : يامحمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه . ارجع الى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك . وإنما يريدون فتنته عن دينه ، فأنزل الله تعالى فيهم : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ... » ، ابنهشام « حاشية على الروض الأنف » ، (٣٧/٢) ، ولفنسون (ص ١٢٥ وما بعدها) ، « واختلف العلماء أيضاً في كيفية استقباله بيت المقدس=

ولـكن الأمر بتحويل القبلة بقي نافذاً لم يتحول حتى اليوم ، وغدت مكة قبلة المسلمين يتجهون اليها في صلواتهم . ونعت القرآنُ هؤلاء المعترضين على الرسول بـ « السفهاء » في آيةٍ : « سيقول السفهاء من الناس : ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قل : لله المشرق والمغرب ، يَهْدي من يشاء الى صراط مستقيم ، وكذلك جعلنا كم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب عليه ، وان كانت لـكبيرة إلاّ على الذين هـدى الله »[1] .

وتشير الـكلمات الأخيرة من الآية الى أن اعتراض اليهود هذا وعجبهم من تحويل القبلة من القدس الى مكة ، لم ينحصر بهم وحدهم ، بل وجد له أثراً بين جماعـة من المسـلمين ممن لم تكن لهم أقدام راسخة في الإسـلام . ولهذا تأثروا بمقالة يهود ، فوبخوا لتصديقهم هـذا بتلك المقالة ، وبينت لهم الآية أن هذا التحويل هو امتحان لقلوب من يتبع الرسول ، ليعلم من يتبعه عن عقيدة وايمان راسخين ، ومن ينقلب على عقبيه لعدم ايمانه به إيماناً عميقاً[2] .

وهاج اليهودَ أيضاً ما رأوه من نسخ الإسلام لأحكام أخرى من أحكام شريعة يهود ، ومن ذلك صوم عاشوراء وكانت تصومه يهود ، وصامه المسلمون في أول عهدهم بيثرب ،

= على ثلاثة أقوال ، فقال الحسن : كان ذلك منه عن راي واجتهاد ، وقاله عكرمة وأبو العالية . الثـاني : أنه كان مخيراً بينه وبين الـكعبة ، فاختار القدس طمعاً في إيمان اليهود واستمالتهم قاله الطبري ....

وقال آخرون : أول ما افترضت الصلاة عليه الى الـكعبة ، ولم يزل يصلي اليها طول مقامـه بمـكة على ما كانت عليه صلاة ابراهيم وإسماعيل ، فلما قدم المدينة صلي الى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً على الخلاف ، ثم صرفه الله الى الـكعبة . قال أبو عمرو : وهذا أصح القولين عنـدي . قال غيره : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أراد أن يستأنف اليهود فتوجه الى قبلتهم ليكون ذلك أدعى لهم ، فلما تبين عنادهم وأيس منهم أحب أن يحول الى الـكعبة فكان ينظر الى السماء ، وكانت محبته الى الـكعبة لأنها قبلة ابراهيم ، عن ابن عباس . وقيل : لأنها كانت أدعى للعرب الى الاسـلام ، وقيل : مخالفة لليهود » ، تفسير القرطبي (٢/١٣٨) ، تفسير روح المعاني (٢/٢ وما بعدها) .

(١) البقرة : الآية ١٤٢ وما بعدها .

(٢) صحيح البخاري (كتاب الصـلاة : في القبلة) ، الحديث رقم ١٠ ، فهارس البخاري (ص ٣٤) ، عمدة القاريء (٤/١٣٤ وما بعدها) .

ثم أهملوه بصيامهم شهر رمضان [1] . ومنـه تحليل أكل بعض المأكولات المحرمة عنـد يهود ، مثل أكل لحوم الإبل . وقد عدت اليهود إباحة أكل لحوم الإبل من الـكبائر التي لا يمكنهم التساهل في قبولها ، ومن الأمور التي باعدت بينهم وبين الإسلام [2] .

ويعد انتصار المسلمين على كفّار قريش في معركة « بدر » من الحوادث المهمة الفاصلة في يهود يثرب . لقد أخاف هذا الانتصار يهودَ المدينة ، وأفزعهم ، فقد كانوا يأملون أن تدور الدائرة في هذه المعركة على المسلمين ، فيتخلصون بذلك منهم ويستريحون . فالمشـركون ، وإن كانوا في عقيدتهم بعيدين جداً عنهم ، خيرٌ لهم من المسلمين . لأنهم لا يطلبون منهم دخولهم في الوثنية ولم يطلبوا منهم مشاركتهم في التعبـد لأصنـامهم ، وهم قوم لا تهمهم عبادة غيرهم . أما المسلمون ، فإنهم يرجون دخول اليهود في دينهم واستجابتهم لدعوتهم ، وقد دخل نفر منهم في الاسلام ، فهم سـيقضون على ديانة آبائهم وأجـدادهم التي ورثوها منهم ، وتلك هي الطامةُ الـكبرى على كيان اليهود . ولهذا كانت هزيمة المشركين في بدر فاجعة على اليهود ، ونصراً عظيماً للمسلمين . فاجعة أدركَ خطرها رئيس من كبار رؤسائهم المتعنتين المتعصبين ليهوديته هو كعب بن الاشرف ، فأسرع الى قريش في مكة

---

(١) « عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ، فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء ، فقال لهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ فقالوا : هذا يوم عظيم ، أنجى الله فيه موسى وقومه ، وغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً ، فنحن نصومـه . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : فنحن أحق وأولى بموسى منكم . فصامه رسـول الله ، صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه . وأخرجه البخاري أيضاً عن ابن عباس ، وأن النبي ، صلى الله عليه وسـلم ، قال لأصحابه : أنتم أحق بموسى منهم ، فصوموه » ، تفسير القرطبي (١/٣٩٠ وما بعدها) « طبعـة دار الـكتب المصرية » ، سنن أبي داوود (٢/٣٢٦ وما بعدهـا) ، صحيح البخاري « كتاب الصوم » ، السنن الـكبرى للبيهقي (٤/٢٠٠) ، صحيح مسـلم (٣/١٤٦ وما بعدها) . « باب صوم عاشوراء » .

(٢) « انكر اليهود تحليل النبي لحوم الإبل . فقال : كل ذلك كان حلا لابراهيم . فقالت اليهود : كل شيء نحرمه فانه محرم على نوح وابراهيم وهلم جرا حتى انتهى الينا » تفسير الطبرسي (١/٤٧٤ وما بعدها) المجلد الأول .

يواسيها ويعزيها ، راثياً فى شعره قتلاها فى تلك المعركة ، حاثاً إياها على الاستخفاف بأمر الهزيمة والاهتمام بجمع القوى ثانية للانتقام من محمد والقضاء عليه وعلى من أطاعه من المسلمين وهم بعد فى ابتداء أمرهم ، وذلك — بالقياس الى قريش ذات العدة والعدد — شيء سهل يسير (١) .

وكعب بن الأشرف على ما يبدو من وصف الأخباريين له ، شخصية قوية ، فهو شاعر وخطيب . وكان أبوه — فى بعض الروايات — من بني النضير على رواية ، فهو يهودي إذن من ناحية الأب ، وكان أبوه — فى رواية أخرى — من بني نبهان من بطون طيء ، فهو عربى . أما أمه ، فكانت يهودية باجماع الرواة ، ومنها أخذ يهوديته وتعصبه ليهود ، وكان من أحقد الناس على الرسول . فلما عاد من مكة بعد أن حرض قريشاً على المسلمين ، أخذ ينظم الشعر فى هجاء الرسول والمسلمين وفى التشبيب بنسائهم والتغزل بهن . بقى على ذلك لا يهجع ولا يهدأ حتى جنى بفعله هذا على نفسه ، فاغتيل ، وتخلص المسلمون منه (٢) .

وقد نصح الرسول كعب بن الأشرف وجماعته من المتعنتين الحاقدين عليه من يهود

---

(١) « فقال حين بلغه الخبر : ويلكم أحق هذا ! أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان ، يعني : زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لنا من ظهرها . فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة ، فنزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضبيرة السهمي وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، فأنزلته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار ويبكي على أصحاب القليب الذين أصيبوا ببدر من قريش . ثم رجع كعب بن الأشرف الى المدينة فشبب بأم الفضل بنت الحارث ..... ثم شبب بنساء من نساء المسلمين حتى آذاهم . » ، الطبري (٢/٣ وما بعدها) ، « ثم دخلت السنة الثالثة من الهجرة » .

(٢) تفسير الطبري (١٣٤/٤ وما بعدها) ، تأريخ الطبري (١٣٦٨/١ وما بعدها) « طبعة ليدن » ، روح المعاني (١٤٩/٤) ، صحيح مسلم (١٨٤/٥ وما بعدها) ، شرح السيرة النبوية ، (٢٩٩/٢) « تحقيق بولس برونله » ، ابن هشام (٥٤٨ ، ٦٥٧) « طبعة وستنفلد » ، الأغاني (١٠٦/١٩) ، Ency , II, 583 , R Leszeynsky , Die Juden in Arabien Zur Zeit Muhammeds , Berlin , 1910 , S 66.

بالكف عن الحاق الأذى به وبالمسلمين ، ومن مساعدة قريش وهم كفار بعيدون فى العقيدة عنهم بعداً كبيراً ، وعاب عليهم ذلك ، ولكنهم لم يرتدعوا وتمادوا فى دعوتهم فى نصرة قريش وفى ايذاء المسلمين ، وفى ذلك نزل الوحي : « ألم تَرَ الى الذين يزكّون أنفسهم ، بل الله يزكي من يشاء ، ولا يظلمون فتيلا . أنظر كيف يفترون على الله الكذب ، وكفى به إثماً مبيناً . ألم تَرَ الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً »[1] .

وقتل رجل آخر من يهود كان تاجراً من تجارهم يقال له ابن سُنَيْنة ، نخافت يهود ، وأصبحت لا تأمن على نفسها ، وخاصة بعد أن رأوا أن من قام بقتل ابن الأشرف وابن سنينة هما من اصدقائهما وممن كانا يطمئنّان اليهما[2] . فأخذوا يشكون فيمن يقدم عليهم مهما تظاهر لهم بالتعلق بالوثنية وببغضه لمحمد ، خوفاً من أن يكون خدعة ، كما حدث ذلك فى قتل هذين الرجلين .

وذكر علماء التفسير وأهل السير أسماء عدد من رؤساء يهود كانوا على شاكلة كعب ابن الأشرف فى ايذاء الرسول وفى حث المشركين على المسلمين ، منهم : أبو عفك اليهودي من بني عمرو بن عوف ، وكان شيخاً مسنّاً كبيراً قد بلغ عشرين ومئة سنة ، يحرض على الرسول ويقول الشعر هازئاً فيه بالمسلمين[3] ومنهم مالك بن الأشرف ، وأبو ياسر ، وشعبة « شمية » بن عمرو الشاعر ، وحيي بن أخطب[4] ، وفنحاص ، وآخرون أشرت الى أسمائهم قبل لحظات .

---

(١) النساء : الآية ٤٩ وما بعدها . البداية والنهاية (٤/٥) ، صحيح مسلم (٥/١٨٤) ، صحيح البخاري (الربع الثالث ص ٧٥) « كتاب المغازي » .

(٢) الطبري (٣/٥) « ثم دخلت السنة الثالثة من الهجرة » . « قال ابن هشام : ويقال ابن سبينة » ، ابن هشام (٢/٤٤١) ، « تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد » .

(٣) الواقدي : الجزء الثاني من القسم الأول (ص ١٩) « فقتله سالم بن عمير العمري في شوال على رأس عشرين شهراً من مهاجر رسول الله » ، Graetz, Vol., III P. 75. f.

(٤) تفسير روح المعاني (٣/٢٠٥) .

ونصر بدر ، وإن كان قد قوّى الاسلام ورفع معنويته ، قد شد فى عزيمة المشركين على الاستعداد للقتال والتهيؤ لحرب كبيرة تلقى فيهـا قريش كل ما عندها للقضاء على من فى يثرب من المسلمين ، فهو فى الواقع نصر جاء للإسلام بخطر عظيم ، خطر الافناء لامحـالة لولا تيقظ المسلمين وادراكهم لخطورته وللنتـائج التي سيتعرضون لها من استعداد قريش لها ، وقريش أصحاب مال وعدد وقوة . ولا قيـاس فى هذا الباب بين ما كان عند المسلمين وما كان عند المشركين .

وتصرف المسلمون تصرفاً حسناً فى استعدادهم للقاء قريش ، وهو لقاء محتم كما كانوا يعلمون لابد منه . وكان من حسن تصرفهم ، ادراكهم ما قد يسببه لهم وجود اعدائهم فى يثرب من مشركين ويهود من متاعب وأخطـار . فما الذي يفيدهم استعدادهم ان كانت أخباره كلها عند قريش ، أرسلها اليهم شركاؤهم في العقيدة أو فى العداء من سكان يثرب . لهذا كان لابد من التفكير فى الأعـداء الخطرين ، السـاكنين في داخل يثرب فى بيوت منتشرة بين المسلمين أو فى أحياء مجاورة وملاصقة لأحيائهم . فمـا يحدث بين المسلمين ، ينتقل خبره فوراً الى الساكنين بينهم ، وهؤلاء يبلغونه فى الحال الى مَنْ فى مكة للوقوف عليه . ثم انهم يعرفون مواطن القوة ومواطن الضعف ، وفى استطاعتهم باختلاطهم بالمسلمين إثارة الذعر وحالة الفوضى بينهم ساعة الشدة وأوقات الخطر ، ورَبْك صفوفهم فى السلم وفى الحرب ، فهم فى الواقع أشد خطراً على رسول الله من خطر كفّـار قريش .

وكان فى جملة ما فعله بعض يهود للتضييق على المسلمين بغيةَ إبعادهم عن الإسلام ، هو مقاطعتهم اقتصادياً وامتناعهم عن دفع ما يجب عليهم دفعه من ديون وبيوع وأمانات الى من بدل دينه من المشركين ، بحجة أن ما كان لهم من حق إنما كان لهم قبل الإسلام ، وأن دخولهم فى الإسلام قد أبطـل حقهم فى ذلك ، وأنهم لذلك فى حلّ من دفعه الى من أسلم ، والى من سيدخل فى الإسلام من المشركين أو من يهود . والى ذلك أشير فى القرآن

الكريم : « ومن أهل الكتاب مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ اليك ، ومنهم من إن تأمَنْهُ بدينارٍ لا يُؤدِّهِ اليك إلاّ ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » [1] .

ويذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت فى حق يهود ، وأن من الفريق الأول عبد الله ابن سلام ، استودعه قرشي ألفاً ومئتي أوقية ذهباً فأداه اليه ، وأن من الفريق الثانى فنحاصَ بن عازوراء ، استودعه قُرَشي آخر ديناراً فجحده ؛ وأن رجالاً من أهل الجاهلية بايعوا يهوداً ، فلما أسلموا ، تقاضوهم عن بيوعهم ، فقالوا : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا ؛ لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه . وروى الكلبي ، قال : قالت اليهود : الاموال كانت كلها لنا . فما فى أيدي العرب منها ، فهولنا ، وإنهم ظلمونا وغصبونا ، فلا إثم علينا فى أخذ أموالنا منهم . وقد اشتكى الأشعث بن قيس عند الرسول على يهودي كانت لديه أرض تعود له فجحدها ، فقال الرسول : يحلف . فأجاب قيس : إذا يحلف فيذهب مالي . ولما تعددت هذه الحوادث ، نزلت تلك الآية . ويقال : إن الرسول حينما سمع كلامهم ذلك ، قال : « كذب أعداء الله . ما من شيء كان فى الجاهلية إلاّ وهو تحت قدمي هاتين ، إلاّ الأمانة فإنها مؤدّاة الى البرّ والفاجر » [2] .

---

(١) آل عمران : الآية ٧٥ ، « قالت اليهود ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل ... ليس علينا في المشركين سبيل يعنون من ليس من أهل الكتاب ... قال النبي صلى الله عليه وسلم كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة الى البر والفاجر . بايع اليهود رجال من المسلمين في الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم ثمن بيوعهم ، فقالوا : ليس لكم علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا ، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم. فقال الله عز وجل : ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، تفسير الطبري (٣/٢٢٥ وما بعدها) ، تفسير النيسابوري (٣/٢٢٥ وما بعدها) ، « حاشية على تفسير الطبري » .

(٢) روح المعاني (٣/٢٠٢ وما بعدها) ، « إن اليهود كانوا اذا بايعوا المسلمين يقولون : ليس علينا في الأميين سبيل أي حرج في ظلمهم . لمخالفتهم إيانا . وأدعوا أن ذلك في كتابهم ، .... ويقال : إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالا فلما أسلم أرباب الحقوق قالت اليهود : ليس =

ولضرورات الدفاع عن النفس من الخطر الخارجي المحتم الذي كان يجابه المسلمين من قريش ومن تحريضها للقبائل بطرق مختلفة على الانضمام اليهـا لمهاجمـة يثرب ، ولضرورات التحفظ من الفتن الداخلية التي كان يدبرها من بقي على شركه من أهل يثرب ، وكذلك المنافقون واليهود الذين أخذوا يجاهرون النبي بعداوتهم منذ دعاهم المسلمون الى الدخول فى الإسلام والتصديق برسالة الرسول ، اضطُرَّ المسلمون الى تنبيه هؤلاء المعروفون بعدائهم الظاهر ليتبصّروا ويفكروا فى أمر مستقبلهم ونبذ خططهم هـذه في محاربة الإسـلام ، ويذكر أن الرسول ذهب بعد معركة بدر بأيام الى بني قينقاع ، فجمعهم بسوقهم ، ثم خطب فيهم ، فكان من جملة ما قاله لهم : « يا معشر اليهود ، إحذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ؛ فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وفي عهدالله اليكم » [1] . وقول الرسول هذا تحذير وجه الى اليهود وخاصة يهود بني قينقاع ، ومنازلهم فى داخل يثرب مع المسلمين ليتعقّلوا وليتبصروا فى موقفهم من الإسلام : بالدخول فيه ، أو بالوقوف منه موقف حياد على الأقل ، وليتجنبوا التعاون مع المشركين .

وكان أول التحام وقع بين اليهود والمسلمين ، هو الالتحام الذي وقع بين بني قينقـاع والمسلمين . لقـد كانت منازل بني قينقاع فى داخل مدينة يثرب وبين أحياء المسلمين ، فوقوع التصادم بينهم وبين المسلمين قبل غيرهم من اليهود شيء منطقي . وكانت شرارته

= لكم علينا شيء ، لأنكم تركتم دينكم فسقط عنا دينكم . وادعوا أنه حكم التوارة . » تفسير القرطبي (١١٨/٤) « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل . هذا بيان العلة التي كانوا لأجلها لا يؤدون الأمانة ويميلون الى الخيانة . أي قالت اليهود ليس علينـا في أموال العرب التي أصبناهـا سبيل لأنهم مشركون . عن قتادة والسـدي . وقيل لأنهم تحولوا عن دينهم الذي عاملناهم عليه . وذلك أنهم عاملوا جماعة منهم ثم أسلم من له الحق وامتنع من عليه الحق من أداء الحق . وقالوا إنما عاملناكم وأنتم على ديننا فاذا فارقتموه سقط حقكم وادعوا أن ذلك في كتبهم . فاكذبهم الله في ذلك بقـوله : ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، تفسير الطبرسي (٤٦٣/١) .

(١) ابن هشام (٣٣٤/٢) ، اليهـود (ص ١٢٨) ، الطبري (٢٩٧/٥) « غزوة بني قينقاع » ، السنة الثانية » ، ابن الأثير (٥٦/٢ وما بعدها) « ذكر غزوة بني قينقاع » البدايـة والنهاية (٣/٤) .

وصول الأخبار الى الرسول بتآمر بني قينقاع عليه وتهيئهم لاحداث فتنة فى يثرب ربما لا يعلم مصيرها أحد . وقد تخوف الرسول ، وكان على ما يظهر من روايات أهل السير والأخبار يتخوف منهم ويحسب لوجودهم بين ظهراني المسلمين حساباً ، وظلت قضيتهم تشغله حتى انتهى الى اتخاذ قرار جازم بغزوهم وتخييرهم بين الإسلام أو ترك المدينة والهجرة منها[1] . لقد كان ردهم على تحذير الرسول رداً فيه شدة وغلظة وتحد ، اذ أجابوه : « يا محمد ، إنك ترى أنا كقومك . لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس » .[2]

ويذكر بعض أهل السير أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد[3] . ويذكر بعض أهل السير أيضاً أن امرأة من المسلمين جاءت الى سوق بني قينقاع ، فجلست الى صائغ ، فأراد بعض اليهود حملها على كشف وجهها وهي تأبى ، فعمد أحدهم الى طرف ثوبها فعقده الى طوقها فلما نهضت ، انكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فصرخت ، فهرع اليها المسلمون ، ووقع القتال بينهم وبين بني قينقاع[4] . ومن هنا — على هذه الرواية — وقع بدء إجلاء بني قينقاع عن المدينة .

---

(١) الأنفال : الآية ٥٨ ، « عن عروة : نزل جبريل على رسول الله صلى الله عليهما بهذه الآية : وإما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء . فلما فرغ جبريل عليه السلام من هذه الآية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اني أخاف من بني قينقاع . قال عروة : فسار اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية . » الطبري (٢/٢٩٧) « غزوة بني قينقاع » ، البداية والنهاية (٣/٤ وما بعدها) ، الطبقات : الجزء الثاني من القسم الأول (ص ١٩) .

(٢) الطبري (٢/٢٩٧) « حوادث السنة الثانية » ، ابن الأثير (٢/٥٦) ، البدء والتأريخ (٤/١٩٥ وما بعدها) ، « يا محمد ! لا يغرنك من لقيت . إنك قهرت قوماً أغماراً وإنا والله أصحاب الحرب ولئن قاتلتنا لتعلمن إنك لم تقاتل مثلنا » ، المغازي للواقدي (٢/١٧٧ وما بعدها) « تحقيق فون كريمر » .

(٣) ابن هشام (٢/٣٣٤) . (٤) ابن الأثير (٢/٥٦) .

وكانت سوق بني قينقاع سوقاً شهيرة يقصدها الناس من مواضع بعيدة للامتيار والتجارة ولشراء مصنوعات يهود ، يجد الأعراب فيها والحضر من أهل القرى مصنوعات الشأم وبلاد البحر المتوسط ، كما يجدون فيها أنواع الحبوب والتمور ، وقد كانت تدر على المشتغلين بها أرباحاً عظيمة [١] .

وكان بنو قينقاع على ما يذكره الأخباريون أشجع يهود [٢] ، وكانوا صاغة وأصحاب سلاح ، وكانوا حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين . ولمكانتهم هذه في المدينة ولِما أبدوه من مناصرة لقريش وعداء للمسلمين بالرغم من الصحيفة التي كانت بينهم وبين الرسول ، فكر الرسول في أمرهم وظل في ذلك حتى نزلت الآية : « وإمّا تخافنّ من قوم خيانة ، فانبذْ اليهم على سَواء ، إن اللهَ لا يُحبّ الخائنين » [٣] فسار اليهم وحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشد حصار ، حتى نزلوا على حكم الرسول ، وتشفع عنده فيهم عبد الله بن أبي ، وألح على الرسول في الشفاعة حتى قبل ، فأمر باجلائهم عن المدينة ، ووكل ذلك الى عبادة بن الصامت ، فخرج بهم الى أذرعات وقد قسم الرسول ما أصاب المسلمين من أموالهم خمسة أخماس ، أخذ خمساً لنفسه ، ووزع الأخماس الأربعة على من حضر قتالهم من المسلمين ، فكان أول خُمْس خمّس بعد بَدْر [٤] .

ويذكر المفسرون أنه في حق يهود بني قينقاع نزلت الآية : « قُلْ للذين كفروا : ستغلبون ، وتحشرون الى جهنم وبئس المِهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة

---

(١) صحيح البخاري : الربع الثاني (تحقيق لودلف قرهل) ، كتاب البيوع (ص ٢) ، Ency, II, P 645

(٢) المغازي للواقدي (٢/١٧٩) .

(٣) الأنفال : الآية ٥٨ ، المغازي للواقدي (٢/١٧٨) ، ابن خلدون (بقية الجزء الثاني من تأريخ ابن خلدون ص ٢٣) .

(٤) كتاب الطبقات الكبير ، الجزء الثاني ، القسم الأول (ص ١٩ وما بعدها) ، ابن هشام (٣٨٣) ، « طبعة وستنفلد » ، Caetani, Annali, I, 520, R. Leszynsky, Die Juden, S 60. Graetz, Vol., III, PP, 78,

تقتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثلهم رأي العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إنَّ فى ذلك لعبرةً لأُولي الأَبصار »[1] .

وكلمة « قينقاع » ، من الكلمات التي يدل مظهرها على أنها غريبة الأصل ، أعجمية ، فليس فى شكلها ما يدل على أنها أصيلة فى العربية . غير أننا لا نملك دليلاً يثبت أرومتها فى العبرانية ، فأمرنا فيها أمر الحائر المتشكك . كذلك نحن فى حيرة من زمن دخولها يثرب وسكنها فيها ، فليس فى الذي بين أيدينا ما يفيدنا فائدة تذكر فى هذا الباب . أما أسماء أفرادها ، فأكثرها عربي خالص ، وفيها أسماء عبرانية خالصة كذلك من النوع المعروف الشائع عند يهود ، ولكنه قليل بالقياس الى الأسماء العربية . ولكن كثرة التسميات أو قلتها ، لا يمكن أن تكون دليلاً على أن بني قينقاع لم يكن أصلهم من العبرانيين .

لم يكن عدد بني قينقاع كبيراً كما يُظَنّ ، فلم يبلغ مجموعهم ألف رجل ، كانوا كلهم صُياغاً وأصحاب تجارة . ولمّا أجلوا ، تركوا أدواتهم التي كانوا يشتغلون بها للمسلمين ، كما تركوا لهم ما كانوا يستعملونه من سلاح[2] . والظاهر أن ثراءهم الذي حصلوا عليه من التجارة والصياغة ، هو الذي كون لهم مكانة فى يثرب ، فاستعانوا بمالهم على شراء قلوب الرؤساء وعلى التدخل فى شؤونهم وفى مصالح المدينة الداخلية . وقد كانوا عند ظهور الإسلام فى حلف مع الخزرج[3] منافسي الأوس ، والأوس والخزرج هما الحزبان السياسيان المتنافسان اللذان أقتسما بينهما السلطان ، وكانا يدبّران شؤون المدينة ، أما اليهود فهم كتلة أجهدت نفسها أن تكون فوق الحزبين ، لتسيطر على الجماعتين . ولكن الخصومة العنيفة وإلحاح الأوس والخزرج عليهم فى أيام الشدة والحروب التي كانت تقع بين الحيين

(١) آل عمران : الآية ١٢ وما بعدها .

(٢) « ولم يكن لهم زرع ولا نخل إنما كانوا تجاراً وصاغة يعملون بأموالهم . وهم قوم عبدالله بن سلام » ، ابن خلدون (بقية الجزء الثاني ص ٢٣) ، Sprenger, Das Leben, II, S. 147. Ency, II, P 645

(٣) الروض الأنف (٢/٣٣) .

لتميين موقفهم بحزم ووضوح من المسكرين بالانحياز الى هـــذا أو ذاك ، دفعتهم الى الانشطار الى شطرين : شطر للأوس وشطر للخزرج ، فبنوا قينقاع مع الخزرج ، وغيرهم مع الأوس . ومن يفز من الحزبين ، يضمن حلفاؤه من اليهود شروطاً سمحة على الأقل لإخوانه في الدين من المنضمين الى الحزب المغلوب . وعلى هذا النحو كانت سياسة يهود يثرب تربصاً وانتظاراً وامتناعاً عن الاشتراك الفعلي في الخصومات إذا جدّت وتحوّلت الى حرب ، لتكون لهم السـيطرة على المتخاصمين ، إلا اذا أجبروا وأكرهوا ، فعندئذ لا حول لهم فى ذلك ولا قوة . وعندئذ يكون فريق منهم لهذا ، وفريق لذاك ، والنصر على كل لا يلحق بيهود الحزب المغلوب ما يلحقه من أذى بحلفائه العرب المغلوبين . وهكذا أضطرت الخصومات السياسية العنيفة التي كانت بين الأوس والخزرج اليهود الى الانقسام ، والى السير فى سياستهم على هذا النمط من السياسة القبيليه الضيقة المبنية على أنانية سادات الحيين ، لا على أساس المصلحة العليا للأكثرية الغالبة من هؤلاء المساكين أتباعهم ، سياسة عادت على المدينة ولا شك بأذى وشر مستطير .

وقد كان لانتصار بدر واجلاء بني قينقاع ومقتل كعب بن الأشرف(١) ونفر من سادات يهود وشجعانها ، أثر فى نفوسهم وفى نفوس القبائل المحيطة بيثرب ، نخفت حدة تحرش يهود بالمسلمين . ولما كانت معركة أحد ، أبوا مساعدة الرسول أو الاشتراك معه فى حرب قريش . وحجتهم أن يوم المعركة هو يوم سبت ، ولا قتال فى هذا اليوم ، ثم أن الصحيفة التي كانت بينهم وبين الرسول لا تشترط عليهم الاشتراك معه في قتال بعيد عن يثرب ، فهم فى حلّ من القتال . ولم يشترك منهم الا رجل واحد اسمه مخيريق ، وفى روايات أخرى أن الرسول هو الذي نهى عن الاستعانة بيهود قائلا لأصحابه حين سألوه أن يطلب عونهم لا حاجة لنا فيهم ، أو لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك(٢) .

---

(١) البدء والتأريخ (٤/١٩٧) المغازي للواقدي (٢/١٨٤) .

(٢) ابن هشام (٢/١١٠ ، ٣٧٣) ، ابن سعد (٢/٢٧) ، اليهود (ص ١٣١ وما بعدها) ، Montgomery Watt, Muh. At Med., P. 197.

وجاءت نوبة بني النضير فى الجلاء بعد بني قينقاع . لقد أحس الرسول أنهم سيكيدون له ، وأنهم يدبرون له أمراً . فقرر إجلاءهم من مواضعهم قبل ظهور فتنتهم ، ولا سيما وأنه مقبل على حروب مع قريش ، وقد امتنعوا عن مساعدته فى معركة أحد مع ما بينه وبينهم من عهد [1] . فأرسل الرسول من يبلغهم قراره باجلائهم ، تاركاً لهم مدة يتهيؤون فيها للرحيل . فلما انتهى الأجل ، وكان رهط من المنافقين وعلى رأسهم عبد الله ابن أبي قد أرسل اليهم أن البثوا وتحصنوا فإنّا لن نسلمكم . إن قاتلتم قاتلنا معكم وأن أخرجتم خرجنا معكم ، رفض بنو النضير ترك ديارهم ، وتحصنوا فيها ، معتمدين على قوة حصونهم وعلى المساعدة التي ستأتيهم من المنافقين . فسدوا المنافذ ، وأحكموا الجدر ، لئلا يصيب مواطن ضعفها المسلمون وأرسل كبيرهم حيي بن أخطب الى الرسول : إنّا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك . فصار اليهم الرسول فى أصحابه الى منازل بني النضير بناحية الغَرْس وحاصرهم ولما اشتد عليهم الحصار ، وقطع المسلمون نخيلهم وكانت عليها آمالهم [2] وأيسوا من أي نصر يرد اليهم من عبد الله بن أبي كبير المنافقين ومن قريظة ، رضوا بحكم الرسول فيهم . فأمر بهم ، فأجلوا من ديارهم ، ولحقوا بخيبر ، وذهب نفر منهم الى أذرعات . وكان ممن سار الى خيبر من رؤسائهم : سلام بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب ، وكنانة ابن الربيع بن أبي الحقيق . فلما نزلوها دان لهم أهلها [3] .

---

(١) « فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستعينهم في دية ذينك القتيلين اللذين أصابهما عمرو ابن أمية . وكان في العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتعاونوا ويتحمل ما يثوب بعضهم عن بعض . قالوا نعم يا أبا القاسم وهموا بالغدر به » ، البدء والتأريخ (٤/٢١٢) ، صحيح البخاري (الربع الثالث ص ٧١ وما بعدها) ، « كتاب المغازي » .

(٢) « ان النبي حرق نخل بني النضير . قال : ولها يقول حسان بن ثابت :

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير »

صحيح البخاري (الربع الثالث ص ٧٢) « كتاب المغازي »

(٣) الطبقات الكبير : الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٤٠ وما بعدها) ، ابن هشام (٣/٥١) ، فتوح البلدان ، للبلاذري (١/٢٣ وما بعدها) ، ابن هشام (٣/١٩١) « أمر إجلاء=

وفى حادث إجلاء بني النضير ، نزلت سورة الحشر [١] . وقد أشير فيها الى غرور بني النضير وامتناعهم بحصونهم واعتزازهم بها ، ظانين أنها ستمنعهم من الأعداء وأنها ستحميهم من المسلمين . ولكنها لم تنفعهم شيئاً ، ولم ينفعهم الذين نافقوا فلم يساعدوهم ، ولم يمدوا أيديهم اليهم . وأشير فيها الى أمر النبي أصحابه بقطع النخيل وما كان له من أثر في نفوسهم ، ثم نزول الوحي باجلائهم عن أرضهم وعدم السماح لهم بالبقاء فى تلك الديار .

وقد رضى بنو النضير بالجلاء وفضلوه على الدخول فى الإسلام والبقاء ، إلا رجلين منهم أسلما فضمنا بإسلامهما مالهما وما كانا يحرزانه ، هما : يامين بن عُمَيْر بن كعب بن عمرو بن جحاش ، وأبو سعد « أبو سعيد » بن وهب [٢] .

وما كاد حيي بن أخطب النضري وسلام بن أبي الحقيق النضري وكنانه بن الربيع ابن أبي الحقيق النضري يدركون المنازل الجديدة ، حتى شعروا بفداحة ما أصيبوا به من هذا الجلاء ، وبصعوبة عيشهم فى هذه الأرضين التي وصلوا اليها ، فقرروا الاتصال بأعداء الرسول ، لتأليبهم عليه ، وحثهم على تأليف جيش قوي ماحق ينضم اليه بنو النضير وبنو قريظة ، وهم آخر من تبقى من يهود فى منطقة يثرب ، ومن يستجيب لدعوتهم من الأعراب للهجوم على يثرب ومحو المسلمين منها ، وبذلك يكتب لهم النصر [٣] . ومضى وفد منهم

= بني النضير في سنة أربع » ، « تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد » ، ابن خلدون ، (بقية الجزء الثاني ص ٢٨) .

(١) عمدة القاريء (١٧/١٢٥ وما بعدها) ، السيوطي : لباب النقول في أسباب النزول (٢/١٢١ وما بعدها) ، حاشية على تفسير الجلالين ، المغازي للواقدي (ص ٣٥٧ وما بعدها) ، « عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس سورة الحشر . قال : قل سورة النضير » ، صحيح البخاري (الربع الثالث ص ٧٢) « كتاب المغازي » .

(٢) ابن هشام (٣/٥١) ، (٣/١٩٤) « تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد » ، عمدة القاريء (١٧/١٢٦) ، Graetz , Vol., III, pp. 80, Sprenger, Das Leben, II, S. 160 ff. اليهود (ص ١٣٩) .

(٣) الطبري (٣/١٤) « السنة الخامسة » ، ابن هشام (٣/٢٢٩) ، « تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد » .

فيهم من ذكرت حتى أتى مكة ، فألبوا قريشاً ، ودعوهم الى الخروج الى رسول الله ، وعاهدوهم على قتله ، ووعدوهم لذلك موعداً ، ثم خرجوا من عندهم فأتوا غَطَفان وسُلَيْماً ، ففارقوهم على مثل ذلك ، وتجهزت قريش ، وجمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب ، لملاقاة الرسول في يثرب ومحاربته فيها ودكها دكاً . وحادث الوفد رؤساء بني قريظة على الانضمام الى قريش في مقاتلتها الرسول . وكان رئيس بني قريظة كعب بن أسد ، فأبى الانضمام الى قريش ، لوجود صحيفة ، أي عهد بينه وبين الرسول ، فهو لا يريد أن ينقض العهد ، ولا يرغب في تعريض قومه للخطر ، وأصر على رأيه في الوفاء بالعهد حتى تمكن حيي بن أخطب من التأثير فيه ومن تغيير رأيه ، فنقض العهد ، وانضم الى المشركين .

وقد شعرت بنو قريظة بعد أن نقضت عهدها بسوء عملها وبخطئها وبضعف قريش والأحزاب على كثرة العدة والعدد ، فأرادت أن تتملص وتتخلص من عهدها مع قريش بالحيلة . فلما طلبت قريش منها النزول الى المعركة ، أرسلوا اليها : أنّ اليوم سبتٌ ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً ، فإننا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تنتشروا الى بلادكم ، وتتركونا والرجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك ، فأرسلوا لنا الرهائن حتى نطمئن . وأما قريش وغَطَفان ، فأبوا أن يدفعوا اليهم رجلاً واحداً ، واتهموهم ، وانفضت بنو قريظة عن قريش[1] .

وكان نقض بني قريظة للعهد الذي كان بينهم وبين الرسول سبباً في التعجيل بنهاية أكثرهم . فما انسحب الأحزاب ، حتى أمر الرسول أصحابه بالمسير الى بني قريظة ، فأدركوهم وقد تحصنوا بحصونهم ، وتمنعوا بأبنيتهم ، وظلوا فيها لا يجرؤون على الظهور أمام المسلمين لقتالهم ، حتى اضطروا الى فتح أبوابهم والتسليم لما تكتبه لهم الأقدار .

(١) الطبقات : الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٤٩ وما بعدها) ، اليهود (ص ١٤٥ وما بعدها) ، ابن هشام (٣/٢٣٦) ، « تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد » ، البدء والتأريخ (٤/٢١٩) ، المغازي للواقدي (٣٦٤ وما بعدها) .

فكان الحكم بهلاك رجالهم البالغين [1] .

لقد كان جزاء نقض كعب بن أسد رئيس بني قريظة ، قتله بالطبع هو وسائر رؤساء قريظة والبالغين . وكذلك كان القتل جزاء حيي بن أخطب صاحب الفتنة وكبيرها ، والمسؤول الأول عن هذه النكبة التي حلت ببني قريظة . لقد كان قد عاهد رسول الله على ألاّ يظاهر عليه أحداً ، وجعل الله كفيلاً . ولكنه كان أول من نقض العهد وحنث به ، ودبر المؤامرات ، وحرض سائر يهود على المسلمين ، وتعاون مع الوثنيين [2] ، وقطع المسافات لتحريض القبائل على مهاجمة المدينة ، فجنى بعمله هذا على نفسه وعلى ابنه وعلى عشيرته وعلى سائر رجال قريظة . ولولا فتنته هذه ، لكان أمر قريظة كأمر بني قينقاع وبني النضير .

لم تقع فى غزوة بني قريظة معارك فعلية ، أي مناوشات واشتباكات بالسلاح ، وكل ما حدث هو أن المسلمين حاصروا اليهود في مواطنهم ، فسد هؤلاء عليهم المنافذ ، وأغلقوا عليهم الأبواب ، وأخذوا يرمون المحاصرين بالحجارة والسهام ، وهو كل ما استعمل فى هذه الغزوة من سلاح ، خلا سلاحاً آخر كان له أثره فى التفريج عن النفوس وفى الترفيه عنها هو استعمال قوارص الكلام ، ولقوارص الكلم والهجاء أثرها فى حروب تلك الأيام وفى حروب أهل البوادي حتى اليوم . ولهذا لم تشر أكثر الروايات الواردة عن هذه المعركة الى استشهاد أحد من المسلمين أو سقوط أحد من يهود فيها ، وإن أشار بعضها الى سقوط بضعة أشخاص . وبعد انسلاخ أيام الحصار ، وهي أيام لم تبلغ كلها شهراً ، سلم بنو قريظة الى الرسول ما كان عندهم من سلاح ، فكان هذا السلاح خير عون له فى حروبه

---

(١) الطبقات : الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٥٣ وما بعدها) ، وذلك في السنة الخامسة من الهجرة ، البلاذري ، فتوح البلدان (ص ٢٨) ، ابن هشام (٣/٢٥٢) « تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد » ، ابن خلدون (بقية الجزء الثاني ص ٣١) ، صحيح البخاري (الربع الثالث ص ٩٨) « كتاب المغازي » ، Graetz, Vol., III, pp. 81 f.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان (ص ٢٨) .

وغزواته التي وقعت بعد ذلك [1] .

وقد رأى ثلاثة رجال أو أربعة من بني قريظة أو من بني هدل أن الحياة خير لهم من الموت ، وأن فى الدخول فى الاسلام سلامة لهم ، فأسـلموا ، وحقنوا بذلك دماءهم ، وكان هؤلاء النفر الذين فضلوا الحياة على الموت وعلى دينهم الذي ولدوا عليه : ثعلبة بن سَعْـيَة وأسيد بن سعية ، وأسيد بن عبيد [2] .

وتقع أرض بني قريظة فى منطقة خطيرة من يثرب : تقع الى جنوب المدينـة عنـد وادي مهزور ، ومعهم اخوتهم بنو هدل ، وكانوا ينقسمون الى بطنين : بني كعب ، وبني عمرو ، ولمكانة أرضهم هذه ، عرّضت يثرب لخطر عظيم ، إذ جعلت الدفاع عنها مكشوفاً ، وفى استطاعة بني قريظة تعريض المسلمين للخطر فى أي وقت شاؤوا ، بانضمامهم الى الأعداء ، أو بالسماح لهم بالسير اليها من هذه الفجوة الخطرة . ولهـذه الخطورة العسكرية كان لا بد من عمل شيء ، لتلافى هذا الخطر الذي يعرض المسلمين للهلاك [3] .

وقد رَجَّـعَ بعض أهل الأخبار نسبَ بني قريظة وبني النضير الى جذام من « قضاعة » ، زاعمين أنهم كانوا منها ثم تهودوا . ولا يستبعد كما قلنا تهود بعض العرب باُتصالهم بيهود ، غير أن رَجْـعَ نسب هذين الحيين الى جذام أمر يعوزه الدليل [4] .

وبهلاك بني قريظة ، لم يبق ليهود نفوذ في المدينة ولا فى أطرافهـا ، ولم تبق لهم فى الحجاز كتل قوية سوى الجماعات التي كانت تسكن أعاليه فى خيبر وما وقع الى شمال هـذا

---

(١) ابن هشام (٣/٢٧٤) « تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد » ، المغازي للواقدي (٣٧٣ وما بعدها) .

(٢) ابن الأثير (٢/٧٧) « ذكر غزوة بني قريظة » ، « ثم أن ثعلبـة بن سعية وأسيد بن سعية وأسيد بن عبيد — وهم نفر من بني هدل ، ليسوا من بني قريظة ولا النضير ، نسبهم فوق ذلك ، هم بنو عم القوم — أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليـه وسلم » ، ابن هشام (٣/٢٥٦) ، « تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد » ، Ency, II, P. 1127.

(٣) Ency, II, 1127 (٤) Ency, II, P. 1127

المكان . وقد أصبحت خيبر بعد جلاء اليهود عن يثرب ملجأً لكثير من اليهود الحانقين على الإسلام الراغبين في الإتصال بأعدائه لحملهم على مهاجمة يثرب ، للقضاء عليه ، ولاستعادة ما فقدوه من نفوذ ومال وأرضين . فمن خيبر ، أخذ سلام بن مشكم يتصل بيهود وادي القرى وتيماء وبقية يهود لحملهم على تأليف حملة يهوديه لمهاجمة يثرب ، وفي هذا الموضع أخذ اليهود يجمعون الأموال لإرسالها الى المدينة لافتداء أسرى يهود وسبيهم (١) .

ومن خيبر ، أخذ سلام بن أبي الحقيق أبو رافع يتصل بغطفان ومن حوله من مشركي العرب لتحريضهم على حرب الرسول مغرياً لهم بالأموال والعطايا الجسام . فلما علم الرسول بخطته هذه وما سيتهدد المسلمين من أخطار إن سكت عنه ، أرسل نفراً من أصحابه للقضاء عليه ، كان فيهم عبد الله بن عتيك وكان يرطن بالعبرية ، وصلوا الى خيبر وكمنوا فيها . فلما كان الليل ، دخلوا داره ، فقتلوه . وتخلص الرسول بقتله منه (٢) .

وكان قتلته من الخزرج ، ذلك أنه كان بين الأوس والخزرج تنافس وتسابق حتى في الإسلام ، وقد وحد الرسول بين المسلمين وجعلهم جميعاً إخواناً ، وصفع العصبية الجاهلية . فلما قتلت الأوس كعب بن الأشرف ، تذاكرت الخزرج في قتل رئيس من رؤوس يهود ممن يعادي الرسول ويكون في منزلة كعب بن الأشرف ، لئلا ينفرد

---

(١) اليهود (ص ١٥٧) .

(٢) صحيح البخاري (الربع الثالث ص ٧٦ وما بعدها) « كتاب المغازي » ، الطبقات الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٦٦) ، الطبري (٣/٧) ، « قال ابن اسحاق : فقال حسان ثابت ، وهو يذكر قتل كعب بن الأشرف وقتل سلام بن أبي الحقيق :

لله در عصابة لاقيتهم	يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف اليكم	مرحاً كأسد في عرين مغرف
حتى أتوكم في محل بلادكم	فسقوكم حتفاً ببيض ذفف
مستنصرين لنصر دين نبيهم	مستصغرين لكل أمر مجحف »

ابن هشام (٣/٣١٦) ، « تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد » ، ابن خلدون (بقية الجزء الثاني ص ٢٣) ، ديوان حسان بن ثابت (ص ٤٦) « تحقيق هرشفلد » .

الأوس بالفخر على الخزرج في قتل ذلك الرئيس ، فذكروا ابن أبي الحقيق وهو بخيبر ، فاستأذنوا الرسول بقتله ، فأذن لهم ، وتسلل النفر الذي اختير لقتله الى خيبر ، وتحايلوا على حراسها اليقظين ، فدخلوا دار أبي رافع ، وتناوشوه ليلاً ، وهو نائم على فراشه ، بالسيوف حتى قضوا عليه . وكان ذلك فى السنة الثالثة من الهجرة ، وقبل غزو الرسول لخيبر [1] .

ولكن يهودياً آخر تولى زعامة يهود فى الدعوة الى تأليب القبائل على الرسول ، هو اليسير بن رزام « أسير بن ز أرم »[2] ، ولته يهود خيبر عليها بعد مقتل ابن أبي الحقيق ، فسار فى غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب الرسول . فلما وصل خبره الى يثرب ، أرسل الرسولُ عبدَ الله بن رواحة ، ومعه ثلاثون رجلاً ، وصلوا اليه ، وفاوضوه على أن يأتي معهم الى يثرب ، ليتصل بالرسول ، ليستعمله على خيبر ويحسن اليه . فخرج معهم ، ومعه ثلاثون رجلاً من يهود ، فلما صار على مسافة من خيبر ، ندم على خروجه على المسلمين ، وأراد العودة ، ففطن له عبد الله بن أنيس ، فاقتحم به ، ثم ضربه بالسيف ، وقتل الباقون من كان معه ، خلا رجل واحد منهم أفلت منهم على رجليه [3] .

وقد كان قتل هذين الزعيمين إيذاناً بالسير على خيبر ، وقد كان . فما كاد الرسول يستقر فى المدينة بعد عودته من الحديبية إلاّ شهراً أو أقل ، حتى أذّن فى الناس بالسير الى يهود خيبر . وسار المسلمون سراعاً ، حتى فاجؤوا يهود ومعهم مَساحيهم وآلات زراعتهم ، وهم لا يدرون بقدوم محمد مع جيشه . فلما رأوه ، هربوا الى حصونهم وهم يصرخون : محمد والخميس (يعنون بالخميس الجيش) ومحمد والله محمد والجيش . أما الرسول ، فكان يقول : الله أكبر ! خربت خيبر ، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنْذَرِين [4] .

---

(١) الطبري (٣/٦ وما بعدها) ، المغازي للواقدى (ص ٣٨٩ وما بعدها) .

(٢) الطبقات الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٦٦) .

(٣) الطبقات : الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٦٦ وما بعدها) .

(٤) صحيح مسلم (٥/١٨٥) .

وأتصل أهل خيبر بغَطَفان حلفائهم يطلبون منهم المعونة ومحاربة محمد، شارطين لهم نصف ثمار خيبر إن غلبوا على المسلمين، وأرادت غطفان مساعدة يهود، وكانوا لهم مظاهرين، فجمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا أهل خيبر على الرسول. وكان المسلمون قد سبقوا غَطَفانَ، فصاروا وسطاً بين خيبر وبين غطفان. ولما قطعت غطفان شطراً من الطريق، خشيت على أموالها وأهلها من هجوم المسلمين عليها، فأرتدت على أعقابها، وخلّت بين الرسول وخيبر. فأخذ المسلمون يهاجمون الخيبريين المتحصنين في الحصون، يهاجمونهم حصناً حصناً، حتى قضوا عليها، وأنتصروا على يهود [1].

وكان اليهود قد حصنوا أرض خيبر، وقسموها الى ثلاثة مناطق حصينة، تتألف كل منطقة من جملة حصون. أما المناطق، فهي: نطاة، والشق، والكتيبة. ومن حصون النطاة: حصن الصعب بن معاذ، وحصن ناعم، وحصن قلعة الزبير. ومن حصون الشق: حصن أبي، وحصن النزار. ومن حصون الكتيبة: القموص، والوطيح، وسلالم وهو حصن بني أبي الحقيق [2]. والحصون هذه هي قلاع لكبراء أهل خيبر وساداتها، حصونها لتكون سكناً وملاجيء لهم، يلتجؤون اليها للعيش فيها وللاحتماء بها من هجوم الأعراب عليهم ومن الغارات، وفيها توضع الغلات والأموال وكل شيء له قيمة. وفي أيام الخطر، يدخل الحصن المزارعون والرعية كلٌ في حصن رئيسه، فيحكمون الأبواب، ويسدّون المسالك، ويرمون من مواضع الرماية. يعيشون على ما في مخازن الحصن من مؤونة وزاد. والعادة أن تكون في الحصون آبار يستقون منها الماء. أما المزارع، فهي خارج الحصون، وقد تكون بينها، ولذلك تكون عرضة لعبث الغزاة.

---

(١) ابن هشام (١٧١/٣)، الطبري (٩١/٣ وما بعدها)، الطبقات الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٧٧ وما بعدها).

(٢) الطبقات: الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٧٧)، الطبري (٣١/٣ وما بعدها)، ابن هشام (٣٧٨/٣ وما بعدها)، «تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد»، البدء والتأريخ (٢٢٥/٤ وما بعدها)، ابن خلدون (بقية الجزء الثاني ص ٣٨ وما بعدها).

وقد أُقيمت حصون خيبر على المرتفعات ، ليكون فى الامكان الدفاع عن نفسها لتسلطها على من يحاول الوصول اليها ، يدافع عنها المدربون على شؤون الدفاع بالسهام ، و بالقذائف المتيسرة عندهم فى تلك الأيام ، وهى من الحجارة فى الغالب ، و بالمياه الحارة . وهي وسائل دفاعيـة كانت كافية بالنسـبة لتلك الأيام فى إلقاء الرعب فى نفوس من يحاول الهجوم على أمثال هذه الحصون من الأعراب .

وكان رئيس يهود خيبر والبارز فيهم ، هو سلام بن مشكم . أمر اليهود حين ظهور المسلمين أمامهم بادخال أموالهم وغلاتهم الى الحصون ، ووزع المقاتلة عليها . وفى حصن نطاة احتمى هذا الزعيم ، ومنه أخذ يحرض اليهود على القتال . وكان يومئذٍ مريضاً فهلك فيـه وهو محاصر ، فانتقلت الزعامة الى الحارث أبي زينب الذي كان قـد تحصن فى حصن ناعم ، ومنه أخذ يضع خطط الدفاع والهجوم . وهو أول حصن فتحه المسلمون على رواية من الروايات [١] . وقد اشتهر بالقصص المروي عن مرحب اليهودي بطل خيبر [٢] . أما آخر حصن سقط فى أيدي المسلمين وأنهى فتح خيبر ، فكان السلالم .

ويظهر من أخبار غزوة خيبر أن المسلمين حين حاصروا اليهود كانوا فى ضنك شديد ، وأنهم كانوا فى عسر فيما يقتاتون به ، حتى أُضطروا الى ذبح الحمر لأكلها من شدة الجوع . ولـكن الرسـول نهى عنها حينما بلغه الخبر ، وحينما قيل له : أفنيت الحمر ، ولم يتحسن الموقف إلا بعد سقوط بعض الحصون المليئة بالأطعمة مثل حصن الصعب بن معاذ ، فكان سقوطها خير عون للمسلمين ، أمدّتهم بالأطعمة والأسلحة وبالأموال ، وأضافت اليهم قوة فى جهادهم للمشركين .

---

(١) الطبري (٣/٩٢) .

(٢) ترى بعض الروايات أن قاتل مرحب هو علي بن أبي طالب ، وترى روايات أخري أنه محمد بن مسلمة الأنصاري ، الطبري (٣/٩٢ وما بعدها) ، تهذيب الأسمـــاء واللغات للنووي (٢/٦٨) ، Graetz , Vol., III, pp. 83.

وكان فى جملة ما وقع فى أيدي المسلمين مال ثمين كثير كان لحيي بن أخطب . كان حيي قد احتمله معه الى خيبر حين أجليت بنو النضير فلما حاصر الرسول خيبر ، دفن اليهود كنوزه هذه ، لئلا تقع فى أيدي المسلمين . غير أن الرسول كان على علم بها ، وكان قد اشترط على أهل خيبر حين غلبهم أن يحقن دماءهم ويجلوا ، ولهم ما حملت ركابهم ، ولرسول الله الصفراء والبيضاء والحلقة ؛ واشترط عليهم ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد . فلما سأل الرسول « سعية بن عمرو » عن كنز حيي ، قال : أذهبته الحروب والنفقات . غير أنه اعترف بعد ذلك بموضعه ، فعثر عليه . وقد قتل ابنا أبي الحقيق ، وأحدهما زوج صفية ، للنكث الذي نكثوا [1] .

ولما افتتح رسول الله خيبر ، لم يكن للمسلمين من العمال ما يكفون عمل الأرض ، فدعاهم رسول الله فقال : « إن شئتم دفعنا اليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم ، وأقركم ما أقركم الله . فقبلوا فكانوا على ذلك يعملونها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم ثمرها ويعدل عليهم فى الخرص [2] ..» « فاذا قالوا : تعديت علينا ، قال : إن شئتم فلكم ، وإن شئتم فلنا . فتقول يهود : بهذا قامت السماوات والأرض » . فلما توفي الرسول « أقرها أبو بكر بعد النبي فى أيديهم على المعاملة التي كان عاملهم عليها رسول الله . حتى توفي . ثم أقرها عمر صدراً من إمارته ، ثم بلغ عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى وجعه الذي قبض فيه : لايجتمعن بجزيرة العرب دينان ، ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت ، فأرسل الى يهود : أن الله قد أذن في إجلائكم ، فقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لايجتمعن بجزيرة العرب دينان ،

---

(١) « الحلقة : السلاح » ، البلاذري : فتوح البلدان (ص ٣٠) ، صحيح مسلم (الربع الثالث ص ١٢٠) « كتاب المغازي » « الحديث رقم ٣٨ وما بعده : غزوة خيبر » .

(٢) صحيح مسلم : (ص ١٣٢) « باب معاملة النبي صلى الله عليه وسلم أهل خيبر » ، الحديث ٤٠ وما بعده .

فمن كان عنده عهد من رسول الله ، فليأتني به أنفذه له ؛ ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود ، فليتجهز للجلاء . فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] .

ولكن اليهود لم يجلوا نهائياً عن هذه الأرض ، ولا عن الأرضين الأخرى التي أجلاهم الخليفة عنها ، إذ نجد الرحالة اليهودي « بنيامين تودلا » يشير الى وجود يهود فى خيبر وذلك فى أيامه ، أي فى القرن الثاني عشر للميلاد . كذلك ذكر بعض الرحالين والسياح وجود يهود أعراب فى هذه المنطقة ، مما يدل على أن اليهود عادوا بعد مدة فسكنوا هذه الأرضين [٢] .

وأرسل الرسول ، وهو يحاصر خيبر ، محيصة بن مسعود الى أهل فدك وهم من يهود ، يدعوهم الى الإسلام ، وكان رئيسهم يوشع بن نون . فلما سمعوا بسقوط الحصنين الوطيح والسلالم آخر حصون خيبر وباستسلام أهلها ، خافوا مغبة المقاومة ، فأرسلوا جماعة من رؤسائهم الى النبي لمفاوضته على الصلح . وقد وافق الرسول على معاملتهم معاملةَ يهود خيبر ، أي على أن يعطيهم نصف حاصلهم ، وأن يؤدوا النصف الآخر للنبي ، فرضوا بذلك . فكانت فدك خالصة للرسول ؛ لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب [٣] .

وفى أثناء عودة الرسول من خيبر الى المدينة ، مرّ بوادي القرى وفيها أقوام من اليهود . فلما عرض عليهم الدخول فى الإسلام أبوا ، فقاتلهم ذلك اليوم الى الليل . ثم تصالحوا ، وأقامهم النبي على أرضهم وأموالهم وذراريهم ، وبذلك خضع يهود وادي القرى لحكم

---

(١) الطبري (٣/٩٨) « حوادث السنة السابعة » .

(٢) Uni Jew Eny 6 P 374

(٣) الطبري (٣/٩٨) حوادث السنة السابعة ، ابن الأثير (٢/٩٣) « ذكر فدك » ، البلاذري : فتوح البلدان (٣٦ وما بعدها) . Nallino . Raccolta . I . 198 . III P 97

الرسول [1] .

لقد كانت خيبر من أهم معاقل يهود وأغناها في الحجاز ، ويهودها أقدم عهداً ، ولا شك ، في هذه الأرضين من بقية يهود الساكنين الى الجنوب منهم ، فمنها ومن المواضع الأخرى في جنوب فلسطين زحف اليهود نحو الجنوب . وقد تحدثت سابقاً عن هذا الموضع الغني بالمياه ، وأشرت الى ورود اسمه في نص حرّان الذي يعود تأريخه الى سنة « ٥٦٨ م » حيث وردت عبارة « سنت٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم » ، ومعنى « عم » عام أي سنة [2] . ويعد هذا النص أقدم نص جاهلي ورد فيه اسم هذا المكان [3] .

ويرى المستشرقون أن كلمة « خيبر » نفسها ، كلمة عبرانية الأصل « خيبر Kheber » ومعناها « الطائفة » والجماعة [4] . وذهب بعضهم الى أن معناها الحصن والمعسكر [5] . وهي من المواضع القديمة التي لجأ اليها اليهود في العربية الغربية .

ومن الصعب تعيين الزمن الذي هاجر فيه اليهود الى هذا الموضع . لقد رَجّع بعضهم ذلك الى أيام هجوم الرومان على فلسطين . غير أن من الجائز أن تكون هجرتهم اليها قد وقعت قبل ذلك ، ومن الجائز أن تكون في أثناء السبي واستيلاء البابليين على القدس ، وقد يجوز أن يكون قوم منهم قد جاؤوا مع « نبونيدس » ملك بابل الى « تيماء » حين اتخذها عاصمة ، فهاجر قسم منهم الى خيبر والى نواح أخرى من الحجاز . ومهما يكن من شيء ،

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان (ص ٤١) .

(٢) العرب قبل الإسلام (١/١٨) ، وصورة النص هكذا : « انا شرحيل بن ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم » . ويقصد بلفظة مفسد ، سقوط وانهيار . ويراد بذلك غزوة قام بها أحد الأمراء على خيبر .

(٣) Ency., II, P. 870.

(٤) Charles Cutler Torrey, The Jewish Foundation of Islam, New York 1933, P. 13. وسيكون رمزه : Torrey.

(٥) Ency., II, P. 870.

فإن تعيين تأريخ ثابت لهجرة اليهود الى خيبر ، أمر غير ممكن فى الزمن الحاضر [١] .

ولما بلغ أهل تيماء من يهود ما حدث لإخوانهم فى خيبر ووادي القرى وفدك ، قبلوا الجزية ، وصالحوا الرسول فى سنة تسع للهجرة ، فضمن المسلمون بذلك لهم حرية بقائهم فى دينهم . وعلى تيماء كان يشرف حصن السموأل « الأبلق الفرد » . وقد نعتت تيماء فى بعض الأشعار بتيماء اليهود [٢] .

وتيماء ، من المواضع القديمـــة التي سكنها اليهود . ويرى بعض المستشرقين أن « شمعون التيماني Simeon of Temanite » المذكور فى « التلمود » و « المدراش » هو من أهل هـذا الموضع « تيماء » الذي سكنه اليهود ، وبقوا فيـه الى أيام عمر . ولا بد أن يكون هذا الحبر « Rabbi » قد حصل على شهرة كبيرة جعلتـه فى مصاف من ذكروا في التلمود والمدراش مع العلماء المراجع الثقات [٣] .

وفى تبوك كان قوم من يهود صالحوا الرسول سنة تسع للهجرة على أداء الجزية ، وفى أيام عمر كان بها ابن عريض اليهودي ، وقد أمره الخليفة بأن يسوّر بئر تبوك ؛ لأنها كانت غزيرة المياه ، يفيض ماؤها على سفوحها ، وتعرف هذه البئر باسم « الموله » [٤] .

ثم دفع أهل مقنا وأيلة الجزية للرسول ، وكذلك أهل بقيـة القرى الواقعـة فى أعالي الحجاز وعلى ساحل البحر ، وهم من يهود ، وبذلك ضمنوا لهم البقاء فى هذه الأنحاء [٥] .

---

(١) Torrey, P. 17, A. Müller, Der Islam, Bd., 1, S. 36. ff.

(٢) البلدان (٢/٤٤٢) « تيماء » .

(٣) Mishna Yadayim, I, 3, Yebamoth 4, 13, Tosephta Berachoth, 4, 24, Sanhedr., 12, 3, Besa, 2, 19, Bab. Talmud, Zebachim, 32 b. Baba qamma, 90 b, Besa, 21 a, Torrey, pp. 26, Margoliuth p. 68.

(٤) البلدان (٢/٣٦٥) « تبوك » ، شمال الحجاز : تأليف موسل ، ترجمة الدكتور عبدالمحسن الحسيني (ص ١٤٣) .

(٥) البلدان (٨/١٢٨) « مقنا » ، البلاذري : فتوح البلدان (ص ٦٦) .

وكان بالطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب ، فجاؤوا اليها ، ولم تكن قد أسلمت بعد ، فأقاموا بها للتجارة . فلما صالح أهل الطائف الرسول — على أن يسلموا ويقرهم على ما فى أيديهم من أموالهم وركازهم ، واشترط عليهم ألا يربوا ولا يشربوا الخمر وكانوا أصحاب رباً — وضعت الجزية على يهودها ، وبقوا فيها ، ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف [1] .

ويلاحظ أن أمر اجلاء الرسول ليهود بني قينقاع وبني النضير ، واجلاء عمر للمتبقين منهم فى الحجاز ، كان عظيم الوقع في نفوسهم ، وأنهم كانوا قد اتخذوا كل ما أمكنهم من وسائل للبقاء فى ديارهم . ثم يلاحظ انهم فضلوا الذهاب الى أذرعات والى أماكن أخرى على الذهاب الى القدس أو طبرية أو قيصرية أو غيرها من بلاد فلسطين ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يفكرون قطُّ فى الإقامة في تلك الأماكن ، وأن قلوبهم لم تكن متعلقة بها ، وإلاّ أختاروا الذهاب اليها . بل كانت أفئدتهم متعلقة بمواطنهم هذه التي كانوا يقيمون بها بالحجاز ، وأن اليهود كانوا يفضلون السكنى في المواطن التي نشؤوا فيها على الذهاب الى فلسطين .

لم يبق لليهود نفوذ سياسي خطير فى جزيرة العرب ، وقد أمر الرسول بمعاملتهم بعد خيبر معاملة حسنة ، حتى إنه أوصى عامله معاذ بن جبل بألاّ يصد اليهود عن يهوديتهم [2] . ورضى المسلمون منهم بأخذ الجزية ، فدفعها يهود البحرين ، وبقوا على دينهم ، وكذلك يهود بقية جزيرة العرب [3] .

لقد كانت نهاية خيبر نهاية نفوذ يهود جزيرة العرب ، ونهاية لهذا النزاع الخطير الذي

---

(١) « كان بخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة ، فوضعت عليهم الجزية . ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف » ، البلاذري فتوح البلدان (ص ٦٣) .

(٢) اليهود (ص ١٧٧) . (٣) البلاذري : فتوح البلدان (ص ٨٦) .

أثاره اليهود على الرسول فى يثرب . لقد بذل يهود الحجاز أقصى ما كان عندهم من جهد للتغلب على المسلمين ، ولجؤوا الى كل الوسائل الممكنة التي كان فى مقدورهم التوصل اليها لـكسب الفوز لهم ، غير أنهم أخفقوا ونكصوا على أعقابهم ، ولما أصيبوا بالهزيمة المنكرة ، عرفوا أنهم كانوا مخطئين ، وأن ما قاموا به لم يكن على صواب . لقد شلت هذه الهزيمة أيديهم عن التدخل فى شؤون العرب الذين كانوا يقيمون معهم ، ولم يبق لهم فى سياسة جزيرة العرب من أثر . ولو كانوا قد استجابوا لدعوة الرسول ، بالامتناع عن معاداته ومناهضته ، لـكان شأنهم ولا شك غير ذلك . ولـكن حكم القضاء ، وتغلبت العاطفة على العقل [1] .

يتبين من دراسة أخبار غزوات النبي ليهود ، ومقاومة اليهود وهم فى حصونهم ومعاقلهم للمسلمين ، أن اليهود لم يكونوا كما ذكر الأخباريون أهل عدة وقوة ؛ فإن ما وقع فى أيدي المسلمين من سلاح ، وقد حاسبهم المسلمون عليه وأحصوه احصاء حسناً ، لم يكن شيئاً مذكوراً . وما نسبوه اليهم من شجاعة ، لم يكن صحيحاً . فكلّ ما فعلوه في الغزوات المذكورة ، أنهم أحتموا بحصونهم ، وجلسوا فيها ينتظرون الأقدار ، فلعل الأيام تبعث الملل والسآمة فى نفوس المحاصرين ، فيعودون من حيث أتوا من غير قتال . فلم تقع بينهم وبين المسلمين معارك واشتباكات إلاّ في خيبر ، ولم تكن معارك خيبر على أشتهارها معاركَ عنيفة على النحو الذي نفهمه من المعارك . وكانت الحجارة هي السلاح الغالب الذي أستعمل في هذه المعارك . أما السيوف والتروس والرماح ، فلم تستعمل فيها إلا قليلاً . وقد أشار أهل الأخبار الى مثل هذه الأسلحة فى رواياتهم ، وأشاروا الى بعضها بصورة خاصة ، لأنها كانت ذات خطر بالقياس الى أسلحة ذلك العهد . وقد استخدمها المسلمون في حروبهم وأفادتهم ؛ لأن المسلمين أنفسهم لم يكونوا يملكون شيئاً يذكر من الأسلحة .

---

(١) Montgomery watt , Muh. at Med. , P. 219.

وبالجملة فالظاهر أن قوة اليهود واقتدار حصونهم فى الدفاع عن نفسها ، لم تكن بقدرة اليهود أنفسهم على الدفاع عن أنفسهم وعن حصونهم ، وإنما كانت بقـــدرة اليهود على الاستفادة من الأعراب ومن القبائل التي كانوا يتحالفون معها . فهذه القبائل ، هي التي كانت تدافع عن يهود أيام الخطر ، وتهاجم من تسوّل له نفسه حصارهم . ثم إن حصار القبائل لا يدوم طويلاً فى الغالب ؛ لأن من عادتها ومن طبيعتها عدم تحملها مشقات محاصرة القلاع والحصون مدة طويلة ، وليست لديها وسائل كافية للتغلب عليها ، فكانت كالموجة الطاغية ، تسير سريعاً ، فإذا وجدت مقاومة عنيفة ارتدت سريعة .

وقد أنتجت هذه الحوادث التي وقعت بين يهود والمسلمين ، والتي انتهت باجلاء أكثر يهود وبقتل أكثر بني قريظة ، شعراً قاله نفر من يهود فى الفخر باخوانهم وبعقيدتهم وفى هجاء المسلمين ونفر من الوثنيين العرب الكارهين للإسلام المبغضين له فى التوجع والتألم لما حلّ بيهود وبما نزل بهم . وشعراً آخر قاله نفر من المسلمين في رد هجاء اليهود والمشركين وفى الدفاع عن الإسلام . وهذا الشعر بأنواعه الثلاثة : شعر اليهود وشعر المشركين وشعر المسلمين ، يستحق الدراسة والاهتمام ، ففيه نواح شتى تعبر عن اتجاه الآراء في ذلك العهد ، فيه تعبير عن النزاع السياسي والديني فى زمن ظهور الإسلام ، وفيه رأي وعاطفة ، ثم هو شعر مبعثه القلب والعقيدة ، فهو وحي نفساني صادر من الأعماق .

أما أبطال هذا الشعر وأصحابه ، فهم كعب بن الأشرف[1] ، وسمّاك اليهودي . وهو شاعر قوي فى رده عنيف ، وكلاهما من يهود [2] ، وعباس بن مرداس ، وعبد الله بن الزبعري وهما لسانا المشركين ولا سيما ابن الزبعري الذي تفانى في الدفاع عن عبدة الأصنام وعن اليهود ، فكان سلطاً فى لسانه قوياً عنيفاً فى هجائه الذي تجد كثيراً منه باقياً محفوظاً

---

(١) ابن هشام (١٢٣/٢) « حاشية على الروض » .

(٢) ابن هشام (١٧٩/٢) « حاشية على الروض »

في كتب السير والتواريخ ، إلا ما كان منه عنيفاً بذيئاً فى الهجاء قوياً فى الشتم ، فرأى جماع الأخبار تركه والاعراض عنه [١] . أما ألسنة المسلمين ، فكانت عديدة ، غير أن أقواها صوتاً وأكثرها قولاً في هذه الأحوال هو لسان شاعر الرسول حسان بن ثابت وكعب ابن مالك من الشعراء البارزين فى هجاء الكفار وفى هجاء يهود [٢] .

يظهر من دراسة أخبار إجلاء يهود يثرب وعدد من قتل منهم أو سبي أو أسلم وحال بقية يهود فى أعالي الحجاز ، أن عددهم عند ظهور الإسلام لم يكن كبيراً ، بحيث لا يمكن أن يزيد على عدة آلاف ، ولا أظن أنه يرتفع كله الى عشرة آلاف . ولا أستبعد أن يكون من بين هذا العدد من كان من يهود اليمن ، هاجر من موطنه بعد احتلال الحبشة له للإقامة

---

(١) ابن هشام (٢٠٣/٢ وفي مواضع أخرى عديدة) .

(٢) « وقال كعب بن مالك يذكر اجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف :

لقد خزيت بغدرتها الحبور ... كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب ... عزيز ، أمره أمر كبير
وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً ... وجاءهم من الله النذير
نذير صادق أدى كتاباً ... وآيات مبينة تنير
فقالوا : ما أتيت بأمر صدق ... وأنت بمنكر منا جدير
فقال : بلى لقد أديت حقاً ... يصدقني به الفهم الخبير

. . .

فأجابه سماك اليهودي ، فقال :

أرقت وضافني هم كبير ... بليل غيره ليل قصير
أرى الأحبار تنكره جميعاً ... وكلهم له علم خبير
وكانوا الدارسين لكم علم ... به التوراة تنطق والزبور
قتلتم سيد الأحبار كعباً ... وقدماً كان يأمن من يجير »

. . .

ابن هشام (٢٠٤/٣ وما بعدها) .

في موطن آمن يضمن له الحرية الدينية .

لم يسلم من يهود في أيام الرسول غير عدد قليل منهم مثل : عبد الله بن سلام [1] ، ولم يتعاون معه غير عدد قليل منهم مثل يامين بن عمير بن كعب النضري ، ويامين بن يامين الاسرائيلي ، و « مخيريق » ، وكان رجلاً غنياً صاحب نخيل وهو أحد بني ثعلبة بن الفطيون حث قومه على مساعدة الرسول ومعاونته في غزوة أحد . وكان الرسول قد طلب مساعدتهم لوجود صحيفة بينه وبينهم . فلما اعتذروا له بالسبت ، خالفهم مخيريق قائلا لهم : لا سبت لكم ، وقاتل معه حتى قتل ، فقال الرسول : مخيريق خير اليهود . وقد وصف بالعلم ، وذكر أنه كان حبراً عالماً فيهم [2] . آمن بالرسول وجعل ماله له ، وهو سبعة حوائط فجعلها الرسول صدقة [3] .

أما عبدالله بن سلام ، فكان يدعى ، وهو في يهوديته ، الحصين بن سلام بن الحارث . وسلام اسم والده . فلما أسلم سماه رسول الله « عبد الله » ، وهو من بني قينقاع ، أسلم والرسول في مكة لم يهاجر بعد ، وذلك في رواية من الروايات . وأسلم بعد الهجرة على أكثر الروايات . ذُكر أنه كان شريفاً في قومه ، سيداً ، صاحب نسب وحسب ؛ وأنه كان حبراً عالماً . فلما أسلم ، نبذه قومه ، وتحدثوا فيه [4] . وقد نزلت فيه بضع

---

(١) « لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود » ، البخاري (٢/٥١) عمدة القارىء (١٧/٧٠) ، إرشاد الساري للقسطلاني (٦/٢٣٧) ، « ولم يسلم من أحبار يهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا اثنان . وقد جاء في الحديث لو اتبعني عشرة من اليهود ، لم يبق في الأرض يهودى إلا اتبعني . رواه أبو هريرة . وسمع كعب الأحبار أبا هريرة يحدث فقال له : إنما الحديث إثنا عشر من اليهود ... » ، الروض الأنف (٢/٢٦) ، اليهود (ص ٣٧) .

(٢) ابن هشام (٢/١٤٠) (٣/٣٨) ، « طبعة محمد محي الدين عبد الحميد » ، Montgomery Watt, Muh. at Med., P. 197, Graetz, Vol., III, P. 75.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان (ص ٢٤) الاصابة (٤/٨٠ وما بعدها) .

(٤) « وكان حبرهم وأعلمهم » ، ابن هشام (٢/١٣٧) ، أسد الغابة (٣/١٧٦) ، تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٧٠ وما بعدها) ، الروض الأنف (٢/٢٥) .

آيات (١) .

أما أنه كان حبراً من الأحبار ، فلا يمكن البت فيه ، فقد جرت عادة أهل الأخبار على إطلاق كلمة « الحبر » على نفر ممن أسلم من يهود فى أيام الرسول ، كما أطلقت على نفر ممن أسلم بعده ، مثل كعب الذي عرف بكعب الأحبار . ولا يمكن في نظري البت فى درجات علم أمثال هؤلاء وفى مقدار فهمهم للتوراة ولكتب يهود إلا بجمع ما نسب اليهم من قول، ودراستِهِ . عندئذ نستطيع أن نحكم على علمهم إن كان لهم علم بأحكام ديانة يهود وبالعالم وبما كان يتدارسه علماء ذلك العهد . ورأيي أن هذه الدرجات إنما منحها لهم بعض ذوي القلوب الطيبة من المسلمين الأولين ، لما رأوه فيهم ، ولما سمعوه منهم من أقوال نسبوها الى الأنبياء والعلماء والى كتب الله القديمة ، ولم يكن لهم بطبيعة الحال علم بها ، لعدم وقوفهم على ما كان يتداوله الأحبار ورجال الدين عند النصارى ، فعجبوا من علمهم هذا ، ومن إحاطتهم بأحوال الماضين ، فعدّوهم أحباراً لهم فى قومهم علم ورأي . وقد تساهل بعضهم فى ذلك لظنه أن فى منح هؤلاء أمثال هذه النعوت مما يفيد الإسلام ، إذ يعنى هذا تقدير أولئك الأحبار أصحاب العلم الأول له ، وأن تقديرهم هذا شهادة مزكية له . ولكن الإسلام انتشر وتغلب ، لا بشهادة هؤلاء ولا غيرهم ، ولكن بايمان الناس به ودخولهم أفواجاً فيه . فهو ليست به حاجة الى شهادات تزكّيه من هؤلاء الأحبار أو من الرهبان أو من الحنفاء . وقد يكون لهم نصيب أيضاً فى منحهم هذه الدرجة لأنفسهم للتباهي بذلك بين المسلمين .

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢٧١/١) ، « سلمة بن سلام الإسرائيلي ... روى الكلبي في تفسيره عن أبي صالح عن ابن عباس ، قال : نزلت هذه الآية : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله ... الآية . في عبد الله بن سلام ، وأسد ، وأسيد ابنى كعب ، وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبد الله ابن سلام ، وسلمة ابن أخيه ويامين بن يامين . وهؤلاء مؤمنواهل الكتاب . » ، الاصابة (١١٦/٣) « سلمة بن سلام » .

على كل ، فإن لابن سلام أقوالاً تجد بعضها في كتب التفسير والحديث ، وتجد بعضها في كتب التأريخ والأخبار . لبعضهـا طابع إسـرائيلي ، فهـو من القصص المعروف بالاسرائيليـات ، ولبعضها طابع الأقاصيص . قد يكون ابن سلام صاحبها ومرجعها ، وقد يكون غيره من يهود صاحب تلك البضاعة غير أنه نسبها الى نفسـه أو نسبها اليـه الأخباريون لاشتهاره أكثر من غيره ممن أسلم في أيام النبي من يهود (١) .

وقد كان له ابنان ، هما يوسف ومحمد ، رويا عنه الحديث (٢) . وقد كُني بأسم ولده يوسف ، فعرف بأبي يوسف (٣) . ويعد يوسف من الصحابة ، وله حديث عن الرسول ، ويقال ان الرسول هو الذي سماه يُوُسفَ ، وقيل ليست له صحبة . وقد روى عن جماعة من الصحابة (٤) .

وأما يامين بن عمير بن كعب النضري ، فهو من بني النضير . وقد ساعد اثنين من فقراء أصحاب رسـول الله على تجهيزهما بشيء من التمر ليتمكنـا بذلك من الالتحاق بالجيش الذي سار في السنة التاسعة من الهجرة لغزوة تبوك (٥) . وأما يامين بن يامين الإسرائيلي،

---

(١) Ency., I, P, 30-31, Caetani, Annali, I, 413, Horovitz, ZDMG., iv, 524.

(٢) أسد الغابة (٣/١٧٦) . (٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٧١) .

(٤) تهذيب الأسماء (٢/١٦٦) .

(٥) الطبري (٣/١٤٣) « حوادث السنة التاسعة » « ذكر الخبر عن غزوة تبوك » ، « يامين ابن عمير بن كعب أبو كعب النضري . ذكره أبو عمر . فقال : كان من كبار الصحابة . أسـلم فأحرز ماله من بني النضير . غيره وغير أبي سعيد بن عمرو بن وهب ، فأحرزوا أموالهما . قاله ابن اسـحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم . وقال ابن اسحاق أيضاً : بلغني أن يامين بن كعب لقي أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان ، فقالا : لم نجد عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يحملنا عليه فأعطاهما ناضحاً . وقال ابن اسحاق : حدثني بعض آل يامين أن النبي صلى الله عليـه وآله وسلم قال ليـامين : ألم تر الى ابن عمك عمرو بن جحاش وما هم بقتلي . يعني في قصة بني النضير . وكان أراد أن يلقي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم رحى فيقتله ، فأنذره جبريل ، فقام من مكانـه ذلك ، فجعل يامين لرجل جعلا أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله . » ، الاصابة (٦/٣٣٣) « القاهرة ١٩٠٧ » . « يامين » .

فقد أسلم على أثر اسلام عبد الله بن سلام [1] .

وكان فيمن أسلم من بني قريظة كعب بن سليم القرظي ، وهو من سبيهم فى الإسلام ، ويعد في الصحابة ، ولكن لا تعرف له رواية . وهو والد محمد بن كعب القرظي [2] المعروف بروايته عن أحداث يهود مع النبي ، وعن بعض أخبار بني اسرائيل [3] . وله روايات فى حديث الرسول عن بعض الصحابة ، ويعد من التابعين . يقال : إنه ولد في حياة الرسول ، وتُوُفّي ما بين سنة ثمان ومئة وسنة عشرين ومئة . وقد عده علماء الحديث فى طبقة الثقاة الورعين [4] .

وفيمن أسلم من يهود بني قريظة رفاعة القرظي ، وهو رفاعة بن سموأل « سموال » ، وقيل : رفاعة بن رفاعة القرظي من بني قريظة ، وهو خال صفية زوجة النبي ؛ لأن أمها برة بنت سموأل « سموال » ، أما أبوها ، فهو حُيَيّ بن أخطب من رؤساء يهود ، وكان من كبّار المعارضين له ، وهو من بني النضير [5] .

ويعد زيد بن سَعْية « سعنة » فى طبقة الصحابة ، ويقال إنه كان أحد أحبار اليهود الذين أسلموا ، وإنه كان أكثرهم علماً ومالاً ، وقد شهد مع النبي مشاهد كثيرة ، وتوفي

---

(١) يامين بن يامين الاسرائيلي . ذكره ابن فتحون في ذيله على الاستيعاب . ونقل عن الماوردي : أن عبد الله بن سلام ، لما أسلم قال يامين : أنا أشهد بمثل ما يشهد . فنزلت هذه الآية : وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله . وله ذكر أيضاً في سلمة بن سلام . وله سبب في نزول قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله . من رواية ابن الكلبي عن أبي صالح في سعد بن شعية » ، الاصابة (٦/٣٣٣ وما بعدها) .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٦٧) ، أسد الغابة (٤/٢٤٢) « كعب بن سليم القرظي » .

(٣) الطبري (٣/٤٤) « السنة الخامسة » . (٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/٩٠) .

(٥) تهذيب الأسماء (١/١٧١ وما بعدها ، ١٩١ ، ٢/٣٤٨ وما بعدها) ، الاصابة (٢/٢١٠) .

فى غزوة تبوك مقبلاً الى المدينة (١) .

ويعد عطيّـة القرظي من الصحابة كذلك ، وهو من بني قريظة ، كان صغيراً حين غزا النبي بني قريظة ، ولذلك لم يقتل ، فأسلم ، وصحب النبي (٢) .

يتبين من قلة عدد من أسلم من يهود ، أن تعلق يهود جزيرة العرب بدينهم كان شديداً جداً ، وأن اليهودية كانت متأصلة في نفوسهم راسخةً فى قلوبهم بحيث لا يمكن استئصالها بسهولة . ولو قابلنا في هذا الباب نصارى الجاهلية بهم ، لوجدنا أن النصارى لم يظهروا مع الرسول ذلك العناد الذي أظهره اليهود . لقد جادل وفد نصارى نجران الرسول وحاجّـوه كما جادله غيرهم من النصارى ، فلما اطمأنوا الى الإسـلام دخلوا فيه . ولتساهل النصرانية ولـكونها ديانة عالية لم تبنَ على أسس قوميـة ، كان من السهل على نصارى العرب تفهـم الدعوة المحمدية ، فأراحوا بذلك أنفسهم وأنفس المسلمين ، فلم يقع ما بينهم وبين المسلمين ما وقع بين المسلمين ويهود .

ما ذكرناه عن يهود هو عن يهود الحجاز ، يثرب وما وقع الى شمالها . أما يهود اليمن ويهود بقية أنحاء جزيرة العرب ، فلم نورد عنهم شيئاً يذكر ؛ ذلك لأن معارفنا عن يهود جزيرة العرب مستمدة — كما قلت — من الموارد الإسلامية ، ولم تورد هذه الموارد أخبار يهود إلاّ لصلتها بالإسـلام ، ولم تتعرض ليهود الحجاز أو ليهود بقيـة جزيرة العرب إلا لوجود صلة لأولئك اليهود بالإسلام ، ولوقوفهم موقفاً شديداً منه . وما كان أهل الأخبار ليوردوا شيئاً عن يهود يثرب لولم يـكن ليهود يثرب موقف مع الرسول ، موقف نزلت فى حقه آيات عديدة دعت المفسرين الى تسقّـط الأخبار التي أدت الى نزول تلك الآيات ، والى

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢٠٤/١) ، « زيد بن سـعنة الحبر الاسرائيلي ... اختلف في سعنة ، فقيل بالنون . وقيل بالتحتانية . قال ابن عبد البر بالنون أكثر ... وشهد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم مشاهده واستشهد في غزوة تبوك مقبلا غير مدبر . » ، الاصابة (٢٨/٣) .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢٣٥/١) ، الاصابة (٢٤٧/٤) .

جمع ما ورد من روايات عن معارضة يهود لدعوة الرسول وعن الأمور التي اتخذها الرسول فى حماية الدعوة من مقاومة يهود . ولهذا انحصر معظم الروايات فى يهود الحجاز ، ولا سيما يهود يثرب أو جوارها . أما أولئك الذين كانوا يعيشون فى أعالي الحجاز ، فإن ورود ذكرهم فى روايات أهل الأخبار أقل من يهود يثرب بكثير .

أما يهود اليمن ، فلم يكن لهم موقف صلب مع المسلمين ، ذلك لأن الإسلام لم ينتشر فى اليمن إلا بعد انتشاره فى يثرب وانتصاره على المشركين وعلى مستوطنات يهود فى منطقة يثرب . ولهذا كانت أخباره — حين بلغ هذه البقعة — مع يهود ومع المشركين ، قد بلغت مسامع يهودها الذين لم يكن لهم نفوذ يذكر فى اليمن بعد تغلب النصرانية عليها . فلما دخل حاكمها الفارسي فى الإسلام ودخل أكثر سكانها فيه ، لم يكن أمامهم من سبيل غير الدخول فيه ، أو أداء الجزية ، فاختاروا أحد هذين السبيلين . فمنهم من دخل فى الإسلام ، ومنهم من ظل على دينه مفضلاً أداء الجزية ، ولهذا لم يكن أمام جمّاعي الأخبار وصيادي الروايات ما يوجه أنظارهم الى يهود هذه البقعة من جزيرة العرب والى يهود البقاع الأخرى ممن سلكوا هذا المسلك ، فلم يصطدموا بالاسلام ، فكان مسلكهم هذا سبباً فى ضياع أخبارهم وعدم وصول شيء لهم عن تأريخهم فى هذه البقعة غير تلك الأساطير التي تطرقنا اليها في مواضع من هذا الكتاب .

ولم يظهر من يهود اليمن فى الإسلام ممن عرفوا برواية الاسرائيليات سوى رجلين ، هما : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه . فأما كعب الأحبار ، فقد أدرك زمن الرسول ، غير أنه لم يره ، ولم يدخل فى الإسلام إلا فى أيام أبي بكر أو عمر [١] . وهو أبو إسحاق كعب ابن ماتع بن هينوع « هيسوع » ، وقد عرف بين المسلمين بكعب الأحبار وبكعب الحبر من باب التعظيم والتقدير لعلمه . ومعنى « الحبر » — كما قلت — العالم . وقد أتاه هذا

---

(١) الطبقات : الجزء الأول من القسم الثاني (ص ٨٧) ، تهذيب الأسماء واللغات (٢/٦٨) .

اللقب من علمه بكتب الأنبياء وبأخبار الماضين ، وهو علم لا نستطيع أن نحكم على درجته ومقدار بعده أو قربه من العلم الذي كان منتشراً بين أحبار ذلك العهد ما لم نقف على الاقوال الصحيحة التي صدرت عن ذلك الحبر . أما هذا المروي عنه والمذكور فى تفسير الطبري وفى تأريخه وفى كتب من كان يعني بجمع القصص ولا سيما قصص الرسل والأنبياء كالثعلبي والكسائي ، فليس فى استطاعتنا التصديق بأنه كله صادر من فم كعب ، إذ يجوز أن يكون من رواية أناس آخرين ثم حمل على كعب (١) .

ولم ينسب أحد الى كعب مؤلفاً ، وكل ما نسب اليه فهو مما ورد عنه بالمشافهة والسماع . وهو بين صحيح يمكن أن يكون قد صدر منه ، وبين مشكوك فى أمره وضع عليه ، وفيه ما هو اسرائيلي صحيح ، أي أنه مما هو وارد فى التوراة أو في التلمود أو في الكتب الاسرائيلية الأخرى وفيه ما هو قصص اسرائيلي نصراني ، وما هو محض افتعال وخلط . وبالجملة ، ان هذا الوارد عنه يصلح أن يكون موضوعاً لدراسة ، لمعرفة أصوله وموارده والمنابع التي أخذت منه . وعندئذ يمكن الحكم على درجة أصله ونسبه فى علم بني اسرائيل، وامكان صدوره من كعب أو من غيره ، ومقدار علم كعب ووقوفه على الاسرائيليات .

وأما وهب بن منبه ، فيعد من التابعين ، ويعد مرجعاً مهماً فى القصص الاسرائيلي . ويقال إنه حصل على علمه من كتب الأولين ، وإن أخاً له كان يذهب الى الشأم للتجارة فيشتري له الكتب ليطالعها ، وإنه كان على علم غزير بأحوال الماضين (٢) . وإذ كان وهب من المتأخرين وكان نشاطه فى الحركة الفكرية فى الإسلام لافي الجاهلية ، لم نجعل له فى هذا

(١) Raccolta, III, P. 96 , Caetani , Annali, VII , 1914 , P. 595. f. , Ency., II , P. 582 , Weil , Biblische Legenden der Muselmäner , S. 10 , Jewish Encyclopedia , VII , P. 400 , Art. Ka' b al-Ahbar, Moshe Perlmann, A. Legendary Story of Ka'b Al-Ahbar's , in the Joshua Starr Memorial Volume, New York 1933, pp. 85.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١٤٩/٢) ، لي مقال عنه في مجلة المجمع العلمي العراقي في بحث موارد تأريخ الطبري ، الجزء الأول والثاني منها .

الموضع مكاناً ، إنما مكانه فى الأجزاء المتعلقة بتأريخ العرب فى الإسلام .

ليس فى استطاعتنا ، ويا للأسف ، استنباط شيء من آراء هذين الأخباريين اللذين ينسبهما المؤرخون الى يهود اليمن يشير الى حالة يهود فى العربية الجنوبيـــة أو فى العربية الجنوبية الغربية قبيل الإسلام ولا حين ظهوره ، وليس لنا إلا الاعتراف بجهلنا فى هذا الموضوع ، آملين أن يتفوق من يأتي بعدنا فى العثور على موارد تساعده فى الـكشف عن أحوال يهود اليمن وأحوال يهود بقية أنحاء جزيرة العرب لهذا العهد .

وفى عهد عمر أمر باجلاء اليهود ممن لم يكن لديهم عهد من رسول الله . أما من كان له عهد منه ، فقد بقي فى وطنه وعلى دينه بالشروط التي ذكرت فى الصحف . وقد كان فى يثرب نفر من اليهود عاشوا فيها فى زمن الرسول حتى بعد اجلاء بني النضير وبني قريظة وبعد غزوة خيبر . وقد ورد فى رواية أن النبي لما أمر أصحابه بالتهيّؤ لغزوة خيبر ، شقّ ذلك على من بقي بالمدينة من يهود [1] . ولما مرض عبد الله بن أبي ، كان اليهود فى جملة من التفّ حول سريره فى مرضه الذي هلك فيه ، ثم كانوا فى جملة من شيعه الى قبره ومن نثر التراب على رأســه حزناً على فراقه [2] . وقد بقيت أسر يهودية في وادي القرى وفى تيماء قروناً عـديدة بعد صدور أمر عمر بالإجلاء ، بل ورد أن عـدداً منهم عاش في المدينة أيضاً . أما فى اليمن ، فقد ظل اليهود فيها الى عهد قريب .

ولما أمر عمر باجلاء من لم يكن له عهد من يهود ، أرسل أبا الهيثم بن التيهان وسهل بن أبي خيثمة وزيد بن ثابت ، فقوموا نصف التربة بقيمة عدل ، فدفعها اليهم ، وأجلاهم الى بلاد الشأم [3] .

---

(١) الطبقات : الجزء الثاني من القسم الأول (ص ٧٧) .

(٢) الواقدي (ص ٤١٥) ، اليهود (ص ١٧٧) .

(٣) ابن الأثير (٢/٩٣) .

وقد كان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم ، يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه فى كل سنة . وهؤلاء السادة هم أصحاب الآطام والحصون والأرض . ولمن يشتغل فى الأرض تسديد ما عليه لصاحبها فى مقابل استغلاله لها . وقد اعتنوا عناية خاصة بزراعة النخيل . وعرفت القطعة من الأرض المزروعة نخلاً عندهم بـ « الصورين » « الصور »[1] . ولما كانت الأرضون المزروعة واسعة ، كانت خارج الآطام والحصون ، يحميها حراسها والمشتغلون بها أيام ثمرتها . وأما فى أيام الغزو والحروب ، فقد كانت معرضة لهجوم المهاجمين . وهذا ما كان يعرّض أعظم غلة ليهود للخطر ، ولهذا شق عليهم كثيراً ، وأنهارت مقاومتهم حين أمر الرسول بقطع النخل وتحريقه ، وأخذوا يلتمسون منه وقف ذلك .

ويذكر الأخباريون أن هناك أسراً كانت تحكم اليهود عرفت بـ « بني الفطيون » ، وقد فسروا كلمة « الفطيون » بـ « ملك » وأنها تقابل « النجاشي » التي تطلق على ملك الحبشة ، و « خاقان » التي تطلق على ملك الترك ، وذكروا أسماء نفر ممن كانوا يلقبون بالفطيون . غير أن الذي يستنتج من روايات الأخباريين أن يهود الحجاز ويهود بقية أنحاء جزيرة العرب ، لم يكن يحكمهم ملك أو ملوك . إنما كان الحكم عندهم للرؤساء ، فصاحب الحصن أو الآطام هو السيد وهو صاحب الأرض وهو الذي يدبّر مصالح اليهود الذين يعيشون فى أرضه ويحميها ويدافع عنها ، واليه يرجعون فى المشكلات والملمّات . أما في أمورهم الدينية ، فكانوا يرجعون الى رجال دينهم الذين كانوا يقضون بينهم ويقيمون لهم الصلوات وبقية شعائر دينهم فى بيوت المدراس .

وقد أدى التنافس بين سادات يهود الى نشوب معارك بينهم فى الجاهلية ، وقد أشار

---

(١) الروض الأنف (٢/١٩٤) ، ابن هشام (٢/١٩٥) « حاشية على الروض » ، « الصور : أصل النخل » « الصور : النخلة » ، تاج العروس (٣/٣٤٣) .

اليها القرآن الكريم وأنبهم على ذلك . واضطرت بنو قينقاع بسبب ذلك وبضغط بني النضير وبني قريظة الى الالتجاء الى أحياء يثرب والى محالفة الخزرج ، وفي مقابل ذلك تحالفت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس . فصاروا فرقتان : فرقة مع الخزرج ، وفرقة مع الأوس .

وفي المعارك والخصومات التي تقع بين يهود ، كانوا يؤدون الدية . وهي على ما يظهر من روايات أهل الأخبار مختلفة ، وغير متكافئة . فكان بنوا النضير يؤدون الدية كاملة لشرفهم في يهود ، أما بنو قريظة ، فكانوا يؤدون نصف الدية . وفي خلاف في أداء الدية وقع بينهم ، التجؤوا الى الرسول للحكم بينهم ، فذكروا له هذا الاختلاف ، فحكم بالدية متساوية . وفي هذا الحكم نزلت الآية : « سمّاعون للكذب ، أكّالون للسحت . فإن جاؤوك فاُحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين »[1] .

وفي تأنيب يهود ، لتخاصمهم وتنابذهم واخراجهم بعضهم بعضاً من ديارهم وأسر بعضهم بعضاً وافتداء الأسرى كالذي وقع بين بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير ، نزل الوحي : « وإذ أخذنا ميثاقكم ، لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان . وإن يأتوكم أسرى ، تفتدوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ، ويومَ القيامة يُرَدُّونَ الى أشدّ العذاب ، وما الله بغافل عمّا تعملون »[2] .

---

(١) المائدة : الآية ٤٢ .

(٢) البقرة : الآية ٨٤ وما بعدها ، روح المعاني (٣٠٩/١) ، ابن هشام (٢٣/٢) « حاشية على الروض » .

أنبيهم ، لأنهم فعلوا فعل المشركين والأعراب ، مع أنهم أهل دين واحد وكتاب . أما المشركون ، فلا لوم عليهم ، لأنهم لم يكونوا على دين ، وليس لهم كتاب يأمرهم وينهاهم . وقد كانت يهود – كما ذكرت – قد انقسمت الى حزبين : حزب مع الأوس ، وحزب مع الخزرج . وهذا مما أضرهم كثيراً ، وإذ كانوا أصحاب دين وقائلين بالتوحيد ، عطف الرسول عليهم ، وأراد توحيد صفوفهم ، والتأليف بينهم ، ونبذ هذه الخصومة التي هي من شمائر الجاهليين .

ويلاحظ أن اليهود صاروا يلجؤون الى الرسول فى حلّ ما كان يقع بينهم من خلاف ، كالذي ذكرته من لجوئهم اليه لتحكيمه فيما بينهم فى مسألة الدية ، وكالذي ورد عن التجائهم اليه لتحكيمه فى حادث زنى وقع عندهم ، وغير ذلك ، مما يدل على أنهم وثقوا بحياده فى التحكيم وبعدله ، وعلى أن سادتهم وأحبارهم كانوا يتأثرون بعاطفتهم فيحكمون بما تمليه عليهم . وقد حكم الرسول فى حادث الزنى بالرجم . بحضور كبير أحبار يهود عبد الله بن صوريا ، وأمر الرسول بتنفيذ الرجم (١) .

ويذكر أهل السير والأخبار أن الرسول حينما طلب منه الحكم فى هذه القضية ، وقد كان في أول عهده بيثرب ، مشى حتى أتى أحبارهم فى بيت المدراس ، وطلب منهم أن يقولوا ما ورد فى شريعتهم من حكم فى الزاني والزانية ، فتلعثموا ، ولم يذكروا له الرجم . ولكن الرسول كشف كذبهم ، وأمرهم بالرجوع الى التوراة وفيه الرجم (٢) . وقد كان الرجم فى هذه الحالات من قديم أحكام يهود . وقد ورد النص عليه في التوراة (٣) .

ويذكر أهل السير والأخبار أن زعماء يهود : كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله أبن صوريا وشأس بن قيس ، قال بعضهم لبعض : « اذهبوا بنا الى محمد ، لعلنا نفتنه عن

---

(١) ابن هشام (٢/٤٢) « حاشية على الروض » .

(٢) ابن هشام (٢/٤٢) « حاشية على الروض » .

(٣) التثنية : الاصحاح الثاني والعشرين ، الآية ١٣ وما بعدها ، Hastings, P. 586.

دينه ، فإنما هو بشر ، فأتوه ، فقالوا له : يا محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم ، وإنّا إن أتبعناك أتبعتك يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة . أفنحاكمهم اليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك ؟ فأبى ذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، عليهم ، فأنزل الله فيهم : « وأن أحكُمْ بينَهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واُحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك . فإن تولوا ، فاُعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وأن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكمَ الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسنُ من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ »[1] .

ويذكر أهل السير والأخبار : أن يهود يثرب كانوا اذا تضايقوا من الأوس والخزرج هدّدوهم بقرب ظهور نبي يستعلون به عليهم . ففي رواية عن بعض الصحابة أنهم قالوا : « كنّا قد علوناهم فى الجاهلية ، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون لنا : إن نبياً يبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم »[2] . ولما ذكّرهم معاذ بن جبل وبشر بن البرّاء بن معرور ونفر آخرون بدعواهم تلك ، وبظهور النبي العربي بقولهم لهم : « يا معشر يهود ، اتقوا الله ، وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته » ، فكان جواب يهود لهم ما جاء على لسان سلام بن مشكم أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنّا نذكره لكم . وقد أشير الى ذلك في القرآن الكريم : « ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مُصَدّق لِما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا ، كفروا به . فلعنة الله على الكافرين »[3] .

واُستفتاح اليهود على المشركين ، هو للتفريج عن أنفسهم ولتخويف الأوس والخزرج

---

(١) المائدة : الآية ٤٩ وما بعدها ، ابن‌هشام (١٩٦/٢) « طبعة محمد محيي‌الدين عبد الحميد » .

(٢) ابن هشام (١٦٦/٢) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » .

(٣) البقرة الآية ٨٩ ، ابن هشام (١٧٣/٢ وما بعدها) .

ولاعتقادهم حقاً بظهور مسيح منهم ، أي من بني اسرائيل . ولهذا أنكروا نبوة الرسول ، وأبوا التسليم بها ؛ لأنه لم يكن منهم ، ولأن النبوة لا تكون — على رأيهم — إلاّ في بني اسرائيل . فكيف يصدقون بنبي عربي من الأميين « نبي أمة هاعولام » . « Nebi'é Ummot hà-'ölàm » [١] .

وكما اختلف يهود جزيرة العرب عن الجاهليين في الأمور التي حرمتها شريعتهم عليهم في مثل المأكولات ، اختلفوا عنهم في بعض العادات والمظاهر الخارجية ، فكان اليهود مثلاً يسدلون شعورهم . أما المشركون في يثرب ، فكانوا يفرقون رؤوسهم [٢]. ولا يستبعد اختلافهم عنهم في لبس بعض الملابس التي لم تكن مألوفة عند الجاهليين .

لم يترك يهود الجاهلية لنا آثاراً تذكر تمكن المؤرخ من استنتاج شيء عن حياتهم في جزيرة العرب قبل الإسلام . فكل ما تحدثنا به عنهم ، مستمد ، كما رأيت من موارد اسلامية ، وهي لا ترتقي الى أيام بعيدة عن الإسلام ، وهي ليست يهودية ، ثم هي خاصة لا تتحدث إلاّ عن ناحية معينة هي ناحية صلة اليهود بالرسول وبالإسلام .

وما دمنا لا نملك نصوصاً يهودية جاهلية ، ولا نصوصاً عربية جاهلية تتعرض ليهود ، فليس في وسعنا اذن أن نتحدث باطمئنان عن أثر اليهود في الجاهليين أو أثر الجاهليين في اليهود . لقد تحدث عدد من المستشرقين عن أثر اليهود في الجاهليين ، فزعموا أن لليهود أثراً عميقاً فيهم ، فالختان مثلاً هو أثر من آثار يهود في العرب ، وشعائر الحج عند الوثنيين أكثرها هي من اسرائيل ، فالطواف حول البيت يرجع أصله الى بني اسرائيل ،

---

(١) Montgomery watt, Muh. at Med., P. 197, Ency., IV, P. 1016.

(٢) « عن ابن عباس : أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كان يسدل شعره وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم ، وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ، ثم فرق النبي ، صلى الله عليه وسلم ، رأسه » ، عمدة القاري (١٧/٧١) .

ذلك أن قدماءهم كانوا يطوفون حول خيمة الإلـه « يهوه » إلـه اسرائيل ، ومنهم تعلمه الجاهليون وأُتبعوه في طوافهم بالبيت . والإجازة بعرفة يهودية كذلك ؛ لأن الذي كان يجيز الحجاج بعرفة فيأمر الحج بالرمي بعد أن يلاحظ الشمس وقت الغروب يعـرف بـ « صوفة » ، وصوفة تسمية عبرانية لها علاقة وصلة بهذه الوظيفة وظيفة مراقبة غروب الشمس وتثبيت وقته ، فالإجازة إذن عبرانية الأصـل . و « منى » صنم من أصنام اسرائيل ، ووادي منى على اسم هذا الصنم الإسرائيلي ، وأسماء أيام الاسبوع هي تسميات أخذت من يهود[1] ، ولفظة « المدينة » التي تطلق على يثرب ، أطلقها اليهود على هذا الموضع قبل الإسلام ، وقد أخذوها من الإرمية ، لتميز هذا المـكان عن « وادي القرى » . وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل .

وقد غالى بعض اليهود فى تقدير يهود جزيرة العرب ، فذهب الى أن أولئك اليهود جلهم إن لم يكونوا كلهم كانوا يحسنون قراءة الـكتاب المقدس ، بدليل اطلاق القرآن الـكريم عليهم « أهل الـكتاب »[2] . وقـــد فاته أن عبارة « أهل الـكتاب » لا تعني أهل الـكتابة ، بمعنى أنهم كانوا أصحاب علم بالـكتابة ، وإنما المراد من ذلك أهل كتاب منزل سماوي . ويدخل فى ذلك النصارى أيضاً لوجود كتاب سماوي لديهم كذلك هو الإنجيل . وقد رأيت أن القرآن الـكريم قـد وصف بعض الأحبار بالعلم ، كما رمى أكثرهم بالجهل . أما السـواد الأعظم منهم ، فقد جعلهم عامّةً تتبع أقوال رجالها ، فلا علم لها ولا معرفة بأمور الماضين أو الحاضرين .

وأنا لا أريد هنا أن أجادل فى نفي هذه الأمور ، أو اثباتهـــا ، فأخذ الشعوب

---

(١) اليهود (ص ٧٨ — ٨٥) Graetz Vol. III PP. 60.

(٢) Graetz, Vol. III P. 59.

وأقتباسها بعضها عن بعض ، من القضايا التي لا يمكن أن ينكرها إلا المعاندون الجاهلون المتعصبون . وقد رأيت أن ابن الكلبي وغيره من قدامى الأخباريين قد أشاروا الى أن أصل بعض الأصنام عند العرب هو من الشمال ، استورد فى مناسبات أشاروا اليها ، كما أن التنقيبات الأثرية قد أثبتت وجود صلات فكرية بين جزيرة العرب و بين العالم الخارجي ، وأن ما يزعمه القائلون بعزلة الجاهليين عن بقية العالم هو هراء لا يستند الى دليل . ولكني فى هذه الأمور من الحذرين . أكره الجزم بشيء من غير برهان قاطع ودليل محسوس . فكلام أهل الأخبار ، أكثره مما لا يمكن الاعتماد عليه ، وقد رأينا طبيعة أكثره ونوعه . ثم إن الكثير مما له علاقة بيهود وبالدين هو مما أخذ من أهل الكتاب فى الإسلام أو من أفواه مسلمة أهل الكتاب ، وكلا الصنفين من الرجال هم ممن حاول بتأثير عواطفهم التي لا يمكن التحكم فيها اثبات أثر اليهودية أو النصرانية فى العرب وفى الإسلام . وقد طاب ذلك لأصحاب القلوب الطيبة من المسلمين لظنهم أن ذلك صدق ، وأنه مما يؤيد أن الإسلام جاء متمماً لما مضى من رسالات ، فأخذوه على هذا التفسير الطيب وقبلوه .

أما نحن ، فعلينا التميز بين هذا الذي أدخل بين العرب بعد أيام الجاهليــة وبين ذلك الذي كان معروفاً عند الجاهليين وقد ورد عنهم . وهنا تظهر مشكلة الحجج والوثائق ، لإبداء رأي علمي في هذه القضايا المعقدة .

ثم إن العرب كانوا شعباً سامياً ، كاليهود فى أصطلاح العلماء ، وتشترك البطون السامية فى كثير من أصول التفكير والعقيدة ، ومعنى هذا أن ما نجده عند يهود قد يكون عند العرب وعند غيرهم ممن يدخلهم المستشرقون فى هذه الزمرة . فَلِمَ نخص كل شيء بيهود، ونحكم على أن الجاهليين قد أخذوه منهم ، ولا نقول إن هذا من ذلك التراث القديم الموروث ؟ أنا لا أقول ذلك متأثراً بدافع من العصبية ، إنما أقول ذلك لأني أدين بفكرة

هي أن الاستعجال فى اصدار الأحكام بغير دليل ، خطأ فاحش لا يجوز لإنسان يشعر بإنسانيته أن يوقع نفسه فيه .

ثم إن الذي نعرفه عن يهود أنهم قوم محافظون جداً لا يعلنون عقائدهم وأحكام ديانتهم للناس ، وأحبارهم هم على عكس رجال الدين من النصارى لا يهتمون إلاّ بالافتاء بين قومهم وأتباعهم ، فلا يعقل أن يكون لليهود أثر يذكر في نشر الثقافة اليهودية بين الجاهليين . ولا أظن أن أحداً من علمائهم أجهد نفسه فى ترجمة التوراة والتلمود وكتب الأحبار الى الجاهليين ، وما الفائدة التي ستعود عليهم من ذلك ؟ هل كانوا يرجون تهويد جزيرة العرب ؟ إن كان في استطاعة أحد اثبات أن اليهود قصدوا ذلك وقاموا به ، قلنا : نعم وألف نعم ، ولكن ليس فى أستطاعة أحد التوصل الى هذا الإثبات . لو كانوا قصدوا ذلك ، لقاموا به بالمدينة وقد كان لهم في يثرب كما يقول أهل الأخبار رأي ومكانة ، ولقاموا به فى أعالي الحجاز ، وقد كان لهم به نفوذ وعدد . ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، ولم يشر أحد من أهل الأخبار الى أن يهود تلك المنطقة حاولوا تهويد أعرابها ومن كان يسكن فى جوارهم من البطون والقبائل دفعاً لشرهم وأذاهم بهذه الطريقة عنهم على الأقل ؛ لأن تهويدهم يعني اكتساب جانبهم والتآخي معهم ، وبذلك يأمنون من غزوهم لهم عند سنوح الفرصة ومن دفع الإتاوات لرؤوساء الأعراب . أما ما قيل عن تهود تبع اليمن فى القصص الذي أشرت اليه ، فإنه من أخبار أهل الأخبار ، وهو لايستند الى سند جاهلي مكتوب ، فهو مجرد رواية نذكرها على سبيل ذكر ما قيل وما روي من أنتشار اليهودية فى اليمن قبل الإسلام .

روى أسباط عن السدّي أنه قال : « كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ، ويحدثونهم أنه من عند الله ، ليأخذوا به ثمناً قليلا »[١] . وروايات

---

(١) تفسير الطبري (١/٣٠٠) .

أسباط عن السدي ، روايات ضعيفة في نظر علماء الجرح والتعديل ، وكلا الرجلين في نظرهم من الضعفاء ، وقد عرف السدي خاصة بميله الى الاسرائيليات وهذه الرواية المنسوبة اليه ، غامضة لم تعين الزمن الذي وضع اليهود كتابهم الذي باعوه فيه للعرب : أهو الجاهلية ، أم الإسلام ؟ إن كان قصد الإسلام ، فلا شأن لنا في هذا الموضوع في هذا الكتاب ، وإن كان قصد الجاهليه فإننا لم نسمع من أحد غيره يروي هذا الخبر الذي ذكره في معرض حديثه عما ورد في كتاب الله من تحريف اليهود للتوراة [1] . وليس لهذا الموضوع صلة بوضع اليهود الكتب للعرب الجاهليين .

ثم إن سياق المعنى في هذه الآية ، لاصلة له بالعرب الجاهليين ، إنما هو تفسير وعطف لمعنى سابق في الآية المتقدمة عليها : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني ، وإن هم إلاّ يظنون » ، فالكلام هو على سواد يهود ممن كانوا لا يفقهون شيئاً من الكتاب ، وليس لهم به علم ، فكتب لهم أحبارهم كما جاء في الآية التالية شروحاً وتفاسير بحسب آرائهم ، قالوا لهم إنها من عند الله ، وإنها توضيح لما في الكتاب ، أي التوراة ، ليرتزقوا بذلك من هذه العامة . والمقصود بذلك ما أشرت اليه من التلمود والكتب الأخرى التي كانت عند يهود ، والتي كانت عند يهود يثرب ولا شك ، وقد رأيت طبيعتها ، فاليها تشير هذه الآيات من القرآن الكريم .

يتبين مما تقدم أن البحث في موضوع أثر اليهود في أهل الجاهلية ، موضوع لم يحن وقته بعد ، ولن يحين وقته إلا بعد العثور على نصوص يُطمَأنُّ اليها تتحدث عن يهود جزيرة العرب لذلك العهد وعن صلاتهم بالجاهليين . ولا أظن أن الأمل في العثور على نصوص وآثار يهودية في المواطن التي كان يسكنها اليهود شيء بعيد الاحتمال ، فهذه المواطن

---

(١) « الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا » ، البقرة : الآية ٧٩ .

لا تزال مطمورة مغمورة ، ولا يستبعد أن تكون تحتها نصوص جاهلية تكشف شيئاً من أسرار حياة أولئك اليهود .

وإذ انتهينا من بحث اليهود فى جزيرة العرب ، فلا بدَّ لنا من الإشارة الى أثر اليهودية في الأساطير الحبشية القديمة ، والى اعتقاد الحبشة حتى اليوم بوجود صلة رحم لأسرتهم المالكة بسليمان وبسبط يهوذا وبصهيون . وقد درس المستشرقون هذا الموضوع ، فذهب بعضهم الى أن هذا الأثر هو نتيجة اتصال الحبشة قديماً باليمن ، وقالوا بوجود جاليات يهودية فى الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب . وفى جملة ما استندوا اليه من أدلة ما ورد فى المدراش « بمدبر ربة Midrash Bemidbar Rabba LX » من إشارة الى سفر « الربى عقيبة R. ‘ Aqiba » الى « ملك العرب » ، ومن إشارته الى لون بشرته وأنه كان أسود داكناً . وذهبوا إلى أن هذا الملك لابد أن يكون من ملوك اليمن ، ويحتمل أيضاً أن يكون حاكماً من حكام الحبشة كان يحكم اليمن يومئذ على أثر احتلال الحبش لها [١] . وقد كانت سفرة هذا الربّان فى حوالي سنة (١٣٠ م) . وقد أشار هو نفسه الى هذه الرحلة التي قام بها فى بلاد العرب [٢] .

ويرى « أولندورف Ullendorff » ، أن رحلة « ربى عاقبة R. ‘Aqiba » هذه الى اليمن تدل على وجود يهود فيها ، إذ لا يعقل سفره هذا الى تلك البقعة النائية وتجشمه مشقته ، لو لم تكن هناك جالية كبيرة فيها . ثم إن رحلته هذه إنما كانت لأجل إثارة يهود بلاد العرب وتحريضهم على محاربة الرومان ، ولا يعقل ذهابه إذن الى حيث ذهب لو لم تكن لليهود جالية كبيرة فى اليمن . وقد يكون من بين يهود اليمن — على رأيه — أناس

---

(١) E. Ullendorff, Hebraic - Jewish Elements in Abyssinian (Monophysite) Christianity, in, Journal of Semitic Studies, Vol., I, No. 3, July 1956.

(٢) Talmud Babli, in Rosh Hashanah, 26 a, Kraus, in Z. D. M. G., S331, 1916.

من بقية الحملة الرومانية التي قادها « أوليوس غالوس » لإحتلال « العربية السعيدة » ، فقد اشترك فى هذه الحملة قوم من يهود[1] .

وقد عثر على كتابة من كتابات القبور فى « بيت شعيريم Beth She'arim » في شرقي حيفا ورد فيها « Homeriton » . وقد رأى الدكتور « بنيامين ميسلر Benjamin Maisler » أن الكلمة تدل على أن هذا القبر هو ليهود من حمير كانوا قد جاؤا الى فلسطين للاتجار ، فدفنوا فيه . ويرجع الباحثون تأريخه الى حوالي سنة ٢٠٠ م . ومعنى هذا وجود جاليات من اليهود في اليمن فى هذا العهد[2] .

وقد أورد « أولندورف » مصطلحات دينية كثيرة معروفة فى الأديان السماوية الثلاثة ، زعم أنها دخلت الى الحبشية من العبرانية بواسطة اليهود الذين كانوا في الحبشة والذين دخلوها مع من دخل اليها في عهد أستيلاء عرب اليمن عليها وذلك قبل الميلاد . كما زعم أن كتاب « Kebra Nagast » الكتاب الديني عند الحبش يستند الى العهد القديم . ولكنّ ما أورده من أمثلة هو موضوع جدل بين العلماء ، فمنهم من يقول إن اكثره من المصطلحات الساميّة القديمة العامة التي ترد فى أكثر اللهجات السامية ، ومنهم من يرى أنها إرمية الأصل وأن العبرانية نفسها أخذتها منها . و « أولندورف » من المتحمسين لليهودية يرجع أكثر الأمور اليها . ولكن ما يقوله يحتاج الى إثبات ، فليس مجرد ورود شيء فى العبرانية أو فى أية لغة أخرى دليلاً قطعياً على أنه الأصل ، وما سواه منقول منه ، إذ يجوز أن تكون العبرانية نفسها قد أخذتها من اللغات الأخرى . وقد أبديت سابقاً ، في مواضع مختلفة من أجزاء هذا الكتاب ، رأيي فى أمثال هذه المصطلحات والافكار ، وقلت بضرورة التريث والتأني وبوجوب التحقيق والتدقيق

---

(١) Ullendorff, in Jour. of Sem. Stud., Vol., I, No. 3, July 1956, P. 221.

(٢) S, D. Goitein, Jews and Arabes, New York, 1955, P. 47.

ومراجعة النصوص القديمة فى مثل هذه الدراسات المقارنة ، لئلا يوقعنا الاستعجال فى ارتجال أحكام خاطئة .

هذه هي قصة يهود جزيرة العرب قبل الإسلام ، قصة لا تستند الى مؤلفات تأريخية كتبت فى تلك الأيام ، ولا الى نصوص جاهلية عربية أو أعجمية لها علاقة بيهود كتبت فى ذلك العهد ، ولكن تستند ، فى أكثر ما حكيناه ، الى موارد إسلامية ، ذكرتهم وأشارت اليهم لمناسبة ما وقع بينهم وبين الرسول من خلاف ، وقد ورد شيء كثير بحقهم فى القرآن الكريم وفى الحديث وفى الأخبار ولا سيما أخبار الغزوات . فما ورد عنهم إذنْ هو من مورد واحد وطرف واحد . أما الطرف الثاني من أصحاب العلاقة بهذا التأريخ والشأن ، وأعني بهم اليهود ، فلا صوت لهم فيه ، ولا رأي . فلم تصل الينا منهم كتابة ما عنهم فى علاقتهم بالاسلام . كذلك لم تصل الينا كتابة أو رواية أو خبر عن أولئك اليهود فى الموارد التأريخية التي دونها غيرهم من مؤرخي يهود وكتابها عن علاقة يهود جزيرة العرب بالاسلام ، وعن اجلاء يهود الحجاز من مواضعهم الى بلاد الشأم ، لا في العربية ولا فى العبرانية ولا فى بقية اللغات ، مع ما لهذا الحادث من خطر فى تأريخ اليهود فى جزيرة العرب . ولعل الأيام تكشف لنا عن موارد فى العبرانية أو فى لغة بني إرم تذكر أحوال يهود جزيرة العرب قبيل الإسلام وعند ظهوره ، وتكشف عن آثار يهود فى المواضع التي كانوا قد سكنوها فى الحجاز ، فنبتّ فى أمور كثيرة عن حياة هؤلاء . وليس احتمال عثورنا على مثل هذه الآثار ببعيد ، فلا بد أن يعثر على حجر من الحجارة المكتوبة التي توضع فوق القبور ، فنعرف منه ما لغة الكتابة التي كان يستعملها أولئك اليهود ، أهي العبرانية ، أو العربية ، أو لغة بني إرم ، أو أبجدية من الأبجديات المشتقة من القلم المسند ؟ وقد يعثر على نصوص أطول من هذه النصوص التي توضع على القبور ، تكشف النقاب عن أمور أخرى مهمة تفيدنا فى معرفة أحوال اليهود ببلاد العرب قبل الإسلام .

الفصل الرابع

النصرانية عند ظهور الاسلام

لم تكن للنصرانية عند ظهور الإسلام متركزة — كاليهودية — فى مواضع معينة من الحجاز . وإذا أستثنينا مواضع قليلة فى أعالي الحجاز مثل دومة الجندل ، فلا نكاد نجد فيه مواضع مثلها تؤلف أغلبية نصرانية . ولكن هذا لايعني نفي وجود أقليات نصرانية عربية وأعجمية كانت تسكن فى قرى الحجاز وفى مدنه . أما الاقليات الأعجمية فقد كانت تتألف من تجار ومبشرين ورقيق اشتري من مختلف الأنحاء فجيء بـه الى هذه الأرضين للإشتغال بالحِرَف التي لم يكن يتقنها أهلها ، أوكانوا يأنفون القيام بها لاُعتقادهم أنها ليست مما يليق بالرجل الشريف الحرّ القيام به . فهؤلاء هم جرثومة النصرانية في الحجاز ونواتها ، وهم على قلة عددهم أكثر نشاطاً في نشر دينهم بين العرب وتعليمه للناس من اليهود لاختلافهم فى المبدأ عن اليهود فى موضوع نشر الدين . فمن عقيدة هؤلاء التبشيرُ بديانة المسيح ، ونشر كلمته بين جميع الناس ، وفى ذلك الفوز العظيم . أما اليهودية ، فقد صارت كما قلت ديانة خاصة ببني اسرائيل ، شعب الله المختار ، فليس على يهودي كائناً من كان ادخال أحد من « الغرباء » فى دين الله المختار .

أما فى اليمن ، فقد كان للنصرانية عند ظهور الإسلام مواطن فى نجران نستطيع أن نقول إنها كانت الغالبة عليها ، ومواطن أخرى كانت ذات أقليّات لابأس بها فى مثل صنعاء ومأرب . ولكن الغالب على اليمن كان الديانة الوثنية التي ورثتها من آبائها ، وكذلك

كان لهذه الوثنية الأكثرية المطلقة في سائر أنحاء جزيرة العرب ، في العربية الجنوبية والشرقية ونجد .

وقد تحدثت في الفصول السابقة عن كيفية انتشار النصرانية في اليمن ، وعن الأساطير التي وردت عن ذلك ، وذكرت آراء الأخباريين ورواياتهم في هذا الشأن ، وهي روايات تستند الى موارد سريانية في الغالب ، مطبوعة بطابع كنيسي شرقي ، أخذت من التواريخ السريانية ، إما بالرجوع الى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ممن كانوا يعنون بحفظ التواريخ وقراءتها ، وأما بمراجعة ما ترجمه هؤلاء أومسلمتهم الى العربية . وفي بعض فصول هذا التأريخ أثر للقصص الحبشي والاسرائيلي .

وقدكان طرد الحبش من اليمن في غير مصلحة النصرانية ، أو في غير مصلحة المذهب الذي كانت عليه الحبشة على الأقل . ولو كان قد قدر للحبش البقاء في هذه الأرضين مدة طويلة ، لكان للنصرانية فيها شأن غير الذي بلغته بعد اخراج الحبش عنها ولا شك . فقد رأينا الحبش نشيطين دائبين على نشر دينهم بين السكان بما أقاموه من كنائس وبيع وبما عزموا عليه من مقاومة الوثنية والتوسع في خارج اليمن ، وفي جملة ذلك فتح مكة ، وهي معقل قوي من معاقل الوثنية في شمال اليمن ، ولها في نفوس القبائل حرمة ورعاية . وللقبائل أثر خطير في سياسة البلاد وفي حفظ الأمن والاستقرار .

ونحن لا نعلم شيئاً عمّا لاقته النصرانية وما جابهته من أوضاع وظروف بعد دخول اليمن في حكم الفرس ، فالموارد الجاهلية والإسلامية ساكتة عن ذلك سكوتاً تاماً . ولكن المنطق يحملنا على التفكير في أن هذا العهد الجديد لم يشجع النصرانية ، ولم يقدم اليها المساعدات المادية والمعنوية التي كانت تحصل عليها من الحبش ، وإن هذا العهد إن لم يكن ضدها ، فإنه كان محايداً بالنسبة اليها ، وموقف الحياد هذا لايساعد — على كل حال — على نشر هذه الديانة بين غالب السكان الذين رأوا في هذه الديانة ديانة الغالبين الفاتحين الاجانب .

ثم انها ديانة تناقض ديانتهم التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وهي ديانة حكومتهم أيام كانت مستقلة حاكمة . وقد كان القائمون بالثورة على الحبش من هؤلاء الذين لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، بل كانوا على دين آبائهم وأجدادهم الموروث ، فهو بالقياس اليهم تراث وطني ورمز للوطنية والاستقلال .

ونجد عهد استيلاء الحبشة الأخير على اليمن عهداً كريماً من ناحيته التأريخية ، إذ دوّن جملة نصوص ، منها نص أبرهة على سد مأرب الشهير . وهو وإن لم يكن ذا علاقة مباشرة بالنصرانية ، قد أورد جملة مصطلحات وأمور لها علاقة بهذه الديانة ، أما عهد استيلاء الفرس على اليمن الى دخولها في الإسلام ، فلم يترك شيئاً مدوناً ولا أثراً يمكن أن يفيدنا فى الكشف عن النصرانية فى اليمن ، وعن موقف الحكومة منها أو من الوثنية أو من أية ديانة أخرى كديانة الفرس أنفسهم ، ولم يترك لنا كتابة ما لا بالمسند ولا بقلم الساسانيين الرسمي يشرح الأوضاع السياسية أو أي وضع آخر فى هذا العهد .

وحالنا في النصوص الكتابية فى أول عهد دخول اليمن فى الإسلام ، مثل حالنا بالقياس الى عهد استيلاء الفرس عليها ، فنحن فيه معدمون لا نملك ولا نصاً واحداً مدوناً من ذلك العهد . وهو أمر يؤسف له بالطبع كثيراً ، وكيف لا يؤسف له كثيراً وهو والعهد الذي قبله المتصل به ، من أهم العهود الخطيرة فى تأريخ اليمن وجزيرة العرب ، ونص واحد من هذين العهدين هو ثروة لا تقدر بثمن لمن يريد الوقوف على التطورات التأريخية التي مرت بالعرب قبيل الإسلام وعند ظهوره .

ولا بد لنا فى هذا الموضع من الرجوع الى النصوص المدونة فى أيام تحكم النصرانية على اليمن ، لنرى ما يفيدنا منها فى زيادة معرفتنا بالنصرانية فى « العربية السعيدة » . ولا بد لنا من الابتداء بنص « أبرهة » المدون على سدّ مأرب ، وهو نص طويل مهم ، لعله من أهم النصوص التأريخية التي وصلت الينا عن تأريخ جزيرة العرب بعد الميلاد ، ويعود

تأريخه كما ذكرت الى سنة « ٦٥٨ » من التقويم الحميري ، ومعنى هـذا أنه يقابل سنة « ٥٤٣ » للميلاد [١] .

ولدينا نص آخر يفيدنا في هـذا الباب أيضاً يعود الى هذا الحاكم الحبشي على اليمن ، وقد دونه في سنة « ٦٦٢ » من التقويم الحميري ، أي في سنة « ٥٤٧ » للميلاد تقريباً . بعد أن غزا « معداً » في فصل الربيع وفي شهر « ذي ثبتن » « ذي ثبتان » ، وتغلب على قبيلة « بني عامر » وأرسل قائده « أبا جبر » لمحاربة « كدت » أي كندة ووائل ، و « بشر بن حصن » لمحاربة « سعد » ، وقد أنتهت بانتصار جيوش أبرهة على هؤلاء . وبموافقته على بقاء « عمرو بن مذر » رئيساً على « معد » [٢] .

والمهم عندنا في هذا المكان من النصين هو ماله علاقة بالنصرانية فيهما ، وما ورد فيهما من مصطلحات معروفة في هذه الديانة . والنص الأول لذلك أهم في هذا الباب من النص الثاني ، فقد تضمن مصطلحات هي أكثر من مصطلحاته ، ثم أن ما جاء في افتتاح النص الثاني من التبرك بذكر اسم الرحمن ومسيحه قد جاء في النص الأول مثله ، ولا تجد فيه غير هذه الجملة والجملة الختامية من شيء جديد .

وقد افتتح نص أبرهة على سد مأرب بهـذه الكلمات : « بخيل وردا ورحمت رحمنن ومسحهو ورح قدس » [٣] ، ومعناها في لهجتنا « بحول الرحمان وردئه ورحمته ، ومسيحه وروح القدس » [٤] . ويلاحظ أن هـذا الاعتراف النصراني يختلف في صيغته اللفظية عن الاعتراف المألوف الشائع : « بأسم الأب والابن وروح القـدس » . وقد أستعمل

---

(١) راجع النص ومقابله في عربيتنا ، في مجلة المجمع العلمي العراقي (م ٤ ص ١٨٦ وما بعدها) .

(٢) Le Muséon, XVI, 275. ff., Ryckmans, No. 506, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, 1954, Vol., XVI, Part 3, P. 435.

(٣) راجع Glaser 618 , cis 241 (٤) مجلة المجمع العلمي العراقي (٤/٢١٥) .

لفظة « الرحمن » فى موضع « الأب » . و« الرحمن » من المصطلحات الدينية فى النصوص اليمانية المدونة بعد الميلاد . وهو يشير الى إلــه واحد ، عبر عنه بهذه اللفظة ، ولهذا ذهب المستشرقون الى أنه يرمز الى عقيدة من عقائد التوحيد ظهرت فى اليمن بتأثير الديانة اليهودية أو النصرانية . وهي عقيدة مستقلة ليست يهودية ولا نصرانية [١] . وأستعمال « أبرهة » لهذه اللفظة بدلاً من « الأب » ، يشير الى عدم تقيده بالصيغة الرسمية المستعملة في الكنيسة الرسمية . كذلك استعمل كلمة « المسيح » بدلاً من « الابن » التي هي اللفظة المستعملة فى صيغة الاعتراف .

وقد وردت فى السطر الثالث والتسعين من النص جملة : « بحمد رحمنن » ، أي « بحمد الرحمان » ، ولم ترفق بها التكملة المألوفة من الاعتراف بالثالوث . وهذه الجملة من الاصطلاحات المتأثرة بعبادة الرحمان .

وفى هذا النص جملة أخرى مهمة ، هي : « وقدس بعتن » ، أي « وقدّس البيعة » « وتقديس البيعة » ، وكلمة « قدس » و « تقديس » من الألفاظ الدينيــة الواردة فى اليهودية والنصرانية والاسلامية .

ويراد بالبيعة الكنيسة ، وهي فى السريانية بمعنى البيضة والقبــة ، وذلك من باب المجاز ، إذ تشير الى شكل الكنائس فى القديم [٢] . ولا ندري أ كانت هـذه التسمية قد أستعملت فى اليمن منــذ القديم . أم هي من المصطلحات التي دخلت اليهـا من النصارى العرب الذين وفدوا عليهــا من الشمال ، من بلاد الشـأم أو من العـراق ، أم هي من المصطلحات التي أدخلها الحبش المتنصرون معهم الى هذه البلاد .

---

(١) D. H. Müller, Eine monotheistische Sabaische inschrift, in the Wiener Zeitschrift für die Kunde der Mörgenlandes, Bd., X (1896), S. 285. ff., Torrey, P. 55.

(٢) « البيعة والكنيسة : جعلهما بعض العلماء فارسـيين معربين » ، المعرب للجواليقي (ص ٨١) .

وقد أُشير الى ورودها فى الشعر الجاهلي وفى بعض الأخبار المنسوبة الى الجاهليين . وردت فى شعر منسوب الى « عبد المسيح بن بقيلة » ، وهو كما يظهر من أسمه من النصارى [1] ، ووردت في بيت منسوب الى لقيط بن معبد [2] ، وفى شعر ينسب الى ورقة بن نوفل [3] ، وآخر ينسب الى الزِّبْرقان بن بدر التميمي [4] . ولا بد أن تكون هذه الكلمة من الكلمات المألوفة عند العرب الجاهليين المتنصرين ، أو عند غيرهم ممن كانوا على الوثنية ، غير أنهم كانوا على اتصال بالنصارى ، ذلك لأنها من الألفاظ التي كانت معروفة عند النصارى . وقد كانت البيع منتشرة فى المدن وفى القرى والبوادي ، وطالما قصدها الأعراب للاحتماء بها من الحر والبرد والاستعانة برجالها لتزويدهم بما عندهم من ماء أو من زاد ، أو للتنزه بها واحتساء الشراب .

وقد وردت اللفظة بصيغة الجمع « بيع » فى القرآن الكريم [5] بعد « صوامع » التي هي من الألفاظ النصرانية المعروفة كذلك .

والصومعة هي البناء الذي يسكنه الرهبان [6] ، وبهذا المعنى وردت فى القرآن

---

(١) كم تجرعت بدير الجرعة غصصاً كبدي بها منصدعه
من بدور فوق أغصان على كثب زرن احتساباً بيعه
البلدان (٤/١٢٠) « مادة دير الجرعة » ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ٢٠٢ وما بعدها) .

(٢) تامت فؤادي بذات الخال خرعبة مرت تريد بذات العذبة البيعا
تاج العروس (٥/٢٨٥) ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ٢٠٢) .

(٣) أقول اذا صليت في كل بيعة : تباركت قد أكثرت باسمك داعياً
الأغاني (٣/١٦) ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ٢٠١) .

(٤) نحن الكرام ، فلا حي يعادلنا ، منا الملوك ، وفينا تنصب البيع
ابن هشام (ص ٩٣٥) ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني ، (ص ٢٠١) .

(٥) سورة الحج : الآية ٤٠ . (٦) تاج العروس (٧/٤١١) .

الـكريم . ويدل ذلك على أنها كانت من المصطلحات المبينة المحـددة المعنى عند نصارى العرب فى الجاهلية ومن اتصل بهم من الوثنيين . وقـد كان الرهبـان قد أُبتنوا صوامع ، وأقاموا بها للعبادة بعيدين عن الناس . ويرى بعض المستشرقين أنها من الألفاظ الحبشية الأصل (١) .

وقد أنشأ أبرهة كنائس عـدّةً فى مواضع أخرى من اليمن ، منها الـكنيسـة التي أشتهر أمرها فى أيامه ، وعرفت عند الأخباريين باسم « القُـلَّـيْـس » . ويذكر أهل الأخبـار فى وصفهـا أن أبرهة أمر « فنقشها بالذهب والفضـة والفسيفسـاء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر ، وجعل فيها خشباً له رؤوس كرؤوس الناس ولككها بأنواع الأصباغ ، وجعل لخارج القبة برنساً . فإذا كان عيدها ، كشف البرنس عنها ، فيتلألأ رخامها مع ألوان أصباغها حتى تكاد تلمع البصر ..... وكان أبرهة قد أسـتذل أهل اليمن فى بنيان هذه الـكنيسة ، وجشمهم فيها أنواعاً من السخر وكان ينقل اليها آلات البنـاء كالرخام المجزّع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان ، عليه السلام ، وكان من موضع هذه الـكنيسة على فراسخ . وكان فيه بقايا من آثار ملـكهم ، فاستعـان بذلك على ما أراده من بناء هذه الـكنيسة وبهجتها وبهائها ، ونصب فيهـا صلبانـاً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس » (٢) .

فيظهر من روايات الأخباريين هذه عن كنيسة صنعاء أن أبرهة أُستعان فى بناء كنيسته هـذه بأنقاض معبد « المقه » فى مأرب ، وهو المعبد السبئيّ الشهير المخصص بعبادة إلـه « سبأ » القديم « المقه » ، الذي عرف عند العامة بـ « محرم بلقيس » وبـ « قصر بلقيس » . واذا صحت الرواية يكون قد خرب أثراً مهماً خطيراً من آثار اليمن فى العهد القديم ، وهو

(١) النصرانية : القسم الثاني : الجزء الثاني (ص ١٧٤ ، ٢١٣) .

(٢) البلدان (٧/١٥٥ وما بعدها) « القليس » ، تفسـير الطبري (١٩٣/٣٠) ، Raccolta, III, P. 127.

أمر يؤسف عليه بالطبع كثيراً .

وبعد هلاك أبرهة واخراج الحبش من اليمن ، أقفر ما حول هذه الكنيسة ، ولم يعمّرها أحـــد ، وأهملت فلم يدخلها أحد ، وصارت موطناً موحشاً للحيّات والهوام والطيور ، وخافها الناس وصار في روعهم أن من يدخلها تصيبه الجن . ظل حالها على ذلك الى أيام « أبي العباس السفّاح » ، فذكر له أمرها ، فبعث اليها خاله الربيع بن زيد الحارثي عامله على اليمن ، وأصحبه رجالاً من أهل الحزم والجلد ، حتى أستخرج ما كان فيها من الآلات والأموال وخربها حتى عفا رسمها وانقطع خبرها [١] .

وللأخباريين آراء في معنى « القليس » ، بنيت على طريقتهم الخاصة في ايجاد التفاسير للكلمات القديمة التي لا يعرفون من أمرهـا شيئاً . وهي لذلك لا تفيدنا شيئاً . والكلمة أعجمية الأصل ، عربت ، وشاع استعمالها ، حتى ظن أنها أسم تلك الكنيسة . انها من لفظة « اكليسيا » « Ekklesia » اليونانية [٢] التي تعني الكنيسة ، لعل أهل صنعاء سمعوها من النصارى الذين كانوا يذهبون الى هذه الـ « Ekklesia » للعبادة ، أو من العمال البيزنطيين ومن الأحباش ، فظنوا أنها أسم علم للكنيسة ، ولم يدروا أنها تعنيها ، فأطلقوها عليها ، وشاعت بينهم على أنها أسم علم لها .

ولا بد أن يكون الفتح الحبشي لليمن قد ترك أثراً في لهجات أهلها ، ولا سيما بين النصارى منهم ، ممن دخلوا في النصرانيـة بتأثير الحبش من ساسة واداريين ومبشرين ، فاستعملوا المصطلحات الدينية التي كان يستعملها الأحباش ، لعدم وجود ما يقابلها عندهم في لهجاتهم لوثنيتهم . ولكني مع ذلك لا أستطيع أن أقول إن تلك المصطلحات كانت كلها حبشية الأصل والأرومة : لأن الكثير منها لم يكن حبشياً في المنشأ والموطن ، وإنما كان دخيلاً مستورداً ، جاءت به النصرانيـة من لغة بني إرم ، أو من اللغات الأخرى

(١) البلدان (٧/١٥٦) « القليس » .
(٢) Ency., II, P. 144, Raccolta, III, P. 127.

التنصرة ، فأدخلتها الى الحبشة ، فاستعملها الأحباش ، وحرفوا بعضها على وفق لسانهم ، ومنهم انتقلت بالفتوح وبالاتصال الى اليمن .

وقد أشار علماء اللغة المسلمون والمستشرقون الى عدد من الألفاظ العربية ، ذكروا أنها من أصل حبشي ، وهي من الألفاظ التي كانت مستعملة معروفة قبل الإسلام ، وقد ورد بعضها في القرآن الكريم وفى الشعر المنسوب الى الجاهليين . ومثل هذه الألفاظ تستحق أن تكون موضع درس وتمحيص ، لمعرفة صحة أصلها ونسبها ودرجة أرومتها فى الحبشية ، لمعرفة أثر الأحباش فى العرب ، وأثر العرب فى الأحباش ؛ لأن بعض ما نسب الى الأحباش من كلم هو من أصل عربي جنوبي ، هاجر من اليمن بطرق متعددة الى إفريقية ، واستعمل هناك ، ثم ظن أنه حبشي الأصل ، وأن العرب أخذوه من الأحباش .

وقد كانت نجران المركز الرئيس للنصرانية فى اليمن عند ظهور الإسلام ، لها نظام سياسي واداري خاص تخضع له ، وعليها : « العاقب » وهو كما يقول أهل السير : « أمير القوم ، وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ، والذي لايصدرون إلاّ عن رأيه » ؛ و« السيّدُ » وهو « ثمالهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم » ؛ و« الأسقف » ، وهو « حبرهم ، وإمامهم ، وصاحب مدراسهم » [1] ، ويقصدون به رئيس نجران الديني الذي اليه يرجعون فى أمور الدين . أما العاقب والسيد ، فإليهما ادارة الجماعة ، والإشراف على شؤونهم السياسية

---

(۱) ابن هشام (٢/٢٠٤) . « وفد نجران » ، « العاقب السيد . وقيل : دون السيد . وقيل : الذي يخلف السيد » ، تاج العروس (١/٣٨٩) ، « الأسقف ... عن ابن السكيت ، وهو اعجمي تكلمت به العرب » تاج العروس (٦/١٤١) ، « والأسقف : رئيس النصارى في الدين ، أعجمي تكلمت به العرب .... والجمع أساقف وأساقفة . وفي التهذيب والأسقف رأس من رؤوس النصارى . وفي حديث أبي سفيان ، وهرقل اسقفه على نصارى الشام أي جعله أسقفاً عليهم . وهو العالم الرئيس من علماء النصارى . وهو اسم سرياني . » ، لسان العرب (١١/٥٧) .

والمالية ، وتدبير ما يحتاج المجتمع اليه من بقية الشؤون [(١)] .

ويذكر أهل السير أن اسم عاقب نجران في أيام النبي ، هو « عبد المسيح » . وقد قدم على رأس وفد من أهل المدينة الى يثرب ، فقابل الرسول ، وتحدث معه . وكان معه « الأيهم » وهو سيد نجران يومئذ ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل ، وكان أسقفهم وحبرهم وامامهم يومئذ ، وله مقام عظيم عندهم ، « وقد شرف فيهم ، ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه وموّلوه ، وأخدموه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه » [(٢)] . ويظهر من هذا الخبر أن قياصرة الروم كانوا على اتصال بنصارى اليمن ، وأنهم كانوا يساعدون أساقفتهم ويعولونهم ، ويرسلون اليهم العطايا والهبات . وقد أمدوهم بالبنائين والفَعَلة وبالمواد الضرورية اللازمة لبناء الكنائس في نجران وفي غيرها من مواضع اليمن . وقد كان من مصلحة الروم مساعدة النصرانية في اليمن ، وانتشارها ، لأن في ذلك كسباً عظيماً لهم . فبانتشارها يستطيعون تحقيق ما عجز عنه « أوليوس غالوس » حينما كلفه انبراطور روما اقتحام العربية السعيدة لفتح البلاد والاستيلاء عليها . أو لكسب أصدقاء جدد بهذا الاستيلاء على الأقل . والسيطرة على اليمن أو التحالف مع حكامها ، تعني السيطرة على العربية الغربية والعربية الجنوبية وعلى البحر الأحمر والسواحل المقابلة

---

(١) Raccolta, III, P. 128.

(٢) ابن هشام (٣/٢٠٤) ، « وفد نجران » ، « والعاقب الذي دون السيد . وقيل الذي يخلفه . وفي الحديث : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران السيد والعاقب . فالعاقب من يخلف السيد بعده . والعاقب والعقوب الذي يخلف من كان قبله في الخير . والعاقب الآخر . وقيل السيد والعاقب هما من رؤسائهم وأصحاب مراتبهم . والعاقب يتلو السيد . وفي الحديث : أنا العاقب أي آخر الرسل . » ، لسان العرب (٢/١٠٥) ، تاج العروس (١/٣٨٩) .

Raccolta, III, P. 128, Lammens, le Califat de yazid, P. 342.

لها ، والانفرادَ بالهيمنة على الممر المائي العظيم البحر الأحمر وعلى رقبته باب المندب ، وهو طريق مائي مهيمن على تجارة القارتين القديمتين .

وقد اشتهرت نجران بمعبدها الذي عرف بـ « كعبة نجران » ، وكان يشرف عليه « الأساقفة » من « بني عبد المدّان » ، وهم الذين بنوا هذه الكعبة وأنشؤوها . وقد عرفت بـ « البيعة » أيضاً . وفي رواية تنسب الى ابن الكلبي « أنها كانت قبة من أدم من ثلاث مئة جلد ، كان إذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفد أرفد . وكان لعظمتها عندهم يسمونها كعبة نجران ، وكانت على نهر نجران ، وكانت لعبد المسيح ابن دارس بن عدي بن معقل ، وكان يستغل من ذلك النهر عشرة آلاف دينار ، وكانت القبة تستغرقها »[1] .

وفي رواية أن قُسّ بن ساعدة الإيادي كان أسقفاً على نجران[2] ، وهي رواية تحتاج الى سند موثوق به ، وقد أخذ بها شيخو وأمثاله ممن يرجع كل شيء في الجاهلية الى النصرانية .

وقد كانت نجران من الأماكن المهمة للتجارة ، وقد اشتهر سوقها قبل الإسلام ، فكان في جملة الأسواق المشهورة المعروفة المقصودة ، يقصدها أهل الوبر وتجار أهل الحضر من

---

(١) « وفيها يقول الأعشى :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها
تزور يزيداً وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها »

البلدان (١٩٣/٨) « نجران » ، ديوان الأعشى (ص ١٢٢) ، « طبعة كاير Geyer » ، ابن قتيبة ، الشعراء (٢٨٣) ، « والكعبة : الغرفة . قال ابن سيدة : أراه لتربعها أيضاً . وكل بيت مربع ، فهو عند العرب كعبة . » ، تاج العروس (٤٥٧/١) ، « قال ياقوت : وكعبة نجران هذه بيعة بناها عبد المدان بن الريان الحارثي على بناء الكعبة ، وعظموها . وكان فيها أساقفة مقيمون » ، تاج العروس (٥٥٦/٣) ، Raccolta, III, P. 127

(٢) Raccolta, III, P. 128, Lammens, Le Califat, P. 332.

مختلف الأنحاء للاتجار ومقايضة البضائع . وقد كان كسرى وتجار الحيرة يرسلون بقوافلهم اليها محملة بصادرات العراق وفارس والروم ، لبيعها هناك وشراء ما يحتاجون اليه من أموال إفريقية وأهل اليمن والعربية الجنوبية . ومع هذه القوافل انتقلت جرثومة النسطورية الى اليمن [1] .

وقد صالح أهل نجران خالد بن الوليد ، في زمن النبي ، في السنة العاشرة من الهجرة وبذلك دخل أكثر سكان المدينة في الإسلام . أما من بقي على دينه من اليهود والنصارى، فقد فرضت عليهم الجزية [2] .

ويرى بعض أهل الأخبار أنْ « السيد والعاقب أسقفّيْ نجران اللذين أرادا مباهلة رسول الله » [3] هما من ولد الأفعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن الحارث الجرهمي ، الذي حكم بين بني نزار بن معدّ في ميراثهم ، وكان منزله بنجران [4] .

وقد وردت في صحيفة الصلح ، التي أمر الرسول بكتابتها لوفد نجران ، هذه العبارة : « لا يفتن أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا وافه من وفاهيته » [5] « واقه من وقاهيته » [6] . ويدل ورود كلمة « واقه » بعد الأسقف والراهب أنها أيضاً

---

(١) المشرق : السنة الخامسة والثلاثون . كانون الثاني وآذار ١٩٣٧ (ص ٨٦) .

(٢) الطبري (٣/١٥٧) « حوادث السنة العاشرة » ، البلدان (٨/٢٦١ وما بعدها) .

(٣) المحبر (ص ١٣٢) . (٤) المصدر نفسه .

(٥) « ويروي واهف ، وسيجيء . وبعضهم يرويه بالقاف ، والصواب الفاء » ، النهاية في غريب الحديث (٤/٢٣٧) .

(٦) البلاذري : فتوح البلدان (ص ٧٢) « صلح نجران » ، اللسان (١٧/٤٥٩) ، « الوافه : قيم البيعة التي فيها صليبهم بلغة أهل الجزيرة . كذا بخط أبي سهل في نسخة الصحاح ، ومثله في التهذيب . وبخط أبي زكريا : بلغة أهل الحيرة كالواهف . ووظيفته الوفاهة بالكسر ، ورتبته الوفهية بالفتح . وفي بعض نسخ الصحاح بالضم . » ، تاج العروس (٩/٤٢١) ، النهاية (٤/٢٣٧) ، الفائق (٢/٣١٧) ، Raccolta, III, P. 128. f.

من المصطلحات الدينية عند نصارى اليمن . وذكر علماء اللغة أن « الوافه القيم على البيت الذي فيه صليب النصارى بلغة أهل الجزيرة »[1] .

وقد كان لرجال الدين منهم كتب يتدارسونها ، لم يذكر أهل السير لغتها ولا كيفية تدارس رجال الدين لها : أبلهجتهم ، أي بلهجة أهل نجران ، أم باللهجات المحلية الأخرى ، أم بلغة بني إرم ، أم باللغات الأخرى ؟ وإذ كان لا بد لرجال الدين النصارى من دراسة السريانية واليونانية والعبرانية فى بعض الأحيان ، لفهم العهدين القديم والجديد ، فيمكن أن نتصور أن رجال الدين النصارى فى العربية عند ظهور الإسلام كلهم أو بعضهم على الأقل كانوا يتدارسون كتب العلم باللغات الأجنبية للوقوف عليها ولتكوين علمهم منها .

وهناك قضية أخرى تخص هذا الموضوع ، هى لغة التعبد عند النصارى العرب الجاهليين : أكانت السريانية يعيدها المصلون ويقرؤونها دون أن يفهموا شيئاً منها ، أم كان يصلي بها الرهبان وحدهم وهم سكوت صامتون ، أو كانوا يعيدون ما يتلفظ به أولئك الرهبان ؟ أما الوعظ ، وخطب الصلوات والأدعية ، فلا يشترط أن تكون بلغة الكنيسة الرسمية المحتمة فى ذلك العهد . ولهذا كانت بلهجات غالبية المصلين .

---

(١) « في كتاب نجران : « وأن لا يغير واقه عن وقهيته . هكذا يروي بالقاف . وإنما هو بالفاء » النهاية فى غريب الحديث (٤/٢٤٠) « وقه » ، « وروى الأزهري عن عمرو بن دينار . قال : في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران : لا يحرك راهب عن رهبانيته ولا واقه عن وقاهيته ولا اسقف عن أسقفيته . شهد أبو سفيان بن حرب والأقرع بن حابس . قال الأزهري : هكذا رواه لنا أبو زيد بالقاف والصواب وافه عن وفهيته . كذلك قال ابن بزرج بالفاء . ورواه ابن الأعرابي واهف وكأنه مقلوب » ، اللسان (١٧/٤٥٩) ، « الواقه بالقاف مثل الوافه بالفاء هكذا جاء في رواية عمرو بن دينار في كتاب أهل نجران : ولا واقه عن وقاهيته شهد أبوسفيان بن حرب والأقرع بن حابس . قال الأزهري والصواب وافه عن وفهيته . وهكذا ضبطه ابن بزرج بالفاء . ورواه ابن الأعراب واهف وكأنه مقلوب » ، تاج العروس (٩/٤٢١) .

ولم تترك النصرانية أثراً مكتوباً عنها ، لا في نجران ولا في المواضع الأخرى من اليمن ، ولعل الأيام تكشف لنا في المستقبل القريب عن كتابات كنيسية أو ما شابهها من الكتابات التي لها صلات وعلاقات بالنصرانية ، لنتمكن بواسطتها من تكوين فكرة عن نصارى اليمن وعن عقائدهم وأمثال ذلك ، ولا سيما في الحقبة المتصلة بالإسلام ، وهي مهمة جداً لمعرفة أحوال جزيرة العرب عند ظهور الإسلام .

هذا هو كل ما أعرفه عن النصرانية في العربية الجنوبية الغربية ، وهي معرفة يجب أن أعترف أنها قليلة بسيطة . ولكن ، ما ذا أفعل وقد بخل التأريخ بخلاً شديداً فلم يقدم الينا إلا ما ذكرته من هذا النزر اليسير ؟ وأملي الوحيد منوط بالمستقبل ، فلعله يجود فيقدم الى المتعطشين الى معرفة تأريخ العرب قبل الإسلام شيئاً يفيدهم في هذا الباب .

أما بقية العربية الجنوبية ، فقد كان فيها مثل سائر سواحل جزيرة العرب نفر من النصارى وصلوا اليها مع السفن في الغالب ؛ إذ كان الروم بعد الميلاد يركبون البحر الأحمر والمحيط الهندي التماساً للتجارة ، ويضطرون الى النزول في الموانىء طلباً للراحة والماء والغذاء . ومنهم من كان يقيم فيها ويقضي حياته بها ، ومنهم أخذ قسم من نصارى العربية الجنوبية هذه الديانة ولا شك . ولعل الانبراطورية البيزنطية نفسها كانت ترسل قسيسيها ورهبانها الى هذه المواضع للتبشير . وقد وردت أسماء جملة قسيسين في الوثائق الكنيسية وفي كتب التواريخ الدينية كانوا في العربية الجنوبية قبل ظهور الإسلام . كذلك كان للحيرة أثر في تنصر بعض نصارى العرب في هذه الأنحاء [١] . وبعد دخول هذه البلاد في الإسلام ، حافظ جماعة من أهل الذمة منهم على دينهم ، في مقابل دفع الجزية للمسلمين [٢] .

أما عن النصرانية في الحجاز عند ظهور الإسلام ، فإن عمادنا فيما نذكره عنها هو ما ورد في كتب التفسير والحديث والسير ، ليس لنا موارد سواها تتحدث عن النصرانية

---

(١) النصرانية (ص ٧٠) . (٢) البلاذري (ص ٨٤) .

فى هذه الأرضين .

يتبين من دراسة هذه الموارد أن من بين سكّان مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء النازحين اليها ، لأسبابٍ ، منها : الرق ، والاتجار ، والتبشير ، والحرفة . فأما الرقيق ، فمنهم الأسود والأبيض : الأسود من إفريقية ، والأبيض من أوربة ، أو من أقطار الشرق الأدنى ، وهم أعلى فى المنزلة وفى السعر من النوع الأول ، وهم بحكم قانون ذلك العهد وعرفه تبع لسادتهم وفى ملك يمينهم ، يقومون بالأعمال التي توكل اليهم ، ليس لهم التصرف إلا بأمرهم ، فهم فى الواقع بضاعة يتصرف بها صاحبها كيف يشاء ، ليس لها صوت ولا رأي إن أبق المملوك قتل ، أو أنزل به العقاب الذي يراه ويختاره صاحبه ومالكه .

وبين الرقيق الأبيض خاصة نفر كانوا على درجة من الفهم والمعرفة ، يعرفون القراءة والكتابة ، ولهم اطلاع فى شؤون دينهم ومعارف ذلك العهد . ولهذا أوكل اليهم القيام بالأعمال التي تحتاج إلى مهارة وخبرة وذكاء . وقد كان حالهم لذلك أحسن من حال غيرهم من الأرقاء . ومنهم من كان يشرح لسادتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم ، ويقصون عليهم ما حفظوه ووعوه من أخبار الماضين وقصص الراحلين ، وأكثرهم ممن كانت ألسنتهم لم تتروض بعد على النطق بالعربية ، فكانوا يرطنون بها ، أو يتلعثمون ، ومنهم من كان لا يعرف شيئاً منها ، أو لا يعرف منها إلا القليل من الكلمات .

ومن هؤلاء رجل نصراني كان بمكة قيل إن أسمه سلمان أو يسار أو جبر أو يعيش أو بلعام ، أدّعى أهل مكة أنه كان هو الذي يلقن الرسول ما كان يقوله للناس من رسالته ، وأنه هو الذي كان يعلمه . وقد أشير الى قول قريش هذا فى الآية : « ولقد نَعْلَمُ أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »[1] .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٠٣ .

ومن روى من المفسرين أن اسمه جبر ، قال : إنه كان غلاماً لعامر بن الحضرمي ، وأنه كان قد قرأ التوراة والانجيل ، وكان الرسول يجلس اليه [1] . ومن هؤلاء من زعم أنه كان قيناً لبني الحضرمي ، وأنه كان قد جمع الكتب ، وهو رومي ، فكان رسول الله يأتي اليه ويجتمع به ، فكان المشركون يقولون إنه يتعلم من هذا الرومي ! وذكر بعض الرواة أن آل الحضرمي كانوا يملكون عبدين ، هما : جبر ويسار ، فكانا يقرآن التوراة والكتب بلسانهما ، فكان الرسول يمر عليهما فيقوم يستمع منهما [2] . وقيل انهما كانا من أهل عين التمر ، وانهما كانا يصنعان السيوف بمكة ، وكانا يقرآن التوراة والانجيل ، فربما مرّ بهما النبي ، وهما يقرآن فيقف ويستمع . وأما من قال إن اسمه يعيش ، فذكر أنه كان مولى لحويطب بن عبد العزّى [3] . ومهما اختلف المفسرون في اسم هذا الرجل فانهم اتفقوا على أنه كان أعجميّ الأصل ، نصرانياً ، يقرأ الكتب ، وانه كان بمكة نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية يقرأون ويكتبون [4] .

---

(١) روح المعاني (١٤/٢٣٣) .

(٢) تفسير الطبري (١٤/١١٩) « تفسير سورة النحل » ، « وكانوا يقولون : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام ابن الحضرمي » ، ابن هشام (١/٤٢٠) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » .

(٣) « يقول سبحانه : انا نعلم ان الكفار يقولون : ان القرآن ليس من عند الله وإنما يعلم النبي صلى الله عليه وسلم بشر . قال ابن عباس : قالت قريش : إنما يعلمه بلعام وكان قيناً بمكة رومياً نصرانياً . وقال الضحاك : أراد به سلمان الفارسي . قالوا : إنه يتعلم القصص منه . وقال مجاهد وقتادة : أرادوا به عبداً لبني الحضرمي روميا يقال له يعيش أوعائش صاحب كتاب . أسلم وحسن اسلامه . وقال عبد الله ابن مسلم : كان غلامان في الجاهلية نصرانيان من أهل عين التمر اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر كانا صيقلين يقرآن كتاباً لهما بلسانهم وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربما مر بهما واستمع لقراءتهما ، فقالوا إنما يتعلم منهما . » ، تفسير الطبرسي (المجلد الثالث ٣٨٦) . روح المعاني (١٤/٢٣٣) .

(٤) « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغني ، كثيراً ما يجلس عند المروة الى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر ، عبد لبني الحضرمي ، وكانوا يقولون : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، غلام الحضرمي . فأنزل الله عز وجل في ذلك قولهم : ولقد نعلم ... » ، ابن هشام (٢٦٠) .

والى هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص، أعني : يعيش ويقال عائش أو عداس مولى حويطب بن عبد العزّى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر، اشير في القرآن الكريم، في الآية : « وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون »(١). وقد ذكر المفسرون أن هؤلاء « كانوا كتابيين يقرؤون التوراة، أسلموا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعهدهم، فقيل ما قيل »(٢). وذكر بعض المفسرين أن المشركين كانوا يتهمون الرسول أنه كان يأخذ من اليهود، وأنهم هم المقصودون في هذه الآية، إذْ ذكر المشركون أنهم كانوا يعينون الرسول ويعلمونه، فما جاء به هو من هؤلاء(٣).

وعرفت أسماء جملة رجال ونساء من هذا الرقيق الذي جيء به الى مكة والى مواضع أخرى من جزيرة العرب. من هؤلاء نسطاس، ويقصد بذلك أنستاس، وكان من موالي صفوان بن امية. ومينا « ميناس »، و « يوحنا » عبد « صهيب الرومي »، وصهيب نفسه لم يكن عربياً، إنما كان من بلاد الشأم في الأصل، وهو رومي الأصل ولذلك قيل له « صهيب الرومي ». وكان قد جاء مكة فقيراً لا يملك شيئاً، فأقام بها، ثم اتصل بعبد الله بن جُدْعان الثري المعروف، وصار في خدمته، ولذلك قيل إنه كان مولى من موالي عبد الله بن جُدْعان. وفي روايةٍ أنه كان من النمر بن قاسط، سقط أسيراً في الروم فباعوه، فاُشتري منهم. وقد ورد في حديث : « صهيب سابق الروم »، فهذا يدل على أنه من أصل رومي. وهو من أوائل المسلمين، يذكر أنه حينما همّ بترك مكة والذهاب الى المدينة بعد هجرة الرسول اليها « قال له كفّار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك !! والله، لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب :

---

(١) الفرقان، الآية ٤.

(٢) تفسير روح المعاني (١٨/٢٣٤ وما بعدها)، مجمع البيان (٤/١٦١) « سورة الفرقان »،

(٣) تفسير الطبري (١٨/١٣٧ وما بعدها) « سورة الفرقان ».

(٤) ابن هشام (٢/٣٢٩) « من حضر بدراً من المسلمين من قريش ومن معهم ».

أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني جعلت لكم مالي »[1]، وترك قريشاً ليذهب الى الرسول .

وكان لبني مخزوم الأثرياء جملة جوارٍ يونانيات ، كما كان لدى العباس عم النبي جوار يونانيات ، وأشير الى وجود جوار فارسيات . وكان هذا الرقيق الأبيض ذكوراً وإناثاً من جنسيات متعددة ، منهم من كان من أصل رومي ، ومنهم من كان من عنصر أوربي آخر ، ومنهم من كان من الفرس أو من أهل العراق مثل نينوى وعين التمر ، ومنهم من كان من بلاد الشأم أو من أقباط مصر[2] .

وقد كانت فى مكة عند ظهور الاسلام جالية كبيرة كثيرة العدد من العبيد ، عرفوا بـ « الأحابيش » . وبين هؤلاء عدد كبير من النصارى ، استوردوا للخدمة وللقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة . وقد ترك هؤلاء الأحابيش أثراً في لغة أهل مكة ، يظهر فى وجود عدد من الكلمات الحبشية فيها ، في مثل المصطلحات الدينية والأدوات التي يحتاج اليها فى الصناعات وفى الأعمال اليدوية التي يقوم بأدائها العبيد . وقد أشار العلماء الى عدد من هذه الكلمات ذكروا أنها تعربت ، فصارت من الكلام العربي . وقد أشاروا الى ورود بعضها فى القرآن الكريم وفى الحديث[3] .

ويشير أهل الأخبار الى ورود بعض الرهبان والشمامسة الى مكة . وقد كان من بينهم من يقوم بالتطبيب . وقد رأينا سابقاً كيف أن بعض القسيسين كانوا يقصدون سادات القبائل ، ويقومون بتطبيبهم وبالتأثير عليهم بقراءة بعض الأدعية والتعاويذ لإنقاذهم أو لانقاذ آلهم من بعض الأمراض ولحل بعض مشكلاتهم مثل التوسل الى الله لإعطائهم

---

(١) ابن هشام (٢/٨٩) .

(٢) المشرق : السنة الخامسة والثلاثون ١٩٣٧ (ص ٨٨ وما بعدها) .

(٣) « فقال : يا أم خالد ، هذا سناه . وسناه بالحبشية حسنة » ، أسد الغابة (٥/٥٧٩) ، المعرب (ص ٢٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٥٢) ، صحيح مسلم (٢/١٨٩) .

ولداً ذكراً . وهؤلاء الذين كانوا يقصدون مكة من رجال الدين النصارى ، كانوا يقصدونها للتبشير ولا شك ، يتصلون بأهلها وبمن كان يقصدها في موسم الحج ، لإدخالهم في النصرانية . وقد ذكر الأخباريون أن شماساً كان قد قصد مكة ، فعجب الناس به ، وقد سموا أحدهم به ، هو عثمان بن الشّريد بن سويد بن هرمي بن عامر بن مخزوم ، فقالوا له : « شماس »[1] .

وقد كان لأهل الحيرة أثر في بعض أهل مكة في الناحية الدينية والثقافية ، فقد كان تجار مكة بحكم اتجارهم مع الحيرة على اتصال بهم . وبهذا الاتصال دخل بعض أهل مكة في النصرانية ، وتعرف عليها ، كما جاء الى مكة نفر منهم كانوا على هذا الدين . ومنهم تعلم بعض أهل مكة القصصَ والأساطير ، وإنْ كانوا على الوثنية . ومن هؤلاء ، النضر بن الحارث بن كلدة ، ذكروا أنه كان « من شياطين قريش . وكان يؤذي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وينصب له المداوة . وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك فارس وأحاديث رستم وأسفنديار ، فكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إذا جلس مجلساً فذكّر بالله ، وحدث قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم يقول : أنا والله ، يا معشر قريش ، أحسن حديثاً منه ، فهلموا فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار . ثم يقول : ما محمد أحسن حديثاً مني »[2] . فمن الحيرة جاء النضر بهذا القصص وبتلك الأساطير .

وقد نعت الأخباريون أمثال النضر بن الحارث بالزندقة ، وقالوا عنهم « إنهم زنادقة قريش ، تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة » . ولم يشر أهل الأخبار الى معنى زندقة هؤلاء : أكانوا على النصرانية ، أي على دين نصارى الحيرة ، أم كانوا على رأي آخر لا هو وثني

(١) ابن هشام (٢/٣٢٩) « من حضر بدراً من بني مخزوم » ، المشرق : السنة الخامسة والثلاثون ، ١٩٣٧ (ص ٩٠ وما بعدها) .

(٢) تفسير الطبري (١٨/١٣٧) « سورة الفرقان » .

ولا هو نصراني ، بل هو شك وعدم ايمان بشيء ما من الأديان المعروفة . نعم ، لم يذكر أحد من الأخباريين أن أولئك الزنادقة كانوا على النصرانية ، ولا توجد لدينا اشارة ما تؤيد هذا الرأي . وهؤلاء الزنادقة ، هم : أبو سفيان بن حرب ، وعقبة بن أبي معيط ، وأبيّ بن خلف الجُمَحي ، والنضر بن الحارث بن كلدة الذي تحدثت عنه ، ومنبه ونبيه أبنا الحجاج السهميان ، والعاص بن وائل السهمي ، والوليد بن المغيرة المخزومي . وقد كانوا أشداء قساة فى مقاومة الرسول والإسلام ، لم يُسْلِمْ منهم غير أبي سفيان[1] . وقد قتل أكثرهم فى صراعهم العنيف للاسلام .

ومِنْ بين مَنْ نسب الى النصرانية من أهل مكة ، عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العُزّى . والظاهر أنه كان على اتصال بالروم ، فقد ورد فى بعض الأخبار أنه قدم على قيصر ، فتنصر ، وحسنت منزلته عنده[2] ؛ وأن قيصر ملّكه على مكة . ومنحه براءة بذلك ، وأعترف به[3] . ولكنّ من الصعب تصور بلوغ نفوذ القيصر هذا الحدّ من جزيرة العرب ، فلم يتجاوز نفوذ الروم الفعلي في وقتٍ ما من الأوقات أعالي الحجاز ، ولم يرد فى الأخبار ما يؤيد هذه الرواية . ولكنّ ذلك لا يمنع من حصول عثمان أو غير عثمان على براءات وأوراق اعتراف من الروم بملك سيّد على قبيلة أو أرض ليس للروم عليها سلطان . فقد كان حصول المشايخ والأمراء على أمثال هذه الأوراق وبراءات الاعتراف نوعاً من أنواع التقدير والاحترام فى نظرهم ، يكسب حاملها قوة معنوية ، ثم هي تجعله فى جملة أصدقاء الروم وحلفائهم والحائزين على تقديرهم ومنحهم . وقد كان الروم يشجعون هذا النوع من التودد السياسي لكسب العرب وجرّهم الى جانبهم ، إذْ به يتمكنون من بسط نفوذهم على

---

(١) المحبر (ص ١٦١) ، الأغاني (١/٩) « خبر أبي قطيفة ونسبه » .

(٢) ابن هشام (١/٢٤٣) « عثمان بن الحويرث » ، الأغاني (١٣/١٢٢) ، المشرق : السنة الخامسة والثلاثون ١٩٣٧ (ص ٢٧٠ وما بعدها) .

(٣) المحبر (ص ١٧١) .

القبائل ومن محاربة أعدائهم الفرس .

وعدّ ورقة بن نوفل في جملة المتنصرين في بعض الروايات [١] ، فقد ذكر أنه « تنصر واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ، ومات عليها » [٢]. ونسب اليه شعر ذكر أنه قاله في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وفيه اشارة الى النار والى الثواب والعقاب بعد الموت والى فكرة التوحيد والايمان برب ليس رب كمثله والى التنديد بالأوثان [٣]. وهو ابن عمّ خديجة الكبرى زوج الرسول . وقد أشير اليه في خبر « مجيء جبريل الى النبي في حراء » ، وله كلام مع الرسول على ما ورد في بعض الروايات [٤]. وفي بعض الروايات أنه « كان يكتب الكتاب العربي ، فكتب بالعربية من الانجيل ما شاء أن يكتب » [٥].

وقد تزوج بعض قريش ، وغير قريش في الجاهلية وفي الإسلام من نصرانيات ، فكانت أم الحارث بن عبد الله المعروف بالقباع نصرانية ، فلما ماتت وأريد غسلها لدفنها في عهد عمر بن الخطاب ، وجد الصليب في عنقها . فلما علم بذلك ، ترك أمر دفنها الى أهل دينها ليقوموا بذلك بحسب أحكام دينهم [٦].

وقد استدلّ شيخو من الخبر المروي عن الصور التي قيل إنها صور الرسل والأنبياء وبينها صورة المسيح ومريم ، والتي ذكر أنهـا كانت مرسومة على جدران الكعبة ، على أنها هي الدليل على أثر النصرانية في مكة . أستدل على فكرته هذه بخبر خلاصته أن الرسول حينما أمر فطمست تلك الصور ، استثنى منها صورة عيسى وامه مريم ، وبخبر ثان ورد عن

---

(١) اليعقوبي (٢٩٨/١) « طبعة ليدن » .

(٢) المحبر (ص ١٧١) ، شيخو : النصرانية (١١٨/١) ، « وأما ورقة بن نوفل ، فاستحكم في النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها ، حتى علم علماً من أهل الكتاب » ، ابن هشام (٢٤٣/١) « وكان ورقة قد تنصر ، وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والانجيل » ، ابن هشام (٢٥٦/١) .

(٣) سيرة ابن هشام (٢٥٠/١) ، المشرق : السنة الخامسة والثلاثون ، ١٩٣٧ (ص٢٧٢) .

(٤) ابن هشام (٢٥٤/١ وما بعدها) . (٥) النصرانية (١١٩/١) .

(٦) الأغاني (٣٠/١) « ذكر خبر عمر بن أبي ربيعة ونسبه » .

تمثال لمريم مزوّق بالحلي وفى حجرها عيسى ، باد فى الحريق الذي شب فى عصر ابن الزبير ، وبخبر ثالث عن امرأة من غسّان قيل إنها « حجت فى حاج العرب ، فلما رأت صورة مريم فى الكعبة ، قالت : بأبي أنتِ وأمي : إنك لعربية . فأمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمحو تلك الصور ، إلا ما كان من صورة عيسى ومريم »(١) .

وخبر الصور والتماثيل فى الكعبة ، لايدل على أثر النصرانية فى أهل مكة حتماً . فقد تعبد الجاهليون كما رأينا للأصنام والأوثان ، وعبدة الأوثان عموماً يجهدون أنفسهم لجعل أصنامهم على هيأة أجسام ، وأجساد بشر على الأخص . ولما كان أهل الشام قد حذقوا صناعة النحت حتى في النصرانية التي حولت أصنام الوثنية الى أصنام نصرانية ترمز عن المسيح وأمه وعن الملائكة والأنبياء والقديسين وأمثال ذلك ، ولما كان للجاهليين اتصال وثيق بالشأم وبأسواقها ، وقد رأوا فى كنائسها من أصنام جميلة وصور كانت تزين الكنائس والبيع ، ولم يكن لديهم من يجاريهم في هذه الصناعة ، فقد أستوردوا منها بعض الأصنام فوضعوها فى الكعبة وفى غير الكعبة من معابد ، وتقربوا اليها لا على أنهـا بالصورة التي تصورها النصارى ، بل على أنها أوثان وأصنام خاصة بهم ، وعلى نحو ما كانوا ينظرون اليها ويعتقدون . وقد رأينا أن أهل مكة كانوا قد استعانوا على بناء البيت ، فى أيام طفولة النبي ، بفعلة من الروم قيل إنهم حصلوا عليهم من سفينة تحطمت على ساحل البحر ، فلا يستبعد أن يكون هؤلاء ، وهم نصارى ، أو غيرهم من الفعلة النصارى الساكنين بمكة للارتزاق ، أو لأنهم موالي ، هم الذين رسموا تلك الصور ، أو صنعوا تلك الأصنام لأهل مكة ، صنعوها لهم ورسموها فى الكعبة على نحو عقيدتهم . أما أهل مكة ، فقد نظروا اليها على أنها تمثل عقيدتهم هم ، فأحترموها ، وتقربوا اليها على وَفْقِ عقيدتهم فى الأصنام والأوثان .

وكان فى الطائف نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية ، لم يتعرض سادتهم

(١) النصرانية (ص ١١٧) .

كسائر رجال الأماكن الأخرى من الحجاز لدينهم ، فتركوهم على دينهم يقيمون شعائرهم الدينية على نحو ما يشاؤون . من هؤلاء عدّاس ، وكان من أهل نينوى ، أوقعه حظه فى الأسر ، فبيع فى سوق الرقيق ، وجيء به الى الطائف فصار مملوكاً لعتبة وشيبة ابنَي ربيعة . وعند مجيء الرسول الى الطائف عارضاً نفسه على ثقيف أهلها ، كان هو فى جملة من تكلم اليه [١] . ومنهم الأزرق ، ذكر أنه كان عبداً رومياً حداداً ، وأنه هو أبو نافع الأزرق الخارجي الذي ينتمي اليه الأزارقة . وهناك روايات تنفي وجود صلة لهذا الأزرق بالأزرق والدِ نافع المذكور [٢] .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً يستحق الذكر عن النصرانية فى يثرب . وقد أشار القرآن الكريم فى مواضع عديدة من الآيات المدنية الى النصارى ، غير أن تلك الإشارات عامّة فى طبيعة المسيح وفى النصرانية نفسها لا في نصارى يثرب وفى صِلاتهم بالإسلام . ثم إن أهل السير لم يشيروا الى تصادم وقع بين النصارى والمسلمين ولا الى مقاومة نصارى يثرب للرسول كالذي وقع بين يهود يثرب والرسول ، مما يدل على أن النصرانية لم تكن قوية فى المدينة ، وأن جاليتها لم تكن كثيرة العدد فيها . غير أن هذا لايعني عدم وجود النصارى فى هذا الموضع الزراعي المهم من الحجاز [٣] . فكما كان فى مكة رقيق وموالي يقومون بخدمة ساداتهم ، كذلك كان فى المدينة نفر منهم أيضاً يقومون بمختلف الأعمال التي يعهد أصحابهم اليهم القيام بها . ولا بد أن تكون لهذه الطبقة من البشر مكانة فى هذه المدينة ، وفى أي موضع آخر من جزيرة العرب . فقد كانت هذه الطبقة عموداً خطيراً من الأعمدة التي يقوم عليها بنيان الاقتصاد البشري فى ذلك العهد ، فهي بالنسبة لذلك العهد

---

(١) ابن هشام (٢/٣٠) « خروج النبي الى ثقيف بالطائف » ، « كان مولى شيبة بن ربيعة ابن عبد شمس ، من أهل نينوى الموصل ، كان نصرانياً » ، النصرانية (ص ٤٥٢) ، أسد الغابة (٣/٢٨٩) .

(٢) البلاذري (ص ٦٢) .

(٣) السنن الكبرى (٩/١٨٢ وما بعدها) .

الآلات المنتجة والمعامل المهمة لأصحاب الأموال وللسادة الأثرياء ، تؤدي ما يطلب منها القيام به وما يراد منها إنتاجه بأجور زهيدة وبدقة ومهارة لا تتوفر عند الأحرار من العرب . ثم إن الأحرار مهما بلغ حالهم من الفقر والفاقة كانوا يأنفون من الأعمال الحِرْفية ونحوها مما يوكل الى هذه الطبقة القيام به ، لأنها فى نظرهم من المهن المنحطة التي لا تليق بالرجل الحرّ مهما كان عليه من فقر وبؤس ، ولهذا كان لابد من الاستعانة بالموالي والرقيق للقيام بأكثر متطلبات حياة الإنسان .

وقد أشار أهل السير الى مناقشات دينية وجدل وقع بين أحبار اليهود ورهبان النصارى فى يثرب وفى حضرة الرسول ، غير أن المجادلين النصارى لم يكونوا ، كما يفهم من روايات وأخبار أهل السير ، من أهل المدينة ، وإنما كانوا من أهل اليمن من نجران ، وردوا على الرسول حينما سمعوا بخبره ورأوا انتشار أمر الإسلام بين العرب ، فأرادوا الوقوف على هذه الحركة الدينية التي سمعوا بها ، وعند حضورهم أمام الرسول تباهلوا مع من كان فى يثرب من أحبار يهود فى مسائل دينية أشار اليها أهل السير والأخبار .

ويفهم من بيت للشاعر حسان بن ثابت فى قصيدة رثى بها النبي ، وهو :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى فى الضريح الملحد [1]

أنه كان فى يثرب نفر من النصارى كما كان بها قوم من يهود . وذكر أن النصارى كانوا يسكنون فى يثرب فى موضع يقال له : سوق النبط [2] .

ولعل هذه السوق هي الموضع الذي كان ينزل فيه نبط الشام الذين كانوا يقصدون المدينة للاتجار فى الحبوب [3] ، فصارت موضعاً لسكنى هؤلاء النصارى ، ونسب اليهم . وقد ورد أن عمر بن الخطاب أُستعمل أبا زبيد الشاعر النصراني على صدقات قومه ، وأن أبا زبيد هذا كان مقرباً من الخليفة عثمان بن عفّان من بعد [4] .

---

(١) ديوان حسان (ص ٥٩) « تحقيق هرشفلد » .

(٢) Nallino, Raccolta, III, P. 140

(٣) البخاري (٣/٤١ وما بعدها) ، النصرانية (ص ٤٤٩) . (٤) النصرانية (ص٤٤٩).

وكان فى وادي القرى نفر من الرهبان ، كما ورد ذلك فى شعر جعفر بن سراقة أحد بني قرة ، وهو :

فريقان : رهبان بأسفل ذي القرى ، وبالشأم عرافون فيمن تنصرا [1]

ولكن جل سكّان هذا الموضع كانوا فى أيام الرسول من اليهود ، وقد فتح الرسول بلادهم بعد منصرفه من خيبر بعد قتالهم له ، ثم أجلوا عن الوادي فى أيام عمر [2].

ولم يكن فى جزيرة العرب عند ظهور الإسلام موضع حاكمه من النصارى الا دومة الجندل وأيلة واليمامة . أما دومة الجندل ، فكان صاحبها وحاكمها أكيدر بن عبد الملك الكندي ثم السكوني . فبعث الرسول خالد بن الوليد اليه يطلب منه الدخول فى الإسلام ، أو اداء الجزية . فأخذه خالد أسيراً ، وقتل أخاه حسان ، وجاء به الى الرسول فأسلم . على رواية ، وصالحه الرسول على الجزية فى رواية أخرى . وقد نعت بـ « ملك » فى بعض الروايات [3]. ولم يكن أكيدر في الواقع الا أميراً على هذا الموضع ، استهواه هذا اللقب الضخم كما استهوى غيره من المشايخ فتلقب به .

ويظهر من روايات بعض الأخباريين أنه كانت هنالك صِلات قوية بين أهل الحيرة وبين أهل دومة الجندل ، حتى زعم بعضهم أن أصلهم من الحيرة ، وأنهم من « العباد » ، أي من النصارى . وزعم بعض آخر أن « أكيدر » وإخوته تركوا دومة الجندل في الإسلام ، وهاجروا الى العراق ، فسكنوا موضع « دومة » ، وأقاموا به [4]. وتدل كل هذه الروايات على وجود صلات قديمة بين أهل الحيرة وأهل دومة الجندل القديمة تمتد الى سنين عديدة قبل الإسلام . وقد كانت من المحطات التجارية المهمة فى جزيرة العرب قبل الإسلام ، منها تتجه القوافل التي تريد الاتجار مع العراق ، فتصل الى الحيرة مركز العرب

(١) الأغاني (٩٦/٧) « نسب جميل وأخباره » « تحقيق الشنقيطي » .
(٢) البلاذري (ص ٤١) « أمر وادي القرى وتيماء » .
(٣) الطبري (١٤٦/٣) « حوادث السنة التاسعة » ، البلاذري (ص ٦٨) ، السنن الكبرى (١٨٧/٩) .
(٤) البلاذري (ص ٦٩) .

الرئيس فيه .

أما « أيلة » ، فكان اسم صاحبها في أيام الرسول : « يحنه بن رؤبة » « يوحنا بن رؤبة » . وهو نصراني كما يدل اسمه عليه ، جاء الى تبوك في السنة التاسعة من الهجرة ، وكان الرسول بها ، فصالحه على الجزية وبقي في محله [1] . وقد دعاه المسعودي « اسقف أيلة » [2] . وورد فى محاضر بعض المجامع الدينية « أسقف أيلة والشراة » [3] .

وأما اليمامة ، فكان حاكمها عند بعثة النبي وهو بمكة لم يهاجر بعد « هوذة بن علي » ، وكان نصرانياً من بني حنيفة ، مقرباً من الفرس ، وكان اذا مر رسل كسرى مع اللطيمة التي يرسلها لبيعها فى اليمن فى أرضه يكرمهم ويحميهم ويحسن وفادتهم ، وهذا ما جعل كسرى يودّ لو يتصل به ويراه . ولما كان « يوم الصفقة » ، وهو اليوم الذي وقع بسبب ارسال باذان نائب كسرى أبرويز على اليمن حملاً الى كسرى ، وبلغ الحمل الى « نطاع » من أرض نجد ، أغارت تميم عليه وانتهبته وسلبت رسل كسرى وأساورته ، فجاء هؤلاء المسلوبون الى هوذة فأحسن اليهم وكساهم . ثم سار معهم الى كسرى ، « فلما قدم عليه أكرمه وأحسن اليه وجعل يحادثه لينظر عقله ، فرأى ما سرّه ، فأمر له بمال كثير ، وتوّجه بتاج من تيجانه ، وأقطعه أموالاً بهجر » . وأمره أن يغزو هو والمكعبر مع عساكر كسرى بني تميم . فساروا الى هجر ، ونزلوا بالمشقّر ، وخاف المكعبر وهوذة أن يدخلا بلاد تميم لأنها لا تحتملها العجم وأهلها بها ممتنعون . فبعثا رجالاً من بني تميم يدعونهم الى الميرة ، وكانت شديدة ، فأقبلوا على كل صعب وذلول ، فجعل المكعبر يدخلهم الحصن خمسة خمسة وعشرة عشرة وأقل وأكثر ، يدخلهم من باب على أن يخرجهم من آخر ، فكل من دخل ضرب

---

(١) البلاذري (ص ٦٦) ، السنن الكبرى (٩/١٨٥ وما بعدها) .

(٢) التنبيه والاشراف (ص ٢٧٢) ، النصرانية (ص ٤٤٨) .

(٣) النصرانية (ص ٤٤٨)

عنقه . فلما طال ذلك عليهم ورأوا أن الناس يدخلون ولا يخرجون ، بعثوا رجالاً يستعلمون الخبر . فشد رجل من عَبْس فضرب السلسـلة فقطعها وخرج من كان بالباب . فأمر المكعبر بإغلاق الباب وقتل من كان بالمدينة . وكان يوم الفصح ، فاستوهب هوذة منه مئة رجل وكساهم وأطلقهم »[1] لمناسبة ذلك اليوم . وقد عرف هذا اليوم بيوم الصفقة ، لإصفاق الباب أي اغلاقه ، وعرف بيوم المشقر كذلك .

وقد مدح الأعشى هوذة بقصيدة جميلة ، ذكر فيها هذا اليوم . وتوسطه لفك أسر مئة من بني تميم فى « يوم الفصح » ، وأشار الى لبسه التاج والى الأكاليل المؤلفة من الياقوت التي كانت تزينه [2].

وأما العربية الشرقية ، فقد دخلت النصرانية اليها من الشمال ، من العراق فى الغالب . ولكن بعض الروم كانوا قد وجدوا سبيلهم اليها ، فدخلوها . وكانت غالبية نصارى هذه الأرضين على مذهب نسطور آخذين هذا المذهب من نصارى الحيرة الذين كانوا على اتصال وثيق بهم ، كما كان رجال دينهم يسافرون الى هذه المنطقة للتبشير بها ، فزرعوا فيها بذور مذهبهم ، ونشروه بين من أقبل على النصرانية من العرب .

---

(١) ابن الأثير (١/٢٦٠) .

(٢) من يلق هوذة يسجد غير متئب ... إذا تعصب فوق التاج أو وضعا
له أكاليل بالياقوت زينها ... صواغها لا ترى عيباً ولا طبعا

. . .

سائل تميماً به ايام صفقتهم ... لما أتوه أسارى كلهم ضرعا
وسط المشقر في عيطاء مظلمة ... لا يستطيعون فيها ثم ممتنعا

. . .

ففك عن مئة منهم وثاقهم ... فأصبحوا كلهم من غله خلعا
بهم تقرب يوم الفصح ضاحية ... يرجو الإله بما سدى وما صنعا

ديوان الأعشى (ص ٨٦ وما بعدها) .

وقد ورد اسم قطر في بعض المجامع الكنيسية التي انعقدت في عهد غير بعيد عن الإسلام . وقد دعيت فيها بـ « قطرايا » . ورد مثلا في المجمع الذي عقده « الجاثليق يشو عياب » في سنة ٥٨٥ م ، للنظر في الشؤون الخاصة بنصارى الخليج ، ومنها وجوب ترك الأعمال في أيام الآحاد ، وورد في مجمع آخر التأم سنة ٥٧ هـ (٦٧٦ م) أي في الإسلام ، ويدل ذلك على أن النصرانية بقيت في هذه الديار حتى في الإسلام [١] .

وورد في أسماء من حضر المجامع النسطورية أسم أسقف يدعى « اسحاق » اشترك في مجمع النساطرة الذي عقد سنة ٥٧٦ م ، كما ذكر أسم أسقف آخر يدعى « قوسى » اشترك في مجمع سنة ٦٧٦ م . وقد كانا أسقفين على « هجر » [٢] . ويدل ورود اسمي هذين الأسقفين في محاضر مجامع الكنيسة النسطورية على وجود أتباع لهذا المذهب في هذا المكان .

كذلك وردت أسماء أساقفة من النساطرة تولوا رعاية شؤون أبناء طائفتهم في جزيرة « دارين » وفي جزيرة « سماهيج » وفي مواضع أخرى من الخليج ، تولى بعضهم أعماله قبيل الإسلام وعند ظهوره ، وتولى بعضهم رعاية شؤون أتباعه في أوائل عهد الإسلام [٣] .

وكان الجارود ، وهو بشر بن عمرو الذي قدم على النبي من البحرين على رأس وفد بني عبد القيس ، نصرانياً ، فأسلم [٤] . ويفهم من بيت لذي الرمة أن بعض بني عبد القيس كانوا على النصرانية [٥] . وقد أسلم أكثرهم بعد دخول الجارود في الإسلام . أما من بقي على دينه ، فقد دفع الجزية . وكذلك أخذت الجزية ممن فضل الاحتفاظ بدينه من يهود هذه الأرضين .

---

(١) النصرانية (ص ٧١) . (٢) النصرانية (ص ٧١) .

(٣) النصرانية (ص ٧١) .

(٤) الطبري (٣/١٦٠) « ثم دخلت السنة العاشرة » ، الاصابة (١/٢٢٦) « الجارود » .

(٥) ولكن أصل امرىء القيس معشر يحل لهم أكل الخنازير والخمر

النصرانية (٧٠) .



أحد صهاريج المياه فى مدينة الرصافة

المشرق : س ١٩٣٦ (مقابل ص ٢٥٣)

وقد تحدثت فى الفصل الثاني من هذا الجزء عن نوع نصرانية عرب الشأم ، وعن نوع نصرانية عرب العراق ، وعن تأثر بعض المذاهب النصرانية الشرقية التي وجدت لها سبيلها إلى جزيرة العرب بالآراء الشرقية وبالعقائد اليهودية . وقد كان لليهودية أثر حي فعّال في الكنائس الشرقية ، ولهذا نجد أن رجال هذه الكنائس كانوا يعكفون على دراسة العهد القديم ، أي التوراة ، أكثر من عكوفهم على دراسة الأناجيل[1]. وقد كان لهذا الاهتمام أثره بالطبع فى التأثير فى نصارى جزيرة العرب الذين كانوا على هذه المذاهب فى الغالب ، لقربها من إدراكهم ، ولاتصالهم بتلك الكنائس اتصالاً مباشراً أكثر من اتصالهم بكنيسة الروم .

والنصرانية بين عرب بلاد الشأم أكثر وضوحاً وأوسع انتشاراً منها بين عرب العراق ، فأمراء الغساسنة عند ظهور الاسلام ، وسادات القبائل النازلة في مناطق حكم الروم ونفوذهم ، هم على هذه الديانة ، وان كانوا على مذهب يخالف مذهب البيزنطيين . أما أمراء الحيرة وسادات قبائل عرب العراق ، فلم يكن ذوو أكثريتهم على هذه الديانة . وسبب ذلك واضح ، فاتصال عرب العراق هو بالفرس ، والفرس على دين آخر ، ولا يهمهم دخول غيرهم فيه . فدينهم دين خاص بهم ، ولمن كان فى أرضهم أو من كان فى حلف معهم أن يدخل فيما يشاء من الأديان ، إلاّ اذا كان ذلك الدين معارضاً لسياستهم ولحكمهم . ولهذا لم تجد النصرانية فى العراق من الفرس المساعدة الرسمية التي وجدتها من الروم فى بلاد الشأم . وتوقف انتشارها على عمل المبشرين وعلى احتكاك العرب بالنصارى من أهل العراق وبمتنصرة العرب ممن تأثروا بها فدخلوا فيها . وقد كان لدخول الرؤساء فيها أهمية كبيرة فى انتشارها ؛ لأن ذلك يؤدي الى حصولها على الحماية الرسمية ، وعلى انتشارها فى قبيلة الرئيس محاكاةً له وتقليداً لعمله ، ولهذا كان دخول الرؤساء فى الاسلام من أهم العوامل التي

---

(۱) Th. Nöldeke, Geschichte des qorans, I, S. 7.

أدت الى انتشار دين الله في الأعراب .

وقد ذكرت أن بعض كتب التواريخ الكنيسية نسبت الى بعض ملوك الغساسنة تمسكاً شديداً بمذهبهم فى النصرانية وتعصباً له ، فزعمت مثلاً أن الملك الحارث بن جبلة «ملك العرب النصارى » تغلب فى مناظرة جرت له مع البطريرك « افرام » «٥٢٦ـ٥٤٥م» على البطريرك وأفحمه فى جوابه . وكان أفرام ، وهو على مذهب « الملكيين » ، قد قصده لاقناعه بترك « المذهب المنوفيزيتي » والدخول فى مذهبه [1] . ونسبوا الى « المنذر بن الحارث » دفاعاً شديداً عن « المنوفيزيتية » ، أي المذهب الذي كان عليه الغساسنة من مذاهب النصرانية ، وذكروا أنه أنب البطريرك « دوميان » وهو في القسطنطينية على تهجمه على « المنوفيزيتيين » ، وعمل جهده فى التقريب بين مذهبه ومذهب القيصر ، واتصل بالقيصر « طيباريوس » « ٥٧٨ ـ ٥٨٢ م » ليعمل على بث روح التسامح بين المذاهب النصرانية وترك الحرية للأفراد للدخول فى المذهب الذي يريدونه والصلاة فى أية كنيسة يريدها النصراني [2] .

وقد رأينا فيما تقدم أن أمراء غسان كانوا قد دخلوا فى النصرانية ، وقدموا الى المزارات وأضرحة القديسين ، ولا سيما ضريح القديس سرجيوس فى الرصافة ، الهدايا والأموال . وقد كان لاحتكاكهم بالروم ولاتصالهم بمعدن النصرانية ولصلاتهم بذوي الأكثرية ببلاد الشأم وهي أكثرية نصرانية ، دخل كبير فى دخولهم فى هذه الديانة . وعند ظهور الإسلام لم يكن للأسرة الحاكمة من غسان ذلك السلطان الذي كان لها قبل عهد غير بعيد عنه ، كانت حكومتها قد تجزأت الى مشيخات ، والى حكومات قبائل انتزعت السيادة المطلقة من أمراء غسان ، فلم يبقَ للأسرة الحاكمة القديمة ما كان لها من جاه سابق ونفوذ .

---

(١) المشرق : السنة الرابعة والثلاثون ، كانون الثاني ـ آذار ١٩٣٦ (ص ٦١ وما بعدها) .

(٢) المشرق : العدد المذكور (ص ٦٤) .

وعرفت القبائل النازلة بيلاد الشام والساكنة في أطراف الانبراطورية البيزنطية بـ « المستعربة » . و « المستعربة » مصطلح أطلق على هذه القبائل وعلى القبائل النازلة في سِيف العراق من حدود نهر الفرات الى بادية الشأم ، فهو يشمل إذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القوس التي تحيط بحدود الانبراطوريتين . ومن المستعربة غسان وتنوخ وإياد [1] . وقد فضلت غالبية هذه المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع قريبة من البوادي والصحاري ، عرفت عندهم بـ « الحاضر » ، فكان في أكثر مدن بلاد الشأم مثل حلب ودمشق والرقة وحمص حاضر يقيم به العرب من تنوخ ومن غير تنوخ [2] .

وكان حاضر قِنَّسْرين لتنوخ . أقاموا في طرفها هذا منذ زمن قديم ، منذ أول نزولهم بالشام . نزلوا في طرفها وتنصروا . فلما حاصر أبوعبيدة المدينة ، دعاهم الى الاسلام ، فأسلم بعضهم ، وأقام على النصرانية بنو سليح . كذلك كان في طرف قنّسرين عشائر من طيّء ، نزلوا بها في الجاهلية على أثر الحروب التي وقعت فيما بينهم ، واُستدعت تفرقهم ، فأقاموا عند قنسرين مع القبائل العربية الأُخرى التي جاءت الى هذا المكان [3] .

وكان بقرب مدينة حلب حاضر يدعى « حاضر حلب » يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم . فلما جاء أبو عبيدة الى المدينة ، صالح من فضل البقاء منهم على دينه على الجزية ، ثم أسلم الكثير منهم فيما بعد [4] .

وقد نعت الرواة وأهل الأخبار العرب التي دانت بالنصرانية بـ « العرب المتنصرة » ، تمييزاً لها عن العرب الآخرين الذين لم يدخلوا في هذه الديانة ، بل بقيت على إخلاصها ووفائها لديانة آبائها وأجدادها ، وهي عبادة الأوثان . ومن القبائل التي يحشرها أهل

---

(١) البلاذري (ص ١٧١) .

(٢) البلاذري (ص ١٨٠) « والحاضر : الحي العظيم أو القوم . حاضر طيء . » ، تاج العروس (١٤٨/٣) .

(٣) البلاذري (ص ١٥٢) . (٤) البلاذري (ص ١٥٢) .

لأخبار في جملة « العرب المتنصرة » غسّان وتغلِبُ وَتنوخ ولخم وجذام وسليح
عاملة . ويلاحظ أن الأخباريين يطلقون على هذه القبائل أو على أكثرها « العرب
لمستعربة » ، وهم لا يقصدون بذلك نسبها ؛ لأن من بينهما كما نعلم من هو من أصل
حطاني على حسب مذهب أهل الأنساب في نسب القبائل . وإنما يريدون من هذا
لمصطلح القبائل التي كانت قد سكنت في الأرضين التي أشرت اليها ، وخاصة تلك القبائل
لتي دانت بالنصرانية وتأثرت بثقافة بني إرم وبلهجتها ، وذلك لظهور هذا الأثر فيها ،
على لهجتها خاصة ، مما حدى بعلماء اللغة كما ذكرت سابقاً أن يتحرجوا في الأستشهاد
شعرها في قواعد اللغة . والأستشهاد بشعر قبيلة لإثبات القواعد هو أوثق شاهد في نظر
لعلماء على التسليم بنقاوة لغة القبيلة التي يستشهد بشعرها وأصالتِها .

وقد كان مشهد القديس « سرجيوس » في « الرصافة » ، من أهم المزارات التي
قصدها المتنصرة من عرب الشام ، مثل الغساسنة وتغلب . وقد تقرب اليه بعض ملوك
لغساسنة بترميم كنيسة المدينة وصهاريجها تكريماً له وتقرباً اليه ، وظل هذا المزار مقدساً
مقصوداً مدة في الإسلام . وقد عد التغلبيون هذا القديس شفيعهم ، جعلوا له راية حملوها
معهم في الحروب ، وكانوا يحملونها مع الصليب تبركا وتيمناً بالنصر [١] .

وتعد بهراء في جملة القبائل العربية المتنصرة عند ظهور الإسلام . تنصرت كما تنصرت

---

(١) قال الأخطل :

لما رأونا ، والصليب طالعا ، ومارسرجيس ، وسماً ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعا خلوا لنا راذان والمزارعا

فأجابه جرير :

أفبالصليب ومارسرجس تتقي شهباء ذات مناكب جمهورا

وقال :

يستنصرون بمارسرجس وابنه بعد الصليب وما لهم من ناصر

المشرق : السنة الرابعة والثلاثون : نيسان — حزيران ١٩٣٦ (٢٤٦ وما بعدها) .



ممر داخل أسوار الرصافة

نقلت الصورة من مجلة المشرق : م ٣٤ ، س ١٩٣٦

(مقابل ص ٢٤٩)

غسان وتنوخ وسليح وقوم من كندة ، وذلك لنزولها فى بلاد الشأم ولاتصالها بالروم[1] .

وقد ترك لنا رجل من نصارى عرب الشأم نصاً قصيراً مؤرخاً بسنة ٥٦٨ م ، وهي غير بعيدة عن ميلاد الرسول ، هو على قصره ذو أهمية عظيمة من الناحيةاللغوية ، إذ هو النص الوحيدالذي وصل الينا مكتوباًباللهجة التى نزل بها القرآن الكريم . وهو على ما أعلم النص الجاهلي الوحيد أيضاً وصل الينا مكتوباً بصيغة المتكلم ، فالنصوص الأخرى التى وصلت الينا والمكتوبة بمختلف اللهجات العربية مدونة كلهـا بضمير الغائب . ويلاحظ وجود الإعراب فيه فى « ذا » الواقع هنا فى قوله : « بنيتُ ذا المرطول » ، وهذا يدل على استعمال الجاهليين الناطقين بهذه اللهجة للإعراب . ويلاحظ أن الكاتب استعمل لفظة « بر » الإرمية ، ولم يستعمل كلمة « ابن » العربية مع أن الكتابة عربية . وهذا الاستعمال يشير بالطبع الى أثر ثقافة بني إرم فى العرب الشماليين[2] .

وقدأُستغل الروم العرب المتنصرة بأن أثاروا فى نفوسهم العواطف الدينية على المسلمين ، حينما تبين لهم خطر الاسـلام على « الاستعمار » ، وعزم المسلمين على طرد البيزنطيين من الأرضين الواسعة التي كانت انبراطوريتهم قد استولت عليها ، وأُنتشار هـذا الدين أُنتشاراً سريعاً فى جزيرة العرب وتقدمـــه نحو الشمال . فأُستجابت لدعوتهم بتأثير تلك الدعاية العاطفية الواسـعة التي نظمها البيزنطيون ، وانحازت اليهم فى بادىء الأمر عنـدما ظهرت طلائع المسلمين على حدود الانبراطورية البيزنطية ، وقاتلت معهم إخوانهم فى الدين قتالاً شديداً دفاعاً عن النصرانية والصليب . غير أنها عادت فأُنقلبت على الروم حينما تبين لهـا

---

(١) اليعقوبي (١/٢٩٨) ، « ثم بعث سعد بن عمرو الأنصاري فى جمع من المسـلمين حتى انتهى الى صندوديا وفيها قوم من كندة ومن إياد نصـاري » ، الخراج ، (ص ١٤٦) « فصـل فى الكنائس والبيع والصلبان » ، النصرانية (١٢٥) .

(٢) صورة النص « انا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنة ٤٠٣ بعد مفسد خيبر بعم » ، Raccolta, III, P. 135.

أنها فى قتالها المسلمينَ إنما تقاتل قومها وآلها وعشيرتها ، وأن الروم وإن كانوا إخوانهم فى العقيدة ، غرباء عنهم ، وهم يستغلون الدين لخدمة سياستهم ومصالحهم الخاصة ، وأنحازت الى المسلمين ، وقاتلت معهم ، وفتحت لهم أبواب بلاد الشأم مع محافظتهم على دينهم ، وتعقبت فلول الروم ، وأثرت تأثيراً خطيراً فى الفتوحات .

فساعد عرب منطقة غزة مثلاً ، وهم من العرب المتنصرة من سكان فلسطين منذ قرون عديدة قبل الاسلام ، المسلمين فى فتوحهم لفلسطين ، وساعدوهم فى تطهير أرضها من الروم ، وطلبوا منهم فتح غزة وغيرها من المدن ، وذلك لجور ولاة الروم عليهم ، وتعسفهم فيهم بالرغم من الروابط الدينية التي كانت تجمع فيما بينهم وبين البيزنطيين وان اختلفوا عنهم فى المذهب ، واشتركوا مع المسلمين فى قتال الروم وفى دخول غزة وبقية مدن فلسطين [1] .

ومن هذه القبائل العربية التي حاربت مع الروم لدوافع دينية وسياسية ، غسان . حاربوا معهم فى معارك عديدة . ففي يوم اليرموك كانوا فى صفوف الروم ، وكان رئيسهم جبلة بن الأيهم الغساني فى مقدمة الجيش الذي أرسله هرقل لمحاربة المسلمين . كان على رأس مستعربة الشام من غسان ولخم وجذام [2] . وجبلة هذا هو الذي أنحاز الى الأنصار ، فأسلم ، ثم عاد فارتدّ الى النصرانية فى عهد عمر فى قصص يرويه أهل الأخبار [3] . وقد أغار خالد بن الوليد على غسان فى مرج راهط فى يوم فِصْحهم ، فسبى منهم وقتل خلقاً [4] ، وكانوا إذ ذاك يساعدون الروم . وقد قتل منهم المسلمون ومن بقية المستعربة من تنوخ وإياد ممن حاول اللحاق بهرقل خلقاً كثيراً فى معركة « درب بغراس » [5] .

---

(١) الشرق : السنة الأولى ، العدد ٣ (سنة ١٨٩٨) (ص ٢١٦) .
Nöldeke, Ghass., 45.

(٢) البلاذري (ص ١٤١) . (٣) البلاذري (ص ١٤٢ وما بعدها) .

(٤) البلاذري (١١٨) . (٥) البلاذري (١٧١) .

وفي الفتوحات الاسلامية لبلاد الشأم ، كانت سليح في جملة القبائل العربية المتنصرة التي حاربت المسلمين . ولما تقهقر الروم وأنهزموا ، دفعوا الجزية لاحتفاظم بدينهم . وسليح ، كما ذكرت في أثناء كلامي على الغساسنة ، أقدم عهداً في الحكم من الغساسنة على رأي أهل الأخبار . وقد كان الملك اليهم حتى غلبهم آل غسان [1] . كذلك كانت عاملة ولخم وجذام في جملة القبائل المتنصرة التي ساعدت الروم ، وآزرتهم . كانوا مع الروم مثلاً حين مجيء الرسول الى تبوك [2] ، وظلوا الى جانبهم يؤيدونهم ، حتى جاءت الجيوش الاسلامية الى بلاد الشأم وهاجمتها ، عندئذ انضمت في جملة من انضم من متنصرة العرب الى إخوانهم في الجيش لمحاربة اخوانهم في الدين الروم [3] .

وتعد تغلب ولخم وإياد وتنوخ وبكر وطيء وبعض قبائل تميم ، من أهم القبائل التي كانت النصرانية قد وجدت لها أتباعاً منها ، وهي قبائل كان لها أتصال وثيق بسكان حدود الأنبراطوريتين : انبراطورية الروم ، وأنبراطورية الفرس . وقد كان أولئك السكان من النصارى في الغالب . وقد ساعد هذا الاتصال في دخول النصرانية بين القبائل المذكورة . وهناك قبائل أخرى كانت النصرانية قد دخلت بعض بيوتها عند ظهور الاسلام . وأكثر هؤلاء هم ممن كانوا يتصلون بالنصارى بالتجارة أو بعوامل سياسية أو بزواجهم من زوجات نصرانيات وأمثال ذلك من أسباب .

أما تغلب ، فتعد من قبائل معد في نظر النسابين . وهي من القبائل العربية الكبيرة

---

(١) النصرانية (ص ١٣١ ، ٤٥٦) . (٢) البلاذري (ص ٦٦) .

(٣) « فلما رأي أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم ، صاروا أشداء على عدو المسلمين وعوناً للمسلمين على أعدائهم ، فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالا من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون أن يصنعوا ، فأتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعاً لم ير مثله ... » ، الخراج (ص ١٣٨) « فصل في الكنائس والبيع والصلبان » .

عند ظهور الاسلام ، ذات قوة وبأس شديدين[1] . دخلت العراق قبل الاسلام وسكنت في الأقسام العليا منه ، واتصلت بالفرس وبالروم . وقد أدى اتصالها بالروم وبالنصارى الساكنين في الجزيرة الى دخول كثير منهم في النصرانية كمعظم القبائل التي دخلت العراق وبلاد الشأم . وهي من القبائل المتنصرة ومن سكان الخيام[2] .

والى هذه القبيلة ينسب الشاعر عمرو بن كلثوم التغلبي ، صاحب القصيدة المعروفة التي تعدّ من «المعلقات السبع » ، وجملة شعراء آخرين . منهم شاعر يدعى جابر بن حني التغلبي ، يقال إنه قال في شعر له مخاطباً بهراء :

وقد زعمت بهراء أن رماحنا ... رماحُ نصارى لا تخوض الى الدم[3]

وهو بيت من قصيدة يفتخر فيها بقومه وبشجاعتهم ، ومعنى هذا البيت إن صح أن النصارى لم يكونوا أشداء في الحروب ، وأنهم لم يكونوا على شاكلة الوثنيين في الطعن والضرب .

وقد كان لتغلب جملة رؤساء ، منهم رئيس يقال له الجرار . أدرك النبي ، وأبى الاسلام ، فبعث رسول الله اليه زيد الخيل الشاعر المشهور وأحد الشجعان المشهورين ، ليطلب منه الدخول في الاسلام كما تقول احدى الروايات أو القتال ، فأبى الإسلام ، وقاتل حتى قتل[4] .

ولاعتزاز تغلب بنفسها ، ولشعورها بعزتها ، امتنعت عن دفع الجزية المفروض أداؤها على أهل الكتاب ، وذهبت الى عمر بن الخطاب قائلة له : « نحن عرب لا نؤدي ما يؤدي العجم ، ولكن خذ منا كما يأخذ بعضكم من بعض » . ورضيت بدفع ضعف ما يدفعه

---

(١) « لو أبطأ الاسلام قليلا ، لأكلت بنو تغلب الناس » ، شرح التبريزي لمعلقة عمرو بن كلثوم (ص ١٠٨) « طبعة لايل » ، النصرانية (ص ١٢٥) .

(٢) Raccolta, P. 142.

(٣) النصرانية (ص ١٢٦) ، شعراء النصرانية (١٩٠) .

(٤) الأغاني (١٦/٥٢) « أخبار زيد الخيل ونسبه » .

المسلمون صدقة أنفةً من كلمة « الجزية »[1] . واقتدت قبائل أخرى مثل تنوخ وبهراء بتغلب ، فرضيت بدفع الصدقة التي يدفعها المسلمون مضاعفة مفضلين اياها على دفع « الجزية » ، أي الضريبة التي يدفعها أهل الكتاب ، لكي لا تكون فى مصافّ النبط ومن لفّ لفهم من غير العرب ، والمساواة فيها تعد إهانة لهم فى نظرهم ، وإن كان دافعوها نصارى مثلهم ، وهم اخوانهم فى الدين .

وأما إياد ، فقد كانوا من جملة متنصرة العرب كذلك ، سكنوا السواد والجزيرة ، وسكن قوم منهم بلاد الشأم ، فخضعوا للغساسنة وللروم وتنصروا . وهم فى جملة القبائل التي لم يأخذ علماء العربية اللسان عنها لمجاورتها أهل الشأم ، ولتأثرها بهم ، وهم قوم يقرؤون ويكتبون بالسريانية ، فتأثروا بهم ، لروابط الثقافة والدين[2] .

وفى أثناء مسير الجيوش الاسلامية فى أعالي العراق ، انضمّت تغلبُ وعرب الجزيرة الى جيوش المسلمين ، فحاربت معهم نصاراهم ومسلمتهم ، خلا « إياداً » الذين ذهبوا الى بلاد الروم وبقوا فيها ، ثم عاد جمع منهم لإخراج القيصر إياهم فنزلوا بلاد الشأم والجزيرة وانضموا الى اخوانهم فى الجنس[3] .

وتعد طيء من القبائل التي وجدت النصرانية سبيلاً اليها . وقد تحدثت عنها سابقاً ، وقلت إن اسمها صار علماً عند السريان والفرس على جميع العرب ، فقصد بـ « طياية » « Tayaya » العرب عامة ، لا قبيلة طيء وحدها . وهذا يدل على أن هذه القبيلة كانت قد انتشرت وتوسعت وصار لها نفوذ واسع قبل الاسلام ، فلم تنافسها فى ذلك العهد قبيلة من

---

(١) السنن الكبرى (٢١٦/٩) ، « باب نصارى العرب تضعف عليهم الصدقة » ، بلوغ الأرب (٢٤١/٢ وما بعدها) ، « فصل في شأن نصاري بني تغلب وسائر أهل الذمة وما يعاملون به » ، كتاب الخراج ، (ص ١٢٠ وما بعدها) « القاهرة ١٣٥٢ » .

(٢) المزهر (١٠٥/١) ، النصرانية (ص ١٢٤) .

(٣) الطبري (١٩٧/٤ وما بعدها) « الجزيرة » .

القبائل الأخرى ، ولهذا صار اسمها مرادفاً للفظة « عرب » . ومن دلائل تنصرهم بناء بعض أفرادها الأديرة . وقد ورد أن « احودما » « المفريان » تنقل بين طيء فى سنة « ٨٧٠ » لليونان المقابلة لسنة « ٥٥٩ » للميلاد[١] . غير أن هذا لا يعني أن النصرانية كانت هي الغالبة على هذه القبيلة قبيل الاسلام وعند ظهوره . وقد أشرت سابقاً الى تعبدها للصنم « الفلس » وتحطيم الاسلام له . إنما الذين دخلوا فى النصرانية منها ، هم من الذين كانوا قد نزلوا فى العراق وفى بلاد الشأم من طيء فاتصلوا بالنصرانية وبالمبشرين فتأثروا بها .

وقد كان عدي بن حاتم الطائي فى جملة الداخلين فى النصرانية من طيء . ويذكر أنه كان ركوسياً ، وفد على الرسول ، وأعلن إسلامه[٢] .

وقام نصارى العراق بأعمال خطيرة فى الفتوحات الإسلامية بالرغم من اختلافهم عن المسلمين فى الدين . انضموا الى إخوانهم فى الجنس ، وقاتلوا تحت رايتهم جيوش الساسانيين[٣] . وقد بقي من أراد الاحتفاظ بدينه على دينه ، ودخل منهم من دخل فى الاسلام .

وقد كان هانيء بن قبيصة الشيباني فى جملة من فاوض خالد بن الوليد باسم قومه على دفع الجزية للمسلمين . وقد كان على النصرانية[٤] ، وهو من سادات بني شيبان ، ومات وهو على هذا الدين[٥] .

---

(١) النصرانية وآدابها : القسم الأول (ص ١٣٢ وما بعدها) ،
Barhebraei, Chronicon Eccl,, III, 100.

(٢) « قال عدي : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا عدي بن حاتم أسلم تسلم ثلاثاً . قال : فقلت : إني على دين . قال : إني اعلم بدينك منك . فقلت أنت اعلم بديني مني ؟ قال : نعم . الست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك . قلت : بلى . قال : فان هذا لا يحل لك في دينك » ، المشرق : السنة الثامنة العدد ١١ (سنة ١٩٠٥) (ص ٥٠٧) ، النصرانية (ص١٣٣).

(٣) السنن الكبرى (١٨٢/٩) . (٤) السنن الكبرى (١٨٨/٩) .

(٥) الاشتقاق (ص ٢١٦) .

ومن متنصرة العراق بنو عجل بن لُجيم من قبائل بكر بن وائل . وقد عرف منهم حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العجليّ الذي سادهم في معركة ذي قار . وقد حاربت خالد بن الوليد ، وكان قائدها جابر بن بُجير وعبد الأسود . وكان منها في أيام بني أمية أبجر بن جابر . وهو والد حجّار . وقد بقي على نصرانيته فى الاسلام[1] .

والآن وقد تحدثت عن النصرانية بين العرب الجاهليين ، أريد أن أقف على مبلغ علم أولئك النصارى وعقيدتهم وفقهم فى ذلك الدين . لقد قلت إن من غير الممكن أن تكون نصرانية العرب كنصرانية الروم ، لما بين الشعبين من تفاوت واختلاف ، وذكرت أن نصرانية عرب الجاهلية كانت متأثرة بالآراء الشرقية ، ثم إنها على نوعين : نسطورية هي مذهب أهل الحيرة ، ويعقوبية وهي مذهب عرب الشأم . ولكن ، ما علم سواد هؤلاء النصارى بشؤون دينهم ؟ وما مبلغ فهمهم لما كانوا يدينون به ؟ الجواب عن هذين السؤالين أمر غير يسير ، فلم يترك أولئك النصارى آثاراً مدونة تعين على العلم بفقه أولئك القوم فى أمور دينهم ، ولم يصل الينا من كتبهم ومؤلفاتهم شيء يفيد فى هذا الباب . وقد ورد أن نصارى الحيرة كانوا على حظ من العلم والثقافة : كانوا أصحاب مدارس وكتب ، وظهر فيهم أناس قاموا بارشاد الناس فى الحيرة وفى غير الحيرة فى أمور دينهم وفي الفلسفة والعلوم المعروفة فى ذلك العهد . فنحن من هذه الناحية على يقين من أن نصارى الحيرة كانوا على شيء من العلم . ولكن الأحداث أبت أن تحفظ شيئاً من علم علمائهم ، فجعلتنا فى حيرة من أمرهم وفى جهل .

ولكن هذا لا يعني أن سواد نصارى العرب الجاهليين كانوا على علم وفقه فى شؤون دينهم . إن علمهم فى أمور دينهم لا يمكن أن يرتفع ، فى آية حال من الأحوال ، عن علم الأعراب بشؤون دينهم فى الزمن الحاضر . ومن هنا وسم النصراني بأنه من كان يأكل

---

(١) ابن خلدون (٢/ تتمة ص٨٠) ، الأغاني (١٣/٤٦ وما بعدها) ، النصرانية (ص١٣٦) .

الخنزير ويشرب الخمر[1] .

واذا كنّا قد حُرِمْنا الموارد الأصلية التي يجب أن نستعين بها في معرفة النصرانية عند نصارى الجاهلية ، فإن فى الشعر المنسوب الى بعض نصارى الجاهلية مثل عدي بن زيد العبادي والى بعض الشعراء ممن كان لهم اتصال بالنصارى مثل الأعشى ، فائدةً فى تكوين صورة يتوقف صفاؤها ووضوحها وقربها أو بعدها من الواقع والحق على مقدار قرب ذلك الشعر من الصدق والصواب والواقع أو الافتعال .

وعدي بن زيد هو أشهر من وصل الينا خبره من شعراء النصارى الجاهليين . هو من العباديين ، أي من نصارى الحيرة ، ولذلك عرف بالعبادي . كان من أسرة اكتسبت نفوذاً واسعاً ونالت حظاً كبيراً عند الفرس وعند ملوك الحيرة ، فكان لها أثر خطير في سياسة عرب العراق فى ذلك الزمن . ولما كانت السياسة ارتفاعاً وهبوطاً ، سعادة وشقاء ، لاقى عدي منها الاثنين : ارتفع حتى بلغ أعلى المنازل ، ثم انخفض حتى تلقاه قابض الأرواح وهو فى سجنه فقضى عليه بعد أن ترك أثر خطيراً فى سياسة الحيرة وفى تقرير مصير الملك فيها . وعدي ، على ما يذكر أهل الأخبار ، من أهل اليمامة فى الأصل : هاجر أحد أجداده من اليمامة الى الحيرة بسبب دم أهرقه هناك ، فخاف على نفسه من الثأر ، ولم يجد محلاً أصلح له وآمن مقاماً من الحيرة ، لوجود « أوس بن قلام » أحد رؤساء بني الحارث ابن كعب فيها ، وهو من أصحاب الجاه والنفوذ ، وبينه وبين أوس نسب من النساء ، وهو نسب يضمن له الحماية والعيش بسلام ، فجاء الى الحيرة وأقام بها حيث أكرمه أوس وقربه الى آل لخم ، واكتسب منزلة عالية عند ملوك الحيرة ، انتقلت من بعده الى أبنائه الذين

---

(١) وهناك قول ينسب الى علي ، يقال إنه قاله حينما سئل عن ذبائح نصارى تغلب : أيجوز للمسلم أن يأكلها ، فقال : « لا تأكلوه ، فانهم لم يتعلقوا من دينهم بشيء إلا بشرب الخمر » ، السنن الكبرى (٩/٢١٧) .

كونوا لهم صلات وثيقة مع آل لخم ومع ملوك الفرس ، بما كان لهم من علم وذكاء وحسن سياسة . ويذكر الأخباريون أن جدّ عدي كان قد تعلم الكتابة فى الحيرة ، فصار من أكتب الناس فيها ، وأنه لذلك انتخب كاتباً لملك الحيرة ، واتصل بحكم وظيفته المهمة هذه بدهاقين الفرس ، وأنه لما تُوفي أوصى بابنه زيد والد عدي الى واحدٍ منهم يعرف بـ « فروخ ماهان » ، فأخذه هذا الى بيته ، ورباه مع ولده . فتعلم عندهم الفارسية ، وحذقها وكتب بها وبرّز ، وكان قد حذق الكتابة بالعربية كذلك ، فأوصله الدهقان الى كسرى ، لعلمه هذا باللغتين وبذكائه ، فعينه في وظيفة مهمة لم يكن الفرس يعينون لها أحداً من غيرهم هي وظيفة البريد . وقد مكث فى هذه الوظيفة زماناً جعلته يكتسب منزلة محترمة عند عرب الحيرة والفرس .

وعُني زيد بتربية ولده عدياً : أرسله الى الكتاب ليتعلم به العربية . فلما برع فيها ، أرسله الى كتاب الفارسية حيث تعلم مع أبناء المرازبة فنون القول والكتابة ، ثم تعلم الرماية ولعب الفرس حتى صار من المبرزين فيهـا . وقد قربه علمه وعقله من آل لخم ومن الفرس حتى أوصلوه الى مناصب عالية جعلت لقوله أهمية كبيرة حتى فى تثبيت ملك ملوك الحيرة .

وقد أرسله « هرمز » بن « أنوشروان » فى سفارة مهمة الى القيصر طيباريوس ، فأدّاها على خير وجه . وعاد فأقام أمداً بالشام ، ووقف على ما كان فيها من علم ومعالم . وقد زادت هذه الأسفار بالطبع في سعة أفقه وفى ثقافته . ثم عاد الى الحيرة ، فوجد والده قد توفي بعـد أن صار المهيمن الحقيقي على البلاد . وزار كسرى ليقدم اليـه هدايا قيصر . وارتفع نجمه فى البلاطين ، وتزوج هنداً بنت الملك النعمان . غير أن تقدمه هـذا أوجد له خصومة شديدة من منافسيه ، « بني مرينا » وهم نصارى مثله ومن أهل الجاه والحسب ، فأغرى خصمه ومنافسه العنيد « عدي بن مرينا » قلب النعمان عليه . وكان عدي بن زيد صاحب الفضل فى حصول النعمان على التاج . وظل ابن مرينا يعمل فى الخفاء للقضاء على

عدي ، حتى تمكن من ذلك ، إذ سجنه النعمان ، ثم أمر فاغتيل وهو فى السجن [1] .

والذي يهمنا فى هذا الموضع من أمر عدي هو مدى وقوف عدي على النصرانية ومبلغ تسربها فى نفسه وفى نفوس أهل الحيرة . أما النواحي الأخرى من حياته ، فليس لها محل فى هـذا الفصل . وشعر عدي هو بالطبع سندنا الوحيد الذي نستخرج منه رأينا فى النصرانية عند عدي وعند إخوانه العباديين .

والشعر المنسوب الى عدي أقرب الى نفوسنا وأسهل علينا فهماً من الشعر المنسوب الى بقية الجاهليين ، معانيه وألفاظه حضرية متحررة من الأساليب البدوية التي تميل الى أستعمال الجزل من الكلمات ، وهو يخالف مذاهب أولئك الشعراء فى كثير من الأمور . ولهـذا « كانت الرواة لا تروي شـعر أبي دُؤاد ولا عديّ بن زيد لمخالفتها مذاهب الشعراء » [2] ، و « لأن ألفاظه ليست بنجدية » [3] . وقد ورد فى شعره بعض المعربات مما يدل على أثر الفارسية والإرمية فيه [4] . وكثير من شعره هو فى الزهد ، وفى التذمر من هذه الدنيا التي لا تدوم حالها على حال ، وفى تذكير الأحياء بنهاية الأموات بالرغم مما أقاموه وشيدوه من أبنية ضخمة وقصور شاهقة . وهذا الشعر يتناسب مع ما يذكره أهل الأخبار عن حياة هذا الشاعر وتألق نجمه وبلوغه أعلى المراتب ثم سقوطه فجأة ودخوله السجن واغتياله فيه . وفى شعره قصائد في القيان وفى الخمر تتحدث عن الحياة التي قضاها

---

(١) المشرق : الجزء الأول : كانون الأول ١٩٤٤ (ص ٣٩ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (٤٣٩ وما بعدها) ، كارلونالينو ، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية (ص ٧٣) ، « القـاهرة ١٩٥٤ » ، Ency., I, P. 137, Brockelmann, 1, S. 29. f, Rothstein, S. 109, Nöldeke, Gesch. der Perser und Araber Zur Zeit der Sassaniden, S. 312, Islamic Culture, IV, 1930, P. 31, ff.

(٢) الأغاني (١٥/٩٣) « طبعة مطبعة التقدم » « ذكر أخبار أبى دؤاد الإيادي ونسبه » ، نالينو (ص ٧٤) .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء (ص ١١٥) . (٤) نالينو (ص ٧٤) .

قائلها ، وهي حياة لذيذة ولكنها لا تدوم بالطبع الى الأبد ، ولا بد لها ان تزول ثم تنتهي بما يوجب الأسف عليها والألم والتوجع من فنائها ومن ذهاب تلك الأيام .

أما صميم الديانة والآراء النصرانية الخالصة ، وهي ضالتنا فى هذا الفصل وهدفنا الذي نقصده ، فلا نجد منها فى شعره الموثوق بصحته شيئاً كثيراً . ونحن لا نستطيع بالطبع أن نلوم عديّاً على ذلك ، فعدي كما نعلم رجل شعر وسياسة ، وليس برجل دين ولا كهانة فيتعمق فى شعره بإيراد تواريخ الأنبياء والاوامر والنواهي الإلاهية الواردة فى التوراة والانجيل . ولم يذكر أحد من الأخباريين عنه أنه كان كاهناً أو قسيساً فنأمل منه التطرق فى شعره الى موضوعات اللاهوت والكهنوت . فما نجده فى شعره عن النصرانية هو من حاصل المناسبات والظروف ، وليس من حاصل بحث متعمد قصد به البحث فى الدين من أجل الدين .

ولو كان عدي قد تعرض للنصرانية عنده وبين قومه لأفادنا ولا شك كثيراً . وما زلنا فى الواقع فقراء فى ناحية علمنا بمبلغ فهم أهل الحيرة وغير أهل الحيرة من نصارى العرب فى الجاهلية لأحكام النصرانية وقواعدها ، ومقدار رسوخها فى نفوس أولئك النصارى ولا سيما الأعراب منهم . ولكن عذره كما قلت بيّن واضح ، وليس لنا أن نلومه . وما جاء به عن النصرانية فى شعره على كل حال مفيد ، أفادنا ولاشك . فلنكن قنوعين غير طامعين ، مكتفين بما أورده عدي عنها فى شعره ، ولننظر الى المستقبل ، فهو أملنا الوحيد ، فلعله يكشف عن مصادر كتابية مطمورة ، يبعثها من قبورها المغمورة بالأتربة المتراكمة ، وعندئذ تكون أمام المؤرخ ثروة تغنيه ، يستطيع أن يظهرها العشاق للمولعين بمعرفة أحوال الماضين .

وقد ورد فى قصيدة قيل إنه نظمها في معاتبة النعمان على حبسه بيت فيه قسم برب مكة وبالصليب :

سعى الأعداء لا يألون شرّاً عليك وربِّ مكةَ والصليبِ (١)

---

(١) شيخو : شعراء النصرانية (ص ٤٥١) .

وهذا البيت يدعو الى التأمل والتفكير ، فرجل نصراني يؤمن بعيسى وبالصليب ، لا يمكن أن يقسم برب مكة . فمكة كما نعلم مجمع الأصنام والأوثان وكعبة الوثنية فى الجاهلية ، فكيف يقسم بربها رجل نصراني يرى الأوثان والوثنية رجساً من عمل الشيطان وكفراً . بل لو فرضنا أنه أقسم بمكة وبرب مكة على سبيل مجاراة العرب الوثنيين وتقرباً الى الملك النعمان ، فليس لدينا دليل مقنع يفيد أن وثني الحيرة كانوا يؤمنون برب مكة . ولم يذكر أحد من أهل الأخبار أن أصنام أولئك الوثنيين كانت بمكة . ثم أن مصطلح « رب مكة » هو مصطلح اسلامي ، أخذ من عقيدة التوحيد فى الإسلام ، فقيل « رب البيت » و « رب هذا البيت » [1] . ولا يعقل أن يكون مصطلحاً جاهلياً ، إذ يعني ذلك ايمان الجاهليين بآله واحد . ولو كانوا على هذا الرأي وعلى هذه العقيدة ، فلم حاربوا اذن الرسول وعدّوا دعوته الى التوحيد هدماً لعقيدتهم ولإيمانهم فى الأصنام .

لقد اتخذ الأب شيخو هذا البيت دليلاً على انتشار النصرانية فى مكة وعلى تنصر أحياء منها ، وعلى أن النصرانية قديمة فيها ، بل يكاد يفهم من قوله ان البيت هو فى الأصل كنيسة بنيت بعد المسيح بعهد قليل : بناها النصارى الذين جاؤوا الى هذه المدينة وسكنوها ، وأن صور الأنبياء وصورة عيسى وأمه مريم التي ذكر الأخباريون أنها كانت مرسومة على جدار الكعبة والتى أمر الرسول بطمسها ومحو معالمها هي دليل على أثر النصرانية فى مكة ، ولهذا كان النصارى العرب الجاهليون يحجون اليها ويقدسونها ، ولهذا السبب أقسم عدي بها ، وأقسم الأعشى بها كذلك حيث قال :

حلفت بثوبي راهب الدير والتى بناها قُصَيٌّ والمضاض بن جرهم [2]

---

(١) « فليعبدوا رب هذا البيت » ، سورة قريش الآية ٣ .

(٢) النصرانية (ص ١١٨) ، وفي الديوان :

فاني وثوبي راهب اللج والتي بناها قصي وحده وابن جرهم

ديوان الأعشى (ص ٩٥) .

ولم يرد في شعر عدي شيء ما يتحدث عن عقيدة التثليث ، أي الايمان بالثالوث . وكل ما ورد فيه هو الإشارة الى عقيدة بوجود ربّ واحد هو « الله » . وهو رب مستجيب مُسَبَّح خلاق [1] . وهذا الرأي إسلامي كما هو معلوم ، وقريب من عقيدة الحنفاء .

ووردت في بيت شعر وجهه الى النعمان كلمة « أبيل » [2] ، وأبيل اسم للمسيح ، ويطلق على حبر النصارى أيضاً [3] ، ومعناها الناسك والزاهد . وهي من أصل سرياني ، من فعل « ابل » بمعنى ناح وبكى على خطاياه [4] ، ولذلك قصد بها الناسك والراهب .

---

(١) فإني قد وكلت اليوم أمري الى رب قريب مستجيب

... ...

أجل إن الله قد فضلكم فوق من أحكأ صلباً بإزار

... ...

واذهبي يا أميم ان يشأ اللـ ـه بنفسي من أزم هذا الخناق
أو تكن وجهه فتلك سبيل النـ ـاس لا تمنع الحتوف الرواقي

... ...

ليس شيء على المنون بباق غير وجه المسبح الخلاق

شعراء النصرانية (ص ٤٥٢ ، ٤٥٤) ، النصرانية (ص ١٦٢) .

(٢) إنني والله فاقبل حلفي لأبيل كلما صلى جار

... ...

وروى :

إنني والله فاقبل حلفتي بأبيل كلما صلى جار

شعراء النصرانية (ص ٤٥٣) ، النصرانية (ص ١٩٤) .

(٣) شعراء النصرانية (ص ٤٥٣) .

(٤) « الابيل : الراهب ، سمي به لتأبله عن النساء ، وترك غشيانهن » ، تاج العروس (٧/١٩٩) ، النصرانية (ص ١٩٠) ، والأب مرمرجي معجميات عربية سامية (ص ١٣١ وما بعدها) ، وسيكون رمزه : مرمرجي . « والأبيل : رئيس النصارى . وقيل : هو الراهب الرئيس . وقيل : صاحب الناقوس . وهم الأبيلون . قال ابن عبد الجن :

أما ودماء مائرات تخالها على قنة العزى أو النسر عندما
وما قدس الرهبان في كل هيكل أبيل الأبيلين المسيح بن مريما =

وقد دعا الأعشى ضارب الناقوس : الأبيل [1] .

ونسب لعدي هذا البيت :

وأهبط اللهُ إبليساً وأوعده … ناراً تَلَهَّبُ بالأسمار والشرر [2]

ولم ترد كلمة « ابليس » في شعر منسوب لشاعر جاهلي آخر ، إنما وردت كلمة « شيطان » فى شعر منسوب الى أميّة بن أبي الصلت .

ونسب الى عدي هذا البيت :

ناشدتنا بكتاب الله حرمتنا … ولم تكن بكتاب الله تقتنع [3]

وعلى هذا البيت طابع إسلامي . ولا أظن أن أحداً سيقتنع بأنه من شعر رجل جاهلي نصراني .

ويظهر من دراسة الشعر المنسوب لعدي أنه كان على مذهب أهل الجاهلية فى « المنون » ، أي ما يعبر عنه بالقدر فى الإسلام ، فكل كائن خاضع لحكم المنون ، يفعل به ما يشاء ، ليس فى امكانه رد شيء مقدر كائن عليه . وقد رسخت هذه العقيدة فى نفس عدي ولا شك بعد أن زجّ به فى السجن ، وأصبح وحيداً لا يدري ما الذي سيصنع به .

= لقد ذاق منا عامر يوم لعلع … حساماً إذا ما هز بالكف صمما

قوله أبيل الابيلين اضافة اليهم على التسنيع لقدره ، والتعظيم لخطره . ويروي : أبيل الأبيلين عيسى ابن مريما . على النسب . وكانوا يسمون عيسى عليه السلام : أبيل الأبيلين » . « ومنه الحديث : كان عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام يسمى أبيل الأبيلين . الأبيل بوزن الأمير : الراهب . سمي به لتأبله عن النساء ... والأبيل صاحب الناقوس الذي ينقس النصارى بناقوسه ، يدعوهم به الى الصلاة . وأنشد : وما صك ناقوس الصلاة أبيلها . وقيل هو راهب النصارى . قال عدي بن زيد :

انني والله فاسمع حلفى … بأبيل كلما صلى جار

وكانوا يعظمون الأبيل فيحلفون به كما يحلفون بالله » ، اللسان (١٣/٦) .

(١) فإني ورب الساجدين عشية … وما صك ناقوس الصلاة أبيلها

النصرانية (ص ٢٠٨) .

(٢) النصرانية (ص ١٦٨) . (٣) شعراء النصرانية (ص ٤٧٢) .

وهي عقيدة يسلم بها أكثر من يقع في مثل هذه الظروف ، لأنها تفرج عن النفس ، وتخفف بعض التخفيف عمّا ينتاب المرء وهو في هذه الحالة من هموم وأحزان . والإيمان بالمنون وبالقدر وبأن الإنسان مسير مجبر ، عقيدة لها صلة كبيرة بالظروف الاجتماعية وبالأحوال التي تحيط بالإنسان ، وهي ليست من الأفكار الدينية الخالصة .

ونسبت لعدي أبيات فيها حكايات من العهد العتيق ، مثل هذه الأبيات . وهي في مبدأ الخلق :

إسمع حديثاً لكي يوماً تجاوبه	عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا
أن كيف أبدى إلٓه الخلق نعمته	فينا وعرفنا آياته الأولا
كانت رياحاً وماءً ذا عرانية	وظلمة لم يدع فتقاً ولا خللا
فأمر الظلمة السوداء فانكشفت	وعزّل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الأرض بسطاً ثم قدرها	تحت السماء سواء مثل ما فعلا
وجعل الشمس مصراً لا خفاء به	بين النهار وبين الليل قد فصلا
قضى لستة أيام خلائقه	وكان آخر شيء صوّر الرجلا (١)

وطابع هذا النظم وأسلوبه يفصحان أنه نظم من النوع التعليمي الديني ، لا أدري أكان شاعرنا يعترف به وينسبه الى نفسه . ؟ أما أنا ، فلا أرى أنه لشاعر عربي عاش قبل الاسلام أو عند ظهوره ، بل هو في رأيي من هذا النوع من النظم الذي صنع فيما بعد ، وأضيف الى شعراء متقدمين من طراز أمية بن أبي الصلت . وفي كتاب « البدء والتأريخ »

---

(١) البدء والتاريخ (١/١٥٠ وما بعدها) ، النصرانية (٢٥٤) ، الحيوان (١٩٨/٤ وما بعدها) ، « طبعة عبد السلام محمد هارون » ، وتجد في النص بعض الاختلاف عن النص الذي تجده في كتاب النصرانية .

للمقدسي منظومات كثيرة من هـذا النوع نسبت الى أميـة بن أبي الصلت فى الخلق وفى الـكون وفى قصص الأنبياء وأمثال ذلك ، لم يرد أكثرها فى مظان أخرى ، وقد اتخذها بعض المستشرقين من غير نقد ولا تمحيص دليلاً على أن القرآن الـكريم وشعر أمية قـد استقيا من مورد واحد قديم . ولو تعمق هؤلاء فى درس المظان التي وردت فيها أمثال هذه المنظومات ، وفى دراسة تلك الأبيات دراسة عميقة وقارنوها بأسلوب الزمان الذي عاش فيه من نسبت اليه ، لظهر لهم أنها من الـكلام المصنوع الموضوع ، وأنهـا من قبيل الشعر الذي قيل على لســان آدم وقابيل وهابيل ونوح والتبابعة وملوك بني إسرائيل . وأنها من نوع ما نجده فى سيرة الواقدي . وقد رمي الواقدي بالضعف ، وأخذ عليه عدم التمييز بين الصحيح والفاسد من الشعر ، لقبوله هذا النوع من الأشعار ، وادخاله اياه فى مؤلفه ، مع أنه واضح الفســاد ، بيّن الافتعال . فلمَ لا نحكم على هـذا النوع من الشعر بما حكم عليه العلماء المتقدمون ، وآثار الصنعة والانتحال بينة عليـه واضحة ، ومعالم الزمن الذي صنعت فيه تتحدث عن نفسها ، وهل كان عدي كاهنا واعظاً من وعّـاظ الـكنائس حتى يشغل نفسه بنظم هذه الأبيات ليتمظ بها الناس ويحفظوها عن ظهر قلب ؟ قد يرى غيري هذا الرأي . أما أنا ، فلا أراه ولا أذهب اليه ، ولـكل رأيه ومذهبه .

ولا أظن أن فى إيراد الجاحظ لهذه الأبيات وإيراد غيره لبيت أو جملة أبيات منها على أنها لعدي أو لأمية بن أبي الصلت ، حجة مقنعة تثبت أَصالتها وصحتها . فليس القدم دليل الصحة والأصالة ، وليس كل ما ذكره الجاحظ وكتبه صحيحاً عريقاً ، بدليل تسجيل الجاحظ له وإيراده فى مؤلفاته . ومن قال من العلماء إن تسجيل الجاحظ وتدوينه ، هو وحي منزل لا يمكن الانسان أن يشك فى شيء منه ، حتى نقول نحن هذه المقالة ؟ لقد اتخذ « شيخو » رواية الجاحظ لهذه الأبيات وإيراد مؤلف كتاب البدو لها دليلاً على صحة نسبها وعلى أصالتها .

أما أنا ، وقد عرفت مجهوده في كتابيه شعراء النصرانية والنصرانية وآدابها ووقفت على نَصَبه فى نقل القصائد والأبيات من مظانّها المطبوعة والمخطوطة الى كتابيه هذين والى مجلة المشرق على أنه من شعر شعراء كانت أقدامهم فى النصرانية راسخة ثابتة ، فلا أريد أن أشغل القارىء بإيراد الأدلة والحجج فى نقض ما لا حاجة به الى نقض ، فرجل يرى أن امرأ القيس وغيره من شعراء الجاهلية الوثنيين كانوا نصارى لمجرد ورود أبيات فى أشعارهم فيها لفظة الجلالة أو رائحة اعتقاد بآله ، هل يطلب منه أن يأتي لنا ببرهان على إثبات أن هذا الشعر لعدي ؟ وعدي كما نعلم ونعتقد شاعر نصراني إن كان قد أثبت كل ما قلناه لشعراء لم يقم أي دليل على تنصر أكثرهم ، بل على اعتقادهم بشيء ، فكيف نجادله على نسبة أبيات لشاعر ثبت لنا من أقوال المتقدمين أنه نصراني من بلد كانت فيه طائفة كبيرة من الناس على هذا الدين . اللهم اشهد بأننا لا نفعل ذلك ، ولن نفعله . ولكننا لا نستطيع على كل حال أن نقول إن كل ما نسب الى عدي صادر عنه ، فهذا قول لا يمكن فى رأينا أن يقال . ونحن حين نورده لانورده لننقص إيمان عدي بالنصرانية أو لننقص عدد النصارى الجاهليين ، لإراءة أن النصرانية لم تكن بين العرب الجاهليين منتشرة معروفة ، وأنها لم تكن إلا فى مواضع معينة . لا نريد ذلك ولا نقصده أبداً . إنما نريد منه ألاّ تتغلب العواطف على أحكامنا ، فنقبل كل رواية ، ونأخذ بكل ما هو مدون لمجرد أنه مما يتفق ومذهبنا ورأينا ، وما الذي يرفع أو يحط من شأن دين محترم إن أضفنا الى أتباعه أو أخرجنا منهم جملة شعراء . إن أضفناهم اليه ، فلن يستفيد منهم شيئاً ، وان اخرجناهم من حظيرته فلن يضيره ذلك أبداً . أما أن تكون وراء هذا النفي أو الإثبات غايات وضعت فرسخت فى الأذهان يريد أصحابها إثباتها والاصرار على صحتها لإظهار أن الاسلام مثلا مأخوذ من النصرانية ومن أقوال نصارى عاشوا عند ظهور الاسلام أو قبيل ظهوره ،

فتلك قضايا لا تهمنا كثيراً ولا قليلا . فلن يضير الاسلام قول أو رأي سبق أن قيل فى أيام الرسول ، وأورده القرآن الكريم كما ذكرت من قبل . ولو كان الإسلام يهتم بهذا وأمثاله، لما أشير اليه فى كتاب الله . فلهم دينهم ولنا ديننا ، وليس لنا أن نتعنت أو نتحكم فى آراء الناس .

ورأيي فى البيتين :

قضى لستة أيام خلائقه ... وكان آخرها أن صور الرجلا

دعاه آدم صوتاً فاستجاب له ... بنفخه الروح فى الجسم الذي جبلا

وفى الأبيات الأخرى التي تليها أو تسبقها فى الجنة وفى حواء وتجربة الشيطان ، لا يختلف قليلا أو كثيراً عن رأيي فى الأبيات المتقدمة . وان كانت من الأبيات التي أثبتها الجاحظ لعدي [1] . فأنت ترى أن البيت الأول هو آخر بيت من الأبيات المتقدمة، وأن الثاني والابيات التي تليه هي تتمة للأول ، وتابعة لما قبلها . فما قيل عن الأصل ، ينطبق بالطبع على الفرع ، والفرع جزء من ذلك الأصل . وناظم هذه الأبيات والأبيات السابقة هو رجل واحد ، نظمها فى الاسلام ، وأضافها الى الشاعر عدي لسبب من الأسباب.

وقد اختتم الجاحظ الأبيات المتقدمة بهذين البيتين :

وأوتيا الملك والانجيل نقرؤه ... نشفي بحكمته أحلامنا عللا

من غير ما حاجة إلاّ ليجعلنا ... فوق البرية أرباباً كما فعلا [2]

والقصة التي نظمت فيها هذه الأبيات ، هي قصة آدم وحواء والجنة والحية الرقشاء ، فما علاقة آدم وحواء بالملك والانجيل ؟ وما علاقة هذه القصة بهذا التبشير الديني ، ثم بنظرية

---

(١) الحيوان (٣/٦٥) ، النصرانية (ص ٢٥٦ وما بعدها) ، الحيوان (٤/١٩٨) .

(٢) الحيوان (٤/١٩٩) .

التفوق على بقية البرية . إن هذين البيتين لا يختلفان فى نظري عن ذلك البيت الذي نسب أخيراً الى السموأل لإثبات أن السموأل ، وهو شاعر يهودي أجمع الأخباريون على تهوده ، كان قد بشر بالمسيح وأثبت أن عيسى هو ذلك المسيح المنتظر ، وقد هلل شيخو لهذا البيت وكبّر ، واتخذه كمادته دليلا على تنصر السموأل [١] . ولكن هل بالمسيح حاجة الى تأييد ذلك الشاعر الجاهلي ؟

وأورد شيخو لعدي أبياتاً أخرى فى إبليس وإغرائه حوّاء وفى الحية الرقطاء ، ذكر أنه نقلها من كتاب العصامي (بسط النجوم العوالي فى انباء الأوائل والتوالي) ، مطلعها :

سعى الرجيم الى حوّاء بوسوسة	غوت بها وغوى معها أبو البشر
خلقان من مارج أنشا خليقته	وخر من تراب الأرض والمدر [٢]

الى آخر ذلك من أبيات إن تأملت فيها ، وقارنتها بما ورد فى هذا الموضوع فى الكتب النصرانية وفى المؤلفات الاسلامية ، عرفت نوع هذه الأبيات وطبيعة هذه المقالة . ثم لك أن تقول بعد ذلك بما ترى من صحة نسبها الى عديّ . فلك إذن أترك هذه المهمة ، مهمة الحكم على أصل هذا الشعر .

ولا بد لي ، وقد بينت لك رأيي فى هذا الشعر المنسوب الى عدي ، من الاشارة الى رأي الجاحظ فى شعر عدي . والجاحظ كما رأينا قد أثبت فى مؤلفاته تلك الأبيات المتقدمة ، فهو يقول في كتاب الحيوان : « وقال عدي بن زيد العبادي ، وهو أحد من قد حمل على شعره الحمل الكثير ... » [٣] . فهل يكون ما ذكرت من ضمن هذا الكثير الذي حمل على

---

(١) النصرانية (ص ٢٧٧) . (٢) النصرانية (ص ٢٥٨) .

(٣) الحيوان (١٤٩/٧) .

شعر عدي ؟ لك أن تقول فيه ما تشاء . أما أنا ، فرأيي أنه من هذا النوع . وقد أشار العلماء الى بعض هذا المنسوب الى عدي ، كالذي نسبه الجاحظ الى عدي ، فذكروا أنه لغيره وقد نصوا عليه [1] . والجاحظ في الواقع ناقل ، يكتب ما يقال له ، على أنه ناقل مترجم لمقالات الناس . وقد اعترف هو بذلك على نفسه حينما عابه الناس على هذا النقل في مقدمته لكتابه الحيوان [2] ، وفي معرض دفاعه عن نفسه ، فلا حجة على الأصالة لما يكتبه الجاحظ وينسبه الى الماضين .

أحجم علماء اللغة عن الاستشهاد بشعر عدي في قواعد اللغة كما أشرت الى ذلك فيما مضى ، ولا أظن أن امتناعهم عن الاستشهاد بشعره ناشىء عن مخالفته مذاهب شعراء الجاهلية ، أو لأن ألفاظه ليست نجدية ، بل لسبب آخر مهم جداً هو تأثر هذا الشاعر بحياة الحضر وبأدبهم وبلغتهم ، حتى بان ذلك عليه في استعمال الكلم الأعجمي المعرب في شعره . ومثل هذا الاستعمال يحمل علماء اللغة على تجنب الاستشهاد بشعرٍ هذا شأنه في قواعد اللغة . ثم إنه عاش بين قوم حضر كانت لغتهم قد تأثرت بلغة من اختلطوا بهم من الفرس والنبط ، فلم تبق صافية نقية خالصة كلغة عرب البادية البعيدين الذين لم يختلطوا بغيرهم ، فلم تصب لغتهم بداء العجمة والأمراض اللغوية التي تنشأ من الاختلاط والامتزاج . ولهذا لم يستشهد بلسان « قضاعة وغسان وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية » [3] . ويقصد بالعبرانية لغة بني إرم .

---

(١) الحيوان (٤/١٣/٤) ، حاشية رقم ٣ وهي للمحقق عبد السلام محمد هارون في أثناء تعليقه على شعر نسبه الجاحظ لعدي ، بينما هو المتلمس الضبعي .

(٢) الحيوان (١/١١ وما بعدها) .

(٣) المزهر (١/١٠٥) .

وقد تحاشى العلماء من الاستشهاد بشعر العرب المتحضرة ، لعامل الاختلاط والأخذ بوسائل الحضارة الآتية من الخارج تحمل معها جراثيم العجمة . فتجنبت الاستشهاد بشعر من ذكرت من القبائل ، وهى من العرب التى عرفت عند الأخباريين بالعرب المتنصرة ، وتجنبت الاستشهاد بشعر قبائل أخرى من بقية القبائل المتنصرة ، لتأثرها بالإرمية التى وجدناها فى تلك النصوص المعدودة التى عثر عليها فى بلاد الشام ، كالذي يظهر من استعمال « بر » الإرمية فى موضع « ابن » العربية مع أن المتكلمين هم عرب ، وأمثال ذلك من كلمات .

ثم لابدّ لي فى هذا الموضع أيضاً من الاشارة الى أمر مهم هو ضرورة توجيه عنايتنا لنقد الموارد القديمة وفحصها وتمحيصها وتحليلها تحليل العالم « الكيمياوي » للأشياء فى المختبرات . فان فى هذا المروي الينا كثيراً من الأخطاء والمتناقضات . ووروده الينا مدوناً فى المؤلفات القديمة ، لايعني أنه ثابت قطعي ، لقد قلت إن رأي العلماء هو عدم الاستشهاد بشعر أبي دُواد الإيادي وبشعر عدي بن زيد لأسباب ذكرتها ، بينما نجد « أبا إياس النصري » ، وكانأنسب الناس ، يقول : « كانوا يقولون : أشعر العرب أبو دواد الإيادي، وعدي بن زيد العبادي » (١) . وشاعر هذا شأنه ، هل يرفض الاستشهاد بشعره ؟ ويذكر الجاحظ أن أهل الحيرة كانوا يمنون بشعره (٢) . أفلا يكون لهم دخل فى اضافة كثير من الشعر المنحول اليه ؟

---

(١) البيان والتبيين (١/٣٢٣) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .

(٢) الحيوان (٧/١٤٩) .

أما الأعشى ، فهو شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية وقضي شطراً من حيـاته الأخيرة فى الإسلام . وقد مدح الرسول بقصيدة جميلة مشهورة . جواب فى الآفاق ، عرف الحيرة ونادم ملوكها ، وزار النجاشي كما يقـول ، وتجول فى اليمن وفى حضرموت وعمـان وبلاد العراق وبلاد الشأم ومتع نظره بالآثار القديمة واتخذهـا عبرة للمعتبرين [1] . وقد وسـعت هذه الأسفار آفاق نظره وعرفته على شعوب متعددة وعلي آراء ومعتقدات متنوعة ، ومنها هذه النصرانية التى نبحث فيها .

والذي يهمنا من شعر الأعشى هو القسم الذي فيه إشارات الى النصرانية ، لنفهم منه نصرانية نصارى العرب قبيل الإسلام وعند ظهوره . ونجد فى شعر الأعشى ما وجدنـاه فى شعر عدي بن زيد من وصف للخمر وللقيان . وقد أدّاه شغفه بالخمر وإقباله عليهـا الى الاتصال باليهود وبالنصارى خاصـة ، وهم أهـل خمر وشراب ، فباعـة الخمر وأصحابها أكثرهم من النصارى ومن اليهود ، وقد أداه اتصاله بالنصارى مثل العبـاديين نصـارى الحيرة الى التأثر بهم والتعرف على آرائهم وعلى الاشارة الى النصارى والى بعض عاداتهم

---

(١) وقـد طفت للمـال آفاقه عمان فحمص فأوري شلم
أتيت النجاشي في أرضـه وأرض النبيط وأرض العجم
فنجران فالسرو من حمير فأي مرام له لم أرم
ومن بعد ذاك الى حضرموت فـأوفيت همي وحيناً أهم
ألم تري الحضر إذ أهله بنعمي ، وهل خالد من نعم ؟
أقام به سـابور الجنود حولين يضرب فيه القدم
فـما زاده ربه قـوة ومثل مجـاوره لم يقم

ديوان الأعشى « طبعة رودولف كاير » (ص ٣٣ وما بعدها) .

قد طفت ما بين بانقيـا الى عدن وطال في العجم ترحالي وتسياري

ديوان الأعشى (ص ١٢٦) .

وعقائدهم فى شعره [1] .

وفى خلال زيارة الأعشى لنجران ، زار كنيستها ، وقد نعتها بـ « كعبة نجران » ، وأشار الى أربابها الذين كانوا يشرفون عليها ويديرون شؤونها وهم من بنى عبد المدان من أعيان بني الحارث بن كعب [2] .

ونراه فى مدح « قيس بن معد يكرب الكندي » يقول :

تطوف العفاة بأبوابه كطوف النصارى ببيت الوثن [3]

وهو يشير بذلك الى عادة النصارى فى الطواف حول الصليب أو تمثال المسيح . ثم

---

(١) « قال لي يحيي بن متي راوية الأعشى ، وكان نصرانياً عبادياً وكان معمراً ، قال : كان الأعشى قدرياً ، وكان لبيد مثبتاً . قال لبيد :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولى الملامة الرجلا

قلت : فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من قبل العباديين نصارى الحيرة . كان يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك » ، الأغاني (٨/٧٩) « طبعة بولاق » ، نالينو : تأريخ الآداب العربية (ص ٧١) .

(٢) وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها
تزور يزيداً وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها
إذا الحبرات تلوت بهم وجروا أساور هدابها

النصرانية (ص ٦٤) .

(٣) ديوان الأعشى (ص ١٩) . « وكانت النصارى نصبت الصليب . وهو كالتمثال تعظمه وتعبده ولذلك سماه الأعشى وثنا . قال :

تطوف العفاة بابوابه كطوف النصارى ببيت الوثن

أراد بالوثن الصليب . قال : وقال عدي بن حاتم : قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال لي : ألق هذا الوثن عنك أراد به الصليب . كما سماه الأعشى وثنا » ، اللسان (١٧/٣٣٤) .

نراه فى بيت آخر يشير الى الصليب نصبه الراهب فى الهيكل بعد أن زينه بالصور[1] . وهو إذ يقول ذلك ، فإنما يتحدث عن عمل النصارى فى كنائسهم فى ذلك الوقت . ويلاحظ أنه استعمل كلمة الوثن فى معنى تمثال المسيح أو الصليب ، بينما الوثن خاص بالوثنيين ، أي بالمشركين عبدة الأصنام فى نظر المسلمين .

ونرى الأعشى يتحدث عن سليمان وعن جنّ سليمان وعن المباني القديمة العادية المنسوبة اليه ، كما نراه يقص علينا بعض الأساطير القديمة والقصص الذي كان شائعاً عند الجاهليين مثل عاد وثمود وجاسم وطسم ووبار وأمثال ذلك[2]، وأكثره فى نظري مما وضع على لسانه وصنع فيما بعد .

والأعشى هو شاعر نصراني على رأي الأب شيخو . ومن يدري ؟ فلعله كان يتصور انه نصراني ابن نصراني من أسرة نصرانية الى أيام المسيح .

وعندي أن مثل هذه الأبيات موضع نظر حقّاً ، ولا أستبعد أن تكون من النوع المصنوع الذي أضيف الى الجاهليين . وهي من النوع الذي لا يمكن أن يستشهد به لتكوين رأي تأريخي صحيح ، بل لا بد من دراسته وتمحيصه ، وعندئذ يمكن البت فيه . ومثل هذه الدراسات لم تتم حتى الآن .

ويصعب علينا فى الواقع اثبات أن الأعشى كان شاعراً نصرانياً يرى رأي النصرانية ويدين بما يدين بها العباديون أو غيرهم . نعم ، إن الشعر المنسوب اليه يجعل منه رجلاً موحداً يدين بآله واحد كريم[3] ، يأنف من عبادة الأوثان ، وينهي عنها[4]، ويرى أن

---

(١) وما أيبلى على هيكل بناه وصلب فيه وصارا
ديوان الأعشى (ص ٤٠) ، النصرانية (ص ٢٠٤) .

(٢) ديوان الأعشى (٢٤٢ وما بعد ومواضع أخرى) .

(٣) ربي كريم لا يكدر نعمة فاذا تنوشد في المهارق أنشدا
النصرانية (ص ١٦٢) .

(٤) وذا النصب المنصوب لا تسكننه ولا تعبد الأوثان ، والله فاعبدا
النصرانية (ص ١٥٩) .

الربّ يكفي الانسان ويرعاه ويساعده فى حلّه وفى ترحاله [1] ، وأن الانسان عبده [2] . وأن الفناء واقع على كل امرىء ، وليس أحد فى هذه الدنيا بخالد ، ولو كان الخلود لأحد لكان لسليمان [3] . غير أن كل ذلك لا يمكن أن يكون دليلاً على أنه نصراني خالص فى النصرانية أصيل فيها على نحو ما نفهم من كلمة نصراني . ثم من ذا الذي يستطيع أن يؤكد لنا تأكيداً جازماً أن هذا الشعر هو من نظم الأعشى حقاً ، وأنه قاله بكل تأكيد ، فلا لبس في ذلك ولا شك ! ان استطاع أحد اثبات ذلك ، كان لنا فى الموضوع اذن رأي آخر ، ووجهة نظر ستختلف عن وجهة نظرنا هذه حتماً . ولكن ، كيف السبيل الى اثبات هذا ، وليس لدى أحد نصوص مؤكدة تؤكد هذا التأكيد ؟

وأهم علامة فارقة ميزت نصارى عرب الجاهلية عن العرب الوثنيين ، هى أكل النصارى للخنازير ، وحملهم للصليب وتقديسه . ورد أن الرسول قال لراهبين أتياه من نجران ليبحثا فيما عنده : « يمنعكما من الاسلام ثلاث : أكلكما الخنزير ، وعبادتكما الصليب ، وقولكما لله ولد » [4] . وورد فى شعر ذي الرمة :

ولكنّ أصل إمرىء القيس معشرٌ يحل لهم أكل الخنازير والخمر [5]

وقد قصد بذلك النصارى . أما الخمر ، فكانت مباحةً عند النصارى وعند الوثنيين .

---

(١) ولكن ربي كفى غربتي بحمد الإله فقد بلغن
ديوان الأعشى (ص ١٧) .

(٢) فأقسم بالله الذي أنا عبده لتصطفقن يوماً عليك المآتم
ديوان الأعشى (ص ٥٨) .

(٣) ولو كان شيء خالداً ومعمراً لكان سليمان البريء من الدهر
رآه إلهي فاصطفاه عبادة وملكه ما بين ثريا الى مصر
وسخر من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون بلا أجر
ديوان الأعشى (ص ٢٤٣) .

(٤) البلاذري (ص ٧١) . (٥) النصرانية (ص ٧٠) .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء أعياد نصرانية ترجع أصول تسميتها فى الأكثر الى لغة بني إرم ، ويظهر أن أولئك الأخباريين تعرفوا عليها فى الاسلام باختلاطهم وباتصالهم بالنصارى ، إذ لم يشيروا الى ورود أكثرها فى الشعر الجاهلي ، ومن عادتهم أنهم إذا عرفوا شيئاً كان معروفاً عند الجاهليين جاؤوا ببيت أو أبيات يستشهدون بها على ورودها عند الجاهليين .

ومن الأعياد التي ورد فيها شاهد فى الشعر الجاهلي ، « السباسب » ، وهو « يوم السعانين » و « الشعانين » .وقد وردت كلمة السباسب فى بيت للنابغة قاله فى عيد السعانين عند بنى غسّان [1] .

والسعانين والشعانين من أصل عبراني هو « هوشعنا » . وقد وردت هذه الكلمة فى صحيفة صلح عمر مع نصارى الشأم ، ووردت معها لفظة أخرى من الألفاظ النصرانية كذلك هي « الباعوث » [2] ، وهي رتبة تقام فى اليوم الثاني من عيد الفصح [3] . وقد ذكرها علماء اللغة فى جملة الألفاظ المعربة ، الإرمية الأصل، وجعلها بعضهم الباغوت [4] .

---

(١) رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

« والسباسب أيام السعانين . وفي الحديث ان الله تعالى ابدلكم بيوم السباسب يوم العيد . يوم السباسب عيد للنصارى ، ويسمونه يوم السعانين» ، تاج العروس (١/٢٩٣) ، النصرانية (ص ٢١٥) ، عن « أحد الشعانين » راجع المشرق : السنة الثامنة الجزء ٨ السنة ١٩٠٥ (ص ٣٣٧ وما بعدها) .

(٢) « أن لا يحدثوا كنيسة ولا قلية ، ولا يخرجوا سعانين ولا باعوثاً » ، « ويوم السعانين عيد للنصارى . وفي حديث : شرط النصارى ولا يخرجوا سعانين . قال ابن الأثير : هو عيد لهم معروف . قبل عيدهم الكبير باسبوع . وهو سرياني معرب . وقيل : هو جمع واحده سعنون» ، اللسان(١٧/٧١).

(٣) النصرانية (ص ٢١٧) .

(٤) المخصص (١٣/١٠٢) تاج العروس (١/٦٠٢) ، المعرب للجواليقى (ص ٥٧) ، اللسان (٢/٤٢٢) ، النصرانية (ص ٢١٧) ، « والسعانين : عيد للنصارى قبل عيد الفصح باسبوع. يخرجون فيه بصلبانهم . وهو سرياني معرب » ، تاج العروس (٩/٢٣٥) ، « أفصح النصارى : جاء فصحهم . بالكسر أي عيدهم . وهو نوروزهم ومعبدهم . وهو اذا افطروا وأكلوا اللحم ومثله في المصباح . وأفصح النصارى بالألف افطروا من الفصح وهو عيدهم ، مثل عيد المسلمين » ، تاج العروس (٢/١٩٧) .

وورد في ترجمة عدي بن زيد العبادي : عبارة « خميس الفصح » ، وهو بعد السعانين في ثلاثة أيام [1] .

وقد أشرت الى ورود عيد « الفِصْح » في بيت للأعشى يمدح فيه « هوذة بن علي » لتوسطه لدى الفرس بالافراج عن مئة أسير من أسرى بني تميم همّ الفرسُ بقتلهم ، وذلك لمناسبة يوم الفصح . وقد كان نصارى الجاهلية يحتفلون به ، فيوقدون المشاعل ، ويعمرون القناديل ، ويضيئون الكنائس بالمسارج ويقصدونها للاحتفال بها ، حتى قيل للقنديل الذي يعمر لهذا اليوم « قنديل الفِصْح » [2] .

وقيل لاجتماع النصارى واحتفالهم « الهنزمن » ، وذكر أن هذه اللفظة من أصل فارسي هو « هنجمن » أو « أنجمن » ، ومنها دخلت الى السريانية فأطلقت على اجتماع النصارى واحتفالهم وتعييدهم [3] .

---

(١) « خرجت في خميس الفصح ، وهو بعد السعانين بثلاثة أيام ، نتقرب في البيعة » ، الأغاني (٣/٣٢) ، النصرانية (ص ٢١٦) .

(٢) قال عدي بن زيد العبادي :

بكروا علي بسحرة فصحبتهم ... بإناء ذي كرم كقعب الحالب
بزجاجة ملء اليدين كأنها ... قنديل فصح في كنيسة راهب

الأغاني (٩/٥٣) ، « والفصح بالكسر : فطر النصارى . وهو عيد لهم . وأفصحوا جاء فصحهم . وهو إذا افطروا وأكلوا اللحم » ، اللسان (٣/٣٧٨) . النصرانية (ص ٢١٦) .

وورد في شعر لأوس بن حجر من شعراء الجاهلية :

عليه كمصباح العزيز يشبه ... لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

شعراء النصرانية (ص ٤٩٤) ، النصرانية (ص ٢١٦) .

(٣) « الهنزمن كجردحل : أهمله الجوهري . وهو الجماعة . معرب هنجمن بفتح فسكون فضم الجيم وفتح الميم . أو أنجمن بالألف . وهو المشهور المتعارف عند الفرس . ويطلق على مجلس الشرب أو لمجمع الناس مطلقاً . أو لعيد من أعياد النصارى أو لسائر العجم قال الأعشى :

اذا كان هنزمن ورحت مخشما .

ويقال أيضاً الهنزمر بالراء . والهيزمن بالياء بدل النون الأولى » ، تاج العروس (٩/٣٦٨) ، اللسان (١٧/٣٢٩) ، النصرانية (ص ٢١٧) .

وكما كان الوثنيون الجاهليون واليهود يحجون الى معابدهم ومزاراتهم ويحتفلون بأعيادهم ، كذلك كان نصارى العرب يذهبون الى معابدهم للتعبد فيها فى أوقات العبادة وفي المواسم الدينية ومنها الأعياد . وقد رأينا أن عرب الشأم كانوا يقصدون ضريح القديس « سرجيوس » في الرُّصافة للتقرب اليه وتعظيمه ، وأن أهل الحيرة كانوا يقصدون الكنائس العديدة فى مدينتهم للصلاة فيها ، كما كانوا يقيمون فيها حفلات التعميد . وقد شاد أهل الحيرة ونصارى الشأم أديرة وكنائسَ للتعبد فيها ، وردت أسماء الكثير منها فى الشعر الجاهلي . وقد قصدها الوثنيون أيضاً للتنزّه فيها وللتسلية ، كما أشير الى الكثير منها فى الإسلام .

وقد أشار امرئ القيس فى بعض شعره الى عيد النصارى ، ولبس الرهبان فيه ملابس طويلة ذات أذيال [١] . وورد فى بيت للعجاج ذكر لعيد النصارى [٢] . وقد سمى أهل الأخبار بعض أعياد النصارى ، وكلمة « عيد » نفسها كلمة إرمية الأصل على رأي الأب « لويس شيخو » أخذها نصارى العرب الجاهليين من بني إرم [٣] .

وكما اتخذ الوثنيون الجاهليون الأصنام فى معابدهم ، وضع نصارى العرب التماثيل فى بيعهم وكنائسهم ، كما يستفاد ذلك من بعض أشعار الجاهليين [٤] . ولا أستبعد كون بعض الأصنام من مصنوعات النصارى ، اشتراها الوثنيون من بلاد الشأم ووضعوها فى بيوت أصنامهم ، على أنها رمز لأصنامهم التي كانوا يتقربون اليها ، كما رأينا فى وجود تماثيل تمثل بعض الأنبياء فى مكة التي هي مجمع الأوثان والأصنام .

---

(١) فآنست سرباً من بعيد كأنه رواهب عيد في ملاء مهدب
النصرانية (ص ١٧٣) .

(٢) واعتاد أرباضاً لها آري كما يعود العيد نصراني
الألفاظ : لابن السكيت (ص ٤٤٦) ، اللسان (٣١٤/٤) ، النصرانية (ص ١٧٣) .

(٣) النصرانية (ص ١٧٣) .

(٤) المشرق : السنة الحادية عشرة العدد ٦ (سنة ١٩٠٨) (ص ٤٢٨) .

ونجد بين أسماء رجال الحيرة وأشرافها أناساً تسموا بأسماء نصرانية محضة مثل عبد المسيح . وممن سموا بذلك عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني ، ويدخله الأخباريون في جملة المُعَمَّرين ، وذكروا أنه أدرك الإسلام ، ولم يسلم . وكان منزله في الحيرة ، وهو من أشرافها وأعيانها [1] ، وكان له دير عرف باسمه [2] .

وكان في الحيرة سَراة اشتركوا مع سَراة قريش وغير قريش في الأعمال التجارية ، مثل كعب بن عدي التنوخي وهو من سراة نصارى الحيرة ، وكان أبوه أسقفاً على المدينة ، وكان هو يتعاطى التجارة ، وله شركة في التجارة في الجاهلية مع عمر بن الخطاب في تجارة البز . قدم المدينة في عهد الرسالة ورأى الرسول ، واشترك في جيش اليمامة مع المسلمين ، ولم يكن يومئذ مسلماً ولا نصرانياً على رواية ، أو هو مسلم أسلم في زمن الرسول على رواية أخرى . وقد أرسله عمر في مهمة الى المقوقس ، وشهد فتح مصر [3] .

وقد كان نصارى الجاهلية يعمّدون أولادهم ، يأخذونهم أطفالاً الى الكنائس لتعميدهم على نحو ما يفعل سائر النصارى [4] . وقد قيل له التغميس والتصبيغ [5] .

ويظهر من كتب الحديث أن اليهود والنصارى عند ظهور الاسلام كانوا يخالفون

---

(١) المعمرون للسجستاني (ص ٣٨ طبعة ، كولد تزهير) ، المشرق : السنة السابعة عشرة (١٩١٤) « ص ١٣٢ » .

(٢) البلدان (٢/٦٧٧) ، (٣) الإصابة (٥/٣٠٥ وما بعدها) .

(٤) « والمعمودية : هكذا في سائر النسخ بتشديد الياء التحتية ومثله في التكملة والصواب تخفيفها كما في العناية . وقال الصولي في شرح ديوان أبي نواس : ان لفظ معمودية معرب معموذيث بالذال المعجمة ، ومعناها الطهارة . وهو ماء أصفر للنصارى يقدس بما يتلى عليه من الانجيل ، يغمسون فيه ولدهم معتقدين انه تطهير له كالختان لغيرهم . وفي العناية في أثناء البقرة ، وان صبغة الله هناك في مقابلة ما كانت النصارى تفعله في أولادها ... » ، تاج العروس (٢/٤٣٢) .

(٥) السنن الكبرى (٩/٢١٦) ، « ومنه صبغ النصارى أولادهم في ماء لهم . قال الفراء : إنما قيل صبغة لأن بعض النصارى كانوا إذا ولد المولود جعلوه في ماء لهم كالتطهير . فيقولون هذا تطهير له كالختانة » ، اللسان (١٠/٣٢٠) .

المشركين فى بعض عاداتهم ، كالذي ورد عن عبد الله بن عباس من « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره ، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم . وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء . ثم فرق النبي صلى الله عليه وسلم رأسه »[1] ، وكالذي ورد من أن أهل الكتاب كانوا يخالفون الجاهليين فى كيفية التحية عند ملاقاة أحدهم الآخر ، وأن الرسول أقر المصافحة .

رأينا النصرانية متفشية بين العرب فى العراق وبلاد الشأم عند ظهور الإسلام ، ورأينا لها أتباعاً فى جزيرة العرب كان لهم نشاط فى نشر عقائدها بين الجاهليين ، ورأينا السياسة نشيطة فى استغلال اسم هذه الديانة وفى تأييد مذاهبها ، ولو لم تصدر كلمة الله بظهور الاسلام ، وبنشره بين العرب والناس أجمعين ، وبتوحيد سكان تلك الجزيرة سياسياً وثقافياً واجتماعياً ونحو ذلك ، لكان وضع العرب فى هذه الدنيا شيئاً آخر ولا شك ، يمكن أن يعرفه المؤرخ ويصوره من دراسة الأوضاع الثقافية والسياسية والاقتصادية التي كانت منتشرة بين متنصرة العرب عند ظهور الإسلام .

---

(١) عمدة القارىء (١٧/٧١) .

الفصل الخامس

أثر اليهودية والنصرانية في الجاهليين

والآن ، وقد أنتهينا من اليهودية والنصرانية بين الجاهليين قبيل الاسلام وعند ظهوره ، نودّ أن نتكلم على الأثر الذي تركته هاتان الديانتان في أهل الجاهلية ، وعلى درجة تأثر الجاهليين باليهودية والنصرانية في ذلك العهد . وهو بحث يدفعنا مرة أخرى الى تكرار حديث قلناه مراراً ، وهو أسفنا على عدم وصول شيء مفيد الينا من الكتابات الجاهلية يفيدنا في الكشف عن اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب وعن أثر هاتين الديانتين في الجاهليين . فكل سندنا وعمادنا في بحثنا في اليهودية والنصرانية ، في ذلك العهد ، روايات رواها أهل الأخبار علينا أن نتحفظ كثيراً في الاعتماد عليها ، لأن في الكثير منها ما يدعو الى الشك فيه والى عدم الأخذ به .

والشعر الجاهلي هو مَظِنّة البحث عن هذا الأثر . فالقول بين رواة ذلك الشعر وحفظته والمثبتين له على الورق وفي ثنايا الكتب أنه من صنع شعراء عاشوا قبل الاسلام ، ومن صنع شعراء أدرك بعضهم الاسلام ، فحياتهم إذن حياتان : حياة جاهلية ، وحياة اسلامية . فما نظموه من شعرهم قبل الاسلام هو شعر جاهلي ، وما نظموه في الإسلام هو شعر اسلامي . والشعر من النوعين المذكورين إن صح أصلهما ونسبهما ، مادة مفيدة لنا في الكشف عن أثر الآراء اليهودية والنصرانية عند أهل الجاهلية . وعلينا البحث بين أبياته وقصائده للعثور على كلمات وجمل ذات صلة وعلاقة بالمصطلحات والآراء الدينية الواردة في

الديانتين المذكورتين ، لنستخرج منها رأياً فى أثر اليهودية أو النصرانية فى العرب قبل الاسلام .

وقد استعرضنا فى الفصل المتقدم الآراء النصرانية فى شعر عدي بن زيد العبادي ، وهو شاعر نصراني ما فى ذلك شك ، نص الأخباريون ورواة الشعر على نصرانيته . ثم استعرضنا الآراء النصرانية فى شعر الأعشى ، وهو شاعر زعم شيخو أنه نصراني وزعم آخرون أنه متأثر بالنصرانية ، فلم نجد فى شعره ما يشير الى أنه كان نصراني الدين ، ولم نجد فى شعره أيضاً ما يفيدنا عن مدى فهم نصارى الجاهلية للنصرانية . وكل ما وجدناه فى شعره ، أشياء كان من اللازم أن يعرفها نتيجة لاختلاطه بالنصارى واتصاله بهم ، ونتيجة لأسفاره الكثيرة التي قام بها فى مناطق كان بها كثير من النصارى . وقد أدخل فى شعره كلمات فارسية ، وكلمات من لغة بني إرم كانت مستعملة معروفة فى المناطق التي ولجها واختلط فيها بأهلها : أدخلها فى شعره ، وهو لم يكن مع ذلك فارسياً على دين الفرس ولا نبطياً من النبط ، إنما كان عربياً لم يشك أحد فى نِجاره ، قام بأسفار ورحلات واختلط بثقافات فتأثر بها ، وبان هذا الأثر فى ذلك الشعر .

والشاعر الأول الذي يصلح لموضوعنا هذا ، ويصح أن يكون شعره موضع دراسة لمعرفة رأي صاحبه وتأثره بالنصرانية أو باليهودية ، هو أمية بن أبي الصلت . وهو شاعر جاهلي ، أدرك الإسلام ، وعاصر الرسول ، ولقيه فى جماعة من قومه ولكنه حسده وحقد عليه ؛ لأنه أراد أن تكون النبوة فيه ، وأن تكون الرئاسة اليه ، ولا سيما أنه شاعر وله إلمام بقصص الأولين وعلم بأخبار الماضين وبما عند اليهود والنصارى من علم بكتب السماء ، وأنه كان يقرأ ويكتب و « قد قرأ الكتب المتقدمة » [1] . وندد بأصنام قومه وبعبادتهم للأوثان ، ودعاهم الى التوحيد . فلم يكن من السهل عليه الانصياع لدعوة الرسول والايمان

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء (ص ١٧٦) ، روح المعاني (٩/١١١ وما بعدها) .

به ، فكفر برسالته ، وجاهر بانكار نبوّته ، ومات على كفره قائلا : « إنما كنت أرجو أن اكونه » [1] . وقد أشير الى حسده هذا فى القرآن الكريم فى الآية : « وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين » [2] على رواية للمفسرين [3] . ويقال إن الرسول سمع شعره ، فقال فيه : « آمن لسانه وكفر قلبه »

(١) « وكان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول » ، روح المعاني (٩/١١٢) .

(٢) الأعراف الآية ١٧٥ .

(٣) تفسير الطبري (٩/٨٣) ، « قال أبو حمزة : وبلغنا أيضاً والله أعلم أنه أمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر . وروي ذلك عن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وأبي روق . وكانت قصته : انه قرأ الكتب وعلم أن الله سبحانه مرسل رسولا في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فلما أرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم حسده ومر على قتلى بدر فسأل عنهم ، فقيل : قتلهم محمد . قال : لو كان نبياً ما قتل أقرباءه . واستنشد رسول الله أخته شعره بعد موته فأنشدته :

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا ... ولا شيء أعلى منك جداً وأمجدا
مليك على عرش السماء مهيمن ... لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وهي قصيدة طويلة حتى أتت على آخرها ، ثم أنشدته قصيدته التي قال فيها :

وقف الناس للحساب جميعاً ... فشقي معذب وسعيد

والتي فيها :

عند ذي العرش تعرضون عليه ... يعلم الجهر والسراب الخفيا
يوم يأتي الرحمن وهو رحيم ... إنه كان وعده مأتيا
رب إن تعف فالمعافات ظني ... أو تعاقب فلم تعاقب بريا

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آمن شعره وكفر قلبه . وأنزل الله فيه قوله : واتل عليهم نبأ الذي آتيناه .. الآية . وقيل إنه أبو عامر بن النعمان بن صيفي الراهب الذي سماه النبي الفاسق . وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ، فقدم المدينة . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ماهذا الذي جئت به ؟ قال جئت بالحنيفية دين ابراهيم . قال : فأنا عليها . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : لست عليها . ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . فقال أبو عامر الراهب : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً ، فخرج الى أهل الشأم وأرسل الى المنافقين أن استعدوا للسلاح . ثم أتى قيصر وأتي بجند ليخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة فمات بالشام طريداً وحيداً . » ، تفسير الطبرسي المجلد الثاني : الجزء الرابع (ص ٤٩٩ وما بعدها) ، روح المعاني (٩/١١١ وما بعدها) .

و « كاد ليسلم » ، أو قال : « آمن شعره وكفر قلبه »[1] .

وقد تحدثت عن أمية ، فى الجزء السابق من هذا الكتاب ، وتحدثت عن آرائه الدينية وعن آراء بعض المستشرقين فيه[2] . وقد أشرت الى وجود شبه كبير فى بعض شعره بما ورد فى القرآن الكريم فى الموضوعات التي تطرق اليها أمية ، كما أشرت الى شك العلماء فى طائفة من ذلك الشعر المنسوب اليه ، والى ذهاب من كتب سيرته من قدماء الأخباريين أنه كان من الجوابين الرحالين الذين غادروا موطنهم فى الجاهلية وارتحلوا الى الخارج ، ولا سيما الشأم مقصد أهل اليمن والحجاز ، لأجل أغراض مختلفة ، وأن عاطفته الدينية كانت تطغي عليه ، فكان يندفع اندفاعاً الى التحدث مع القسيسين والرهبان ومن لهم علم بالأديان فى مشكلات الكون وفى معضلات الخلق وما بعده من موت وحساب وكتاب ، حتى حملته هذه العاطفة على اقتناء الكتب القديمة ، ومنها الكتب السماوية ، للحصول على ما يقنعه ويرضيه ، ولعله فاتح أحبار يهود فى هذه المعضلات أيضاً ، وجادلهم فى هذه الأمور .

والذين يرون تنصر أمية يستندون فى دعواهم هذه الى ورود قصص من المهدين فى شعره ، والى ورود بعض الآراء النصرانية فيه ، والى ما ذكره أهل الأخبار من أنه كان على دين ، وأن دينه الحنيفية . فزعم هؤلاء أن الحنيفية شيمة من النصرانية ، وأن أمية على ذلك من نصارى العرب الجاهليين[3] .

وقد رأينا أهل الأخبار يأخذون على أمية استعماله في شعره ، ولا سيما في القسم الديني منه ، الألفاظَ الأعجمية ، وهي ألفاظ لم تكن معروفة عند أهل الجاهلية ، وذلك يدل على أنه أخذها من أهل الكتاب . وقد ذكروا أمثلة منها وردت فى شعره . وهذه الألفاظ

---

(١) روح المعاني (١١٣/٩) . (٢) الجزء الخامس (ص ٣٧٧ وما بعدها) .
(٣) المشرق : السنة السادسة والعشرون ١٩٢٨ م (ص ٤٩٢) .

يجب أن تكون موضع دراسة خاصة ، لمعرفة الأصل الذي أخذها أمية منه : وهل هي كلمات صحيحة النسب والأهل حقا ، أو من الموضوعات أو المحرفات المسوخات . وعندئذ نستطيع الحكم بشيء من الحق والعلم بمقدار سعة علم أمية بمعارف أهل الكتاب ، وبما زعمه الأخباريون من قراءته للكتب القديمة ووقوفه على كتب الله المنزلة . ثم إن علينا قراءة شعره الدينى ، والتعمق فى فهمه ، لنتمكن من ارجاع أصوله الى المواضع الواردة عند أهل الكتاب : فى كتبهم ، وفى تفاسيرهم ، وفى قصصهم وأساطيرهم . ففي شعره وصف لسفينة نوح ، وذكر لإبراهيم ولقصة مريم وخراب سدوم مدينة « لوط » « لوت » وأمثال ذلك مما ورد فى « الكتاب المقدس » . فاذا ما قمنا بمقارنة هذا المذكور فى شعر أمية بما هو وارد فى التوراة أو فى الانجيل ، ورأينا قرب قصص أمية أو بعده من المذكور عنه فى العهدين ، أستطعنا أن نعرف أ أخذ صاحب هذا الشعر منهما رأساً أم بالواسطة ، أي من كتب أخرى ، أو من أفواه النصارى . وعندئذ يمكن أن نحكم على مقدار على ذلك الشاعر بعلم أهل الكتاب وأحكامهم .

ونرى للملائكة مكاناً في شعر أمية بن أبي الصلت ، وصفهم ، وتحدث عنهم ، وتطرق الى مراتبهم ودرجاتهم والى أعمالهم [1] . غير أننا يجب أن نثبت أولاً أن هذا الشعر شعر أصيل ومن قول أمية حقاً ، وأنه لم يكن قد حُمِلَ عليه فيما بعد . وقد رويت أبيات لعلقمة ابن العبد قالها فى مدح الحارث بن جبلة ، وقيل إنها لشاعر آخر هو من بني عبد القيس قالها فى مدح النعمان أشتملت على ذكر « ملاك » ينزل من جوّ السماء [2] . أما ورود

---

(١) قال أمية بن أبي الصلت :

وكأن برقع والملائك حوله ... سدر تواكله القوائم أجرد

اللسان (٣٨٦/١٢) تاج العروس (١٨٢/٧) .

(٢) تعاليت أن تعزى الى الإنس خلة ... وللإنس من يعزوك فهو كذوب

فلست لإنسي ولكن لملاك ... تنزل من جو السماء يصوب

« جبريل » في شعر حسّان بن ثابت [١] ، فإن ذلك لا يحتم الاُعتقاد بعلم حسّان به قبل الإسلام ، فلم ينقطع شعره في الإسلام ، ولا سيما وأنه قد لقب جبريل بـ « روح القدس » [٢] وهذا النعت هو مما شاع وعرف في الإسلام . غير أن في شعر أمية قصصاً يرجع أصله الى قصص الجاهليين ، وهو يحملنا على التفكير بأن علم أمية في الأمور التي لها صلة بالدين لم يكن من منبع واحد ، وإنما كان من منابع متعددة ، منها الأساطير التي كانت شائعة بين عبدة الأصنام . ثم إن في بعضه ما يشعر بأنه موضوع ، وأنه صنع في الإسلام وحمل عليه ، وأن الواجب يحملنا على تحليل شعر أميّة كلّه لمعرفة ما هو صحيح منه وما هو مصنوع موضوع .

ولا يستبعد أخذ أمية من أهل الكتاب . وقد رأيت أن منهم من كان في يثرب ، وأكثرهم من يهود ، وأن منهم من كان في مكة وفيهم قوم نصارى . وقد نسبت بعض المواضع في مكة الى النصارى ، مثل موقف النصارى ومقبرة النصارى ، مما يدل على وجود النصارى فيها وسكنهم هناك [٣] . وقد كان قسم منهم يقومون بالتبشير . وقد ورد أن ولدين لأبي حصين الأنصاري تنصرا على يد تجّار من الشأم أتوا الى مكة وذهبا معهم الى الشأم [٤] .

وهنالك شاعر آخر اسمه المتلمّس بن عبد المسيح ، يدل اسم أبيه هذا على أنه كان نصرانياً ، غير أن هنالك رواية أخرى تذكر أن اسم أبيه هو « عبد العُزى » [٥] .

= « وقال ابن السيرافي : هو لأبي وجزة يمدح به عبدالله بن الزبير » ، تاج العروس (٧/١٨٢) ، « ملك » ، النصرانية (ص ١٦٥) .

(١) ديوان حسان (ص ٤٢) ، « طبعة هرشفلد » ، النصرانية (ص ١٦٦) .

(٢) وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

ديوان حسان (ص ٢) ، النصرانية (ص ١٦٦) .

(٣) تاج العروس (٣/١٤٠) ، أخبار مكة (٥٠١) ، النصرانية (ص ٣٨٠) .

(٤) أسد الغابة (٥/١٧٢) ، النصرانية (ص ٣٨٠) .

(٥) Vollers, Die Gedichte des Mutalammis, Leipzig, 1903, S. 149.

وعبد العزى كما هو معروف من أسماء الوثنيين . ثم إننا لا نجد فى شعره ما يشير الى آراء وعقائد نصرانية يمكن أن يستنبط منها أنه كان نصرانياً . ورجل يحلف فى شعره باللات والأنصاب (١) لا يعقل أن يكون نصرانياً .

ونجد للطوفان ولسفينة نوح ذكراً فى أشعار بعض الجاهليين ، وفى طليعتهم بالطبع أمية ابن أبي الصلت . ولا إخالني مبالغاً اذا قلت إنه ناظم حادث الطوفان وسفينة نوح . ومن يقرأ هذا الشعر المنسوب اليه والمجموع أكثره فى ديوانه ، يرَ أنه لم ينظم هذا الحادث وحده ، بل نظم كثيراً من الحوادث الواردة عند أهل الكتاب ، وكثيراً مما نطلق عليه « الإسرائيليات » . ونجد من هذا الشعر شيئاً وافراً فى مؤلفات الجاحظ ، وفى كتاب « البدء والتأريخ » (٢) . وانفراد الجاحظ ومؤلف « البدء » بإيراد أبيات فى موضوعات دينية لهذا الشاعر ، ولعدي بن زيد يثير أسئلة كثيرة فى الأسباب التي دعت الى حملها على جمع تلك الأبيات وإثباتها : هل قصدا من وراء ذلك شيئاً أو لم يقصدا من غير ما يقصده أي كاتب أو مؤرخ آخر ، وهو التسجيل للإفادة . ثم من أين جاءا بهذه الأبيات ومن أي مورد أخذا ؟ هل أخذاها من مورد كان يهتم حقّاً بحفظ هذا النوع من النظم ، ولا سيما ما ورد عنه فى القرآن الكريم لغايات قد تكون متعمدة مقصودة ، أو أخذاها من موارد لم تقصد هذا القصد ولم ترده .

ويهمنا الجاحظ خاصةً . فالجاحظ ، على علمه ومنزلته فى الاعتزال ، كان كاتباً يكتب للناس ، ولم يكن نقاداً محققاً يعرض ما يعرض عليه من رأي وكلام ، ويضفي على كل مقالة تقال له طابعه الخاص ونَفَسَهُ المعلوم فى الكتابة ، ليقرأها القرّاء ، وهو لا يهتم بعد ذلك إذا كان هذا الرأي الذي يقوله موافقاً لرأيه الخاص أو معارضاً له . إنه عارضُ آراء

---

(١) أطردتني حذر الهجاء ولا واللات والأنصاب لا تئل
النصرانية (ص ٤٠٤) ، ديوان المتلمس (ص ١٧١) « طبعة فولرس » .

(٢) الجزء الأول تحقيق كلمان هوار . باريز ١٨٩٩ ، راجع أيضاً كتاب الأغاني الجزء الرابع (ص ١٢٠ وما بعدها) ، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١ .

لا يهمه الرأي بقدر ما يهمه العرض والنشر .. ومن هنا ، على ما أتصور ، أتهم بتأليفه الكتب لبعض الفرق بأسلوب يقوي من حجتهم ويدمغ من رأيهم ، حتى كأنها كانت دفاعاً عنهم ، فى مقابل مال كان يتقاضاه ممن يطلب منه التأليف فى أمثال هذه الأمور ..
أفيجوز أن تكون هذه الأبيات المنسوبة الى أمية أو الى عدي هي من وضع فئة أرادت قصداً وغرضاً ، فأشاعتها ، ونسبتها الى من نسبت ، وعرضتها على الجاحظ فأدخلها فى مؤلفاته عمداً أو دون قصد دون أن يعرف ما وراء هذا النوع من النظم من غاية وقصد ؟

وللأعشى معرفة بنوح وبسفينته ، أشار الى نوح فى مدحه إياساً حيث خاطبه بقوله :

جزى الإلـه إياساً خير نعمته ... كما جزى المرء نوحاً بعدما شابا
فى فلكه إذ تبداها ليصنعها ... وظل يجمع ألواحاً وأبوابا (١)

فهل أخذ الأعشى رأيه هذا عن نوح من أهل الحيرة ؟ وهل كان فى ذلك قاصاً متحدثاً مخاطباً رجلاً نصرانياً يعرف الحكاية والموضوع ؟ أو كان متحدثاً عن نوح حديث من يدين به ويعتقد ، فهو رأيه ودينه . الواقع أن البت فى ذلك أمر لا أراه ممكناً ما لم تتجمع لنا موارد تأريخية كثيرة ، ليتمكن المؤرخ من استنتاج رأي واضح فى أمثال هذه الموضوعات المعقدة ، التي لم تدرس مظانها المدونة ، ولم تنقد حتى الآن .

ولا أظن أن نظم الميمية المنسوبة الى النابغة الجعدي ، يحمل المرء على التصديق بأنها لشاعر جاهلي . ومطلع هذه القصيدة وهو :

الحمد لله لا شريك له ... من لم يقلها فنفسَهُ ظلما (٢)

يحدث القارىء عن شخصية صاحبها : إنه رجل موحد ، لا يعبد إلا الله الواحد الأحد ، ولا يؤمن بإله غيره ، إنه رجل لا يمكن أن يكون إلا مسلماً عاش فى الاسلام ، لا جاهلياً وثنياً ولا جاهلياً نصرانياً أيضاً . فالنصراني لا يستهل قصيدة بهذه الشهادة الإسلامية

(١) شعراء النصرانية (ص ٣٨٩) ، النصرانية (ص ٢٦١) .
(٢) النصرانية (٢٦٥) ، خزانة الأدب (٤/٤) .

فى الاعتراف بالواحد الأحد ، ولا يستعمل هذه الجملة : « الحمد لله لا شريك له » . وبعد هذا المطلع قصة نوح وسفينة نوح ، وهي مصنوعة من خشب الجوز والحديد والقار [1] .

وقد ضرب الراجز رؤبةُ المثل فى بيت له بقدم نوح وبطول عمره فى زمن الفطحل [2] ، وأبى شاعر آخر من شعراء الجاهلية إلا تسجيل أسماء أبناء نوح في شعره . سجلهم مع من سجل أسماءهم من ملوك التبابعة ممن دانت لهم الأنام ، وشاعرنا هذا هو صلاءة بن عمرو المعروف بالأفوه الأودي . أما أبناء نوح ، فهم : سام ، وحام ، ويافث ، ولام [3] .

وقد وردت فى شعر أمية وفي شعر غيره من شعراء الجاهلية ألفاظ هي من المصطلحات المعروفة المستخدمة عند أهل الكتاب ، جمعها وتحدث عنها شيخو في كتابه : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية : جمعها من الأبيات الواردة في دواوين شعراء الجاهلية وفى كتب الأدب ، وهي أبيات منها ما أجمع الرواة وأهل الأخبار على نسبتها إلى أولئك الشعراء ، ومنها ما ورد عند بعض الرواة والأخباريين ولم يرد في دواوين أولئك الشعراء . وعلى صحة هذه الأبيات يتوقف بالطبع حكم المؤرخ على هذه الكلمات .

ونجد فى شعر آخرين من غير من ذكرت من الشعراء الجاهليين ألفاظاً وكلمات كانت معروفة عند النصارى وإشارات الى عباداتهم وعاداتهم ، وردت فى شعر النابغة الذبياني [4] .

---

(١) اللسان (٧/١٩٥) ، النصرانية (ص ٢٦٥) .

(٢) فقلت : لو عمرت سن الحسل ... أو عمر نوح زمن الفطحل

والصخر مبتل كطين الوحل ... صرت رهين هرم أو قتل

النصرانية (ص ٢١٥) .

(٣) ولما يعصها سام وحام ... ويافث حيثما حلت ولام

النصرانية (ص ٢٦٦) .

(٤) قال النابغة :

لو انها عرضت لأشمط راهب ... عبد الإله صرورة متعبد

النصرانية (ص ١٧٢) .

ولبيد وامرئ القيس (١) وأوس بن حجر وآخرين غيرهم ممن طافوا في الأرضين وارتحلوا فوقفوا على بعض أحوال النصارى فأشاروا اليها في شعرهم . ومن هذه الملاحظات يتمكن المؤرخ من تكوين فكرة عن نصارى العرب الجاهليين .

وقد وردت بعض الآراء اليهودية والنصرانيـة في أشعار بعض الجاهليين ، ففي بيت لأفنون التغلبي ذكر لولد آدم (٢). وورود آدم فى هـذا البيت ، إن صح أنه من شـعر ذلك الشاعر الجاهلي ، دليل على وقوف هذا الشاعر على قصة آدم وانحدار البشر من نسله . ولا يستبعد إذن أن يكون قد وقف عليها باختلاطه ببني قومه تغلب ، وقد كان قسم كبير منهم قد دخل فى النصرانية : ولا يستبعد أيضاً أن يكون بعض الوثنيين قد وقفوا أيضاً على قصة الخلق كما وردت فى الديانتين من اختلاطهم بأهل الـكتاب .

وقد وردت ، في بيت آخر من قصيدة يقال إنه قالها فى رثاء نفسه ، لفظة « الله » (٣) فى شكل يفهم منه أنه كان يدين بالتوحيد ، وأن الآجال والمقدرات كلها بيد الله ؛ وأشار فى بيت آخر الى عاد وإرم ولقمان وجدن (٤) .

ومن هذه الألفاظ التي كان يستعملها النصارى خاصة : الناقوس ويستعمل فى الـكنائس للاعلان عن أوقات العبادات ولأداء الفرائض الدينية ، وهو عنـد الجاهليين خشبة طويلة يقرع عليها بخشبة أخرى قصيرة يطلقون عليها لفظة « الوبيلة » و « الوبيـل » . وهو فى

---

(١) تضـيء الظـلام بالعشاء كأنهـا   منارة ممسى راهب متبتـل
النصرانية (ص ١٧٥) .

(٢) قد كنت أسبق من جاروا على مهل   من ولد آدم ما لم يخلعوا رسـني
المفضليات (ص ٥٢٤) ، النصرانية (ص ٢٦١) ، شعراء النصرانية (ص ١٩٣) .

(٣) لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقى   إذا هو لم يجعـل له الله واقيـا
شعراء النصرانية (ص ١٩٣) .

(٤) لو أنني كنت من عاد ومن إرم   ربيت فيهم ومن لقمان أوجدن
شعراء النصرانية (ص ١٩٣) .

مقابل البوق عند يهود يثرب ، إذا أرادوا الاعلان عن موعد العبادة . وقد عرف هذا البوق بين عرب يثرب بالقنع [1] أيضاً وبالشبور [2] . وقد ذكر علماء اللغة أن الشبور « شيء يتعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان يتقربون به » . وقال بعضهم : هو القربان بعينه ، وذكروا أن الشبور شيء ينفخ فيه ، فهو البوق عند اليهود ، وهو معرّب وأصله عبراني [3] .

وقد وردت كلمة الناقوس فى الشعر الجاهلي : وردت فى بيت للشاعر المتلمس [4] ، وفي شعر للمرقش الأكبر [5] ، وللأعشى [6] ، وللأسود بن يعفر [7] . وقد أشير فى هذه الأبيات الى قرع النواقيس بعد الهدوء إيذاناً بدنو الفجر وحلول وقت الصلاة . وقد كانت هذه النواقيس فى القرى وفى الأديرة ، يقرعها الرهبان والراهبات والقسيسون [8] . وقد أدخل بعض علماء اللغة هذه الكلمة فى جملة الألفاظ المعربة التي دخلت العربية من أصول أعجمية [9] .

---

(١) القنع وورد القبع والقتع والقثع ، اللسان (١٠/١٣١) .

(٢) عمدة القاريء (٥/١٠٢ وما بعدها) ، اللسان (٨/١٢٦) .

(٣) اللسان (٦/٥٩) ، تاج العروس(٣/٢٨٩) .

(٤) حنت قلوصي بها والليل مطرق بعد الهدو وشاقتها النواقيس

ديوان المتلمس (ص ١٧٨) « طبعة Vollers » « لا يبزك ١٩٠٣ » .

(٥) ونسمع تزقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقس

المفضليات (ص ٤٦٥) ، النصرانية (ص ٢٠٧) .

(٦) وكأس كعين الديك باكرت حدها بفتيان صدق والنواقيس تضرب

ويروى لعنترة ، العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين ، (ص ١٧٩) « طبعة الوردت Ahlwardt » « باريس ١٩١٣ » ، النصرانية (ص ٢٠٧) .

(٧) وقد سبأت لفتيان ذوي كرم قبل الصباح ولما تقرع النقس

اللسان (٨/١٢٦) ، « مادة نقس » ، تاج العروس (٤/٢٦٣) .

(٨) النصرانية (ص ٢٠٧) .

(٩) عمدة القاريء (٥/١٠٣) ، المعرب (ص ٣٣٩) .

والصوامع والبيع هما من الألفاظ التي أستعملها الجاهليون للدلالة على مواضع العبادة عند النصارى . وقد ذهب بعض العلماء الى أن البيعة من الألفاظ المعربة [1] . أصلها من السريانيـــة ، بمعنى أن السريان خصصوها بهذه المباني الدينية التي كانت مقببة على هيأة البيضة ، ثم صارت علماً لنوع معين من أبنية النصارى الدينية [2] . وأما الصومعة ، فهي من كلمة « صومعت » الحبشية ، وقد خصصت بقلاية الراهب ، ومن الحبشية أنتقلت الى العربية [3] .

و « القـُلاّية » ، وهي كالصومعـة ، يتعبد فيها الرهبان ، وهي من الألفاظ المعربة [4] .

وقد أخذ النصارى العرب لفظة (القلاية) من السريان ، وأطلقوها على المنازل التي يسكنها الرهبان ، ثم توسعوا فيها فأطلقوهـا على دور المطارنة والبطارقة ، وأصلها بمعنى الأكواخ . ويظهر أن السريان أخذوا كلمتهم هذه ، وهي « قلّيتا » التى هي أخذت منها لفظة قلاية ، من أصل لاتيني أو يوناني [5] .

---

(١) المعرب (ص ٨١) . (٢) معجميات (ص ١٠٩ وما بعدها) .

(٣) « وصومعة النصارى : فوعلة من هذا لأنها دقيقة الرأس » ، اللسان (١٠/٧٦) ، معجميات (ص ١٥٣) .

(٤) النهاية (٣/٣٠٩) ، البكري : معجم (٢/٥٨٣) ، « دير الرصافة » ، « والقلية كالعلية : شبه الصومعة تكون في كنيسة النصارى والجمع القلالي . وقد جاء ذكرها في الحديث . وهي القلاية عند النصارى معرب كلاذة . وهي من بيوت عباداتهم » ، تاج العروس (١٠/٣٠٣) ، « في حديث عمر رضي الله عنه لما صالح نصارى أهل الشأم كتبوا له كتاباً : إنا لا نحدث في مدينتنا كنيسة ولا قلية ولا نخرج سعانين ولا باعوثا . القلية كالصومعة . قال كذا وردت ، واسمها عند النصارى القلاية . وهي تعريب كلاذة ، وهي من بيوت عباداتهم » ، اللسان (٢٠/٦٣) .

(٥) النهاية (/٣٠٩) ، البكري : معجم (٢/٥٨٣) ، « دير الرصافـــة » ، معجميات (ص ١٨٠ وما بعدها) .

وقد وجدت أديرة[1] وبيع عديدة في بلاد الشأم والعراق عمرها نصارى العرب . وإذ كان لهذه الأماكن المقدسة حرمة في نفوسهم ، كانوا يعقدون فيها عقودهم ويحلفون بها على نحو ما كان يفعله الوثنيون في معابدهم حيث كانوا يقسمون الايمان ويتعاقدون أمام الأوثان ، فكان للنصارى في الحيرة دير السوا ، وفي هذا الدير كانوا يتناصفون ويحلفون بعضهم لبعض على الحقوق[2] .

وقد بنى هذه الأديرة جماعة كانوا قد دخلوا حديثاً في النصرانية ، مثل دير حنظلة ، وقد بناه رجل من طيء من رهط أبي زبيد الطائي ، وكان من شعراء الجاهلية ، ثم تنصر وفارق بلاد قومه ، ونزل الجزيرة مع النصارى حتى فقه دينهم وبلغ نهايته ، وبنى ديراً عرف بأسمه ، هو هذا الدير ، وترهب حتى مات[3] .

ومن هذه الأديرة دير عرف بدير اللُّج ، قيل إن بانيه هو النعمان بن المنذر المعروف بأبي قابوس ، وإن النعمان « كان يركب في كل أحد اليه ، وفي كل عيد ، ومعه أهل بيته ، خاصةً من آل المنذر ، عليهم حُلَلُ الديباج المذُهَبَةُ ، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب ، وفي أوساطهم الزنانير المفصصة بالجوهر ، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان ، وإذا قضوا صلاتهم ، أنصرفوا الى مستشرفه على النجف ، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه ، وخلع ووهب ، وحمل ووصل . وكان ذلك أحسن منظر وأجمله »[4] . ونسب بناء دير

(١) « ودير النصارى أصله الواو والجمع أديار . والديراني صاحب الدير . ابن سيده : الدير خان النصارى . وفي التهذيب : دير النصارى والجمع أديار . وصاحبه الذي يسكنه ويعمره : ديار وديراني . نسب على غير قياس . قال ابن سيده : وإنما قلنا إنه من الياء وان كان دور أكثر وأوسع ، لأن الياء قد تصرفت في جمعه وفي بناء فعال ، ولم نقل إنها معاقبة لأن ذلك لو كان لكان حرياً أن يسمع في وجه من وجوه تصاريفه . ابن الاعرابي : يقال للرجل اذا رأس أصحابه هو رأس الدير » ، اللسان (٥/٣٨٧) ، تاج العروس (٣/٢٣١) .

(٢) البلاذري (ص ٢٩٢) .

(٣) البكري (٢/٥٦٧) ، « دير حنظلة » .

(٤) البكري : معجم (٥/٥٩٦) ، « دير اللج » .

آخر يقال له دير مارة مريم الى آل المنذر [1] . أما دير هند ، فنسب بناؤه الى هند بنت النعمان [2] . وأما الدير المعروف بدير هند الأقدم ، فنسب بناؤه الى هند الكبرى أم عمرو بن هند [3] .

وبنيت في بعض الأديرة منائر عالية كالمرقب ، كالذي كان في دير حنّة . وقد بناه حي من تنوخ ، يقال لهم بنو ساطع ، كما كان في بعض الأديرة قِباب صغار يسكنها الرهبان ، يقال للواحد منها كيرح وللجمع الأكيراح [4] .

والمحراب من الألفاظ التي استعملها النصارى في أمور دينهم كذلك ، إذ أطلقوها على صدر كنائسهم . وذكر علماء اللغة أن محاريب بني اسرائيل مساجدهم التي كانوا يصلّون فيها [5] . وقد وردت لفظة المحراب في أشعار بعض الجاهليين [6] .

---

(١) البكري : معجم (٢/٥٩٧) ، « دير مارة مريم » .

(٢) البكري : معجم (٢/٦٠٤) ، « دير هند » .

(٣) البكري : معجم (٢/٦٠٦) .

(٤) البكري : معجم (٤/٥٧٨) ، «الأكيراح : بيوت ومواضع تخرج اليها النصارى في بعض أعيادهم وهو معروف . قال :

يا دير حنة من ذات الأكيراح ... من يصح عنك فاني لست بالصاحي»

اللسان (٣/٤٠٥) .

(٥) تاج العروس (١/٢٠٧) ، اللسان (١/٢٩٣ وما بعدها) ، النصرانية (ص ١٧٤) .

(٦) قال الأعشى :

كنيسة صور محرابها ... بمذهب ذي مرمر مائر

اللسان (٧/١٧) .

وقال المسيب بن علي :

أو دمية صور محرابها ... أو درة شيفت الى تاجر

تاج العروس (١/٢٠٧) ، النصرانية (ص ١٧٥) .

وقال عدي بن زيد :

كدمى التاج في المحارب أو كالـ ... ـبيض في الروض زهره مستنير

النصرانية (١٧٥) ، شعراء النصرانية (ص ٤٥٥) .

وأشير في أشعار بعض الجاهليين الى تعبد النصارى وصلواتهم سجداً وقياماً ، وهؤلاء الذين أشير اليهم هم من الرهبان والناسكين الذين كانوا قد اعتكفوا في الصوامع وفي البيع والأديرة النائية يعبـــدون الله ، ويدعون الى الرب تقرباً وخشية [1] ، ومنهم من ترك السجود أثراً في جباههم . وقد أطلقوا على صلواتهم هذه أسم « الصلاة » . وهي من الألفاظ التي أخذها أولئك النصارى من بني إرم . وعرفت المواضع التي كانوا يســـجدون فيها بالمساجد ، والمسجد هو الموضع الذي يتعبد فيه [2] .

وقد كان الركوع من العادات المعروفة عند النصارى [3] ، و « كانت العـــرب في الجاهلية تسمي الحنيف راكعاً إذا لم يعبد الأوثان ، ويقولون ركع الى الله » [4] . وأما إحناء الرؤوس ، فكان للتعظيم ، ولذلك حنوا رؤوسهم في الكنائس ولرؤسائهم على سبيل

---

(١) قال منظور الأسدي :

كأن مهـواه على الـكلكل ... موقع كفي راهب يصـلي

في غبش الصبح أو التـلي

الألفاظ لابن السكيت (ص ٤١٢) ، النصرانية (ص ١٧٧) .

وقال البعيث :

على ظهر عادي كأن أرومه ... رجال يتلون الصلاة قيـام

تاج العروس (٥٣/١٠) ، اللسان (١١١/١٨) . وقال الأعشى :

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها ... وإن ذبحت صلى عليها وزمزما

ببابل لم تعصر فســالت سلافة ... تخالط قنديداً ومســكاً مختماً

وقال المضرس الأسدي :

وسخال ساجية العيون خواذل ... بجماد لينة كالنصارى الســجد

النصرانية (ص ١٧٧) .

(٢) اللسان (١٨٧/٥) « سجد » .

(٣) النصرانية (ص ١٧٨) . (٤) تاج العروس (٣٦٣/٥) .

الاحترام والتعظيم [١] . وقد كانوا يبجلون رؤوسم وسادتهم كثيراً ، ولذلك نزل الوحي بتأنيبهم وتقريعهم ، إذ جعلهم هذا الاحترام في مصاف الآلهة والأرباب .

وتلحق بالصلاة التسابيح ، أي ذكر الله وتقديس اسمه . وقد كان من عادة الرهبان التسبيح بعد الصلاة ، ولا سيما في الضحى والمشي [٢] .

وقد كان رجال الدين ، ولا سيما الرهبان منهم ، يقومون بالفروض الدينية فرادى وجماعة ، فيرتلون المزامير والأدعية بنغمات وألحان شجية . وقد عرف ترتيل القسيسين والرهبان بـ « الهينم » ، وذلك في حالة النغم بخفوت الصوت [٣] . وإذا طرّب القس في صوته خفياً قيل لذلك الزمزمة [٤] . أما إذا تغنّى ، فيقال لذلك الشمعلة . وقد قيل للمتغنين في تلاوة

---

(١) قال النابغة الذبياني :

سيبلغ عذراً أو نجاحاً من امرىء ... الى ربه رب البرية راكع

النصرانية (ص ١٧٨) .

(٢) النصرانية (ص ١٧٨) .

قال أمية :

سبحانه ثم سبحانا يعود له ... وقبلنا سبح الجودي والجمد

وقال الأعشى :

وسبح على حين العشيات والضحى ... ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

تاج العروس (٢/١٥٧) ، اللسان (٣/٢١٠) .

(٣) « الهينمة : الصوت . وهو شبه قراءة غير بينة . وأنشد لرؤبة :

لم يسمع الركب بها رجع الكلم ... الا وساويس هيانيم الهنم

وفي حديث اسلام عمر رضي الله عنه . قال : ما هذه الهينمة ؟ قال أبو عبيدة : الهينمة : الكلام الخفي لا يفهم ..... وفي حديث الطفيل بن عمرو : هينم في المقام . أي قرأ فيه قراءة خفية . وقال الليث :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم

أي فادع الله . » ، اللسان (١٦/١٠٨) ، تاج العروس (٩/١١١) .

(٤) « قال الجوهري : الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم . وفي حديث عمر رضي الله عنه ، =

الزبور المتشمعل . وأما إذا أطلق صوته بالدعاء فيقال لذلك الجأر[1] . واللحون من الكلمات التي أطلقت على ترتيل أهل الكتاب لكتبهم المقدسة . فقد كانوا يقرؤون التوراة والأناجيل فى المحافل باللحن . وقد أشير الى ذلك فى بعض الأحاديث[2] . أما اذا ردد الشخص نغمات الانجيل فى حلقه ، فكانوا يقولون له الترجيع ، ومنه قولهم رجع الانجيل[3] .

و « التصبيغ » من الألفاظ التي كانت تدل على معنى خاص عند النصارى ، هو التعميد . وقد صالح عُمَرُ بني تغلب بعدما قطعوا الفرات قاصدين اللحاق بأرض الروم ، على ألا يصبغوا صبياً ولا يكرهوه على دينهم ، وعلى أن عليهم الصدقة مضعفة[4] .

والصوم من الأحكام الدينية المعروفة عند اليهود والنصارى ، وقد أشير اليه فى شعر لأمية بن أبي الصلت وفى بيت ينسب الى النمر بن تولب[5] . وقد عرف أهل الجاهلية أن اليهود كانوا يصومون ، وقد أشير الى صومهم فىعاشوراء فى أثناء الكلام على فرض الصوم

= كتب الى أحد عماله في أمر المجوس : وانههم عن الزمزمة . قال: هو كلام يقولونه عند أكلهم بصوت خفي . وفي حديث قباث بن أشيم : والذي بعثك بالحق ما تحرك به لساني ولا تزمزمت به شفتاي . الزمزمة صوت خفي لا يكاد يفهم » ، اللسان (١٥/١٦٥) .

(١) « جأر يجأر جأراً وجؤاراً رفع صوته مع تضرع واستغاثة ... وقال ثعلب : هو رفع الصوت اليه بالدعاء . وجأر الرجل الى الله عز وجل إذا تضرع بالدعاء . وفي الحديث : كأني أنظر الى موسى له جؤار الى ربه بالتلبية . ومنه الحديث الآخر: لخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله» ، اللسان (٥/١٨١) .

(٢) النهاية في غريب الحديث (٤/٥٧) ، معجميات (ص ٤٢ وما بعدها) ؛ تاج العروس (٩/٣٣٠) ، اللسان (١٧/٢٦٣) .

(٣) النصرانية (٣٥٦) . اللسان (٩/١٧٢ وما بعدها) .

(٤) فتوح البلدان (ص ١٩٠) . « قال الأزهري : وسمت النصارى غمسهم أولادهم في الماء صبغا ، لغمسهم اياهم فيه » ، اللسان (١٠/٣١٩) .

(٥) صدت كما صد عما لا يحل له ساقي نصارى قبيل الصبح صوام

النصرانية (ص ١٧٩) .

على المسلمين بصيامهم شهر رمضان [١] . ولا يستبعد وقوف من كان له اتصال من الوثنيين باليهود وبالنصارى على أمر الصوم عندهم ، نتيجة لاتصالهم بهم واختلاطهم معهم . غير أننا لا نجد في شعر الجاهليين ولا في الأخبار اشارة الى تأثر الوثنيين به ، وصيامهم في أيام معينة على نحو ما هو معروف عند أهل الكتاب . نعم ورد في بعض الأخبار أن بعض قريش كانوا يصومون في الجاهلية ، وأنهم تأثروا في ذلك بصوم يهود ، غير أننا يجب أن نأخذ هذه الرواية على حذر ، وأغلب ظني أنها من الروايات التي وضعت فيما بعد .

ومن المصطلحات النصرانية « الحواريون » ، وقصد بها رسل المسيح . وقد وردت اللفظة في مواضع من القرآن الكريم [٢] . ووردت لفظة « الحواري » في بيت ينسب الى ضابىء بن الحارث بن أرطاة البرجمي [٣] . وقد رَجَعَ بعض الباحثين أصلَ هذه اللفظة الى لغة بني إرم ورَجَعها اللغويون الى أصل عربي هو : « حور » ، وذهب آخرون الى أنها من أصل حبشي [٤] . والخلاصة إن للفظة مدلولاً نصرانياً خاصاً هو تلاميذ المسيح .

والصليب ، بالطبع ، من أهم المصطلحات المعروفة عند النصارى ، لاعتقادهم بصلب المسيح عليه ، حتى صار رمزاً للنصرانية . وقد حلف به عدي بن زيد في بعض شعره ، وحلف معه برب مكة [٥] . وأشير اليه في شعر للنابغة الذبياني [٦] . وقد عرف المسلمون

---

(١) Ency., IV, P. 193. ff.

(٢) آل عمران ، الآية ٥٢ ، المائدة ، الآية ١١٤ وما بعدها ، الصف ، الآية ١٤ .

(٣) وكر كما كر الحواري يبتغي ... الى الله زلفى أن يكر فيقتلا

المشرق المجلد ١٩٢٩ (ص ٥٧٥ وما بعدها) ، النصرانية (ص ١٨٩) .

(٤) المصدر نفسه ، المشرق : السنة السابعة ١٩٠٤ م (٦٢٠) ، النصرانية (ص ١٨٩) ، معجميات (ص ١٣٩) .

(٥) سعى الأعداء لايألون شراً ... عليك ورب مكة والصليب

المشرق : السنة السابعة ١٩٠٤ (ص ٦٢١) .

(٦) تاج العروس (٣٣٧/١) ، شعراء النصرانية (٦٥٥) ، النصرانية (ص ٢٠٣ وما بعدها) .

تمسك النصارى العرب به ، واتخاذهم له شعاراً ، حتى كان بعضهم يرسمه على جبهته ، وكانوا يلثمونه ويتمسحون به تبركاً ، ويزينون صدورهم به [1] .

وقد أطلقت المصاحف في شعر ينسب الى امرئ القيس على أسفار النصارى ، وهو قوله : « كخط زبور فى مصاحف رهبان » [2]. والكلمة على رأي بعض علماء الساميات والنصرانيات من أصل حبشي ، وكذلك المصحف [3] . وصحف بمعنى كتب . وإذا صح هذا الظن كانت كلمة الصحيفة ، وجمعها صحف وصحائف ، من هذا الأصل كذلك . وقد وردت لفظة صحيفة في بيت ينسب الى لَقِيط الإيادي [4] .

وأما المجلة ، فهي من الكلمات العبرانية الأصل ، الواردة في السريانية كذلك ، وهي تعني الوحي والتبيان ، وقد تعني الصحف . وقد اشتهرت فى العربية باقترانها باسم لقمان فقيل : « مجلة لقمان » [5] . وأطلقت عند العبرانيين على أسفار الكتاب المقدس على سبيل التخصيص أحياناً وعلى باب التعميم فى بعض الأحيان [6] .

---

(١) قال الأخطل :

لما رأونا والصليب طالعاً ... خلوا لنا راذان والمزارعا

ديوان الأخطل (ص ٣٠٩) . وقال حجار بن أبجر :

هددني عجل وما خلت انني ... خلاة لعجل والصليب لها بعل

الأغاني (١٣/٤٧) . وقال الأقيشر :

في فتية جعلوا الصليب إلههم ... حاشاي إني مسلم معذور

النصرانية (ص ٢٠٤) .

(٢) أتت حجج بعدي عليه فأصبحت ... كخط زبور في مصاحف رهبان

العقد الثمين (ص ١٦١) .

(٣) النصرانية (ص ١٨١) .

(٤) كتاب في الصحيفة من لقيط ... الى من بالجزيرة من إياد

النصرانية (ص ١٨١) ، الأغاني (٢٠/٣٤) .

(٥) النصرانية (ص ١٨١) . (٦) معجميات (ص ١٦٧ وما بعدها) .

وقصد بالسفر وبالأسفار الكتاب والكتب من التوراة والانجيل[1]، وكلمة « سِفْر » من الكلمات المعروفة فى العبرانية وفى السريانية[2].

ويظهر من شروح بعض الأحاديث أن النصارى كانت تقرأ كتبها من الصحف، وأن قليلاً منهم من كان يحفظها حفظاً[3]. ولم يُشَر في هذه الأخبار الى اللغة التي كان يقرأ بها النصارى هذه الكتب.

وقد كانت لفظة جهنم من المصطلحات المعروفة عند اليهود والنصارى الجاهليين. وهى تعني الموضع الذي يكون فيه العذاب بعد الحشر، فيخلد فيه أصحاب الآثام والمعصية. واللفظة من أصل عبراني على رأي المستشرقين وعلماء الساميات هو: « جحينوم Géhinnom » أي وادي جحينوم، وهو وادٍ يدور حول القدس نحو أربعة كيلو مترات، ويعرف اليوم بأسم « وادي الربابي »، وقد كان اليهود الوثنيون يقربون فى موضع منه يسمى « توفيث Topheth » الصبيان قرابين للإلـه « ملوخ Moloch »، يقدمونها ذبائح محروقة إكراماً له، ثم صار هذا الموضع محلاً ترمي فيه أقذار المدينة وجثث الحيوانات، وتحرق هناك لئلا تنتشر منها الأوبئة، وصار الموضع رمزاً للجحيم، ومنه أخذت تلك التسمية[4].

وقد وردت لفظة جهنم فى مواضع متعددة من شعر أمية بن أبي الصلت، كما ورد فيه وصفها وكيفية التعذيب فيها[5]. ولمعرفة أصل هذا الشعر: هل هو من شعر أمية حقاً، أو من شعر آخرين وضعوه على لسانه، لابد من دراسته ومقارنته بما جاء فى الاسلام عن وصف جهنم وكيفية التعذيب فيها. وهناك رواية تنفي ورود لفظة جهنم فى أي شعر جاهلي

---

(١) الاشتقاق (ص ١٠٣)، « والسفر بالكسر: الكتاب. وقيل هو الكتاب الكبير، وقيل هو جزء من التوراة والجمع أسفار »، اللسان (٦/٣٥).

(٢) النصرانية (ص ١٨١). (٣) النهاية (٤/١٣٦).

(٤) معجميات (ص ٢٦٢)، Ency., I, P. 998.

(٥) الاتقان للسيوطي، (١/١٥٨ وما بعدها)، خزانة الأدب (٢/٣٤٦، ٤/٤)، ديوان أمية، شعراء النصرانية (١/٢٢)، النصرانية (ص ١٦٧ وما بعدها).

خلا هذا الشعر المنسوب إلى أمية بن أبي الصلت ، ويلاحظ أنه ذكر « عدن » مع جهنم [1] .

وقد عُنِيَ بعض الباحثين بجمع المصطلحات الدينية المعروفة عند أهل الكتاب فى الجاهلية والتي أقرها الإسلام على نحو ما كانت تعرف به ، أو أعطاها معناً خاصاً ، ومن بينها عدد كبير ورد فى القرآن الكريم [2] . ولما كانت غالبية العرب على الوثنية ، وهي ديانة بسيطة قليلة الشعائر بالنسبة الى اليهودية والنصرانية ، لذلك كانت هذه المصطلحات شائعة معروفة بين أهل الكتاب من الجاهليين ، وقد نقلوها من اللغات الدينية التي كتب بها علماء أهل الكتاب ، فهي فى الغالب من أصل عبراني أو سرياني أو يوناني .

وطبيعي أن يتأثر نصارى الجاهلية بلغة بني إرم ، فيستعملوا المصطلحات الدينية التي

---

(١) « ورد في تأريخ دمشق لابن عساكر (٣ : ١٢٤) : قال عبد الله بن مسلم الدينوري : سئلت هل وجدتم لجهنم ذكراً في الشعر القديم، فقلت : هذا يحتاج الى تتبع وطلب . وقد أتذكر فلم أذكر إلا شيئاً وجدته في شعر أمية بن أبي الصلت ، فإنه قال :

فلا تدنو جهنم من بريء ... ولا عدن يطالعها أثيم

إذا شبت جهنم ثم وارت ... وأعرض عن قوانسها الجحيم

وروى البيت في المخصص (٩ : ٦) :

جهنم تلك لا تبقى بغياً ... وعدن لايطالعها رجيم

وذكر للعديل بن الفرخ (ياقوت ٤ : ١١٧) قوله في نار جهنم وجنة الخلد :

أما ترهبان النار في ابني أبيكما ... ولا ترجوان الله في جنة الخلد

وقد ورد اسم جهنام في شعر الأعشى . قال (التاج ٧ : ٣٧٢) :

دعوت خليلي مسحلا ودعوا لهم ... جهنام جدعاً للهجين المذمم »

النصرانية (ص ٤٦٢ وما بعدها) .

(٢) راجع من بين هذه البحوث بحث :

Nöldeke, Neue Beitr. Zur Semit. Sprach., S. 1-30, J. Horovitz, Jewish Proper Names and derivatives in the Koran, 145. ff., (in Hebrew union College Annual XXI), R. Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.

كانت شائعة في الكنيسة ، وهي مصطلحات إرمية الأصل في الغالب ؛ فقد وجدنا معظم الألفاظ المارة ، وهي ألفاظ ذوات مدلولات دينية خاصة ، ألفاظاً إرمية ، وإن كان قسم منها مما يرد في أكثر اللهجات السامية ، غير أن اليهودية ثم النصرانية أعطياها معنى خاصاً ، فجعلتا لها مدلولات دينية خاصة . ونجد في بقية المصطلحات ما يرجع أصله إلى لغة يونان أو الى لغة اللاتين ، وما يرجع أصله الى الحبشة ، وقد دخل الى النصارى العرب من الجنوب أي من اليمن : دخل اليها مع النصارى الحبش ، ومع العرب الذين تنصروا في الحبشة ، فعادوا يستعملون مصطلحاتهم الدينية التي كانت شائعة هناك ، كاستعمال الأعاجم المسلمين للمصطلحات العربية في الماضي وفي الحاضر . وهكذا نجد النصرانية كيّفت بعض الألفاظ العربية الواردة في اللهجات السامية أيضاً بأن أعطتها معاني خاصة ، كما نجدها قد أضافت مصطلحات دينية جديدة اليها لم يكن للجاهليين علم بها ، لدلالتها على معان خاصة أحدثتها اليهودية أو النصرانية وهي من أصل غير عربي .

وللأسماء أهمية كبيرة في تعيين مبلغ أثر اليهودية والنصرانية في الجاهليين . وإذا كانت أسماء الوثنيين قد ساعدت « ولهوزن » في الكشف عن أسماء أصنام وأوثان لم ترد في كتاب الأصنام لابن الكلبي ولا في كتب الأخباريين الأخرى ، وساعدت في الكشف عن مدى تغلغل الوثنية في نفوس أهل الجاهلية ، فإن للأسماء اليهودية أو الأسماء النصرانية التي تسمى بها أهل الجاهلية والتي وصل خبرها الينا أهمية كبيرة في الإفصاح عن مدى تأثر الجاهليين بالديانتين . وليس من اللازم أن تكون هذه الأسماء أسماء أناس كانوا على دين يهود ، أو على دين النصرانية ، فالأسماء وإن كان لها ارتباط في الغالب بأديان حامليها غير أنها لا تكون دائماً دليلاً على دين أصحابها ، فللبيأة ولبعض العادات والاعتقادات دخل في اختيار الأسماء . وعلى ذلك فإن ما سنذكره من أسماء لا نذكرها على أن أصحابها كانوا يهوداً أو نصارى حتماً ، وإنما نذكرها على سبيل الإشارة الى أن بعض الجاهليين كانوا

يحملون أسماء هي فى الغالب من أسماء النصارى واليهود .

وفي طليعة هذه الأسماء التي يجب أن نذكرها ، الأسماء الواردة فى التوراة والانجيل ، فهي أسماء عبرانية ونصرانية معروفة ، وبها تسمى كثير من اليهود والنصارى . ودخولها بين الجاهليين العرب دليل على وجود بعض تلك التسميات بينهم ، وتسمى أهل الجاهلية بتلك الأسماء .

ومن جملة هذه الأسماء : آدم وقد دُعي به آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . قُتل فى الجاهلية ، وهو الذي وضع النبي دمه يوم فتح مكة . وقد جاء « ابن دريد » بتفسير لهذه التسمية فذكر أنها من الأدمة أو بمعنى الطويل القامة ذي المنق الناصع ، ولم يشر إلى وجود علاقة لها بأسم آدم أبي البشر (١) . غير أني لا أستبعد احتمال أخذها من التسميات التي كانت بين اليهود أو النصارى عند الجاهليين . غير أننا لا نعرف من أمثال هذه التسميات غير عدد قليل محدود بحيث لايمكن أن نتخذها قاعدة لبناء حكم عليها فى ورود هذه التسمية عند الجاهليين .

وأكثر من هذه التسمية شيوعاً أسم « إبراهيم » ، ومن جملة من تسمى بها : ابراهيم ابن أيوب بن مجروف عم الشاعر عدي بن زيد العبادي (٢) ، وابراهيم بن كُتيف النبهاني وهو شاعر قديم ، وابراهيم الأشهلي ، وابراهيم بن الحارث بن خالد التيمي القرشي ، وأبو رافع ابراهيم القبطي وهو من موالي الرسول ، وابراهيم بن عبّاد الأوسي ، وابراهيم بن

---

(١) ابن دريد (ص ٤٤) ، النصرانية (ص ٢٢٨) .

(٢) « وأول من سمي بهذا الاسم من العرب جد عدي بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب بن مجروف الشاعر . ومنهم مقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس بن ابراهيم بن أيوب الذي نسب اليه قصر مقاتل . وقال ابن الكلبي : لا أعرف في الجاهلية من العرب أيوب وابراهيم غير هذين ، وإنما سميا بهذين الاسمين للنصرانية » ، تاج العروس (١/١٥١) ، النصرانية (ص ٢٢٩) .

قيس بن معد يكرب الكندي ، وابراهيم النجّار وهو الذي صنع المنبر لرسول الله . وأكثر هؤلاء هم من الذين عاصروا الرسول وكانوا من صحابته(١) . ويجب ألاّ ننسى أن الرسول سمى ابنه الذي توفي صغيراً في حياته بإبراهيم(٢) .

وعرف من الصحابة رجل اسمه إسحاق الغَنَوِي(٣) ، وعرف صحابيان بإسم اسماعيل(٤) . وأما أيوب ، فقد عرف به أيوب بن مجروف جدّ عدي بن زيد العبادي ، وأيوب بن مكرز ، كما تكنى به أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري من الصحابة وهو الذي نزل عليه الرسول يوم مقدمه الى يثرب مهاجراً من مكة(٥) .

واسم داوود من الأسماء التي وردت فى جملة أسماء ملوك بني سليح ، فذكر منهم داوود اللثق(٦) . وأظن أن لفظة دؤاد التي كنى بها الشاعر الجاهلي أبو دؤاد الإيادي هي من داوود(٧) ، وإنْ ذهب المفسرون فيها مذهباً آخر فقالوا إنها من الدُود والدوادة والدودة وأمثال ذلك(٨) . وعرف شاعر آخر باسم داوود بن حمل الهَمْداني(٩) ، ومن موالي الأنصار رجل اسمه داوود بن بلال(١٠) .

وقد عُرف داوود فى الشعر الجاهلي بنسجه الدروع حتى ضربت بدروعه عندهم المثل . وهي فى نظرهم دروع قوية ممتازة ، صنعها من الحديد الذي كان يلين بين يديه(١١) . وقد

---

(١) النصرانية (ص ٢٢٩) ، أسد الغابة (١/٤٠ وما بعدها) .
(٢) ابن هشام (١/٢٠٦) . (٣) أسد الغابة (١/٦٨) ، النصرانية (ص ٢٢٩) .
(٤) أسد الغابة (١/٧٩ وما بعدها) ، النصرانية (ص ٢٣٠) .
(٥) ابن هشام (٢/٦٦ ، ١٤٤ ، ١٢٥ ، ١٥٠ ، ٣٠٥ ، ٣/٣٤٧ ، ٣٩٢) ، الاشتقاق (ص ٢٦٦) .
(٦) الاشتقاق (٣١٩) ، النصرانية (ص ٢٣٢) .
(٧) النصرانية (٢٣٢) . (٨) الاشتقاق (ص ١٠٤) .
(٩) النصرانية (ص ٢٣٢) . (١٠) أسد الغابة (٢/١٢٩) .
(١١) قال طرفة :

وهم ما هم إذا ما لبسوا نسج داوود لباس محتضر =

تكرر ورود ذلك في أشعار جملة شعراء ، مما يدل على أنها كانت معروفة بين الجاهليين مشهورة . هذا ولا بد أن يكون لذلك أصل بعيد ظهر من قصص بني اسرائيل عن داوود وعن ملكه وحروبه وتغلبه على خصومه . هذا القصص الذي جعل من داوود رجلاً لايستطاع التغلب عليه بفضل الحديد الذي لان بين يديه ، فصار دروعاً لا تمضي فيه سيوف القاتلين .

ولم يخل شعر الأعشى من أسم داوود ، فورد في مناسبة التحدث عن حوادث الزمان

= النصرانية (ص ٢٧٢) ، شعراء النصرانية (٣٠٩) ، ديوان طرفة (٥٨) .

وقال حصين بن الحمام المري :

صفائح بصرى أخلصتها قيونها ومطرداً من نسج داوود بها

الحماسة لأبي تمام (ص ١٨٩) ، النصرانية (ص ٢٧٣) .

وقال حسيل بن سجيع الضبي :

وبيضاء من نسج ابن داوود نثرة تخيرتها يوم اللقاء ملابسا

الحماسة لأبي تمام (ص ٢٨٤) ، النصرانية (ص ٢٧٣) .

وللبيد :

ونزعن من داوود أحسن صنعه ولقد يكون بقوة ونعيم

صنع الحديد لحفظه أسراده لينال طول العيش غير سروم

ديوان لبيد (ص ٨٣) « طبعة الخالدي » ، النصرانية (٢٧٣) .

وللأعشى :

ومن نسج داوود يحدى بها على أثر العيس عيراً فعيرا

النصرانية (٢٧٣) ، شعراء النصرانية (٣٨٨) .

ولسلامة بن جندل :

مداخلة من نسج داوود شكلها كحب الجنا من أبلم متفرق

وله أيضاً :

من نسج داوود وآل محرق غال غرائبهن في الآفاق

النصرانية (ص ٢٧٣) .

وأعتداء الدهر على الإنسان ، وتبــدل الأيام[1] ، كما ورد فى موضع آخر فى كلامه على الدروع . أما عبيد الأبرص ، فقد ذكره فى أثناء كلامه على طول العمر[2] .

وعرف سليمان فى أبيات للنابغة قالها فى مدح النعمان ملك الحيرة بتسخيره الجنّ لبنـاء تـدمر[3] ، وعرف بمثل ذلك وببنائـه الأبنية الضخمة وبســعة ملـكه فى شعر شعراء آخرين[4] . واذا كان ما نسب الى أولئك الشعراء صحيحاً ، كان رأيهم هذا فى سليمان بتأثير ما كان يقصه أهل الـكتاب على الجاهليين من قصص وارد فى العهد القديم ، فى سفر الملوك

---

(١) ومن الليالي كل وقت وساعة يزعزعن ملـكا أو يباعدن دانيا
وردن على داؤود حتى أبدنه وكان يغادي العيش أخضر صافيا
البحتري : الحماسة (ص ٩٠) ، النصرانية (ص ٢٧٢) .

(٢) وطلبت ذا القرنين حتى فاتني ركضاً وكدت أن أرى داؤودا
خزانة الأدب (١/٣٢٣) ، النصرانية (ص ٢٧٢) .

(٣) ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلا سليمان ، إذ قال الإله له : قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم ولا تقعد على أحد
العقد الثمين (ص ٧) ، شعراء النصرانية (ص ٦٦٣) ، النصرانية (ص ٢٧٤) .

(٤) قال الأعشى :
فلو كان حياً خالداً ومعمراً لـكان سليمان البري من الدهر
براه الٓهي واصطفاه عبـارة وملـكه ما بين سرفي الى مصر
وسخر من جن الملائك شيمة قياماً لديه يعملون بلا أجر
البدء والتاريخ (٣/١٠٨) ، النصرانية (ص ٢٧٤) ، وله أيضاً :
فذاك سليمان الذي سخرت له مع الانس والجن الرياح المراخيا
الحماسة للبحتري (ص ٨٦ وما بعدها) ، النصرانية (ص ٢٧٥) .

الثالث وأخبار الأيام الثاني عن ملكه وعجيب أبنيته [1] .

وقد ورد اسم سليمان علماً لجملة رجال عاشوا فى الجاهلية وفى أيام الرسول ، فهناك حاكم من حكام العرب المعروفين فى الجاهلية اسمه سليمان بن نوفل [2] ، وهناك جملة من الصحابة عرفوا بسليمان[3] . ومن هذه اللفظة نشأت الأسماء : سلمان ، وسلاّم ، وسُليم ؛ كما يتبين ذلك من أبيات للأسود بن يعفر[4] والحطيئة [5] والنابغة [6] . وعرف بسلمان رجل من نصارى بني عجل اسمه سلمان العجلي .

وهناك طائفة لأسماء نصرانية خالصة تسمى بها نفر من الجاهليين قبل الإسلام ، مثل : عبد المسيح ، وعبد ياسوع ، وعبد يشوع ، وايشوع ، ويقصد بيشوع وايشوع المسيح ، وأبجر . وقد عرف بها عدد من ملوك الرها ، كما عرف بها أبجر بن جابر سيد بني عجل ،

---

(١) النصرانية (ص ٢٧٣) . (٢) اليعقوبي (١/٢٩٩) ، النصرانية (ص ٢٣٢) .

(٣) مثل سليمان الليثي بن اكيمة ، وسليمان بن أبي حتمة القرشي ، وسليمان بن صرد الخزاعي ، وسلمان بن عمرو بن حديدة ، وسليمان بن مسهر ، وسليمان بن هاشم بن عتبة القرشي ، أسد الغابة (٢/٣٥٠ وما بعدها) ، النصرانية (ص ٢٣٢) ، « وسليمان بن أبي صرد ، هكذا فى النسخ . والصواب ابن صرد بن الجون بن أبي الجون الخزاعي . كان اسمه في الجاهلية يساراً فسماه النبي صلى الله عليه وسلم سليمان . كان خيراً عابداً نزل الكوفة . وسليمان بن عمرو بن حديدة الأنصاري السلمي . عقبي بدري قتل يوم أحد . ويقال هو : سليم بن عامر وهو الأكثر » ، تاج العروس (٨/٣٤٤) .

(٤) ودعا بمحكمة أمين سكها   من نسج داوود أبي سلام

تاج العروس (٨/٣٤٤) .

(٥) فيه الرماح وفيه كل سابغة   جدلاء محكمة من نسج سلام

النصرانية (٢٣٢) .

(٦) وكل صموت نثلة تبعية   ونسج سليم كل قضاء ذائل

ديوان النابغة (ص ٩٩) ، النصرانية (٢٣٣) . « أراد نسج داوود ، فجعله سليمان ثم غير الإسم فقال: سلام وسليم . ومثل ذلك في أشعارهم كثير . قال ابن برى : وقالوا فى سليمان اسم النبي صلى الله عليه وسلم : سليم وسلام فغيروه ضرورة » ، اللسان (١٥/١٩٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/٣٤٤) .

وأفريم ، وبولس ، وجرجس ، وجـريج ، وروماں ، وررومانوس ، وسرجس ، وسمعان ، وشمعون ، ونسطاس ؛ وحنين و« حنيناء » ويحنة[1]، ومن أسماء النساء : مارية ، ومريم ، وحنة [2] ومن بين هذه الأسماء ما كانت خاصة بطبقة الموالي الذين جلبوا من الخارج ، وبيعوا في أسواق النخاسة ، فحافظوا على أسمائهم القديمة التي تشير الى أصولهم في النصرانية.

ونرى ورود « عبـد المسيح » بين أسماء أهل الحيرة بصورة خاصة ، ورد علماً لأناس معروفين جداً بينهم ، وكانوا عليهم زعماء ، مثل عبد المسيح بن عمر بن قيس بن حيان بن بقيلة ، وكان في جملة من خرج لملاقاة خالد بن الوليد للاتفاق معه على شـروط الصلح [3].

وعادة جعل المرء نفسه عبـداً لإلـه أو لشخص مقدس ، كما في هذه التسمية ، لم تكن من العادات الخاصة بالنصارى ، فقد رأينا أن أكثر الجاهليين كانوا يجعلون أنفسهم عبداً لإلـه من الآلهة ، ثم يتخذون ذلك تسمية لهم ، مثل عبد العزّى وعبد يغوث وعبد ودّ وأمثـال ذلك . فلما كانت النصرانيـة ، تبرأ من تنصر من أسم الآلهة الوثنية ، وأحلوا محلها أسم المسيح .

وكان أسم والد حنظلة صاحب دير حنظلة الذي بأرض بني علقمة بالحيرة «عبدالمسيح» ، ويذكر الأخباريون أنهم وجدوا على صدر الدير كتابة مكتوبة بالرصاص على ساج محفور : « بنى هذا الهيكل المقدس ، محبة لولاية الحق والأمانة ، حنظلة بن عبد المسيح ، يـكون مع بقاء الدنيا تقديسه ، وكما يذكر أولياؤه بالعصمة ، يكون ذكر الخاطئ حنظلة » [4].

---

(1) « وهذا الإسم في النصارى هناك معروف » ، البكري : معجم (٤/٥٨٠) « حنينـاء : ويحنة بضم أوله وفتح الباقي مع تشديد النون ابن رؤبة ملك أيلة صالحه النبي صلى الله عليه وسلم على أهل جرباء وأذرح » ، تاج العروس (٩/١٨٦) .

(2) راجع هـذه الأسماء وغيرها في كتاب النصرانية (ص ٢٣٩ وما بعـدها) فقد أورد قائمة بالأسماء النصرانية ، وأورد أمثلة لمن تسمى بها قبل الاسـلام من العرب الجاهليين ، البكري : معجم (٤/٥٧٨) ، « دير حنة » .

(3) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٥٢) .

(4) البكري : معجم (٢/٥٧٧) ، « دير حنظلة » .

غير أن هذه الأسماء اليهودية الأصل أو النصرانية قليلة الاستعمال ، فلم تكن مستعملة بنطاق واسع . وأكثر من تسمى بها ، هم من الموالي والأرقاء ، أو من العرب الذين كانوا على أطراف العراق وبلاد الشأم ، وممن تأثر بالمؤثرات الثقافية الأعجمية ، فكان من هذا الأثر هذه الأسماء الأعجمية . ويلاحظ أن عدد الأسماء التي ذكرتها كان محدوداً بالقياس الى الأسماء الخاصة الرائجة بين اليهود والنصارى . كأسماء الأنبياء والقديسين المتداولة المعروفة عند أهل الكتاب .

ولم ترد لفظة مسيحي ولا عيسوي فى الشعر الجاهلي ، والظاهر أنهما لم تكونا معروفتين عند الجاهليين . غير أن رواة الشعر يشيرون الى ورود لفظة نصارى فيه وفي الشعر الاسلامي الأول ؛ إذ وردت اللفظة ، كما يذكرون ، فى بيت لطخيم بن أبي الطخماء قاله فى مدح بني تميم [1] ، وفى بيت لجابر بن حني [2] ، وفى بيت للشاعر المخضرم حسان بن ثابت [3] . ووردت لفظة « أتنصر » في بيت لحاتم بن عدي [4] ، وذكر أن النصرانة هي مؤنث النصراني [5] .

وقد كان لرجال الدين منزلة محترمة فى نفوس النصارى الجاهليين ، منزلة تقرب من

---

(١) وإني وإن كانوا نصارى أحبهم ويرتاح قلبي نحوهم ويتوق
المشرق : السنة السابعة ١٩٠٤ م (ص ٦٢٠ وما بعدها) .

(٢) وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض الى دم
المشرق : الجزء المذكور ، شعراء النصرانية (ص ١٩٠) .

(٣) فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد
ديوان حسان (ص ٢٤) .

(٤) وما زلت أسعى بين ناب ودارة بلحيان حتى خفت أن أتنصرا
الأغاني (١٦/١٠٤) .

(٥) فكلتاهما خرت وأسجد رأسها كما أسجدت نصرانة لم تحنف
تاج العروس (٣/٥٦٩) ، اللسان (٧/٦٨) .

العبادة ، فكانوا يسجدون لهم إذا رأوهم ويقربون لهم [١] . وقد أشير الى ذلك في القرآن الكريم في معرض توبيخهم والنهي عن هذا الاسراف في التعظيم . وهم على درجات ، عرفت بين الجاهليين ، ولها تسميات خاصة بها ، مثل : البطرك ، والبطريق . وقد أخذت الأولى من اصل يوناني يعني الآباء ، وأخذت الثانية من أصل لاتيني هو « Patricius » [٢] . والجاثليق ، وهي من أصل يوناني [٣] .

والمطران ، والأسقف ، وهي من الألفاظ السريانية المأخوذة عن اليونانية [٤] وقد وردت في الحديث .

وقد أطلقت لفظة « الحبر » في الغالب على علماء اليهود ، غير أنها أطلقت على علماء النصارى أيضاً ، وهي بمعنى العالم [٥] .

و « الساعي » من الالفاظ التي تتناول المنازل والدرجات عند النصارى ، وتشمل

---

(١) فضول أزمتها أسجدت سجود النصارى لأربابها

وروى : « لأحبارها » ، عوضاً عن أربابها ، تاج العروس (٢/٣٧١) ، اللسان (٤/٤٨٩) ، المخصص (١٢/٨٧) ، النصرانية (ص ١٩٢) .

(٢) « بطرق : البطريق بلغة أهل الشأم والروم هو القائد معرب وجمعه بطارقة . وفي حديث هرقل : فدخلنا عليه وعنده بطارقته من الروم . هو جمع بطريق وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم. وهو ذو منصب وتقدم عندهم . وأنشد بن بري :

فلا تنكروني إن قومي أعزة بطارقة بيض الوجوه كرام

ويقال إن البطريق عربي وافق العجمي . وهي لغة أهل الحجاز . وقال أمية بن أبي الصلت :

من كل بطريق لبطريق نقي الوجه واضح

ابن سيده : البطريق العظيم من الروم . » ، اللسان (١١/٣٠٣) ، تاج العروس (٦/٢٩٦) ، النصرانية (ص ١٩٠ وما بعدها) .

(٣) النصرانية (ص ١٩١) .

(٤) « ومنه أسقف النصارى لأنه يتخاشع » ، اللسان (١١/٥٦) . النصرانية (ص١٩١) ، البلدان (٤/١٢٢) ، « ديارات الأساقفة » .

(٥) اللسان (٥/٢٢٨) . النصرانية (ص ١٩١ وما بعدها) .

اليهود أيضاً . ويقصد بمن تطلق عليه الرئيس المتولي لشـؤون اليهود أو النصارى ، فلا يصدرون رأياً إلا بعد استشارته ، ولا يقضون أمراً دونه . وقد ورد في حديث حذيفة في الأمانة : « إن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنه على ساعيه »(١) .

ولم أجد في أشعار الجاهليين ذكراً للإنجيل ، إلا في الشعر المنسوب الى عدي بن زيد العبادي(٢) . غير أن عدم ورودها كثيراً في هذا الشعر ، لايدل على عدم معرفة الجاهليين لها ، ودليلنا على ذلك ورودها في مواضع من القرآن الكريم(٣) . وورودها فيه دليل على وقوف الجاهليين عليها واستعمالهم اياها ، وأصلها من اليونانية ، وقد وقف العرب عليها من السريانية أو من الحبشية(٤) . وقد وجدت فيما سبق أن نفراً من أهل الكتاب كانوا قد أقاموا بمكة وكانوا يقرؤون التوراة والانجيل بألسنتهم ، فلا يستبعد إذن وقوف بعض الجاهليين ، ولا سيما المثقفين منهم وأصحاب التجارات الذين كانوا يقصدون الحيرة وبلاد الشام ونجران للتجارة وكان لهم اتصال وثيق بنصارى هذه الأرضين على الإنجيل وعلى الكتب الأخرى

---

(١) تاج العروس (١٠/١٨٧) ، النصرانية (ص ١٩٢) .

(٢) وأوتينا الملك والانجيل نقرؤه　　نشفي بحكمته أحلامنـا عللا

الحيوان (٤/٦٦) ، النصرانية (ص ١٨٥) .

(٣) آل عمران : ٣ ، ٤٨ ، ٦٥ ، المائدة الآية ٤٦ وما بعدها ، ٦٦ ، ٦٨ ومواضع أخرى .

(٤) النصرانية (ص ١٨٥) ، « والانجيل كتاب عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام . يؤنث ويذكر ، فمن أنث أراد الصحيفة ومن ذكر أراد الكتاب . وفي صفة الصحابة رضي الله عنهم : معهقوم صدورهم أناجيلهم ، وهو جمع انجيل وهو اسم كتاب الله المنزل على عيسى عليه السلام . وهو اسم عبراني أو سرياني . وقيل : هو عربي . يريد أنهم يقرأون كتاب الله عن ظهر قلوبهم ويجمعونه في صدورهم حفظاً . وكان أهل الكتاب انما يقرؤن كتبهم في الصحف ولا يكاد أحدهم يجمعها حفظاً إلا القليل . وفي رواية وأناجيلهم في صدورهم أي ان كتبهم محفوظة فيها . والإنجيل مثل الإكليل والإخريط . وقيل اشتقاقه من النجل الذي هو الأصل . يقال هو كريم النجل أي الأصل والطبع . وهو من الفعل إفعيل . وقرأ الحسن وليحكم أهل الإنجيل بفتح الهمزة وليس هذا المثال في كلام العرب . قال الزجاج : وللقائل أن يقول هو اسم أعجمي ، فلا ينكر أن يقع بفتح الهمزة لأن كثيراً من الأمثلة العجمية يخالف الأمثلة العربية ، نحو آجر وابراهيم وهابيل وقابيل . » ، اللسان (١٣/١٧١) .

التي كان يستعملها رجال الكنيسة لافهام الناس أمور الدين .

ويظهر من بعض روايات الأخباريين أن بعض أهل الجاهلية كانوا قد أطلعوا على التوراة والانجيل ، وأنهم وقفوا على ترجمات عربية للكتابين . ومعنى هذا أن نفراً من رجال الدين النصارى ومن المبشرين كانوا قد قاموا بتعريب الكتابين ، أو أن هذا الفريق كان قد عرب نفسه الكتابين كلاً أو بعضاً ، ووقف على ما كان عند أهل الكتاب من كتب في الدين . فذكروا مثلاً أن ورقة بن نوفل « كان يكتب الكتاب العبراني ، ويكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » ، وقالوا : « وكان أمرؤ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب [1] » . وقد قصد أهل الأخبار بالعبرانية هنا السريانية ، فليست العبرانية لغة الإنجيل فيستخرج ورقة منها الإنجيل ويكتبه بالعربية . وذكروا مثل ذلك عن « أمية بن أبي الصلت » ، فقالوا إنه كان قد قرأ الكتب المقدسة [2] .

واذا كانت هذه الروايات صحيحة ، فإنها تدل على أن الجاهليين كانوا قد وقفوا على ترجمة العهدين . ويرى بعض المستشرقين احتمال ترجمة العرب للإنجيل قبل الإسلام وعند ظهوره ، ترجمة من اليونانية على الأرجح . وقد استندوا في ذلك الى خبر ذكره ابن العبري «Barhebraeus» يفيد أن البطريق المنوفيزيتي المدعو يوحنا « Monophysite Patriarch Johannes » كان قد ترجم العهد المقدس الى أمير عربي اسمه « عمرو بن سعد » ، وذلك بين سنتي ٦٣١ و ٦٤٠ للميلاد ، والى أخبار أخرى تفيد أن بعض رجال الدين في العراق كانوا قد ترجموه الى العربية وذلك قبيل الإسلام وعند ظهوره [3] .

ولا يستبعد وجود ترجمات عربية للكتاب المقدس في الحيرة ، لما عرف عنها من تقدم في الثقافة وفي التعليم ، ولوجود النصارى المتعلمين فيها بكثرة . وقد وجد المسلمون فيها حينما

---

(١) Sprenger , I, S. 128.

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء (ص ١٧٦) .

(٣) Ency., II, P. 504.

دخلوها عدداً من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة وتدوين الأناجيل ، وقد برز نفر منهم ، وظهروا فى العلوم اللاهوت ، وتولوا مناصب عالية فى سلك الكهنوت فى مواضع أخرى من العراق ، فلا غرابة إذا ما قام هؤلاء بتفسير الأناجيل وشرحها للناس للوقوف عليها . وقد لا يستبعد تدوينهم لتفاسيرها أو لترجمتها ، لتكون فى متناول الأيدي ، ولا سيما بالنسبة الى طلاب العلم المبتدئين . وقد لايستبعد أيضاً توزيع بعض هذه الترجمات والتفاسير الى مواضع أخرى لقراءتها على الوثنيين وعلى النصارى للتبشير (١) .

وقد قصد فى القرآن الكريم بـ « أهل الإنجيل (٢) » النصارى ؛ إذ لم يكن اليهود يعترفون بالإنجيل . وقد أدخل الجواليقي لفظة الإنجيل فى جملة المعربات (٣) ، وذهب كثير من علماء اللغة الى أن اللفظة من أصل سرياني أو عبراني (٤) .

ونجد في كتب الأخباريين وفى كتب قصص الأنبياء وفى الفصول المدونة عن أخبار الرسل والأنبياء والماضين قصصاً وأمثلة وكلاماً يرجع أصله الى بعض أسفار التوراة أو الى الأناجيل ، غير أننا لا نستطيع أن نؤكد أن هذا المدون قد نقل عن الجاهليين ، وأن أهل الجاهلية كانوا يعرفونه ، وأنه ليس مما قصه أهل الكتاب أو مسلمة أهل الكتاب مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه على المسلمين ، فدخل بينهم . ثم ان هذا القصص أكثره من التلمود والمشنا والكتب غير القانونية ، روى بشكل فيه بُعْدٌ في بعض الأحيان عن هذا المدون المعروف ، وهو يفيدنا من هذه الناحية كثيراً فى الحكم على مدى معرفة العرب بعلم أهل الكتاب .

وقد كان للنصرانية أثر مهم فى نشر الكتابة النبطية ، المأخوذة عن الإرمية ، بين الجاهليين ، ومن هذه الكتابة اُشتق الخطّ الإسلامي الأول . وقد وجد المسلمون في

---

(١) Sprenger, I. S. 131. f. (٢) المائدة : الآية ٤٧ .
(٣) المعرب (ص ٢٣) . (٤) النهاية في غريب الحديث (٤/١٣٦) .

فتحهم للعراق مدارس عديدة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، كما أن تجار العرب الذين كانوا يقصدون الشأم والعراق وجدوا الضرورة تحتم عليهم تعلم هذا الخط ، فتعلموه . لقد كان قلم بني إرم هو القلم المنتشر في العراق وفي بلاد الشأم ، أستعمله العلماء والتجار ، حتى اليهود أستعملوه أمداً قبلَ الإسلام ، وقد تعلمه منهم نفر من الأوس والخزرج [1] .

ولم يترك رجال الدين من النصارى العرب لنا أثراً كتابياً ينبئ عن مدى أشتغالهم في علم اللاهوت وفي العلوم الأخرى ، غير أن هذا لايعني أن النصارى العرب لم يخرجوا علماء دين منهم ، ولم يعطوا النصرانية رجلاً منهم يخدمها ويقف حياته الروحية عليها ؛ ففي قوائم أسماء من حضروا بعض المجامع الدينيـة التي عقدت للنظر في الأمور الجدليـة وفي القضايا التي تخص مبادئ الكنيسة أسماء رجال تنبئ أنهم كانوا عرباً ، كما أن بين رجال الدين الكبار الذين نبغوا في العراق من كان أصله من الحيرة ، وإذ كانت غالبية سكان هذه المدينة من العرب ، فلا يستبعد أن يكون من بين هؤلاء العلماء النصارى الحيريين من كان من أصل عربي .

لقد كانت النصرانية عاملاً مهماً بالطبع فى إدخال الآراء الإغريقية والسريانية الى نصارى العرب ، فقد كانت الكنيسة مضطرة الى دراسة الاغريقية ولغة بني إرم ، لِما للغتين من قدسية خاصة نشأت من صلتها بالأناجيل . وقد كان أثر الارمية أهم فى الكنيسة الشرقية من الإغريقية ، لكونها لغة الثقافة فى الهلال الخصيب فى ذلك العهد . ولهذا وجدنا معظم التعابير والمصطلحات الدينية عند نصارى الشرق هي من هذه اللغة ، ومنها أخذها النصارى العرب ، فصارت عربيـة . وقد كان السريان قد نقلوا بعض مؤلفات اليونان واللاتين الى لغتهم ، ولا أستبعد نقلهم بعض تلك المؤلفات ، ولا سيما الدينية منها ، من هـذه اللغة الى

---

(١) الواقدي (ص ٤٧٩) .

اللغة العربية ، وذلك قبل الميلاد ، أو ترجمتها ترجمة شفوية لطلاب العلم من العرب ممن كانوا لا يفقهون لغة بني إرم ، أو لا يلمّون بها إلماماً صحيحاً . وإذ كانت هذه اللغة لغة مقدسة ولغة الكنيسة الرسمية ، وكان أكثر رجال الدين من بنى إرم ، فقد كانت هذه اللغة اللغة المقررة فى الكنيسة ، بها يدرس ويتباحث رجال الدين وان كانوا عرباً ، على نحو ما يفعله رجال الدين المسلمون الأعاجم الذين يدرسون العربية بعلومها المختلفة ليتفقهوا بذلك في الدين ، والعربية هي لغة الدين الاسلامي ، وكما يفعل رجال الدين الكاثوليك أيضاً فى دراستهم اللاتينية وتبحرهم بها لأن اللاتينية هي لغة النصرانية عند الكاثوليك .

وكان للنصرانية أثر آخر فى نصارى عرب الجاهلية ، وهو أثرها فيهم من ناحية الفن ، إذ أدخلت النصرانية بين العرب فناً جديداً فى البناء ، هو بناء الكنائس والأديرة والمذابح والمحاريب والزخرفة ، كما أدخلت التصوير بينهم . ولدخول أكثر هذه الأشياء لأول مرة بين الجاهليين ، استعملت مسمياتها الأصلية اليونانية أو الإرمية فى اللغة العربية ، بعد أن صقلت وهذبت ، حتى أكتسبت ثوباً يلائم الذوق العربي فى النطق . وستكشف الحفريات في المستقبل عن مدى تأثر النصارى العرب الجاهليين بالفن النصراني المقتبس عن الروم أو عن بني إرم والأحباش .

وقد سبق أن تحدثت عن تزيين جدران الكعبة بالصور ، صور الأنبياء والمرسلين على ما ذكره أهل الأخبار ، وتحدثت عن نهي الرسول عن ذلك ، وامره بطمس معالمها ، وقيامه هو نفسه بذلك مع غيره فى طمس تلك الصور . وفى الحديث أيضاً النهي عن أستعمال المصورات على الأقمشة أو غير ذلك ، وقد كان ذلك خوفاً من تقديس تلك الصور ، وهو تقديس نهى عنه الرسول .

وأبرز أثر كان للديانتين هو نشر فكرة التوحيد ، أي عبادة إلّه واحد بين بعض الجاهليين . فقد وجدنا ظهور عبادة إلّه واحد في اليمن تدعو الى عبادة الرحمان ، ورأينا

عبادة أخرى تظهر في تلك البقعة كذلك هي عبادة « ذوسموى » أي « صاحب السماء » بمعنى إلـه السماء ، ورأينا أناساً في الحجاز يشكون في ديانة آبائهم وأجدادهم ديانة الأوثان ، ويبحثون عن إلـه واحد خالق لهذا الكون ، وعن ديانة تطمئن رغباتهم وتزيل عنهم هذا الشك الذي أستولى عليهم وهذا القلق الديني الذي نزل بهم ، فتوصل قوم منهم الى النصرانية وبقي بعضهم حائراً لم يجد راحته في يهودية ولا في نصرانية ، فبقي في قلق ديني يبحث عن إلـه . وقد رأينا أمية بن أبي الصلت وغيره يتصلون بالنصارى ويقرؤون كتبهم بحثاً عن عقيدة تحل محل دينهم ، وعن إلـه يحل محل الأوثان .

أرى وقد انتهيت من فصل أثر اليهودية والنصرانية في الجاهليين أن أبين أن الحكم على الأثر بالاستشهاد بالكلمات والمصطلحات وإن كان مهماً ومفيداً غير أنه لا يمكن أن يكون دليلاً قطعياً . ثم إن معظم المصطلحات التي أوردها المستشرقون ، أو لويس شيخو ، هي مصطلحات يصعب إثبات ورودها في الشعر الجاهلي ، وفي الشعر الجاهلي نفسه ما شاء الله من شعر مصنوع ! بل حتى في حالة ثبوت صحة شعر شاعر ، لايمكن أن يكون ذلك دليلاً على أن ما أورده الشاعر يمثل رأي جميع الجاهليين . وقد رأيت أن من الشعراء من كان على اتصال باليهود أو بالنصارى ، فهو وحده المتأثر بهم ، وهو لايمثل قومه ولا سائر الجاهليين . ورأيي أننا لايمكن أن نتوصل الى نتائج قريبة من العلم الا بعد عثورنا على كتابات جاهلية ومخطوطات يهودية ونصرانية من ذلك العهد تتحدث عن اليهود والنصارى في جزيرة العرب .

الآن ، وقد فرغنا من هذا الفصل ، فصل أثر اليهودية والنصرانية فى الجاهليين ، نود أن نعترف أننا فى الواقع لم نتمكن من الحصول على صورة واضحة أو رأي صريح عن أثر هاتين الديانتين فى الجاهليين وعن أثرهما فى أتباعهما من العرب . وكل ما حصلنا عليه هو كلمات ومصطلحات دينية ، رأينا ورودها فى شعر بعض الشعراء الجاهليين فتحدثنا عنها ،

لورودها عند أولئك الشعراء .

أما قصيدة تامة فيها آراء يهودية أو آراء نصرانية بصورة مفصلة كاملة ؛ وأما كلام منثور فيه عقائد يهودية أو نصرانية ، فلم يصل شيء منها ولا منه الينا ، وقد رأينا أن فى أكثر هذا المقتضب الذي أوردناه ظناً وشكاً ، فمن يثبت لنا أنه جاهلي حقاً ، وأن الرواة حفظوه وتوارثوا حفظه حتى أوصلوه الى أيام التدوين فدون ؟ ثم إننا رأينا معظم هذه الآراء يكاد ينحصر فى شعر شاعر واحد ، انصرف فى حياته الى الدين . وهذا الشاعر هو أمية بن الصلت ، فهل يكون أمية صورة صادقة تمثل رأي أكثرية الجاهليين في الدين ؟ وهل نعد علم أمية بعقائد اليهود والنصارى وبقضايا الدين هو علم أكثر أهل الجاهلية بهذه الأمور ؟ بالطبع إننا لا نستطيع أن نقول بهذا القول ، فقد كان أمية كما يقول من روى أخباره يجالس أهل الكتاب ويختلط بهم ويذهب اليهم ، ليأخذ منهم العلم بالدين . أما بقية الجاهليين ، فلم يكونوا يحفلون بما حفل به أمية ، ولم يأبهوا لما كان يصنع ، ومن يدري ؟ فلعلهم كانوا يسخرون منه ومن صنيعه ذلك ومن تركه الأصنام وعبادة آبائه الأولين للبحث عن دين لم يعلم آباؤه ولا أجداده شيئاً منه ، فهم لفعله هذا يسخرون ويضحكون .

أما يهود العرب فى الجاهلية ونصارى العرب فى الجاهلية ، فقد رأيناهم وقد أخفوا خبرهم عنا وكتموه وجاهدوا ألا يوصلوا من أحوالهم شيئاً الينا مع أنهم كانوا أصحاب علم وكتابة ، لم يتركوا لنا حجراً مكتوباً ولا رقاً مرقوماً ولا كراسة نستخرج منها شيئاً ، فكان كل ما حصلنا عليه هو من هذه الروايات والأخبار المدونة في الإسلام . وهي نتف مبعثرة مشتتة غير شاملة ، ولذلك كانت صورتنا التي رسمناها عن حياتهم صورة ناقصة غير كاملة ، وستظل كذلك ما لم نصب مواد جديدة تساعدنا على تكملة هذه الفراغات الواسعة التي لا يمكن أن تسدها ريشة الرسام ما لم يقف على تلك المواد .

الفصل السادس

المجوس والأصناف

يقصد الأخباريون بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة : الخير والشر ، فيزعمون أن الخير من فعل النور وأن الشر من فعل الظلمة [1]. ولعلماء اللغة آراء في أصل هذه اللفظة ، وقد أدخلها أكثرهم في جملة الألفاظ المعربة [2] . والواقع أن الكلمة إيرانية

---

(١) النهاية (٤/٨٥) ، « المجوسية نحلة . والمجوسي منسوب اليها . والجميع المجوس . قال أبو علي النحوي : المجوس واليهود ، إنما عرف على حد يهودي ويهود ومجوسي ومجوس ، ولو لا ذلك لم يجز دخول الألف واللام عليهما ، لأنهما معرفتان مؤنثان ، فجريا في كلامهم مجرى القبيلتين ولم يجعلا كالحيين في باب الصرف » ، اللسان (٨/٩٨) « مجس » ، « وفي الحديث : القدرية مجوس هذه الأمة . قيل إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين : وهما النور والظلمة . يزعمون أن الخير من فعل النور وأن الشر من فعل الظلمة . » ، اللسان (٨/٩٩) ، تاج العروس (٤/٣٤٥) .

(٢) الجواليقي : المعرب (ص ٣٢٠) ، « ابن سيدة : المجوس جيل معروف جمع ، واحدهم مجوسي ، غيره وهو معرب أصله منج كوش . وكان رجلا صغير الأذنين ، كان أول من دان بدين المجوس ودعا الناس اليه فعربته العرب ، فقالت : مجوس . ونزل القرآن به . والعرب ربما تركت حرف مجوس إذ أشبه بقبيلة من القبائل ، وذلك أنه اجتمع فيه العجمة والتأنيث . » ، اللسان (٨/٩٩) ، « مجوس كصبور . رجل صغير الأذنين . كان في سابق العصور أول من وضع ديناً للمجوس ودعا اليه . قاله الأزهري. وليس هو زرادشت الفارسي ، كما قاله بعض ؛ لأنه كان بعد ابراهيم عليه السلام ، والمجوسية دين قديم . وإنما زرادشت جدده وأظهره وزاد فيه . قاله شيخنا : قال هو معرب أصله منج كوش فعرب مجوس كما ترى. ونزل القرآن به . وكوش بالضم الأذن ، ومنج بمعنى التصغير ... » ، تاج العروس (٤/٣٤٥) ، مجس » .

الأصل ، وقد عرفها اليونان و بنو إرم ، ومن بني إرم على رأي بعض المستشرقين دخلت اللفظة الى العربية [1] .

وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم [2] . وردت علماً لدين ، فدلّ ذلك على وقوف أهل الحجاز على خبرهم . ومعرفتهم بهم . وربما لا يستبعد وجود نفر منهم فى مكة والمدينة والطائف وفى مواضع أخرى . وجدوا فيها بطريق التجارة أو الرقيق ، فقد كان سكان جزيرة العرب يستوردون الرقيق من مختلف أسواقه ، ومن جملة هؤلاء رقيق من الفرس كانوا يقعون أسرى ، فيباعون فى الأسواق ، كما كان أهل مكة تجاراً لهم أسفار بعيدة يقصدون العراق ، فلا بد أن يكونوا قد وقفوا على خبر المجوس إبّانَ مجيئهم اليه ومكوثهم فيه ، كما كان منهم تجار يذهبون الى اليمن والبحرين ، وفى هذين الموضعين نفر منهم ، فلا يستبعد وقوف هؤلاء التجار على خبر هؤلاء المجوس .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً ينبيء عن دخول قبائل عربية فى المجوسية . وكل ما ورد عندهم هو دخول نفر منهم فيها ، وفى دخول هذا النفر شك أيضاً ، ولهذا كان معظم مجوس جزيرة العرب من الفرس المقيمين فى البحرين وفى اليمن وعمان .

أما مجوس اليمن ، فقد كانوا من الفرس الذين أرسلهم كسرى لطرد الحبش من اليمن ، فهم وأبناؤهم كانوا على هذا الدين ، دين الانبراطورية الفارسية . وقد عرفت هذه الطبقة بالأبناء ، وعند ظهور الإسلام دخلوا فيه ولما حاول الأسود العَنْسي المتنبيء خطب ودّهم ، لم يميلوا اليه ، فعاداهم ، ولهذا كافح الأبناء فى إسقاطه ، وساعدوا المسلمين فى القضاء

---

(١) Ency., Vol., III, P. 97.

(٢) سورة الحج : الآية ١٧ ، « وفي الحديث : كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يمجسانه ، أي يعلمانه دين المجوسية » ، اللسان (٨/٩٩) ، راجع أصل هذا الحديث وسنده في كتب الحديث .

عليه [١] .

وأما مجوس عُمان وبقية أنحاء العربية الجنوبية ، فقد كانوا من الفرس كذلك : من تجار ومن مقيمين من بقية الفرس الذين كانوا قد استولوا قديماً على هذه الأرضين . وعند ظهور الإسلام ، لم يكن لهم فيها نفوذ سياسي ، فقد كان مشايخ القبائل قد كونوا مشيخات فيها ، واستقلت فى إدارة شؤونها ، غير أن المجوس بقوا فيها ، وعند دخول أهلها فى الإسلام ، ودخول البلاد فى حكمه ، دفع أولئك المجوس الجزية ، شأنهم فى ذلك شأن اليهود والنصارى المقيمين فى هذه الأرضين .

وأما مجوس البحرين ، فقد كانوا أكثر عدداً وأكبر نفوذاً من إخوانهم فى عُمان ، لقرب هذه الأرضين من انبراطورية الساسانيين ، ولهجرة الفرس من السواحل المقابلة ومن طريق الأبلة الساحلي . وقد عثر المنقبون على قبور عديدة تعود اليهم ، وعلى آثار لمابدهم فى العربية الشرقية . وكان على « هَجَر » ، حين أبلغ الرسول دعوته اليها ، رجل من الفرس اسمه « سيبخت مرزبان » ، وقد أسلم ، وأسلم معه قوم من قومه ، ودفع الجزية من فضل البقاء منهم على دينه ، شأنهم فى ذلك شأن أهل الكتاب [٢] .

وليس فى الشعر الجاهلي شيءٌ ما عن المجوسية [٣] . وأما ما ورد فى الموارد الاسلامية القديمة من روايات وأخبار عن هذه الديانة ، فإنه يدل على أن العرب لم تكن تعرف عنها معرفة تذكر ، ولم نسمع بدخول أحد من ملوك الحيرة أو أمرائها فيها مع علاقتهم بالفرس واتصالهم الوثيق بهم ووجود المجوس فى أرضهم وفى عاصمتهم ، بينما نجد بعضهم وقد دخل فى النصرانية على ما يفهم من بعض الروايات .

---

(١) Ency., Vol., III, P. 99.

(٢) البلاذري (٨٥ وما بعدها) ، البلدان (٧٣/٢ وما بعدها) .

(٣) وليس في شطر الشعر المنسوب الى التوأم اليشكري مايفيد شيئاً عن المجوسية ، سوى انهم عبدة نيران . والشطر هو : كنار مجوس تستعر استعاراً ، اللسان (٩٨/٨) .

وقد ذكر الأخباريون أن المجوسية دخلت فى تميم ، فتمجّس منهم زرارة بن عدس التميمي ، وأبنه حاجب بن زرارة ، والأقرع بن حابس ، وأبو الأسود جدّ وكيع بن حسّان [1] . وقد تمجّس هؤلاء بأتصالهم بالفرس وبأحتكاكهم بهم ، غير أننا لا نجد المجوسية متفشية بين العرب بكثرة ، حتى بين العرب الذين كانوا على أتصال بالفرس مثل عرب العراق وعرب العربية الشرقية . ولعل ذلك بسبب عدم ميل الفرس الى ادخال أحد من الغرباء عنهم فى دينهم والى عدّهم المجوسية ديانة قومية خاصة بهم ، فلا يهمهم دخول أحد من غيرهم فيها .

وقد أشار بعض الأخباريين الى أعتقاد بعض قريش بالنور والظلمة ، زاعمين أنهم أخذوه من الحيرة . ويسمى الأخباريون أصحاب هذا الرأي « الثَّنَوية » ، وأطلقوا على تلك الفئة المذكورة من قريش « الزنادقة » [2] ، ولم يذكروا شيئاً عن زندقة تلك الجماعة من قريش ،

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٣٥ وما بعدها) .

(٢) « الزنديق : القائل ببقاء الدهر . فارسي معرب . وهو بالفارسية زندكر أى يقول بدوام بقاء الدهر . والزندقة : الضيق . وقيل الزنديق منه ، لأنه يضيق على نفسه ... وليس في كلام العرب زنديق، وإنما تقول العرب رجل زندق وزندقي إذا كان شديد البخل . فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة ، قالوا ملحد ودهري ، فاذا أرادوا معنى السن ، قالوا دهري ... الجوهري : الزنديق من الثنوية ، وهو معرب والجمع زنادقة . وقد تزندق . والجمع زندقة » ، اللسان (١٢/١٢) « زندق » ، « الزنديق : بالكسر من الثنوية كما في الصحاح ، أو هو القائل بالنور والظلمة كما في العباب ، أو من لا يؤمن بالآخرة والربوبية . وفي التهذيب وحدانية الخالق ، أومن يبطن الكفر ويظهر الايمان ... وفي اللسان : الزنديق القائل ببقاء الدهر ، فارسي معرب . وهو بالفارسية زنده كر أي يقول بدوام بقاء الدهر . قلت والصواب: ان الزنديق نسبة الى الزند ، وهو كتاب مانى المجوسي الذي كان فى زمن بهرام بن هرمز بن سابور . ويدعى متابعة المسيح عليه السلام . وأراد الصيت فوضع هذا الكتاب وخبأه في شجرة ثم استخرجه . والزند في لغتهم التفسير يعني هذا تفسير لكتاب زرادشت الفارسي واعتقد فيه الالهين: النور والظلمة . النور يخلق الخير والظلمة يخلق الشر . وحرم اتيان النساء . لأن أصل الشهوة من الشيطان ولا يتولد من الشهوة إلا الخبث . وأباح اللواط لانقطاع النسل وحرم ذبح الحيوانات وإذا ماتت حل أكلها . وكان قد بقيت منهم =

ولا عن رجالها . وإذا صح خبر هؤلاء الأخبـــاريين ، فقد يكون مرادهم تمجس قوم أي دخولهم فى ديانة الفرس الذين كانوا فى الحيرة [1] .

ولعل الأخباريين قصدوا بعبّاد النار عند العرب النفرَ الذين تأثروا بالفرس ، وتعلموا منهم عبادة النيران ، وتمجسوا ، من أمثال زُرارة بن عدس وابنه حاجب بن زرارة ، وقد قالوا عنهم إنهم أشتات من العرب [2] ، دون أن يذكروا شيئاً يفيدنا عن كيفية عبادتهم ومواضع معـابدهم والأماكن التي كانوا فيها . ومهما يكن من شيء ، فاننـا لا نأمل بالطبع العثور على أمثال هؤلاء ، إلا بين العرب الذين كانوا على اتصال وثيق بالفرس ، وفي المواضع التي كانت فيها جاليات من المجوس .

ويـذكر علماء اللغة فى مَعْرض كلامهم على معنى لفظـة الزمزمة أن من عادة المجوس الزمزمة عند الابتداء بالأكل ، أي قراءة شيء من كتبهم الدينية قراءة خافتة على المأكول تقديساً وشكراً له . وقد نهى الخليفة عُمَـرُ عن الزمزمة ؛ لأنها من علائم المجوس [3] .

وقـد عرف عالم المجوس ورئيسهم الروحي بين المسلمين بـ « الموبذ » و « الموبذان » ؛ وعرف كبيرهم بـ « موبذان موبذ » ؛ وجعل بعض العلماء « الموبذان » بمنزلة قاضي القضاة ، والموبذ بمنزلة القاضي عند المســلمين [4] . وتعني « موبذان موبذ » الموبذ الأعظم . وقد

=طائفـــة بنواحي الترك والصين وأطراف العراق وكرمان الى أيام الرشيد ، فأحرق كتابه وقلنسوة له كانت معهم وأكثر القتل فيهم وانقطع أثرهم . » ، تاج العروس (٦/٣٧٣) . بلوغ الأرب (٢/٢٢٨ وما بعدها) .

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٢٩) .

(٢) بلوغ الأرب (٢/٢٣٣ وما بعدها) .

(٣) « قال الجوهري : الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم . وفي حديث عمر رضي الله عنه ، كتب الى أحد عماله في أمر المجوس : وانههم عن الزمزمة . قال : هو كلام يقولونــه عند أكلهم بصوت خفي . » ، اللسان (١٥/١٦٥) ، تاج العروس (٨/٣٢٨) .

(٤) النهاية في غريب الحديث (٤/١١٩) ، « الموبذان ... قال الصاغاني : هو بضم الميم وفتح =

أكتفي أحياناً بلفظة « موبذان » للتعبير عن « موبذان موبذ » . وقد فسر المسعودي لفظة « الموبذ » بمعنى حافظ الدين . ورَجَعَ أصلها إلى : « مو » بمعنى دين في رأيه ، و « بذ » بمعنى حافظ [1]. ورأى اليعقوبي أن « الموبذان » بمعنى عالم العلماء [2]. وقد أطلق السريان على الموبذ جملة « ريش مكوشى » « Resh mgüshi » و « ريش دمشأ كوشى » « Resh dam 'gushi » ، و« مكوشى » تعني المجوس [3]. والموبذ هي من الألفاظ المعربة عن الفهلوية ، فهي من أصل فهلوي ، هو : « magupat » ، بمعنى عظيم المجوس . وهذه اللفظة الفهلوية هي من المصطلحات المتأخرة المكتوبة بالفهلوية شرحاً وتفسيراً لـ « الأبستاق» « الآوستا » Avesta ، وتقابل مصطلح « Zarathustrotema » في أيام الأبستاق المتأخرة . ويتمتع هذا الرئيس الديني الأعظم بسلطات دينية واسعة [4] .

ويقصد المسلمون بالحنفاء من كانوا على دين ابراهيم من الجاهليين ، فلم يشركوا بربهم أحداً [5] . لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية ، ولم يقبلوا بعبادة الأصنام ديناً ، بل سفهوا تلك العبادة ، وسفهوا رأي القائلين بها . ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً من قحطان وعدنان كانوا قبل عمرو بن لُحَيٍّ الخُزاعيّ على هذا الدين . كانوا موحدين يعبدون الله جلّ جلاله وحده ، لايشركون به ولا ينتقصونه . فلما جاء عمرو بن لحي ،

= الباء . وحكي فتح الميم أيضاً . وحكى ابن ناصر كسر الباء أيضاً : فقيه الفرس وحاكم المجوس ، كقاضي القضاة للمسلمين . كالموبذ . ومنهم من يدعي اصالة الميم لأنه ليس بعربي . » ، تاج العروس (٢/٥١٣) « الموبذان » ، موبذ : وفي حديث سطيح ، فارسل كسرى الى الموبذان . الموبذان للمجوس كقاضي القضاة للمسلمين . والموبذ القاضي » اللسان (٤٨/٥) .

(١) Ency., III, P. 543.

(٢) تأريخ اليعقوبي (٢٠٧/١) .

(٣) Ency., III, P. 543.

(٤) Ency., III, P. 543.

(٥) النهاية (٢٩٩/١) .

أفسد العرب ، ونشر بينهم أضاليل عبادة الأصنام ، بما تعلمه من وثني بلاد الشأم حين زارهم ، وحلّ بينهم ، فكان داعي الوثنية عند العرب والمبشر بها ومضلّهم الأول . وهو على رأيهم موزّع الأصنام بين القبائل ، ومقسمها عليها . فكان من دعوته تلك عبادة الأوثان ، إلى أن جاء الاسلام فأعاد العرب إلى سواء السبيل ، الى دين ابراهيم حنيفاً ، وما كان إبراهيم من المشركين [١] .

ولقد فشت دعوة عمرو بن لحي بين العرب وانتشرت ، حتى دخل فيها أكثرهم ، والضلال سريع الانتشار ، وقلّ عدد من حافظ على دين إبراهيم والمراعين لإحكام دين التوحيد الحنيف : من اعتقاد بوجود إلـه واحد أحد ، وطواف بالبيت ، وحجّ اليه ، وعمرة ، ووقوف على عرفة وهدي للبدن ، وإهلال بالحج والعمرة ، وغير ذلك . فلم يبق منهم إلا عدد محدود في كل عصر الى زمن البعثة المحمدية [٢] . ويعد الاختتان والحج الى البيت والاغتسال من الجنابة واعتزال الأوثان ، من أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن المشركين [٣] .

وللعلماء الإسلاميين آراء وتفسيرات في أصل لفظة « حنيف » وحنفاء . ومعناهما ، حتى ذهب بعضهم الى أن « حنيفاً » من أصل إرمي [٤] . وللمستشرقين بحوث في أصلها

---

(١) « قال أبو عبيدة في قوله عز وجل : قل : بل ملة ابراهيم حنيفا . قال : من كان على دين ابراهيم ، فهو حنيف عند العرب . وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين ابراهيم . فلما جاء الاسلام سموا المسلم حنيفاً . وقال الأخفش : الحنيف المسلم وكان في الجاهلية يقال : من أختتن وحج البيت حنيف . لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت . فكل من اختتن وحج قيل له حنيف . فلما جاء الإسلام تمادت الحنيفية . فالحنيف المسلم . » ، اللسان (١٠/٤٠٣ وما بعدها) . بلوغ الأرب (٢/١٩٥ وما بعدها) .

(٢) بلوغ الأرب (٢/١٩٦) .

(٣) القاموس مادة : حنث (٣/١٣٠) ، تاج العروس (٦/٧٧ وما بعدها) .

(٤) Ency., II, P. 259.

ومعناها وفى ورودها عند العرب قبل الإسلام ، ومنهم من يرى أن اللفظة من أصل إرمي ، وقد كانت معروفة عند النصارى ، وأخذها الجاهليون منهم ، وأطلقت على القائلين بالتوحيد من العرب ، على أولئك الذين ظهروا فى اليمن خاصة ونادوا بالتوحيد وعبادة الرحمان . وهي ديانة توحيد ظهرت بتأثير اليهودية والنصرانية ، غير أن أصحابها لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وإنما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بآراء الديانتين (١) .

وقد ذهب « توري Torrey » الى أن اللفظة من أصل « حنف Hànèf » العبراني ، ورأى « ولهوزن » أنها سمة عرف بها جماعة من الزهّاد النصارى عرفوا بشدة تقواهم وبترهبهم فعرفوا لذلك بها ، وأن لها صلة بظهورها عند العرب . ورأى آخرون وجود صلة لها بلفظة « تحنوت » العبرانية التي تعني الصلوات ، وتقابل التحنث فى العربية ، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد وبالزهاد (٢) .

وقد عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية ، وعدوهم نصارى عرباً زهّاداً كيفوا النصرانية بعض التكييف (٣) ، فخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها . وقد استدلوا على ذلك بما ورد من تنصر بعضهم ، وبما ورد فى بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم أن المراد بهم شيعة من شيع النصرانية . غير أن القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على أن الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وأنهم ينتمون فى عقيدتهم

(١) Ency., II, P. 259.

(٢) Abraham i. Katsh, Judaism in Islam, New york, 1954, P. 108. f., J. A. Montgomery, Ascetic Strains in Early Judaism, in JBL, Vol., Li (1932) PP. 183., Tor Andrae, Der ursprung der Islam und das Christentum, uppsala, 1926, P. 40, Charles, Lyall, The World Hanif and Muslim, in JRAS, 1903, P. 772, Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 45, ff.

(٣) Reste, S, 238, J. A., Montgomery, Ascetie Strains in Early Judaism, JBL, Vol., L1, 1932, PP. 183. f., Katsh, P. 108.

الى ابراهيم ؛ وابراهيم لم يكن يهودياً ولم يكن نصرانياً ، وأن الرسول نفسه كان على الحنيفية، ولم يكن الرسول يهودياً ولا نصرانياً ، بل كان حنيفاً مسلماً . ثم إن الأخباريين قد نصوا على أسماء من تنصروا من الحنفاء ، وأشاروا إلى دخولهم فى النصرانية . ولو كانت الحنيفية شيعة نصرانية ، وكان الحنفاء يعتقدون بهذه العقيدة ، لأشار الأخباريون الى ذلك ، ولقالوا عنهم إنهم كانوا نصارى ، وإنهم كانوا على مذهب من مذاهبها ، وإنهم كانوا يخالفون النصارى فى أمور ، وإن مذهبهم حق لاعتقادهم بإله واحد لا ولد له ولا شبيه .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال قالوا عنهم إنهم كانوا مخالفين للمشركين فيما ذهبوا اليه من عبادة الأصنام ، وإنهم أنكروا ديانة آبائهم وأجدادهم ، وطافوا فى البلاد يسألون الهداية والدين الصحيح . وقد اهتدى نفر منهم الى النصرانية ، وتوقف أكثرهم فلم يدخل فيها ؛ لأنه لم يجد فيها ما أراده من توحيد خالص ، ومن إيمان بإله واحد قهار ، كما أنه لم يدخل فى يهودية ، وإنما ظل حائراً راجياً الهداية ودين الله الحق ، ومنهم من مات وهو على هذا الرأي .

ومن هؤلاء الموحدين الذين كانوا على دين : قُسُّ بنُ ساعدةَ الإياديّ ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وأمية بن أبي الصلت ، وأرباب بن رئاب ، وسويد بن عامر المصطلقي ، ووكيع بن سلمة بن زهير الإيادي ، وعمير بن جندب الجُهَني ، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس ، ووَرقة بن نوفل القرشي ، وعامر بن الظَّرب العدواني ، وعلاف بن شهاب التميمي ، والمتلمس بن أمية الكناني ، وزهير بن أبي سُلمى ، وخالد بن سنان بن غيث العَبْسي ، وعبد الله القُضاعي ، وكعب بن لُؤيّ بن غالب ، وآخرون [1] .

وقد تحدثت فى الجزء السابق من هذا الكتاب عن بعض هؤلاء ، ووجدنا أنهم أناس رفضوا عبادة الأصنام والأوثان ، إذ رأوها حجارة لاتسمع ولا تجيب ، ولاتنفع ولا تضر ،

---

(١) بلوغ الأرب (٢/٢٤٤ وما بعدها) .

ووجـدنا أن منهم من راجع أهل الأديان من يهود ونصارى ، وقرأ كتبهم كما يقول أهل الأخبار ، ومنهم من كان يقرأ ويكتب وله إلمام بالسريانية ، أخذها من النصارى الذين كانوا يتدارسونها فى مدارسهم وفى كنائسهم ، وأن منهم من جاهر برأيه فى فساد عبادة الأصنام، وحث قومه على تركها ونبذها ، وقد لاقى من قومه إعراضاً شديداً وعنتاً اضطره الى ترك وطنه خوفاً على نفسه من الأذى والتعذيب .

ولسنا نملك ويا للأسف شيئاً لا من الجاهلية ولا من الاسلام يعيننا فى الوقوف على عقائد الأحناف ودينهم ، فكل ما ورد فى كتب السير والتواريخ عنهم هو فى أمور لا تفيـدنا كثيراً في معرفة العقائد المشتركة التي كانت تجمع شمل من ذكرت أسماءهم من رفضة عبـادة الأصنام . ثم إن الذي ذكروه من تمسك بعضهم بدين ابراهيم وشريعته غامض موجز ، ليس فيه تفصيـل ولا وضوح . نعم فيه أعتراف بالتوحيـد ، وبأمور أخرى أشرت اليها هي خلاصة آراء القوم على ما جاء فى كتب السير والأخبار . غير أن كل هذا لا يلقي ضوءاً على رأي تلك الجماعة ، ولا يشرح لنا كيفية ظهورها ودرجة صلة بعضهـا ببعض ومدى أنتشارها فى جزيرة العرب ، ثم إن فى الكثير مما ذكروه عنهم ما هو محمول عليهم وما يحمل طابع القصص والأساطير .

والذي يفهم من القرآن الكريم هو أن الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام، فلم يكونوا من المشركين ، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص ، وهو فوق توحيـد اليهود والنصارى ، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، و (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين)[1] ، وأن قدوتهم في ذلك ابراهيم ، وقد حمل ما ورد فى القرآن الكريم عنهم مقتضباً المفسرين وأهل الأخبار على جمع ما علق بالأذهان عنهم ، فكان منه هذا الذي نجده فى كتب التفسير والتواريخ والأخبار .

---

(١) آل عمران : الآية ٦٧ وما بعدها .

ونجد فى الأخبار أن الرسول كان يعد الرهبانية مخالفة للحنيفية ، إذ ورد أن أبا عامر ابن النعمان بن صيفي (المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح) قدم المدينة ورأى الرسول ، وسأله : ما هذا الذي به ؟ فقال الرسول : جئت بالحنيفية دين ابراهيم ، فقال أبو عامر : فأنا عليها ، فقال الرسول : لست عليها ، ولكنك أدخلت فيها ماليس منها . وقد سماه الرسول الفاسق . فذهب مغاضباً للرسول كما تقول الروايات ، متوجهاً الى قيصر ، ليحمله على توجيه جيش الى المدينة للقضاء على الاسلام ، غير أنه مات وهو فى بلاد الشام [1] .

ولاشتهار أبي عامر بالراهب ، ولما ورد فى بعض الأخبار من أنه كان حنيفاً ، ذهب « ولهوزن » الى أن الأحناف هم من النصارى ، وأن حركتهم حركة نصرانية ، وأنهم كانوا القنطرة التي توصل بين النصرانية والإسلام [2] . غير أن ما لدينا من معارف عن الأحناف ، لا يكفي لإبداء رأي كهذا الرأي ، وللتسليم بمثل هذا القول ينبغي لنا الوقوف على آرائهم وقوفاً دقيقاً ومقارنة ما لدينا بما نعرفه عن النصرانية لنتمكن من التوصل الى رأي علمي فى هذا الشأن .

وفى بيت منسوب إلى أمية إشارة الى الحنيفية ، ذكر فيه أن كل دين زور عند الله إلا دين الحنيفة . وقد رأينا أهل الأخبار يدخلون أمية في جملة الحنفاء ، ويقولون : إنه لبس المسوح تعبداً ، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل ، وحرم الخمر [3] . ويلاحظ أن الأخباريين ينسبون الى عدد من هؤلاء الموحدين لبس المسوح ، مما يشير إلى وجود نفر من الجاهليين كانوا قد تأثروا بالرهبان المتقشفين وبالزهاد النصارى الناسكين ، فأخذوا عنهم هذه الطريقة

---

(١) مجمع البيان : الجزء الرابع من المجلد الثاني (ص ٥٠٠) .

(٢) Wellhausen, Reste, S. 239 f.

(٣) كل دين يوم القيامة عند الله ... إلا دين الحنيفة زور

الأغاني (٤/١٢٢) طبعة « دار الكتب المصرية » .

التي أشير اليها فى القرآن الكريم وفى الحديث ، والتي عُـدَّت من البدع المقوتة في الإسلام .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً ذكروا أن الأحناف قالوه ، هو من نوع كلام الكهان المرتب على طريقة السجع ، أوردوه بنصه على ما ذكروه . غير أن من الصعب تصور صدور ذلك الكلام المنمق من أناس عاشوا قبل الاسلام ، ومحافظة الناس عليه محافظة تامة الى ما بعد الإسلام . ويظهر على كل حال من دراسة روايات أهل الأخبار عن الكهان والأحناف أن كلام رجال الدين قبل الإسلام كان على هذا النمط من السجع ، ومن جمل مكررة معادة عامة . وقد ظل السجع الطريقة المحببة فى الكتابة الى أيامنا هذه عند بعض الكتاب .

وتذكرنا عقيدة الأحناف هذه بعقيدة التوحيد التي ظهرت فى اليمن بعد الميلاد ، والتي تتمثل فى عبادة الإله « ذسموى » أي « رب السماء » وفى عبادة أخرى هي عبادة الإله « الرحمن » . وفى كلتا العبادتين إقرار بإله واحد ، أي بالتوحيد ، ويتمثل الإله في العقيدة الأولى رباً للسماء . ولا ندري إذا كان أهل هذه العقيدة يعتقدون بسماء واحدة واسعة لاحدّ لها ، أو بجملة سماوات ، أو بالسماوات السبع . على كل حال ، فكل ما فهمناه من النصوص التى عثرنا عليها على اسم رب هذه العقيدة هو أنه رب السماء ، وهذا ما يحملنا على التفكير فى أن القوم كانوا يرون مكانه فى السماء ، والسماء هي مواطن الآلهة فى أكثر الأديان ؛ لأنها ارتفاع فى نظر البشر . فهي لذلك أليق الأماكن بالأرباب .

ونحن نأسف لقلة عدد النصوص العربية الجنوبية التى دونت اسمى الإلهين « ذسموى » و« الرحمان » ، ولاقتضابها أيضاً ، ولعدم ورود شيء مهم فيها عن عبادتي هذين الإلهين ، فحرمنا بذلك معارفَ بنا أشد الحاجة اليها ، كما أننا لا نعرف شيئاً عن الذين دعوا اليهما ، ولا عن الذين نشروا هاتين الديانتين ، ولا عن المعابد التى تعبد الناس فيها . ولم تَع

فاكرة أهل الأخبار شيئاً ما عن الإلـه رب السماء أو عن الإلـه الآخر الرحمن . وذاكرة الأخباريين ضعيفة جداً بالنسبة الى أخبار اليمن ، فهي لم تَعِ منها الا القليل .

وفى هذه النصوص التي ورد فيها اسم الرحمن استعانة به ، استعين بقدرته وبقوتـه ، فوردت مثلاً في أحد النصوص المدونة بمناسبة تسوير مقبرة وإحاطتها بسور جملة : « بخيل رحمنن »[1] أي « بخيل الرحمان » أي بقوة الرحمان ، وهو إلـه أصحاب تلك المقبرة . وقد ورد اسم هذا الإلـه فى جملة نصوص أخرى[2] .

والاختتان من العادات القديمة الشائعة بين العرب الجاهليين الوثنيين . أما العرب النصارى ، فلم يكونوا يختتون . فالحنفاء فى هذه العادة والوثنيون سواء . وفى أخبار معركة حنين أن الأنصار حينما أجهزوا على قتلى ثقيف ممن سقط فى هذه المعركة مع هوازن وجدوا عبداً ، عند ما كشف ليستلب ما عليه وجد أغرل . فلما تبين ذلك للأنصار ، نادى أحدهم بأعلى صوته : يعلم الله أن ثقيفاً غُرْل ما تختتن . فقام اليه المغيرة بن شعبة ، وهو من ثقيف ، فأخذ بيده ، وخشي أن يذهب ذلك عن قومه فى العرب ، فقال له : لا تقل ذلك فداك أبي وأمي ، إنما هو غلام لنا نصراني ، ثم جعل يكشف له قتلى قومه ويقول له : ألا تراهم مختتنين[3] ؟

---

(١) F. V. Winnett, A Monotheistic Himyarite Inscription, in Bulletin of the American Schools of Oriental Research, Nr 83, october, 1941, PP. 22, Re, Epi. Se., 3431, Glaser, 399.

(٢) CIH 6, 45, 537, 538, 539, 541, 543, MM, 19, Res, 4109, Bose, 13, Res, 4069, Stamb. 7608, Winckler, Zur Geschichte des Judentums in Jemen, in altorientalische Forschungen, Bd., I, S. 336, Res, 3904, Asmara, 1, Ry. 203, Le Musion, L11, 51. ff,

(٣) الطبري (٣/١٣٠) « ذكر الخبر عن غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازن بحنين » .

ويتبين من هذا الخبر أن العرب كانوا يعدّون الغرل شيئاً معيباً ، ومنقصة تكون حديث الناس . وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعاً كانوا يختتنون، وان الاُختتان كان من السمات التي تميزهم عن غيرهم ، وأنهم في ذلك كاليهود [1]. وقد ورد في الموارد اليهودية كما أشرت فيما سلفت ما يفيد أُختتان العرب . ولعل التوراة التي ذكرت قصة اختتان اسماعيل [2] ، أخذت خبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين التي كانت شائعة بينهم في ذلك العهد .

هذا ، ولا بُدّ لنا ، ونحن نتحدث عن الأحناف وعن عقيدتهم فى التوحيد ، من التحدث عن ورود لفظة الله في أشعار بعض الجاهليين ومن قسمهم بها ، فورود هذه اللفظة فى ذلك الشعر ، وقسم الجاهليين بها ، يدل على أن أصحاب ذلك الشعر كانوا قوماً موحّدين : يدينون بالتوحيد ، ويعتقدون بوجود إلٓه واحد خلاّق لهذا الكون ، بيده الخير والشر ، وهو على كل شيء قدير . بل نجد في هذا الشعر الإيمان بالقضاء والقدر ، وأن كل شيء فى هذا الكون هو محتوم مكتوب ، وأن ما يصيب الإنسان ، لا بدّ أن يكون قد كتب عليه ، ولاراد لما هو مكتوب .

ونجد فى معلقة امرئ القيس قسماً بالله حكي على لسان صاحبة صاحب المعلقة :

فقالت يمين الله مالك حيلة ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلي [3]

ونرى فى بيت لأمرئ القيس اسم الله وهو يذكر اقدامه على الشرب :

فاليوم أسقى غير مستحقب ... إثماً من الله ولا واغل [4]

فالرجل مؤمن بالله ، وقد وفى بما عاهد الله عليه ، وهو لايخشى بعد ذلك إثماً إذا شرب؛ لأنه وفى بنذره .

---

(١) الأغاني (٦/٩١) « ذكر أبي سفيان وأخباره ونسبه » .

(٢) Wellhausen, Reste, S. 175.

(٣) المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، (ص ٦٢) .

(٤) شعراء النصرانية (ص ١٩) .

ونراه يذكر الله أيضاً فى هذا البيت :

لله زبدان أمسى قرقراً جلداً وكان من جندل أصم منضودا [(١)]

ثم نراه يشكر الله بجملة « والحمد لله » .

أري إبلي والحمد لله أصبحت ثقالاً إذا ما أستقبلتها صعودها

ونراه يحث الناس على التمسك بحبل الله ، فبالله يكون النجاح ؛ ويحث الناس على عمل البر ، والبر خير حقيبة الرجل [(٢)] . ولا أدري أكان هذا الكلام كلام رجل مشرك جاهلي ، أم كلام رجل موحد مؤمن بالله ؟

أما الذي نفهمه من الأبيات المذكورة ، فهو أن أمرأ القيس رجل مؤمن مسلم يعتقد بالله الواحد ، مؤمن بالثواب وبالعقاب ، وأنه كان يخاف الله ويخشى الإثم والفسوق ، ولا أدري أينطبق هذا الذي نقوله على أمرئ القيس الذي يتحدث عنه الأخباريون ويصفونه بأنه رجل عابث ميال الى اللهو والشهوات ، رمى صنمه بسهم وأنّبه لما جاء الجواب بخلاف ما كان يرغب فيه ويشتهيه .

وإذا اعتقدنا صحة الأبيات المنسوبة الى عَبيد بن الأبرص :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

بالله يدرك كل خير والقول فى بعضه تلغيب

والله ليس له شريك علّام ما أخفت القلوب [(٣)]

وقلنا مع القائلين إنها من شعر ذلك الشاعر حقاً ، وجب عدّه إذن في جملة الموحدين

---

(١) شعراء النصرانية (ص ٤٠) .

(٢) والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

شعراء النصرانية (ص ٥٧) .

(٣) المعلقات العشر وأخبار شعرائها : تحقيق الشنقيطي ، القاهرة ١٣٤٥ (ص ١٥٤) .

المؤمنين المسلمين وإن عاش قبل الإسلام . فرجل يقول هذا القول ، لا يمكن إلا أن يكون معلماً مؤمناً بالله الواحد الأحد علام الغيوب والعارف بما في القلوب .

وقد أهمل بعض رواة هذه المعلقة البيت الآتي :

والله ليس له شريك   علام ما أخفت القلوب

وحسن صنع من حذفه . فشاعر جاهلي لا يمكن أن يقول هذا البيت مهما كان رأيه في الأوثان والتوحيد ، ولا يمكن أن يستعمل هذه الألفاظ التي لم يستعملها العرب بهذا الشكل إلا في الاسلام .

وإلى عبيد نفسه ينسب الأخباريون قول هذا البيت :

حلفت بالله إن الله ذو نعم   لمن يشاء وذو عفو وتصفاح[1]

وبيت يحلف صاحبه بالله ويذكر أن الله ذو نعم وأنه يعفو ويصفح ، لا يمكن أن يكون إلا مسلماً ، مؤمناً بالقرآن قارئاً له . فما جاء فيه مقتبس من كتاب الله ، وهو من وحي الإسلام ومن روحه ، إلا إذا زعمنا أن عبيداً كان يقرأ المستقبل ، وأنه وقف على القرآن الكريم قبل أن ينزل الوحي به على الرسول ، أو ذهبنا مذهب شيخو ومذهب نفر من المستشرقين الذين يقولون إن عبيداً أخذ ذلك من النصرانية ، وإنه كان نصرانياً ، وإن هذا التوحيد هو توحيد نصراني محض ، وقف عليه عبيد في زيارته للحيرة مهد النصرانية في ذلك العهد ، وان الإسلام نفسه أخذه من النصارى ، ولكن حتى في هذه الحالة ، يصعب إثبات ان توحيد النصرانية هو هذا التوحيد ، وأن العرب النصارى أستعملوا لفظة الجلالة (الله) أستعمال الاسلام لها ، وأن تلك اللفظة كانت تعني الثالوث المعلوم .

---

(١) راجع ديوان عبيد .

ونجد طفيل بن عوف الغَنَوي يقسم بـ « الإلَـه » في شعره . غير أن هناك روايـة تضع « رضى » موضع « الإلَـه » فيكون القسم به ، ورُضى اسم صنم كان لطيء [1] . وقد ذكر « اللهَ » في مواضع أخرى من شعره ، وقال إنه هو الذي يصلح الأمور ويسدّ العجز والثُّغرَ التي ليس في وسع إنسان سدها [2] ، وإنه يجزي الناس على أعمالهم [3] .

وفي معلقة الحارث بن حِلِّزَةَ اليشكُريّ : « أمر الله بلغ تشقى به الأشقياء [4] » وأن الله عالم بالأمور [5] .

---

(١) « فقال بصير يستبين رعالهـا — هم والإله من تخافين ، فاذهبي

ويروى ، ولعلها رواية أبي عبيدة :

وقال بصـير قد أبان رعالهـا — فهي ورضى من تخافين فاذهبي

ورضى اسم صنم كان لطيء » ، ديوان طفيل بن عوف الغنوي « تحقيق ف . كرنكو F. Krenkow » لندن ١٩٢٧ (ص ١٢) .

(٢) لعمري لقد خلى ابن جيدع ثلمة — فمن أين إن لم يراب الله ترأب

(ص ١٩) .

(٣) جزى الله عوفاً من موالى جنابـة — ونـكراء خيراً كل جار مودع

(ص ٥٠) .

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت — بنـا نعلنا في الواطئين فزلت

(ص ٥٧) .

(٤) Wyndham Knatchbull, Harethi Moallakah, Cum Scholiis Zouzenii, P. 6.

فهداهم بالأسودين وأمر الله — بلغ تشقى به الأشقياء

الشنقيطي : المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، (ص ١٢٥) .

(٥) وفعلنا بهم كما علم الله — وما إن للخائنين دمـاء

الشنقيطي ، المعلقات العشر (ص ١٢٦) .

ونجد « المُتَلمِّس » ، يُقسم بالله في شعره ، ويذكر الله في مثل جملة « أبى الله »[1] للتعبير عن مشيئة الله وإرادته ، وجملة « لله دري » في التعجب[2] ، وجملة « تقوى الله »[3] ، و « عاداك الله »[4] وغيرها مما يدل على أنه كان يعتقد أن الله يعادي الأعداء ويحب المحبين .

---

(١) ديوان المتلمس (ص 169) « طبعة فولرس Vollers » . وقال المتلمس :

يا آل بكر ألا لله امكموا   طال الثواء وثوب العجز ملبوس

جمهرة أشعار العرب (ص٤٤ ، ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (ص ٣٣٢) .

وقال :

وهل لي أم غيرها إن تركتها   أبى الله إلا أن اكون لها ابنا

شعراء النصرانية (ص ٣٣٨) .

وقال :

اطردتني حذر الهجاء ولا   والله والأنصاب لا تئل

وذلك في رواية . وفي الروايات الشائعة « واللات » بدلا من والله ، ديوان المتلمس (ص ١٧١) ، جمهرة أشعار العرب (ص ٤٤) ، شعراء النصرانية (ص ٣٣٩) .

(٢) تفرق أهلي من مقيم وظاعن   فلله دري أي اهلي أتبع

ديوان المتلمس (ص 187) .

(٣) وأعلم علم حق غير ظن   وتقوى الله من خير العتاد

ديوان المتلمس (ص ١٩٥) ، شعراء النصرانية (ص ٣٤٣) .

(٤) وله :

لا خاب من نفعك من رجاكا   بلا وعادى الله من عاداكا

ديوان المتلمس (ص 206) ، شعراء النصرانية (ص ٣٤٨) .

ونجده في مواضع أخرى يقسم باللات وبالأنصاب [1] ، والمقصود بالانصاب الأوثان مما يشعر أنه كان يؤمن بها ، فكيف نوفق بين اعتقاده بالله واعتقاده باللات والأنصاب ؟وهل نعدّ هذا الشعر صادراً من شاعر واحد ؟ نعم ، يجوز أن يكون قد قاله في زمنين : أيامَ كان يدين فيه بالوثنية ، وأيام آمن بالـه واحد، وقد قاله بعد أن كفر بالشرك . غير أن هذا ظن، وإن الظن لايغني عن الحق شيئاً . وقد يكون اعتقاده بالله هو دينـه ، غير أن قسمه باللات وبالأنصاب كان من باب الحكاية والتقليد لطريقة قسم الجاهليين ، وهذا أيضاً ظن . وهو يتوقف بالطبع على اثبات أن هذا الشعر له حقاً ، وليس مفتعلاً ، ولا مما أدخل الرواة عليه تغييراً أو تبديلاً .

ونجد اسم (الله) في شعر زهير بن أبي سلمى ، وهو واحد علام بما في الصدور ، يعرف خافية الأمور وما يحاول الإنسان كتمانه ، ويعاقب الانسان على عمله آجلاً أو عاجلاً [2] . واذا صح أن هذا الشعر هو لزهير حقاً ، وجب ادخاله في أولئك الذين كانوا يدعون الى التوحيد والى نبذ عبادة الأصنام قبل ظهور الإسلام . وكانوا يعتقدون أيضاً بوجوب ثواب وعقـاب .

والله هو « إلآه » و « لاه » في النصوص اللحيانية . ويلاحظ أن لفظة الله هي من

---

(1) اطردتني حـذر الهجاء ولا واللات والأنصاب لا تئل

ديوان المتلمس (ص ۱۷۱) .

(2) فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

جمهرة أشعار العرب (ص ۷۱) ، شعراء النصرانية (ص ۵۱۸) .

التسميات التي وردت في النصوص الشمالية ، ويدل ورودها في هـــذه النصوص على تأثر العرب الشماليين بمن اختلطوا بهم من الشعوب التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب ، وأخذهم عبادة هذا الإلــه منهم . ولم تكن هذه اللفظة اسم علم في الأصل ، ثم تخصصت على ما يظهر من النصوص المتأخرة ، فصارت تدل على إلــه معين ثم على إلــه واحد هو إلــه الكون في الإسلام .

وتعداد المواضع التي وردت فيها لفظة الجلالة أو لفظة إلــه والإلــه في الشعر الجاهلي ، يخرجنا عن صلب الموضوع ، ويجعل البحث جافاً مملاً . غير أن في استطاعتنا أن نقول إنها وردت في أكثر ذلك الشعر إن لم نقل فيه كله . وأن ورودها فيه يشير الى اعتقاد أصحاب ذلك الشعر بإلــه واحد قهار هو إلــه العالمين . غير أن هــذا القول يتوقف بالطبع على إثبات أن ذلك الشعر هو شعر جاهلي حقاً ، وأن من نسب اليهم قالوه من غير شــك ، وأنه لم يوضع على ألسنة أولئك الجاهليين .

والذي يفهم من القرآن الكريم ومن الحديث أن قريشاً ومن كان على اتصال بهم لم يكونوا ينكرون عبادة الله ، ولم يكونوا يجحدونه ، وإنما كانوا يقرون بوجوده ، ويدينون له ؛ وإنما الذي أنكره الإسلام عليهم وحاربهم من أجله وســـفه أحلامهم عليه ، هو تقربهم الى الأصنام والأوثان ، وتقديسهم لها تقديساً جعلها في حكم الشركاء والشفعاء . والإســلام لا يعترف بهذه الأشياء ، وهو ينكرها ، ومن هنا حاربته قريش ومن كان على هذه العقيدة من حلفائها ومن القبائل التي كانت ترى رأيهــا . فهنا كان موطن الخلاف ، دون عقيدة الإيمان بالله [1] .

ويذكر بعض أهل الأخبــار أن الجاهليين الوثنيين كانوا يفتتحون كتبهم بجملــة « باسمك اللهم » . ساروا في ذلك على هدي « أمية بن أبي الصلت » مبتدعها وموجدها ،

---

(١) Wellhausen, Reste, S. 217, Lyall, Ancient Arbian Poetry, P. XXIX.

كما في رواية تنسب الى ابن الكلبي . وذكر بعض آخر أن قريشاً كانت تستعمل هذه الجملة منذ عهد قبل الإسلام ، وأنها بقيت تستعملها الى ظهور الإسلام . وقد أستعملها الرسول ، ثم تركها ، وذلك بنزول الوحي عليه باستعمال (بسم الله الرحمن الرحيم) [1] . ونحن لا يهمنا هنا أسم مبتدع هذه الجملة ، وإنما الذي يهمنا منها هو ما فيها من عبارة تدل أيضاً على التوحيد . فإذا صح أن الجاهليين كانوا يستعملون هذه الجملة ، فإن استعمالها هذا يدل على اعتقاد القوم بإله واحد ، أي بعقيدة التوحيد ، ولا يعقل بالطبع استعمال شخص لهذه الجملة في رسائله ، يفتتح بها كتبه ، لو لم يكن من أصحاب عقيدة التوحيد ، وقد جاء في بعض الأخبار أن هذا الاستعمال متأخر ، وأنه حدث بعد أن تغيرت عوائد القوم في افتتاح كتبهم ، فقد كانت عوائدهم القديمة افتتاح رسائلهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزّى ، فرفعوا تلك الافتتاحيات القديمة وأستبدلوها بهذه الجملة الجديدة ، جملة (باسمك اللهم) . وعلى كل ، فإن جملة : « باسمك اللهم » وأمثالها ان صح أنها من ذلك العهد حقاً ، فانها تدل على حدوث تطور خطير في الحياة الدينية عند الجاهليين . وإلاّ ، فكيف يتصور استعمال هذه الجملة الموحدة مع وجود الشرك لو لم يكن قد حدث تطور فكري كبير في هذا العهد حملهم على استعمال هذه الجملة وأمثالها من الجمل والألفاظ الدالة على التوحيد ؟

ولا نجد للعرب إلهاً قومياً خاصاً بهم كالذي نجده عند العبرانيين من تعلقهم بـ « يهوه » ، وعدّهم إياه إلهاً خاصاً باسرائيل . فقد صار هذا الإله إله جميع قبائل إسرائيل ويهوذا . أما العرب ، فقد كانوا يعبدون جملة آلهة : كل قبيلة لها إله خاص بها وآلهة أخرى ، ولم يكن لها إله واحد له اسم واحد يعبده جميع العرب . والظاهر أن القبائل الساكنة في الحجاز وفي نجد والعراق والشأم ، صارت قبيل الإسلام تتنكر لأصنامها العديدة ، وتأخذ بالتوحيد وبالاعتقاد بإله واحد هو الله ، وهو الذي نجده في

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٣٧٥) .

هذا الشعر الجاهلي الذي هو حاصل تغريد شعراء قبائل عديدة مما يدل على أن قبائل أولئك الشعراء دانوا بالاعتقاد بوجود ذلك الإلـه فوق الأصنام والأوثان ، وقد تتوجت هـذه العقيدة بتاج النصر فى الإسلام . غير أن (الله) فى الإسلام يختلف عن (الله) أو (يهوه) عند العبرانيين ، فالله هو إلـه العالمين ، إلـه جميع البشر على اختلافهم . أما (يهوه) ، فقد كان إلـه بني إسرائيل .

وورود لفظة « الله » فى الشعر الجاهلي المعروف بوثنية أصحابه ، حمل بعض المستشرقين على الأدعاء بأن هذه اللفظـة لم تكن موجودة فى الأصل ، وإنمـا أقحمت فيـه من بعد ، وذلك بازالة رواة الشعر لأسماء الأصنام التي ذكرها أولئك الشعراء ، واحلالهم اسم الله فى محلهـا ، فظهر ذلك الشعر الوثني وكأنه شـعر شـعراء موحدين يعتقدون بوجود إلـــه واحد [1] . غير أن هذا تعليل فيه شيء من التكلف ، فليس كل شـعر فيـه اسم الأصنام بصالح لقبول لفظة الجلالة ، فقد لا يستقيم من حيث الوزن أو المعنى بادخال تلك اللفظة في موضع اسم الصنم . ثم إن من الشعر الجاهلي المروي فى الإسلام مابقي محافظاً على اسم الصنم دون أن يمس ذلك الاسم بسوء . ولو كان من عادة الرواة حذف اسم الصنم عامة لما تركوا لها بقية فى هذا الشعر .

ويرى « ورنر كاسل Werner Caskel » ، أن الله هو الإلـه الذي كان فوق آلهة القبائل ، أي آلهة القبيلة الواحدة.. ولهذا ذكر في شـعر شعـراء مختلف القبـائل ؛ لأنه لا يختص بقبيلة واحدة .

غير أنه كما يتبين من الشعر الجاهلي الذي ذكر فيـه ، لم يكن يتمتع بسـلطان واسع وهيمنة على جميع هذا الـكون ، فأمامه الدهر الذي يهلك الناس ويحكم في مقدراتهم ، وهو

---

(١) Werner Caskel, Das Schicksal in der altarabischen Poesie, Leipzig, 1926, S. 8, Goldziher, Abhandlungen. II, S. IX-LXXVI, Ahlwardt, Bemerkungen über die Aechtheit der alten Arabischen Gedichte.

الذي يقرر أمور الناس [1] .

ويرى « ولهوزن » أن لفظة الله عند الجاهليين لم تكن اسم علم لإلـه خاص ، وإنما كانت ذات معنى عام . فإذا نطق أحدهم بها ، قصد كل واحد منهم الإله الذي يعبده ، أي إلـه القبيلة الخاص . وهو إذا خاطب إلـهه ، ناداه بقوله : إلـهي أو إلـهنا إذا خاطبه جماعة ، كما يقول ربّي . ويقولون ربنا . ويلاحظ أن الجاهليين تصوروا إلـههم ذكراً في الغالب ، ولهذا لم يعبروا عنه بصيغ التأنيث .

والواقع أن معظم الشرقيين قد تصوروا آلهتهم بهذه الصورة . وكيف لا يتصور الانسان إلـهه ذكراً ، والذكر هو قوي مقتدر بخلاف الأنثى ! وحيث أن الله هو قوي ومصدر القوة والخلق ، فلا بد أن يكون ذكراً فى نظر عقلية تلك الأيام ، ولا بد من التعبير عنه بصيغ التذكير . كما يلاحظ أن الجاهليين قد تصوروه واحداً ، فلم يخاطبوه بصيغة الجمع ، مما يفهم منه التعدد . ومن هنا ذهب بعض المستشرقين الى أن من طبع الساميين الاعتقاد بالتوحيد [2] .

وقد ذهب مستشرقون آخرون الى صحة ورود لفظة الجلالة فى الشعر الجاهلي ، وورود ألفاظ أخرى وجمل مذكورة فى القرآن الكريم ، وذلك لأنهـا انتقلت الى الجاهليين من النصرانيـة فشاعت بينهم ، ثم أستعملها الشعراء . وقد ذهبوا الى أن ورودها فى القرآن الكريم أو فى الحديث ، لايمنع من ورودها فى الشعر الجاهلي ، ولا يكون سبباً للطعن فى ذلك الشعر ، لأن الرسول نفسه كان على زعمهم قد أخذ من ذلك المنبع ، ومن ثم ظهر هذا

---

(١) Werner Caskel, S. 54.

(٢) Wellhausen, Reste, S. 219.

التوافق بين القرآن الكريم وبين تلك المواضع المذكورة في الشعر الجاهلي أو في نثر الحنفاء[1].

غير أن هذا ينقضه اختلاف ما ورد فى النصرانية من حيث المدلول والاصطلاح عن هذا الوارد فى القران الكريم وفى الشعر . ولو كان الشعر الجاهلي قد استقى من الوارد النصرانية لحدث توافق بالضرورة بين هذه المواضع من الشعر وبين الاستعمال النصراني ، على حين أننا لا نرى شيئاً فى تلك المواضع من الشعر الجاهلي يشير إلى تعمق أو تفهم للنصرانية ، والى ثالوث نصراني ، وإنما يشير الى توحيد إسلامي ، إلا ما كان من عدي بن زيد ، فإنه كان نصرانياً بالنص ، أو من شعر للأعشى أو غيرهما ، وفيه وصف لمظاهر نصرانية ، لا نصرانية على نحو ما فقهه النصارى من أمور دينهم . وقد جاء هذا الوصف والتحدث عن النصرانية من الاتصال والاحتكاك بالنصارى ، وقد آمنا بالطبع بوجود يهود ونصارى عرب وقبائل عربية نصرانية ، وقلنا مراراً إنه لولا الإسلام ، لغلبت النصرانية على العرب نتيجة لسياسة التبشير ، ولكانت ثقافتهم ثقافة إرمية ولا شك .

ويحسن بنا هنا أن نشير الى عقيدة بعض الجاهليين فى الحساب والثواب والعقاب بعد الموت ، وعقيدة بعض آخر فى الرجوع الى هذه الدنيا ، دون أن نعرف كيف كانوا يتصورون شكل ذلك الرجوع : رجوع الى الحالة التي كان الإنسان عليها ، أو رجوع على شكل آخر على نحو ما كان يتصوره المصريون أو الهنود ؟ على كل حال ان العقر على القبور والبلية ، من العلائم التي تثبت وجود هذه الفكرة عند الجاهيين .

وليست لدينا مستندات وكتابات جاهلية تبين كيف تصور القوم الحياة الثانية بعد الموت والحساب من ثواب وعقاب .

---

(٢) راجع الكتب المؤلفة في موضوع أصول الاسلام ومآخذه من اليهودية والنصرانية ، وكذلك ما كتبه المستشرقون في الشعر الجاهلي .

وقد أشرت في الجزء السابق من هذ الكتاب الى نكران بعض الجاهليين فكرة المعاد ، والى عدم تصديقهم بوجود حياة ثانية . وكيف تكون حياة بعد موت واستحالة الانسان الى تراب . وقد أنب الرسول أولئك المنكرين ، وأشير الى جحودهم هذا فى القرآن الكريم .

ولا بد من الإشارة الى عقيدة الجاهليين في الدهر وفى المنايا أو المنون [1] . فعقيدتهم هذه هي عقيدة دينية تقول بالجبر ، وبأن الإنسان مسير ، وليس له فى أموره وفى أفعاله رأي وأختيار ، وأن ما هو مكتوب لا بد من وقوعه وحدوثه ، ولا رادّ له أبداً . وتكاد هذه العقيدة تكون عقيدة أكثر الجاهليين عند ظهور الإسلام . وهي عقيدة لا بد أن يكون للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كان عليها العرب إذ ذاك دخل فى شيوعها بينهم . والواقع أننا نجد أكثر الشعوب الشرقية على هذا الرأي .

ونجد هذه العقيدة فى شعر الشاعر النصراني عدي بن زيد العبادي ، وربما نجدها أيضاً عندسائر إخوانه النصارى ومن كان علىهذا الدين من غيرهم منالعرب . والواقع أنالاعتقاد بوجود إله خلق الكون منفرداً ، أو آلهة خلقوا الكون مشتركين ، يحملالإنسان على أن يتصور نفسه لا شيء تجاه خالقه أو آلهته وأنه من صنعهم ، فما يقوم به هو ، هو من صنع الله أو من صنع الآلهة . وأما ما ظهر من نظرية حرية الإرادة وقدرة الإنسان على خلق أفعاله وأختياره ، فإنه من تأثير الفلسفة الإغريقية التى دخلت النصرانية فيما بعد .

وفى القرآن الكريم : « وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إنْ هم إلاّ يظنون »[2] . فالدهر هو الذي يهلك في نظر أصحاب هذه العقيدة . والكلمة تعبير عن الزمان الذي لا يبقي على وجه الأرض أحداً

---

(١) Werner Caskel, Das Schicksal in der Altarabischen Poesie, Leipzig, 1926.

(٢) الجاثية ، الآية ٢٤ .

حيـاً ، والدهر واحد بالطبع فعله مستمر ، وما زال هذا التعبير باقياً ومستعملاً حتى الآن. بالرغم من الإسلام الذي جعل الموت والحياة والفناء بيـد الله وفي حكمه . فنرى النـاس يذكرون الدهر إذا نزلت بهم الويلات والمصائب ، ويتوجعون منه . ويلاحظ أن الجاهليين مستعملي هذه اللفظة وأمثالها فى الإسلام ، لا يستعملون هذه المصطلحات إلا عند التوجع وحين إصابة الإنسان بأمر مكروه .

نعم ، نجد فى بعض الشعر الجاهلي أن الموت والهلاك والحِمام وما شابه ذلك هى من فعل الله ومن أمره وتدبيره ، كالذي ورد في بيت لحاتم الطائي :

أتيـح له مـن أرضـه وسمـائه   حِمامٌ ، وما يأمرْ به الله يفعل

فأسند الأمر والنهي فى هذا البيت الى الله ، وأما الإنسان فانه مأمور مسيـّر .

ونجده يَـكِـلُ أمره إلى الله ، ويدعو قومه الى تسليم أمرهم للإلـه الذي يرزقهم اليوم ويرزقهم غداً :

كلوا اليوم من رزق الإلـه وأيسروا   وإن على الرحمان رزقـكم غـداً

وحاتم الطائي مؤمن بإلـه على ما يتبين من الشعر المنسـوب اليـه . وقد عدّه بعض المستشرقين ولويس شيخو من النصارى ، على عادتهم فى جعل كلّ من ورد فى شـعره اعتقاد بوجود إلـه من هؤلاء .

وتحملنا هذه العقيدة بالطبع على البحث عن هذه القوة القادرة المتصرفة فى مقـدرات الإنسان ، والتى عبروا عنها بأسماء متعددة فدعوها الدهر والمنون والمنايا والأجل والآجال والحتف والموت والحتوف و « ما حُمَّ واقع » ، وأمثال ذلك من ألفاظ وتعابير تعبر كلها عن تلك العقيدة القائلة إن ما هو مكتوب على الإنسان واقع لا محالة . فإذا كان ما يقع للإنسان مكتوباً ومقرراً ، فلا بد أن تكون هنالك قدرة مقررة آمرة ليست فوقها قوة قادرة أخرى ؛ إذ لا يعقل وقوع القدر بدون وجود مقدر مقتدر . فمن ذلك المقدر فى نظر الجاهليين ؟ إننا

لا نستطيع أن نقول عنه شيئاً ، فالشعر الجاهلي المليء بالألفاظ والتعابير المذكورة لم يتطرق الى الإشارة اليه ، وإنما أشار الى فعله فى الناس . ولذلك لا ندري رأيهم وفكرتهم عنه ، غير أن الذي يفهم من تعابيرهم المذكورة أنه واحد ، وأنه لم يكن جملة قوى أي جملة آلهة . فعقيدتهم هذه هى عقيدة توحيد .

ونجد فى القرآن الكريم إشارة الى الصابئين ، وقد ذكروا بعد اليهود والنصارى فى موضع من سورة البقرة [1] ، وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى فى موضع من سورة المائدة وفى سورة الحج [2] . ويظهر أن معارف أهل الأخبار عنهم نزرة كذلك ، فليس لديهم شيء مهم مفيد يفيدنا عن عقائد أولئك الصابئة وآرائهم . وقد ربط العلماء الاسلاميون بين هؤلاء الصابئة المذكورين فى القرآن الكريم وبين صابئة حرّان وصابئة العراق ، وجعلوهم طائفتين في الأصل : طائفة هم صابئة حنفاء وهم فى نظرهم أصحاب إبراهيم ممن كان بحران وممن كان على دعوته ، وصابئة مشركون وهم من فسدوا من الصابئة فأشركوا وأعتقدوا بالكواكب [3] .

غير أننا إذا ما تتبعنا ما ورد عن لفظة صبأ وصابيء فى الموارد الاسلامية نرى أن هذه الموارد تستعمل لفظة صبأ بمعنى خرج من شيء الى شيء ، وخرج من دين الى دين غيره . وتذكر أن قريشاً كانت تسمى النبي صابئاً ، والصحابة الصباة [4] . أي الخارجين على دين

---

(١) البقرة : الآية ٦٢ .

(٢) المائدة : الآية ٦٩ ، والحج : الآية ١٧ ،

(٣) بلوغ الأرب (٢/٢٢٣ وما بعدها) ، « وفي جامع الرموز في كتاب النكاح : الصابئة فرقة من النصارى يعظمون الكواكب كتعظيم المسلمين الكعبة . وفي الغرر الصبائية عابدوا كوكب لا كتاب لهم . » ، التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ، (١/٨٨٧) ، مطبعة اقدام باستانبول ١٣١٧ .

(٤) بلوغ الأرب (٢/٢٢٥) ، « في حديث بني جذيمة : كانوا يقولون لما أسلموا : صبأنا ، =

قومهم . وهي تستعمل لفظة الصابئة في كثير من الأحوال في مقام حنفاء ، كالذي نراه في ربطهم ابراهيم بهاتين الديانتين ، وعدّهم قدماء الصابئة في جملة الحنفاء ، فان هذا يدل على أن المراد من الصابئة بين العرب عند ظهور الاسلام هم المنشقون الخارجون على ديانة قومهم ، أي على عبادة الأوثان والمنادين بالتوحيد . وأما ما نراه من إطلاق الصابئة على الصابئة المعروفين في الإسلام ، فإنه إنما حدث في الإسلام .

وإطلاق قريش لفظة الصابيء والصباة على المسلمين بدلاً من تسميتهم بمسلمين ، قضية مهمة جداً ، يجب الأهتمام بها ، وفي الأخبار أمثلة كثيرة على ذلك . فقد ذكرت كتب الحديث أن قريشاً دعت النبي صابئاً ، وفي جملة من دعاه بذلك عُمَرُ قبل إسلامه ، ثم رُمي عُمَرُ بها بعد إسلامه أيضاً . ولما أسلم أبو ذر الغفاري ، انهال عليه أهل مكة بالضرب ؛ لأنه صبأ وفتن وخرج عن دينهم . ولما أرادت زوج مطعم بن عدي خطبة ابنة أبي بكر الى أبنها ، ذكرت له أنها تخشى أن يؤثر على ولدها ، فيكون من الصباة . وقد كانت لفظة الصباة والصُّباء بمعنى مسلمين عند المشركين ، ففي معركة حنين نجد « دريد بن الصمة » يخاطب أحد رؤوس القوم ويقول له في جملة ما قاله : « ثم ألق الصُّباء على متون الخيل »[1] . ولما أرسل بنو عامر لبيداً الى النبي ليرى خبره وعلمه ، أسلم ، وأصابه وجع هناك شديد من حمى ، فرجع الى قومه بفضل تلك الحمى ، وجاءهم بذكر البعث والجنة

= صبأنا . قد تكررت هذه اللفظة في الحديث . يقال : صبأ فلان إذا خرج من دين الى دين غيره ، من قولهم : صبأ ناب البعير إذا طلع ، وصبأت النجوم إذا خرجت من مطالعها . وكانت العرب تسمي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، الصابيء ؛ لأنه خرج من دين قريش الى دين الإسلام ، ويسمون من يدخل في الإسلام مصبواً لأنهم كانوا لا يهمزون ، فأبدلوا من الهمزة واواً ، ويسمون المسلمين الصباة بغير همز ، كأنه جمع الصابيء غير مهموز كقاض وقضاة وغاز وغزاة » ، النهاية (٢/٣٦٩) ، « باب الصاد مع الباء » .

(١) الطبري (١/١٢٦) « معركة حنين » .

والنار ، فقال صرافة بن عوف بن الأحوص :

لَعَمْرُ لبيدٍ إنه لابن أمه ... ولكن أبوه مسه قدم العهد
دفعناك في أرض الحجاز كأنما ... دفعناك فحلاً فوقه قرع اللبد
فعالجت حماه وداء ضلوعه ... وترنيق عيش مسه طرف الجهد
وجئت بدين الصابئين تشوبه ... بألواح نجد بعد عهدك من عهد
وإن لنا داراً زعمت ومرجعاً ... وثَمّ إياب القارظين وذي البرد

فكان عمر يقول : وأيم الله إياب القارظين وذي البرد (١).

فقصد الشاعر بجملة « دين الصابئين » ، فالصابئون فى نظرهم هم المسلمون .

ولما ذهب سعد بن معاذ الى مكة ، أنبه أبو جهل على قدومه اليها بعد أن دخل فى دين الصابئين . ولما قدم خالد بن الوليد على بني جذيمة ، نادوه بأنهم صبأوا ، أي دخلوا فى الإسلام (٢) . ويلاحظ أن الوثنيين أطلقوا هذه التسمية على كل من أسلم ، وعلى كل من شكوا فيه ورأوا أنه ميال اليهم ، فكانوا يرمونه بهذه التهمة . أما المسلمون ، فلم يرتاحوا اليها . والظاهر أنها كانت سبة بالنسبة اليهم فى ذلك العهد ، بدليل أنهم كانوا يكذبون من كان يطلقها من المشركين عليهم ويردّ عليهم رداً شديداً ، فلما نادى جميل بن معمر الجمحي فى قريش : ألا ، أن ابن الخطاب قد صبأ ، وذلك حين دخل فى الإسلام ، وشهد بذلك أمام النبي ، نادى عمر من خلفه : كذب ، ولكني أسلمت ، وقالت قريش : صبأ عمر (٣) . ولا بد أن يكون لتكذيب عمر وغيره الوثنيين لتسميتهم المسلمين بهذه التسمية يشعر أن المسلمين كانوا لا يرون صلةً ما بين قواعد دينهم وبين الصابئة وإلّا سكتوا عنها وتقبّلوا

---

(١) الأغاني (١٣١/١٥ وما بعدها) « خبر لبيد في مرثية أخيه » .

(٢) لقد جمع « ولهوزن » أكثر المواضع التي أطلق الوثنيون فيها هذه اللفظة على المسلمين ، Wellhausen, Reste, S. 236.

(٣) ابن الأثير (٣٤/٢ وما بعدها) « ذكر اسلام عمر بن الخطاب » .

الـكلمة قبولاً حسناً . وقد رأيت أنهم كانوا يفتخرون بإطلاق الحنيفية عليهم ، وأنهم كانوا يرون أن الحنفاء هم سلف المسلمين ، وأن إبراهيم كان حنيفاً وكان أول المسلمين .

فالصابئون إذن هم أولئك الخارجون على عبادة قومهم المخالفين لهم فى ديانتهم . ولما كان الحنفاء قد أنشقوا على قومهم فى مخالفتهم لهم بتعبدهم للأصنام ، فهم صابئة فى نظر المشركين، خرجوا على آراء قبيلتهم ، وأعلنوا مخالفتهم لهم . ومن هؤلاء من خالف عبادة قومه بتأثره بآراء اليهودية أو النصرانية ، غير أن هذا التأثير ليس لازماً ، إذ يجوز أن يكون نتيجة ترو وتفكير وتأمل وشك . فمن الناس من يحمله تفكيره على الشك فى نفع تلك الحجارة التى كانوا يتقربون اليها لاعتقادهم أنها واسطة تقربهم من أربابهم التى بيدها — فى زعمهم — تصريف الأمور ، ولهذا أعلن حيرته وشكه فيما يعبد قومه ، وخالفها فى عبادتها دون أن يميل الى يهودية أو نصرانية . ولو كان قد تأثر بإحدى هاتين الديانتين تأثراً كبيراً قوياً ، لمال اليها فدخل فيها فصار من يهود أو من نصارى ، بينما بقي على شكه حائراً فى أمر الدين القويم .

ولسنا نجد فى الموارد الإسلامية شيئاً مهماً عن صابئة الجاهليين . وكل ما ذكروه عن الصابئة إنما هو متأخر ، أخذ عن الصابئة ، أو عمن اتصل بهم فى الإسلام . ويدل هذا المذكور عنهم على قلة بضاعة الأخباريين فيهم ، وقلة بضاعة من باع لهم تلك الأخبار . والظاهر أن الصابئة أنفسهم كانوا فى حيرة من أمرهم ، وأن علمهم بماضيهم وبعقائدهم لم يكن بذي بال .

هذا ، ولا بدّ لي من الإشارة الى رأي ذكر الأخباريون أنه كان عند قوم من الجاهليين ، هو اعتقادهم بالرجعة ، أي رجوع الأجسام بعد موتها الى هذه الدنيا كرة أخرى[1] . وهو رأي معروف عند غيرهم من الأمم كالمصريين والهنود ، غير أن الأخباريين لم يشيروا ، ويا للأسف ، الى من كان يعتقد بهذا الرأي من الأفراد أو القبائل ، ولا الى عقائد

---

(١) اللسان (٩/١٧٢) ، تاج العروس (٥/٣٤٨) .

هؤلاء القوم . ويفهم من كتب الحديث أن من الناس من سأل الرسول عن الرجوع الى هذه الدنيا [1] ، مما يشير الى معرفة القوم عند ظهور الاسلام بهذا الرأي .

الآن وقد انتهيت من المجوس والأحناف والصابئة ، لا بد لي من الإشارة الى أن من الصعب التعرف على الحياة الدينية عند الجاهليين بالمعنى الذي نفهمه الآن من الدين . فأنت تجد للعرب أصناماً عديدة كثيرة تزيد على المئة عداً ، غير أننا لا نعرف في الواقع رأي القوم فيها ، وعقيدتهم الصحيحة في تلك الأصنام ، ولا علاقة الأصنام بعضها ببعض .

فنحن نعلم شيئاً من عقائد اليونان في آلهتهم ، وقصصهم عنها ، وواجبات كل إلـه من آلهتهم وأعماله وصفاته وأخلاقه وما نسب اليونان اليها من حسن أو قبيح ، ونعلم « ميثولوجية » أقوام أخرى . ولكننا لا نعلم شيئاً من قصص الجاهليين عن آلهتهم . ورأيهم فيها : هل هي عشيرة واحدة ، أو هي منفردة مستقلة يحكم كل إلـه وحده ؟ ثم ما اختصاصات كل إلـه وأعماله ؟ هذه الاسئلة وأمثالها لا نعرف لها أجوبة صحيحة واضحة ، لأننا لم نتمكن حتى الآن من الحصول على نصوص جاهلية ، يمكن أن نستخرج منها أجوبة مقبولة لهذه الأسئلة .

وقد رأينا أننا لم نتمكن من التوصل الى شيء ما عن عبادات العرب قبل الإسلام . وأقصد بالعبادات ما نفهمه نحن من الظواهر العملية لكل دين ، مثل الصلاة والصوم والحج وما شابه ذلك . نعم ، وجدنا الجاهليين يحجون الى البيت الحرام بمكة ، ووجدنا لهم شعائر كانوا يقومون بها في حجهم ، والفضل في معرفتنا هذه تعود الى الإسلام . فقد دون الإسلام لنا شيئاً لا بأس به عن الحج عندهم ، غير أن كلامنا هذا يشمل أهل مكة وأطرافها . أما القبائل العربية البعيدة التي كانت تسكن في مواضع قصيه نائية عن الحجاز ، فليس في وسعنا التحدث عنهم . وأما صلوات العرب وصيامهم وعباداتهم الأخرى ، فليس لنا عنها

---

(١) النهاية (٢/٧٢) « رجم » .

علم ورأي . نعم ، لقد تحدثنا بالمناسبة عن طوائف من أهل مكة ، فأشرنا الى صيام نفر من قريش صوم عاشوراء على ما جاء في بعض الروايات ، غير أننا لم نتمكن من التحدث عن هذه الأمور بشيء عام يشمل جميع الجاهليين الوثنيين .

وعلينا أيضاً أن نشير الى حكم العادات وبعض الأعمال عند الجاهليين ، فقد كانت للعادات أحكام عند العرب قبل الاسلام ، هي فى حكم الشريعة بالنسبة الى مفهوم الدين عندنا . فهناك محظورات يجب على الإنسان الابتعاد عنها ، وهناك مباحات جائزة ، والحرمة أو الجواز من أحكام العادات والعرف الموروث فى نظر أولئك الجاهليين . غير أننا نستطيع عدّها فى جملة الأحكام الدينية بالقياس الى ذلك العهد . لقد تحدثت عن عادات بعض العرب حين انحباس المطر وانسداد أبواب السماء وحلول الجدب ، ورأينا فعل بعض العرب عند امتناع البقر من ورود الماء ، وفعلهم بالنسبة الى الصبيان حين خوفهم عليهم من العين ، ورأينا رأيهم فى الجنّ وفى الأرواح وفى دفن الموتى والعقر على القبور ، وكل هذه وأمثالها هي عادات وأعمال أتاها بعض الجاهليين . غير أن تلك الأعمال هي فى الواقع فى حكم العقائد عندهم ، فهي مما يدخل فى بحث الدين .

وقد كان أشق شيء على الجاهليين تغيير تلك التقاليد ، ونبذ تلك الأعمال . إنهم وجدوا آباءهم عليها ، فهم على أمة ، وهم على آثار آبائهم مقتدون . « بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون »[1] . فسنة آبائهم وطريقتهم فى الحياة هي سنتهم وطريقتهم ، وهم على ما وجدوهم سائرون . فلما ندد الرسول بما وجده الجاهليون قائماً ، غضبوا عليه ، وعدّوه ثائراً مجنوناً ، جاءهم بافك عظيم ، جاء بشيء لم يعرفه آباؤهم ولا أجدادهم ، وما دام آباؤهم لا يعرفونه فهو أمر لا يمكن السكوت عليه .

---

(١) الزخرف الآية : ٢٢ وما بعدها .

وقد رأينا أن من الصعب تعيين طبيعة الآلهة وماهيتها فى نظر الجاهليين . لقد وجدناهم يسمون أصنامهم بمسميات ورد بعضها فى القرآن الكريم ، وأشار الى الكثير منها ابن الكلبي وبقية الأخباريين . ولكن ما تلك الأصنام ، وكيف كان يتصورها عابدوها ؟ هل هى آلهة بنفسها ، أو هى رموز الى الآلهة أو وسائط لها ؟ تلك أمور يصعب الاجابة عنها . لقد كان أهل مكة ومن لف لفهم من القبائل المحيطة بمكة يرون الأصنام والأوثان وسطاء وشفعاء تقربهم الى الله زلفى ، فهي ليست بآلهة فى نفسها لأنها حجارة لا تعي ولا تنطق . وإنما هى واسطة لهم عند الآلهة . ولكن هل كان كل العرب على هذا النحو من المنطق والرأي ؟ وهل كان أهل اليمن وبقية العربية الجنوبية أو العربية الشرقية على هذا الاعتقاد ؟ لقد حصلنا على رأي أهل مكة من القرآن الكريم ، لقد كان ذلك رأيهم فى أيام الرسول . أما آراء العرب الآخرين فليس لنا رأي واضح عنها .

وقد رأينا بعض المستشرقين يرجعون عبادة أهل العربية الجنوبية الى عبادة ثالوث سماوي ، هو الشمس والقمر والزهرة ، أي عبادة نجوم . أما بقية العرب ، فليس لديهم رأي واضح فى هذا الباب . نعم ، لقد ورد أن بعض العرب مثل كنانة كانت تعبد القمر ، وأن تَيْماً كانت تعبد الدَّبَران ، وأن كلباً عبدت الشِّعْرى ، غير أن هذه عبادة قبائل ، ولا يمكن تعميمها على جميع القبائل ، كما ورد أن بعض القبائل مثل بني إياد كانوا يتبركون بالناقة [1] ، وقبائل أخرى كانت تتبرك ببعض الحيوانات أو النباتات ، فهي من بقايا العبادات البدائية التي كانت شائعة قبل الإسلام بأمد مديد . وهكذا نرى العرب ولهم أديان متعددة وآلهة يمكن عدّها بعدد القبائل التي كانت فى ذلك العهد ، فلم يكن للعرب قبل الاسلام إذن دين واحد ، وإنما كانت لهم عبادات وأديان .

وبعد ، فقد تبين لنا مما أوردناه فى الجزءين الخامس والسادس من هذا الكتاب أن

---

(١) الأغاني (١٥/٩٣) ، « فى أخبار أبي دواد الإيادي » .

العرب قبل الإسلام لم تكن آراؤهم فى الدين واحدة ، وان كانت غالبيتهم على الوثنية . وتبين لنا أيضاً أن معظم الأصنام التي ذكرها الأخباريون لم ترد أسماؤها فى النصوص الجاهلية ، وأن الأصنام التي ذكرت أسماؤها فى النصوص لم يعلم من أمرها أحد من أهل الأخبار مما يدل على أن العرب الذين أدركوا الإسلام من أهل الحجاز كانوا يعبدون أصناماً خاصة بهم ، وأنهم لم يكونوا يعرفون أصنام الكتابات . ومن يدري ؟ فلعل أهل العربية الجنوبية كانوا قد تنكروا أيضاً لأصنامهم التي ذكرنا أسماءها والتى حصلنا عليها من الكتابات وذلك عند ظهور الإسلام ، فلم يكن لهم علم بعبادة أجدادهم الماضين ، مَثَلُهم فى ذلك مثل أهل أعالي الحجاز الذين كانوا يعبدون أصناماً ورد ذكرها فى الكتابات ، غير أن المتأخرين من أصحاب هذه الأرضين ممن أدركوا الإسلام أو عاشوا قبيل ظهوره كانوا على جهل تام بها ، وكانوا على عبادة أصنام هي غير تلك الأصنام .

واختلاف الأصنام وتبدلها هو دليل على تطور وجهة نظر العرب بالنسبة الى معبوداتهم، والى تأثرها بالأحوال التى كانت تحيط بها ، والى تأثرها أيضاً بالمؤثرات الخارجية . فقد وجدنا بين أصنام العرب الشماليين أصناماً استوردت من العراق أو الشأم ، وحافظت على أسمائها . ويظهر أن أثر تلك الأرضين فى العرب الشماليين كان أشد من أثر العرب الجنوبيين فيهم ، بدليل أخذ العرب الشماليين بعض أصنام العراق والشأم ، وعدم أخذهم شيئاً من أصنام العرب الجنوبيين . وقد يكون للأحوال السياسية وللعوامل الاقتصادية أثر فى ذلك .

وقد كانت عند ظهور الإسلام كما رأينا حركة تدعو الى إحداث ثورة عظيمة فى معتقدات القوم : حركة تدعو الى التوحيد والى تسفيه عبادة الأصنام ، وتسخر من هؤلاء القوم الذين يرون فى الحجارة الصمّ شفعاء ووسطاء تشفع لمتعبديها عند الأرباب . وقد رأينا أسماء بعض دعاة هذه الحركة والمبشرين بها ، وفيهم من كان قد صبأ الى اليهودية والنصرانية ، ومنهم من أُطلع على الديانتين أو على إحداهما ، ثم توقف فلم يدخل فى دين من الدينين ،

لأنه لم يجد فيها ما أراده من توحيد مثـالي خالص ، بعيد عن التجسيم والتشبيه . لقد عبد قومه المجسمات ، فثار عليها وسخف عبـادتها ، فهو لايريد إذن عبادة لها صلة ما بالتجسيم وبالأوثان . ومنهم من جاهر برأيه ، ودعا اليه ، وتنبأ أنه سيكون صاحب الدعوة . غير أن التوحيد الإبراهيمي الذي نادى به الإسلام لم يتحقق بين العرب إلا فى الاسلام ، فظهر فيه ، وقضى على أيام وسمت بالجاهلية ، وطلع على العرب بعهد جديد عرف بالإسلام .

وقد رأينا أن من دعاة هذه الحركة التى ترمي الى التعقل فى أمور الدين من كان قد وقف على الـكتب وعلى بعض اللغات الأعجمية ، وأنه كان ملماً بالآراء الفلسفية وبالعقائد ، وكل ذلك دليل على أن ما يقال عن جهل العرب قبل الإسلام وعن عدم وقوفهم على شيء من الأديان هو قول لا يصح ترديده . وعلى المؤرخ الذي يريد دراســـة تأريخ العرب قبيل الإسلام أن يتعمق فى دراسة الموارد التى بين يديه ، والاعتماد على كتب التفسير والحديث بصورة خاصة ، ففي هذين الموردين أخبار كثيرة لم ينتبه اليها أكثر من عمدوا الى تدوين تأريخ الجاهلية ؛ لأنهم لم يفطنوا على ما يظهر أن فيهما ما له علاقة بذلك التأريخ ، وأن ماورد فيهما هو مما يخص تأريخ الاسلام وحده . ثم إن البحث فيهما متعب ؛ لأن الأخبار الخاصة بهذا الموضوع منتشرة غير متجمعة بينما هي مركزة فى كتب التواريخ والأخبار .

وإذ قد فرغنا من الـكلام على الحياة الدينية عنـد الجاهليين ، فلا بد من الـكلام على السحر والسحرة في نظر الجاهليين ، لعلاقة السحر بالدين وبرجاله . وقد كان الـكهـان ورجال الدين في الأيام السالفة ، وعند الأقوام البدائية حتى الآن ، يمارسون السحر ، ويباركونه ، ويرون أنه جزء من الأعمال المختصة برجال الدين . وقد كان في جملة ما وجهته قريش الى الرســول من طعن هو أنه ســاحر ، وأنه يمارس السحر ، ويأتيهم به بالإفك وبالمخاريق [1] .

---

(١) « فقال أبو سفيان بن حرب لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، والأزلام معه في كنانته = .

ومما يدل على خطر السحر عند الجاهليين ، هو ما ورد عنه في القرآن الكريم وفي الحديث . وقد نهي عنه بشدة في الإسلام ، ولا بد أن يكون هذا النهي بسبب التدجيل الذي قام به السحرة في ذلك العهد ، واستغلالهم عقلية السذج والبسطاء من الناس .

وقد أدى ظهور الإسلام الى ظهور مصطلحات جديدة وموت مصطلحات قديمة ، وصارت هذه المصطلحات من علائم الإسلام ، وتلك من علائم الوثنية . فقد كانت تحية الجاهلية مثلاً « إنعم صباحاً »[1] أو « عم صباحاً » و « أنعم ظلاماً » أو « عم ظلاماً » و « أنعم مساء » . فلما كان الإسلام ، أحل محلها « السلام » ، وصارت التحية بالسلام من العلامات التي تميز المسلم عن غيره . ونجد التحية الجاهلية في مواضع عديدة من الشعر الجاهلي[2] .

وقد أوجدت هذه المصطلحات الإسلامية ثروة روحية قيمة للغة العربية ، ثروة لا يقدرها إلا من درس هذا التراث العربي الاسلامي ، ورأى سعته وضخامته ومقدار دقته فى اداء المعاني التي خصصت لتلك المصطلحات .

وقد تخصصت كلمة « الرب » و « ربي » في الاسلام ، فصار لها مدلول خاص هو الله تعالى . أما في الجاهلية ، فقدكان الناس يطلقون « الرب » على السادة الأشراف ؛ لأنها لم تكن تقصد هذا المعنى الذي تخصصت به فى الإسلام .

= وصرخ كلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية بن خلف . وكان أخاه لأمه ، وصفوان يومئذ مشرك في المدة التي جعل له رسول الله صلى عليه وسلم ، فقال : ألا بطل السحر اليوم ؟ فقال له صفوان : أسكت فض الله فاك » ، الطبري (١٢٨/٣) ، « ذكر الخبر عن غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازن بحنين » .

(١) قال زهير بن أبي سلمى :

فلما عرفت الدار ، قلت لربعها : ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم

(٢) راجع المعلقات ، وبقية الشعر الجاهلي ،

I. Goldziher, Muh. Stud., I, S. 264, Sprenger, III, S. 482, 485.

وبمناسبة هذه الاشارة العابرة الى المصطلحات الجاهلية التي ماتت فى الإسلام ، أو تخصصت بمعان جديدة ، أرى التنبيه على ضرورة دراسة الألفاظ الجاهلية ذات المعاني الدينية ، بجمعها وتبويبها وتثبيت معانيها ، فبهذه الدراسة نستطيع الوقوف على مبلغ تغلغل الحياة الدينية فى نفوس الجاهليين ، ومعرفة مدى تعمقهم فى الدين وفهمهم له . وإذا كنا قد حُرمنا النصوص الجاهلية المدونة بلهجة القرآن الكريم ، فإن فى النصوص الجاهلية المدونة باللهجات العربية الأخرى ما يفيدنا فى هذا الباب ، كما أن فى كتب التفسير والحديث واللغة والأدب وعلوم العربية الأخرى ما ينفعنا في دراستنا هذه عن عرب الحجاز ونجد والشأم والعراق .

ومن الدراسات التي يجب أن تنال منّا الرعاية والعناية لمعرفة الحياة الدينية وتطورها عند الجاهليين معرفة صحيحة ، دراسة المصطلحات الدينية بحسب اللهجات العربية ، وأماكن تلك اللهجات ، وأسماء الأصنام أو الآلهة ، ومعتقدات سكان تلك الأرضين ، فإن دراسة مثل هذه تفيدنا فائدة كبيرة في معرفة اختلاف العرب أو اتفاقهم فى العقائد وفى الأمور الدينية ، ومعرفة العوامل والأسباب التي أدت الى ذلك ، ثم معرفة المؤثرات الخارجية في الحياة الدينية للجاهليين . وبتثبيت هذه وبمقارنتها بأسماء أصنام الأقوام المجاورة وآلهتهم ومصطلحاتهم ، نستطيع فهم كثير من الأمور الغامضة من الحياة الدينية عند العرب وعند تلك الأقوام ، وفهم الاحتكاك العقلي والصلات الروحية التي كانت بين تلك الشعوب قبل الإسلام .

إن الأخباريين عفا الله عنهم ، لم يعنوا بتنسيق هذا الذي توصلوا اليه من آراء الجاهليين فى الدين ، فرووا روايات مختلفة متناقضة أو مقتضبة اقتضاباً مخلاً وجاؤوا بأمور تثبت أن أهل الأخبار لم يكونوا على مستوى عال من النقد والتعمق فى دراسة الأخبار ، وأنهم كانوا فى الواقع أخباريين بالمعنى المفهوم من الأخبار ، يأخذون ما يقال لهم فيروونه على نحو

ما سمعوه وإن كان فيما يروونـه ما يخالف المنطق والفهم السليم . والاستسلام للروايات داء يذهب بالفائدة منها ، ويعود على المؤرخ بأفدح الأضرار . ولهذا نجد أنفسنا في موضوع أديان العرب قبل الاسلام فى زوبعة عاتية وعاصفة مليئة بالرمال نتخبط فيهـا للحصول على مخرج نخرج منه ، وليس لنا الا الأمل بالخروج من هذه العاصفة العاتية المتعبـة فى وقت قريب .

وهـذا الذي أورده أهل الأخبار عن أهل الجاهلية على ما فيـه من تناقض وتضارب واقتضاب ، هو كما رأينا مادتنا الوحيدة عن الحياة الدينية عند عرب الجاهلية قبيل الاسلام وعند ظهوره ، ولا سيما بالنسبة الى عرب الحجاز وعرب الشأم والعراق . وهناك روايات لم نستفد منها حتى الآن ، لصعوبة التوصل اليها ، لا لـكونهـا فى بطون المخطوطات ، ولهذا يصعب الحصول عليها . فإن الـكثير منها قد طبع ، وهو فى متناول الأيدي ، إنما صعوبتها فى كونها فى كتب مطبوعة طبعاً على الطريقة القديمة بلا نظـام ولا ترتيب ولا تبويب فني ولا فهرست لما فى الـكتاب المطبوع من مواد ومن أسماء أشخاص أو أصنام أو أوثان أو ما شابه ذلك . وليس أمام المؤرخ فى هـذه الحالة إلا أن يقرأ تلك الـكتب من بسملتها حتى منتهاها ، ليحصل منها فى النهاية على كلمة أو كلمتين أو خبر أو أخبار ، ولـكن كيف يتمكن المؤرخ من قراءة كتب ضخمة كتفسير الطبري وكتب التفاسير الأخرى وشروح الحديث وكتب التواريخ والطبقات وبقية الـكتب اذا كان الـكتاب يتألف من أكثر من عشـرة أجزاء ، وهي كلها بلا فهرست للأعلام ولا لما في الـكتاب من فوائد ومواد . لايتمكن المؤرخ بالطبع من قراءة كل هذه الموارد المذكورة مع تساوي عمره بسائر أعمار الناس ، ولو مدّ الله في عمره وصيره إنساناً آخر ذا عمر طويل من أعمار الأناس الذين أرخهم السجستاني فى كتاب المعمرين ، لتمكن من الاحاطة ببعض تلك الموارد على الأقل . غير أن عمر المؤرخ ويا للأسف مثل أعمار سائر الناس ، فليس فى امكانه والاحاطة بما ورد فى هذه الـكتب

الواسعة المطبوعة المجهولة على ظهورها فى عالم الوجود ووجودها فى خزانة كتب المؤرخ وفى يـد أي شخص يريد الحصول عليها ، لأن الموضوع ليس موضوع وجود كتاب مطبوع أو مخطوط ، انما هو اكتشاف ما في المطبوع أو المخطوط من آراء وأخبار وأعلام .

وما دام الوضع على هذا الحال وما دامت أكثر كتبنا غير مفهرسة ولا منسقة ، فليس فى استطاعة المؤرخ اذن الإحاطة بما ورد فيها عن تأريخ الجاهليين ومنـه القسم الديني ، انما باستطاعتنا ، وهذا ما فعلناه ، الاعتماد على الـكتب المفهرسـة وعلى الـكتب الصغيرة والوسط ولو كانت غير مفهرسة ، وعلى مواد نعرف كيف نتوصل اليهـا ، لاستخراج شيء منها عن الحالة الدينية عند العرب قبل الاسلام ، وسيأتي بعدنا بالطبع من يضيفون الى هذا العلم البسيط الذي توصلنا اليه علماً كثيراً ، ثم يتوصل من بعدهم الى أكثر من ذلك ولا شك . ومن يدري ؟ فلعلهم يتوصلون الى كتابات جاهلية تغنيهم عن كل هذا الذي أخذناه من موارد اسلامية كتبت بعد الجاهلية بعشرات السنين . وليس لنا ، وسنكون بالطبع من الماضين ، الا أن ندعو لمن يأتى بعدنا بالتوفيق والنجاح التام .

الفصل السابع

العرف والعادات

أشرت فى الفصل السابق الى وجود عادات عند الجاهليين كانت مقدسة لديهم ، حتى ليمكننا عدّها من أمور الدين . ومن هذه العادات : المحافظة على العهد ، والوفاء بالوعد . والوفاء بالعهود من الأخلاق التي كان يرعاها الجاهليون منذ أقدم عهودهم ، وهم على ذلك حتى الآن . وقد سبق لي فى الجزء الأول من هذا الكتاب [1] أن أشرت الى ما ذكره « هيرودوتس » المؤرخ اليوناني عن شدة محافظة العرب على العهود والمواثيق محافظةً لا يشاركهم فيها أحد ، والى طريقة عقد المواثيق بينهم ، فذكر أن أحدهم إذا ما أراد عقد حلف مع آخر ، وقفا رجلاً ثالثاً بينهما ليقوم بمراسيم عقد الحلف التي تكسبه حكماً شرعياً ، فيأخذ الرجل حجراً له حافة حادة كالسكين يخدش به راحتي الرجلين قرب الإصبع الوسطى ، ثم يأخذ قطعة من ملابسهما فيغمسها فى دم الراحتين ، ويلوث بها سبعة أحجار . ويكون مكان هذا الرجل الذي يقوم بهذه المراسيم فى الوسط يتلو أدعية للصنمين « باخوس» « Bachus » ، و « Urania » ، حتى اذا أنتهى منها قاد الحليف حليفه الى أهله وعشيرته لاخبارهم بذلك وللاعلان عنه [2] ، فيصبح الحليف عندئذ أخاً له وحليفاً ، أمرهما واحد بالوفاء .

---

(١) ص ٣٦٠ وما بعدها .

(٢) Herodotus, Vol., I, P. 213, (Rawlinson ed..) .

وقريب من هذا ما كانت تفعله قريش حين تعقد حلفاً ، حيث يأخذ الحليف حليفه الى الكعبة ، وبعد اجراء بعض المراسيم يطوفان حول الأصنام لأشهادها على ذلك ، ثم يعود الحليف بحليفه لإشهاد قريش ومن يكون حاضراً فى الكعبة على صحة هذا الحلف ، وقبوله محالفة الحليف ، حيث أصبح له ماله وعليه ما عليه ، وعلى قومه حمايته ، حمايتهم لحاميه القرشي .

وفى الأحلاف المهمة والمواثيق الخطيرة ، كان سكان مكة وأطرافها يؤكدون على العهد والمواثيق توكيداً شديداً ، وذلك بأن يكتبوا ما أتفقوا وتعاهدوا عليه فى صحيفة يشهد عليها رؤساؤهم وسادتهم من الطرفين ومن أناس آخرين محايدين ، يكتبها لهم كاتب يشهد على ذلك ، ثم يعلقون الصحيفة فى الكعبة توكيداً لها وتشديداً للميثاق ، كالذي كان من تآمر قريش على مقاطعة بني هاشم مقاطعة تامة فلا يتزوجون منهم ولا يزوجون أحداً منهم من قريش ولا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم شيئاً . وكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ، وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم [1] .

وقد عرفت أمثال هذه العهود المكتوبة بالصحيفة ، وبالصحف ، وذلك لكتابة الناس لها فى صحيفة . ولا بد بالطبع من التوكيد فى تلك الكتب بذكر الأيمان وأسماء الأصنام والجمل التي لها صيغ دينية مقدسة . وقد عرفت بـ « المهارق » فى بعض الأحيان من أسم المادة التي يكتب عليها ، وهي قطع من قماش تسقى بالصمغ ، أو تطلى بشيء ، ثم تصقل فيكتب عليها . وقد ذكر التبريزي أن اللفظة فارسية معربة [2] . وقد أشير فى قصيدة للحارث بن حلزة الى « مهارق الفرس » [3] مما يدل على أن الفرس كانوا يستعملون

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٥) « ذكر أمر الصحيفة » .

(٢) التبريزي : شرح المعلقات (ص ٢٦٨ وما بعدها) .

(٣) لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس =

هـذا النوع من مواد الكتابة فى كتاباتهم . وهي تستعمل عادة فى كتابة الشؤون المهمة ذات الخطر والبال ، مثل الأمور الدينية ، أو كتب العهود والمواثيق والأيمان [1] . وقد وردت اللفظة فى مواضع متعددة من الشعر الجاهلي الذي إن صح أنه من شعر الجاهليين حقا فإنه يدل على شيوع هذا النوع من الورق عند العرب الجاهليين واستعمالهم له [2] .

ويفهم من بيت الأعشى :

ربي كريم لا يكدر نعمة   واذا يناشد بالمهارق أنشدا

أن الناس كانوا يتقربون الى ربهم بقراءة ما فى المهارق من أدعيـة وتوسلات ،

= المفضليات القصيدة رقم (٢٥) (ص ٢٦٣) « طبعة لايل » .

وله أيضاً :

حذر الجور والتعدي وهل   ينقض ما في المهـارق الأهواء

Hareth Moallakah, Cum Zouzsenii by, Knatchbull, P. 8.

(١) « ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود ، وميثاق ، وأمان » ، الجاحظ : الحيوان (١/٦٩ وما بعدها) « تحقيق عبد السلام محمد هارون » ، « المهرق : الصحيفة يكتب عليها ، وهو مهره ـ مهرق كرد . وكانوا يأخـذون الخرق ويصقلونها بشيء ويكتبون عليها ... كانت العرب تصقل الثياب ، وتكتب فيها كتب العهود وما أرادوا بقاءه على الدهر » ،

Knatchbull, Hareth Moallakah, P. 38.

(٢) الأعشى :

ربي كريم لا يكدر نعمة   واذا يناشد بالمهارق أنشدا

ديوان الأعشى قصيدة ٣٤ (ص ١٥١) « تحقيق كاير » .

وقال سلامة :

لمن طلل مثل الكتاب المنمق   خلا عهده بين الصليب فطرق

أكب عليـه كاتب بدواته   وحادثه في العين جدة مهرق

ديوان سلامة : ١٥

وقال شتيم بن خويلد الفزاري :

تسمع أصوات كدري الفراخ به   مثل الأعاجم تغشى المهرق القلما

النقائض (١٠٦) .

فيستجيب الله دعاءهم ، ولا يكدر الله نعمة أحد ، ولا يخيب ظن سائل . فإذا ناشده أحد من عبيده ، أنشده ، لأنه رب كريم .

وللعقود وللأوامر الملكية صفة دينية أيضاً . فقد رأينا أهل اليمن يشهدون آلهتهم في عقودهم وفى أوامرهم التى يصدرونها الى شعوبهم بذكر أسمائها فى النص فى كل مناسبة ، ويؤكدون بأغلظ الأيمان وبألفاظ التوكيد على المتحالفين وعلى السامعين أو القارئين لما هو مكتوب باحترام ما هو مدون فيه . وكذلك كانوا يأتون بمثل هذه التوكيدات فى الحجارة التى كانوا يضعونها شواخص على قبورهم . وهذه الكتابات على اختلاف أنواعها هي بالطبع مادة مهمة لدراسة الأحوال الدينية والتفكير الديني عند العرب قبل الإسلام .

وتتمثل المثل الجاهلية العليا فى « المروءة » ، وقد فسرت المروءة بأنها كمال الرجولية . ومن المروءة : الحلم ، والصبر ، والعفو عند القدرة ، وقرى الضيف ، واغاثة الملهوف ، ونصرة الجار ، وحماية الضعيف . فاذا تمثلت أمثال هذه السجايا فى رجل ، كان كاملاً ، عظيم الشأن في قومه . والمروءة عند الجاهليين كالدين عند المسلم .

وقد ورد أن المروءة ألا تفعل فى السر أمراً وأنت تستحي أن تفعله جهراً [1] . فهي أقصى ما تكون من أخلاق فى الرجل الكامل الشجاع . وقد أقرها الاسلام فى جملة ما أقره من فضائل الجاهلية ، وورد : الدين المروءة ، ولا دين إلا بالمروءة [2] .

والغدر من الصفات المذمومة التي تلحق الخزي والعار بصاحبه ، حتى أن بعضهم لحقت به هذه الصفة ، فأشير اليه ، وظل معروفاً به حتى اليوم ، فذكر أهل الأخبار أسماء مشاهيرهم ، كما ذكروا أسماء بعض عشائر وقبائل ظهر منها الغدر فعلقت بها السبة بين القبائل ، يشار اليها كلما ذكر الغدر .

---

(١) اللسان (١٤٩/١) .

(٢) Goldziher, Muh. Stud., S. 14.

حتى فى حالة الأخذ بالثأر ، والأخذ بالثأر من أهم السنن المفروضة عند الجاهليين يذم الأخذ به غدراً . نعم ، ربما لا يأثم من تتبع حركات القاتل ومن تعقبه وقتله وهو نائم في فراشه (١) ، غير أن هذا النوع من الأخذ بالثأر لا يعد نوعاً شريفاً ، لافتقاد عنصر الرجولة فيه ، ولأن الآخذ بالثأر لم يبذل شجاعة أو مجهوداً في القتل ، فهو نوع من أنواع الغدر ، ولهذا لا يقدر صاحبه عليه ، ولا يعدّ من أنواع البطولة والشرف .

ونجد من دراسة كتب التفسير والحديث والفقه أن الاسلام قد أقر أشياء عديدة كانت جاهلية في الأصل ، بمعنى أنها كانت من العرف والعادات المتوارثة عند العرب قبل الاسلام ، كما نجد أشياء عديدة منعها الاسلام ، أو استهجنها ، فلم يكتب لها البقاء . وتدل هذه الأوامر والنواهي بالطبع على وجود سنن وشرائع قديمة قبل الاسلام ، هي عندهم بمنزلة القانون أوالفقه في الإسلام ، مع فارق واحد هو أن الفقه فى الإسلام يرجع الى الوحي والأوامر أو النواهي النبوية ، فهو ديني مقدس . أما عرف الجاهليين ، فهو من وضع الجاهليين ، ومن الأحوال التي كانوا يعيشون فيها ، ومن مؤثرات خارجية أيضاً ، وذلك بأتصالهم بالأمم الأعجمية بالمعاملات مثل الاتجار من بيع وشراء وأمثال ذلك مما استلزم وضع قواعد تجارية وأعراف فى البيع والشراء والدفع وأمثال ذلك . ونجد بين المصطلحات الإسلامية مصطلحات كثيرة كانت قبل الإسلام بزمن طويل . مقررة ومعروفة بالمعنى المتعارف عليه في الفقه الاسلامي .

وليس من المعقول ظهور مصطلحات دقيقة تعبر عن معان دقيقة فى مدة قصيرة في صدر الإسلام ، لو لم تكن معروفة عند العرب قبل الإسلام . والواقع أن دراسة تلك المصطلحات التي وردت في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي وفى معاملات الناس أيامَ الخلفاء الراشدين ، تشير الى وجود عرف جاهلي قديم ، هو قانونهم الذي كانوا يسيرون عليه . ففي

---

(١) المشرق : السنة الثالثة والثلاثون (١٩٣٥) (ص ١٩) .

معاملات البيوع مثلا وفي العقود وفي التحالف وفي الشعائر الدينية ، نجد مصطلحات لايمكن تفسير وجودها في تلك الأيام إلا بوجود عرف قانوني عند العرب قبل الإسلام ، وبأن ذلك العرف هو من حاصل سنين بعيدة عن الإسلام [1] .

ونجد في كتب الأخبار جملاً نسبت لرجال جاهليين عرفوا بسلامة أحكامهم وبدقة فهمهم واستقامة أحكامهم، حفظت ، وذهبت بينهم مثلاً . ومنها ما اعترف بسلامته وبصحته في الإسلام ، بإقرار الإسلام لها وإدخاله لها في جملة الأحكام التي أقرها من أحكام الجاهلية . وهي احكام تشير في الواقع الى وجود عرف فقهي قديم ، والى فهم لروح القوانين . وتنتظر هذه الأحكام يوماً يظهر فيه من يقوم بجمعها وتبويبها وتنسيقها وعمل دراسة مقارنة لها ومقابلة مع الأحكام التي كانت في مختلف أنحاء جزيرة العرب واحكام الشعوب المجاورة لمعرفة أصول ذلك الفقه الجاهلي ومدى أثره في الأقوام المجاورة وأثر الأقوام المجاورة فيه .

ولعدم ورود مدونات جاهلية أو إسلامية في أحكام أهل الجاهلية وشرائعهم وفقههم ، فليس أمامنا من سبيل لمعرفة ذلك وتكوين رأي فيه إلا بمراجعة الألفاظ ذوات المدلولات الفقهية الواردة في الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين وفي كتب التفسير والحديث واللغة والكتابات الجاهلية وبقية الموارد ، وجمعها ، لتعيين معانيها وما كان يقصد بها عند أهل الجاهلية . ومن الخير لنا ، لتكوين رأي علمي واضح صحيح في تلك المصطلحات وفي علم العرب قبل الإسلام بالقانون ، أن نقارن بين تلك الألفاظ وما يقابلها عند بقية الساميين من حيث اللغة والقانون ، وبذلك نتمكن من تكوين دراسة حسنة عن فقه الجاهليين وفي الدراسات القانونية الدينية المقارنة عند العرب وعند بقية الساميين .

ومن أحكام العرب في الجاهلية ، نظام التوريث، فقد « كانت العرب مصفقة على توريث البنين دون البنات » ، ثم ورث ذو المجاسد عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن

---

(١) المشرق السنة الثالثة والثلاثون (١٩٣٥) « ص ٢٦٦ وما بعدها » .

يشكر ماله لولده ، للذكر مثل حظ الأُنثيين ، فشاع حكمه هذا بين بعض الجاهليين ، ثم أقره الإسلام [1] .

وقد رأينا أن الجاهليين قبيل الاسلام وعند ظهوره كانوا قد اُتفقوا على تحريم القتال والأخذ بالثأر فى أشهر معينة ، عرفت عندهم بالأشهر الحرم ، هي : المحرم ورجب وذوالقعدة، وذو الحجة ، فكانوا يتحرجون فيها من القتال . وقد أشرت الى حرمة شهر رجب خاصة ، والى تقديس كثير من الجاهليين له . وقد عرف هذا الشهر عندهم برجب مضر ، ذلك لأنه كان معظماً عند قبائل مضر خاصة ، فيقال إن ربيعة كانوا يجعلون بدله شهر رمضان . وقد أشرت الى تحايلهم فى بعض الأحيان فى تحليل حرمة بعض تلك الأشهر ، وذلك بلجوئهم الى اُختراع حيلة شرعية هي النسيء . وقد رأينا أن الناسيء ، وهو رجل له حرمة وقدسية ، يقف إذا فرغت العرب من حجها عند حجرة العقبة ، فيهتف بأعلى صوته : اللهم ، إني لا أعاب ولا أخاب ، ولا مردّ لما قضيت . اللهم ، إني أحللت شهر كذا ، ويذكر شهراً من الأشهر الحرم وقع اتفاقهم على شن الغارة فيه ، وأنسأته الى العام القابل ، وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي . فكانوا يحلّون ما أحلّ ، ويحرمون ما حرم . أو أنه كان يقول : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم ، فأحلّوه . ثم يقوم فى العام القابل ، فيقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم ، فحرموه [2] . فهذه الصيغ التي ينادي بها الناسيء قومه بعد فراغهم من الحج وفى موضع مقدس ، والتي يعلن فيها إرادة الآلهة وموافقتها على التحليل أو التحريم ، هي صيغ دينية ، وهي تخبر عن تحليل وتحريم بإرادة الآلهة وموافقتها ، وعلى أنهم كانوا يعتقدون أن تحريم تلك الأشهر تحريم أمرت الآلهة به ، فهو تحريم بأمر الآلهة . وهذا لايكون بالطبع إلا بوجود شريعة فيها حرام وفيها حلال ، وبوجود نواهٍ ومباحات .

---

(١) المحبر (ص ٢٣٦) .
(٢) بلوغ الأرب (٣/٧١ وما بعده) .

ومن حرمة شهر رجب ودلائل تعظيمه أنهم كانوا يولمون وليمة عند ظهور هلاله ، يقال لها « المقيرة » [1]. ولا بد أن يكون لهذه التسمية ولعقر الإبل تقرباً الى الآلهة علاقة بأساطير دينية قديمة تتعلق بهذا الشهر ، كما أن لهذا الشهر خاصة صلة وثيقة بالموتى ، فنجد الناس يذكرون موتاهم خاصة فيه ، وذلك حتى اليوم عند المسلمين ، ويقدمون فيه الأطعمة الى الفقراء . واختيار هذا الشهر خاصة عند الجاهليين دون بقية الأشهر الحرم ، لابد أن يكون له سبب قديم بالطبع ، وقد رأينا أنه اقترن بقبائل مضر ، فقيل رجب مضر ، مما يدل على أن تلك القبائل كانت تعده شهراً مقدساً خاصاً بها ، ولذلك بالغت في تعظيمه وتقديسه من بين سائر الجاهليين .

غير أن حرمة تلك الأشهر لم تمنع بعض القبائل والأشخاص من انتهاكها ، وذلك بسفك الدماء فيها . وقد سفك بعضهم الدم فى موسم الحج ، أخذاً للثأر ، إذ لم يجد القاتل فرصة مؤاتية خيراً من هذه الفرصة . ثم إن حمى الأخذ بالثأر تتسلط على صاحبها في مثل هذه الحالات ، فلا يستطيع الهيمنة على نفسه ، فيقوم بما قام به مدفوعاً بتلك العاطفة . غير أن هذا العمل على ما فيه من حق الأخذ بالثأر ، وهو حق طبيعي وواجب مفروض ، لم يكن مستحسناً في نفوس الجاهليين ، لاصطدامه بعقيدة أخرى تقوم على قدسية تلك الأشهر ، وهي قدسية أمرت بها الآلهة ، وليس على مخلوق مقاومة أوامر الخالق أو الخالقين.

ولسنا نعرف بسبب عدم وصول نصوص جاهلية إلينا فى موضوع شرائع الجاهليين شيئاً مهماً يذكر عن أحكام أهل الجاهلية فى المعاملات وفى الأحوال الشخصية التي تدخل في أحكام الشرائع والأحكام الدينية . وكل ما لدينا عن هذه الأمور نزر يسير ، وقد أخذناه من الموارد الإسلامية التي تعرضت لها لما كان لها من صلة بالاسلام .

وقد تحدثت فى الجزء السابق عن أحكامهم وعاداتهم فى الزواج ، فرأينا أنواعاً منه ،

---

(١) بلوغ الأرب (١/٣٨٦) .

ووقفنا على بعض عاداتهم فيه وفي الخِطْبة ورأي الوالدين في الزواج . وإذ كانت لهم في الزواج عادات وتقاليد ، كانت لهم في الطلاق أنظمة وأعراف وعادات . وقد كان من عادة الجاهليين على ما يذكره أهل الأخبار التطليق ثلاثاً على التفرقة ، وهم ينسبون ذلك إلى اسماعيل بن ابراهيم ، مما يدل على أن هذا النوع من الطلاق كان شائعاً معروفاً بين القبائل الاسماعيلية ، أي القبائل العربية الشمالية التي كانت مواطنها في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب ، والتي نزحت قبائل منها الى العراق والى بلاد الشام ، فكان الرجل إذا أراد أن يطلق زوجه طلقها واحدة وهو أحق الناس بها ، حتى إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها ، وامتنع رجوعه إليها . وقد أوردوا لذلك شعراً للأعشى يقولون إنه قاله حينما اجبر على طلاق زوج له كانت من بني هزان . وقد وردت في ذلك الشعر مصطلحات من المصطلحات الفقهية المعروفة المستعملة في الفقه الإسلامي ، مثل : « بِيني » ، و « طالقة » [1] .

وقد ذكر المؤرخون أنواعاً من طلاق أهل الجاهلية ، هي : الظِهار ، والإيلاء ، والطلاق ، والخلع . والظهار هو تشبيه الرجل زوجه أو ما يعبر به عنها أو جزء شائع بمحرم عليه تأبيداً ، كأن يقول : أنت عليّ كظهر أمي ، أو كبطنها ، أو كفرجها . والإيلاء هو الحلف على ترك قربان المرأة مدة . وأما الخلع ، ففراق الزوج زوجه على مالٍ مأخوذ ،

---

(١) بيني حصان الفرج غير ذميمة — وموموقة فينا كذاك ووامقه
وذوقي فتى قوم ، فاني ذائق — فتاة أناس مثل ما أنت ذائقه
لقد كان في فتيان قومك منكح — وشبان هزان الطوال الغرانقة
فبيني ، فإن البين خير من العصا — وإلا ترى لي فوق رأسك بارقه
وما ذاك عندي أن تكوني دنيئة — ولا أن تكوني جئت عندي ببائقه
ويا جارتا بيني ، فانك طالقة — كذاك أمور الناس غاد وطارقه

الأغاني (٨/٨٠ وما بعدها) ، راجع عن لفظة طالقة وطالق ورأي العلماء فيها في بلوغ الأرب (٢/٤٩) .

وذُكر أن أول خلع كان هو خلع عامر بن الظَّرِب المدواني[1] .

وقد ذكرت فى الجزء السابق تشدد النساء فىحزنهن على وفاة أزواجهن ، واضطرارهن الى ملازمة بيوتهن ومكوثهن على ذلك مدة سنة وهنّ في شرّ ثيابهن وحفش بيتهن ، وقد ألغى الإسلام هذه المدة وهذه الطريقة من إظهار الحزن والأسى بأن جعلها المدة المنصوص عليها فى كتب الفقه[2] .

والأعياد من جملة مظاهر الأديان ومشاعرها . وقدكانت للجاهليين أعياد لها صلة بأديانهم ، وقد رأينا أن لليهود منهم أعياداً خاصة بهم ، كما كانت للنصارى العرب أعياد خاصة بهم ، ذكر أهل الأخبار أسماء بعضها . كذلك كان للوثنيين من الجاهليين أعياد خاصة بهم . غير أننا لا نستطيع أن نتحدث بالطبع عن وجود أعياد عامة يعيّد فيها جميع الجاهليين عبدة الأصنام ، لأن الأعياد العامة تستدعي وجود ديانة واحدة وعبادة إله أو آلهة مشتركة يعبدها جميع القوم ، وإذْ كانت العرب لاتعبد إلهاً واحداً أو آلهة مشتركة تقدسها أهل الوبر وأهل المدر منهم جميعاً ، فلا يمكن أن نتصور وجود أعياد عامة لجميع العرب ، في عهود ما قبل الاسلام . وفى استطاعتنا عدّ الحج عيداً من تلك الأعياد ، لمن كان يحج الى مكة ويشهد مناسك الحج فيها .

ولفظة العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد على رأي علماء اللغة[3] . وهو بالمعنى المعروف الذي يخص الاحتفالات الدينية من الألفاظ المعربة المأخوذة عن لغة بني ارم على رأي بعض المستشرقين . فـ « عيدا » فى الإرمية هي « العيد » فى العربية[4] .

---

(١) بلوغ الأرب (٤٩/٢ وما بعدها) .

(٢) بلوغ الأرب (٥١/٢) .

(٣) تاج العروس (٤٣٨/٢) ، اللسان (٣١٣/٤) ، بلوغ الأرب (٣٤٤/١) .

(٤) Ency., II, P. 444.

ويفهم من مواضع متعددة من الحديث أن الجاهليين الوثنيين كانوا يعيدون ، ولا يستبعد تعييدهم فى معابدهم لأصنامهم ، لادخال السرور الى نفوس آلهتهم ، وللاحتفال بذكراها ، غير أن الأخبار لم تشر ويالللأسف الى أسماء أعياد الوثنيين .

وقد آن الأوان الآن ، ونحن نتحدث عن أديان العرب قبل الاسلام ، أن نبحث في مدلول الدين عند الجاهليين . ولتحديد هذا المدلول أهمية كبيرة بالطبع ، إذ عليه يتوقف علمنا بالأمور التي نعدها من صميم أديان الجاهليين ، والكلمة من المصطلحات الثابتة الواضحة فى الاسلام ، وقد وردت فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم . فهي إذن ذات معنى واضح ثابت فى الإسلام [1] . أما عند الجاهليين ، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن مدلولها عندهم حديثاً واضحاً علمياً ، لعدم وصول كتابات جاهلية الينا فيها هذه الكلمة . وعدم ورود هذه اللفظة في النصوص يجعل من المسير علينا تكوين رأي واضح في مفهوم الدين عند الجاهليين .

وقد وردت هذه اللفظة بالمعنى المفهوم منها فى الاسلام فى بيت شعر ينسب الى أمية بن أبي الصلت ، هو :

كل دين يوم القيامة عند الله   إلاّ دينَ الحنيفة زور [2]

غير أننا لا نستطيع أن نحكم بورودها فى شعر أمية ما لم نثبت ان ذلك الشعر هو من شعره حقاً ، وأنه ليس بشعر إسلامي صنع ووضع على لسانه كما وضعت أشعار أخرى غيره على لسانه وعلى لسان غيره من الشعراء .

ولفظة دين من الألفاظ المستعملة فى العبرانية وفى لغة بني إرم كذلك ، كما وردت فى الفارسية القديمة بالمعنى نفسه المفهوم من اللفظة فى الاسلام ، أي ما يقابل « Religion » فى

---

(١) راجع المعجمات اللغوية عن معاني « دين » في العربية ، اللسان (١٧/٢٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/٢٠٨ وما بعدها) .

(٢) الأغاني (٤/١٢٢) « طبعة دار الكتب المصرية » .

اللغة الانكليزية ، ويرى المستشرقون أنها فى الفارسية من أصل « داينا Daéna » . وذهب « فولرس Vollers » الى أن اللفظة كانت معروفة عند الجاهليين بهذا المعنى الاُصطلاحي، ولـكنه يرى أنها دخلت اليهم بهذا المعنى من الفارسية ، فهي فى نظره من المعرّبات [١] .

والاُخذ بالثأر من أهم ما يمتاز به الجاهلي ، ومن أهم ما يدخل فى موضوعنا هذا . وترادف لفظة « الثأر » « الوتر »[٢]، وأما الرجل الذي يثأر لنفسه ولأهله ، فهو« الموتور » ، ويقوم بحمل الثأر أقرب الناس الى القاتل فى العادة . فالاُبناء هم أول المسؤولين عن الاُخذ بثأر أبيهم طبعاً ، لحـكم الدم . ولـكن ذلك لا يمنع من اُنتقال هذا الحمل الى غيرهم . وقد تتولاه القبيلة برمتها ، فلا تسـكت ولا تهجع حتى تأخـذ بثارها ، ولا سيما فى مثل حالات مقتل سـيدها أو الاعتـداء على القبيلة بالغزو مثلا . وإلا لحق بالعشيرة وبالقبيلة العار ، يلحقهما ما دامتا متقاعستين عن الاُخذ بالثأر .

ولا يستقر الموتور حتى يأخذ بوتره ، ويغسل عاره ، وعندئذ يستقر ويستريح ويقوم مفتخراً بين قومه بأخذه بثأره وحقه . وقد حدثتنا الاُخبار أن الموتورين كانوا يمتنعون عن جميع ملاذ الحياة ووسائل الراحة ويحرمون على أنفسهم الاُطايب حتى يأخذوا بثأرهم ، أي بحقهم المقدس المهضوم . فلا يقربون امرأة ، ولا يتناولون خمراً ، ولا يتطيبون بطيب ، ولا يدهنون بـدهن ، ولا يـذوقون لحماً حتى يأخـذوا بثأرهم ، فيحل لهم عندئذ تناول ما حرموه على أنفسهم ، ويكون حلالاً طيباً . بل يغرقون بعد أخذهم بثأرهم فى تناول تلك المحرمات ، حتى تشبع أنفسهم منها ، وذلك ابتهاجاً وسروراً منهم بحصولهم على ما أرادوه وطلبوه ، وعودة شرفهم المغتصب اليهم . وهم بأخـذهم بثأرهم هـذا يكونون قد أدوا واجباً مفروضاً عليهم ونفذوا أمراً مقدساً حتمه العرف عليهم . وما داموا قد قاموا بذلك فلهم أن يتناولوا ما حرموه

---

(١) Ency., I, P. 975, Zeitschr. f. Assyr., Bd. XIV, S. 351.

(٢) تاج العروس (٥٩٦/٣ وما بعدها) ، اللسان (١٣٦/٧ وما بعدها) .

على أنفسهم ، يقوم أحدهم بذلك ولسانه يقول ما قاله امرؤ القيس الذي أقسم على نفسه بالأخذ بثأره فلما أوفى بقسمه ، قال :

حلّت ليَ الخمر وكنت امرءاً — عن شربها فى شغل شاغل
فاليومَ أسقى غيرَ مستحقِبٍ — إثماً من الله ولا واغلِ

وهناك أبيات لشعراء آخرين وردت فى هذا المعنى ، مثل هذه الأبيات المنسوبة لخالد بن عمرو بن مرة الشيباني :

اليوم حلّ لي الشراب ، وما — كان الشراب يحلّ لي قبلُ
وجزيت سعداً بالذى فعلوا ، — وأحل لي ، ماوية ، القتلُ
ولقد أبَأْتُ باخوتي مئة — منهم ، فلا لوم ولا عَذْلُ

وقول ربيعة بن أبي عمرو القيني :

حلت ليَ الخمر إذ غادرت سيدهم — فى جيب سرباله من نفسه دُفَعُ
ما زلت أبغي أبا ليلى وأندبه — فى الحيّ طفلا الى أن نالني الصّلعُ

ومثل قول الثلّم بن عمرو الكندي :

إني أبى الله أن أموت وفى — صدري همّ كأنه جبل
يمنع مني طعم الشراب ، وإن — كان رحيقاً مزاجه عسل
حتى نقضت الوتر العظيم ، ودا — نيت بيوتاً وبينها خلل (١)

ونجد هذه النماذج كلها فى موضوع واحد ، هو الوفاء بالعهد الذي قطعه الشاعر على نفسه ، وذلك بالتزامه الأخذ بالثأر . فلما أوفى حل له الشراب . واستعمال جملة : « حلت لي الخمر » و « حلّ لي الشراب » وأمثالها ، يدل ـ إن صح أن هذا الشعر هو لشعراء جاهليين ـ

---

(١) للشرق : السنة ٣٣ (١٩٣٥) (ص ٧ وما بعدها) ، البحتري : الحماسة رقم ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، (طبعة شيخو) .

على وجود مصطلحات دينية وقانونية عنـد أهل الجاهلية ، تؤدي معاني خاصة ثابتة ذات مدلولات معينة . ومثل هذه المصطلحات لا تكون بالطبع إلاّ لدى أناس لا بد أن تكون لديهم شرائع وقوانين .

ولفظة الحلال ولفظة الحرام [1] ، تدلاّن على وجود مباح ومحذور عند أهل الجاهلية ، ولا يمكن وجود حلال وحرام بالطبع بغير قوانين دينية واجتماعية ، أي فقه وقانون ينظمان حياة الناس . وإذا وجد الحلال والحرام ، فلا بد من وجود أمور محذورة نص على تحريمها وعلى معاقبة صاحبها وازدراء مرتكبيها ، وأمور أخرى مباحة ليس لمن يأتيها ما يؤاخـذه العرف والقانون عليـه . وقـد ذكر أهل الأخبار أموراً عـديدة يجلب اتيانها الخزي على فاعليها والاستهجان .

ومن المباحات الجاهلية الخمور ، وقد كان الجاهليون يستوردونها من خارج جزيرتهم ، من الشام في الغالب ومن العراق ، كما كانوا يصنعونها هم أنفسهم ، وأغلب من يصنعها هم من أهل المدن والقرى ، كما كان أغلب من يستوردونها الى الحجاز تجار من اليهود . وقد كان هؤلاء التجار يتقاضون أرباحاً فاحشة من هذه التجارة وخاصة بسبب ، أنهم كانوا يعطونها إياهم ديناً يستوفونه بمواد عينية أو بثمن غال . وقد حرمها الإسلام ، لما ظهر منها من أضرار فادحة معنوية ومادية . ويظهر أن استعمالها كان قد انتشر انتشاراً فظيعاً قبيل الاسلام وعند ظهوره ، بدليل تحريمها وكثرة ما ورد عنها في الشعر وفي الأخبار من تفاخر وتبـاه بكثرة شربها وإدمـان صاحبها عليها حتى عـدّ شربها عندهم نوعاً من التفاخر

---

(١) « الحرم بالكسر الحرام ، وهما نقيضا الحل والحلال . ج حرم بضمتين قال الأعشى :

مهـادى النهـار لجـاراتهم وبالليـل هن عليهم حرم

وقد حرم عليه الشيء كـكرم حرماً بالضم » ، تاج العروس (٨/٢٣٩) ، الحلال ، تاج العروس (٧/٢٨٣ وما بعدها) .

والتباهي، إذْ هي علامة اليسر والغنى والنفوذ . وطالما وردت فى الشعر الجاهلي وفى الأخبار جملة « زق خمر » يسقون منه الضيوف الكبار وأصحاب الجاه .

وفى كتب الحديث أن الرسول قال بمكة عام الفتح : « إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام »[1] . وتتبع هذه الحرمة حرمة الاتجار بها ، فرجل يؤمن بحرمة شيء لا يمكن أن يتاجر به بالطبع ويقبض ثمنه . ونجد فى كتب الحديث أيضاً أن كثيرين ممن أسلموا اُضطروا الى إهراق ما كان عندهم من خمر لعدم تمكنهم من بيعها بسبب التحريم . وقد كانوا يحفظون الخمر فى زق ، أو فى راوية ، أو في مزادة وهي قربة كبيرة تصنع من جلد البعير ، أو فى دن[2] .

وقد عافها المتحنثون من الحنفاء ، وجماعة وجدت فيها الضرر فحرمتها على نفسها . وقد أورد أهل الأخبار أسماء نفر من الرؤساء والسادات عافوها وحرموها على أنفسهم ونصحوا الناس بعدم الاقبال عليها ، وأوردوا لبعضهم شعراً فى ذلك . ومن هؤلاء : عبد المطلب بن هاشم ، وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وعثمان بن عفّان ، وورقة بن نوفل ، والوليد بن المغيرة ، والعبّاس بن مرداس السُّلَمِي ، وقيس بن عاصم السعدي ، وعبد الله بن جُدْعان ، ومقيس بن قيس بن عدي السهمي ، وعامر بن الظرب المدواني ، وصفوان بن أميّة بن محرث الكناني ، وعفيف بن معد يكرب الكندي ، والأسلوم اليامي من همدان ، وأبو أمية بن المغيرة ، والحارث بن عبيد المخزومي ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعامر بن جذيم الجمحي ، وأبو ذر الغفاري ، ويزيد بن جعونة الليثي ، وأبو واقد الحارث بن عوف الكناني ، وعمرو بن عَبَسَة ، وقس بن ساعدة الإيادي ، وعَبيد بن الأبرص الأسدي ، وزهير بن أبي سُلْمي المزني ، والنابغتان الذبياني والجعدي ، وحنظلة الراهب بن أبي

---

(1) ابن الأثير : جامع الأصول (٣٧٥/١ وما بعدها) .

(2) المصدر نفسه .

عامر ، وقبيصة بن إياس الطائي ، وإياس بن قبيصة بن أبي غفر ، وقيس بن عاصم ، وحاتم الطائي [1] .

وبعض هؤلاء هم من الحنفاء كما رأينا ، وبعضهم من السادة الأشراف الذين لم يتذوقوها ، أو أنهم تعاطوها ثم رأوا ضررها فتركوها وحرموها على أنفسهم . ويظهر أن بعضهم قد حرمها على نفسه وعلى آله أيضاً ، فذكر مثلا أن الوليد بن المغيرة ضرب فيها أبنه هشاماً على شربها [2] ، ولعل منهم من كان يستعمل الحدّ ، وهو الجزاء الذي قرره الإسلام على شاربي الخمر .

ويظهر من كتب الحديث أن الجاهليين لم يكونوا قد وضعوا الحدود في بعض الأعمال التي تعد من المعاصي في الاسلام ، فى مثل السرقة والزنى وشرب الخمر . وهي مما يعاقب عليه في الاسلام بالحدود المعينة فى كتب الفقه . وقد قلت فيما سلف إن جمهرة أهل الجاهلية لم تكن تعاف الخمر ، ولا سيما النصارى منهم ، لعدم تحريمه عندهم . وأما السرقة ، فقد نص على عقوبة السارق في القرآن الكريم . ولكننا لا نستطيع أن نتحدث عن العقوبات التي تفرض على السراق عند الجاهليين قبل الإسلام . أما الرجم فى الزنى ، فالظاهر أن الاسلام هو الذي قرره ، وأن الجاهليين كانوا يعاقبون الزانية والزاني بالعرف المألوف .

ولا نستطيع التحدث عن المأكولات التي حرمها أهل الجاهلية على أنفسهم . وتحريم بعض المأكولات يعود الى العرف والعادات فى الغالب ، والى البيأة التي يعيش فيها الانسان والأضرار التي قد تصيبه من أكلها ، والى بعض الأساطير التي يعتقد بها . ونحن نستطيع أن نقول إجمالاً إن أهل الوبر كانوا أكثر توسعاً من أهل المدر فى ناحية تناول المأكولات ، فإن فقر بيأتهم يحملهم على تناول كل شيء تقع أعينهم عليه لسد جوعهم . وكل ما فى بيأتهم

---

(١) المحبر (ص ٢٣٧ وما بعدها) .

(٢) المحبر (ص ٢٣٧) .

حيوانات ضعيفة قليلة ، فهم لايعبؤون بشكلها وبمظهرها وبحجمها ، إنما كل ما يهمهم منها هو أكلها ليعيشوا عليها . أما أهل المدر ، فبيأتهم تمكنهم من أقتناء الحيوانات وتربيتها ، ومن أقتناء الأجناس التي لا تعافها الأنفس لبشاعة منظرها أو لصغرها ، كما أن سعة أهل المدر وغناهم بالنسبة إلى أهل الوبر يؤثر فى نظرهم الى اباحة المأكولات . ولذلك نجدهم عافوا أكل بعض المأكولات وتجنبوها ، فلم يقربوها ، وصارت في حكم المواد المحرمة عليهم .

والخنزير من الحيوانات التي حرم الاسلام أكلها ، وهو من الحيوانات التي حرمت الشريعة اليهودية أكلها كذلك . ولا نعلم رأي الجاهليين فى أكله ، غير أن تحريم الإسلام له ، وعدّه إيّاه من الحيوانات النجسة ، يدل على أن العرب النصارى كانوا يتناولونه ، لعدم وجود هذه الحرمة فىالديانة النصرانية ، وأن أكله كان معروفاً في الحجاز وفي المواضع التي كان فيها نفر من النصارى أو جاليات نصرانية . وقد حرمه الاسلام للضرر الذي يتولد من تناوله ، كما حرم الميتة والمختنقة ، وقد نص على هذا التحريم فى القرآن الكريم .

وفى حديث لعائشة أن الغراب من الحيوانات الفواسق ، وذلك لفسقهن وخبثهن [١] . وقد رأينا أنه من الحيوانات التي كان الناس يتطيرون منها ، وأن للجاهليين رأياً فى الغراب . والواقع أن غير الجاهليين من الأعاجم كان لهم أيضاً رأي فيه ، فى موضوع الطيرة والزجر ، وقد ذكرت بعض الأحاديث أن الحيوانات الفواسق خمس : الحية ، والغراب ، والفأرة ، والحدأة ، والكلب العقور . وجعلتها أحاديث أخرى: الحية ، والعقرب، والفأرة ، والغراب. وقد جوز قتلها للمحرم . ويظهر أن الجاهليين كانوا يأكلون الغراب [٢] .

وكلمة « نجس » ونجاسة وطهر وطهارة ، من الكلمات المعروفة عند الجاهليين . غير أننا لا نستطيع أن نتصور أن مدلول هذه الكلمات كان كمدلولها فى الاسلام ، بمعنى أن الجاهليين

---

(١) تاج العروس (٧/٤٨) .

(٢) السنن الكبرى (٩/٢١٢ وما بعدها) .

كانوا قد عينوا وحددوا مفاهيمها بالضبط ، بأن حددوا النجاسة وعينوها ، وذكروا كيفية وشروط إزالتها متى وقعت وتعرض لها الإنسان . ويظهر أن الموت هو نجاسة في نظر بعض الجاهليين ، ولذلك أمروا بغسل الجثث وتكفينها ، وقد أقر الإسلام هذين العملين ، كما عدو الحيض من النجاسة ، وحددوا أمداً له . وأما المدة التي تكون المرأة طاهرة فيها ، فيقال لها الإطهار (١) .

ويظهر من تحريم الإسلام للميتة والمختنقة أن الجاهليين لم يكونوا يتحرجون من أكل لحوم الحيوانات الميتة والمختنقة ، وإلاّ لما نزلت الحرمة بذلك . وقد حرم في الاسلام بعض المأكولات ، وعينت الذبائح التي يجوز للمسلم تناولها ، وحرم تناول ما أُهل لغير الله به ، ومنها الذبائح التي ذبحت للأصنام وضحيت لها .

وقد نسب أهل الأخبار بعض العادات والأحكام الجاهلية الى أناس جاهليين زعموا أنهم كانوا أصحاب جاه وسيادة في قومهم ، وأن أحكامهم وأوامرهم صارت لذلك أحكاماً محافظاً عليها وأوامر متبعة . وقد ذكرت بعض تلك الأحكام ، كما ذكرت أقوالاً نسبت الى بعض الحكّام والكهان . ويلاحظ أن الأخبار لم تشر الى نزول الوحي على أولئك الناس على هيأة الوحي الذي ينزل على الأنبياء ، وأن الأخباريين لم يشيروا الى اعتقاد أهل الجاهلية بوجود أنبياء لهم على نحو اعتقاد العبرانيين بوجود الأنبياء لديهم . نعم ، نجد أنهم كانوا يعتقدون بالإلهام ، والإلهام غير الوحي المعروف . فالوحي المفهوم عند المسلمين هو نزول ملك هو جبرائيل ، يبعثه الله لمن يختاره من عباده للنبوّة ، فيلقي عليه رسالة الله ، ليبلغها للناس . أما الإلهام ، فانه وحي داخلي يحس به المرء يهتف في أعماقه ويوحي اليه ،

---

(١) قال امرؤ القيس :

ثياب بني عوف طهارى نقية   وأوجههم عند المشاهد غران

تاج العروس (٣/٣٦٢ وما بعدها) .

ومن هذا القبيل الإلهام الذي يكون عند الشعراء والذي عبروا عنه بـ « شيطان الشاعر » ، وهو شعور الشاعر بحكم حسه المرهف بشعور يستحوذ عليه فلا يتركه حتى يعبر عنه بأبيات وقصائد . وهذا الحس هو الذي عبروا عنه بذلك التعبير ، وهو تعبير يشعر بالطبع بوجود قوة خفية تؤثر في ذلك الشاعر ، فتوحي اليه . وباعتقاد بعض الجاهليين بوجود قوة إن شئت سميتها روحاً تتصل بالأشخاص فتلهمهم وتوحي اليهم باتصالها بهم فيكون لديهم علم لا يتيسر حصوله لغير من اتصلت به ، ولذلك كان فى جملة ما أتهم به الرسول ، أنه شاعر ، وأنه يأخذ ما يقوله من شيطانٍ هو الشيطان الذي يلهم الشعراء .

وقد ارتبط أخذ الثأر عند الجاهليين بعقيدة تتعلق بمستقبل المقتول وبمستقبل أهله ، فالمقتول كما قلت من قبل لا يمكن أن تستقر روحه وتهجع إلاّ بالأخذ بثأره . إنها ترفرف هامة على القبر ، تقول : أسقوني أسقوني ، ولن تستقر إلا بعد الأخذ بالثأر وسفك دم القاتل أو من يسفك دمه مكانه . فالأخذ بالثأر إذن ليس موضوع عزة وحسب وعرف اجتماعي حسب ، بل هو موضوع يتعلق بعقيدة كذلك وبرأي ديني . وما دامت الروح لا تستقر ولا تهجع ، فهي إذن لا بد أن تؤذي الأهل والأقرباء والعشيرة إن لم يؤخذ بثأرها من القاتل أو من ذويه وعشيرته ، فلسلامتهم هم وعشيرتهم ، وللتخلص من ذلك الانزعاج لا بد من الأخذ بالثأر اذن ، ولهذا يركبون كل مركب للأخذ به .

أما الدية ، فإنها وإن تمنع الخلاف مؤقتاً ، غير أنها لا تغسل الدم وتشفي الخاطر ، ثم إن قبولها يعدّ ضعفاً ومسكنة ، فالدم لا يعوض بمال ولا يغسل بإبل ، بل لا بد له من دم . ولذلك كان الأعزة منهم يأبون قبول الدية ، ولا يرضون إلا بالدم ، على أن يكون فى منزلة دم القتيل المهراق [1] . وطالما أقسم المقتول على أهله وعشيرته بوجوب غسل دمه ، وعدم الإفراط فيه بقبول الدية ولو كلفهم ذلك زمناً طويلاً . وقد يطول أمد الأخذ بالثأر ، ولكنّ ذلك ليس عاراً ، إنما العار في ترك الدم من غير عوض من نوعه وجنسه .

(١) المشرق : السنه الثالثة والثلاثون (١٩٣٥) (ص ١٨ وما بعدها) .

ولما كانت القاعدة فى أخذ الثأر هى « الدم لا يغسل إلا بالدم » ، روعي أن يكون الدم الذي سيغسل به الدم السابق من درجته ومستواه . فدم الرئيس وسيد القوم ، لا يغسل بدم من عامة الناس وسوادهم ، ودم الملك لا يغسل بدم رجل من سائر الرجال ، بل لا بد من غسله بدم ملك أو أمير . ولهذا وجب على الآخذ بالثأر تعيين نوع الضحية التى سيقدمها قرباناً عن الدم المهراق قبل الإقدام على تنفيذ عمله ، ومتابعة الضحية تستوجب بالطبع حذراً شديداً وتيقظاً وذكاءً ، فمن يقع عليه وزر القتل ، لا بد أن يكون شديد الاحتياط لنفسه ولأهله ، لعلمه أن أهل القتيل لا بد أن يقدموا على الأخذ بثاره ولو بعد أمد طويل .

وفى كتب الحديث أن القسامة عرفت فى الجاهلية قبيل الإسلام ، وأن أول قسامة كانت فى زمن أبي طالب . ويكون اليمين فى القسامة . وفى كتب الفقه باب خاص فيها [1] .

وفى كتب الأخبار أمثلة عديدة عن الوفاء ، كقصة السموأل ، وقصة عمير بن سلمى الذي قتل أخاه قريناً بقتيل قتله من جاره [2] ، وقصة وفاء أبن زهير المازني الذي قتل أيضاً أخاه لغدره بجار له [3] . وقصص الوفاء هذه تكسب أصحابها وآلهم شرفاً عظيماً ينتقل الى الأعقاب ، كما أن التقاعس عن الأخذ بالثأر والسكوت عن المطالبة بدم القتيل يكسب آل القتيل خزياً وعاراً ينتقلان من الآباء الى الأبناء .

وهذا العرف الذي نتحدث عنه ، هو بين الأعراب أقوى منه كثيراً بين أهل المدن والمزارعين . إنه في الواقع دينه الذي يدين به وشريعته التى يعتقد بها . وهو ما زال حتى اليوم محافظاً عليه ، لأنه يمثل طبعه وبيأته التى يعيش فيها ، فليس من السهل عليه تغييره وتبديله ، مع عدم اتفاق كثير منه مع تعاليم الإسلام . هو يرى أن عرفه سنة . وأنه قانونٌ ، من يخالفه فكأنه يخالف طبعه وما جبل عليه . فهو لهذا لا يشعر بما يستوجب

---

(١) السنن الكبرى (٨/١١٧) ، « كتاب القسامة » ،

(٢) المحبر (ص ٢٠٩) .

(٣) المشرق : السنة الثالثة والثلاثون (١٩٣٥) (ص ١١) .

مخالفته ، وليس من السهل عليه نبذ عادات ورثها من آبائه وأجداده ، وهي من مخلفات مئين من السنين ، منحها القدم قدسيته ، فهي فى نظرهم من نوع شرائع السماء .

والعادات التى ذكرت فى كتب الحديث والأخبار وقيل إنها من سنة إبراهيم القديمة وإن العرب توارثوها منذ القديم عنه ، وهى : المضمضة ، وقص الشارب ، والفرق ، والسواك ، والاستنجاء ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، والختان (1) ، هى فى الواقع من العادات التى تميز بها العرب الشماليون منذ زمن قديم . وقد ظهرت الشوارب وهى مقصوصة فى الرسوم التى مثلها الآشوريون وغيرهم للعرب ، وقد رأيت ما ورد فى الموارد العبرانية عن اختتان العرب ، وقد يضاف اليها الاغتسال من الجنابة ، وغسل الموتى وتكفينهم ، والوقوف على قبورهم لذكرهم ، وقد أقر الإسلام تلك العادات فلم يبطلها ، بل أوجب بعضها وصارت من شعائر المسلمين .

وكان فى جملة عرف الجاهليين اذا أرادوا التأكيد على شيء ، القسم بأعز الأشياء على الإنسان ، ويقال لذلك « الحلف » و « القسم » ، لأن الرجل يحلف ويقسم فى كلامه ويأخذ الأيمان على نفسه بأن يفعل ما أقسم من أجله وأن يبر بقسمه ذلك . والغالب أن تكون للأيمان صيغ خاصة تقرن بها الأشياء العزيزة التي يقسم بها ، والأصنام هي من تلك الأشياء التي ترد فى الحلف ، ولاسيما اللات والعزّى . وقد ورد القسم باللات فى الشعر الجاهلي ، ويظهر أنه كان أعرف من غيره من صيغ القسم بين أهل مكة . ونجد النهي عنه فى الحديث . وقد أحل الاسلام لفظة الجلالة فى موضع اللات ، كما نهى الإسلام عن الحلف بالآباء وبالأجداد ، وقد كان هذا النوع من الحلف معروفاً بين الجاهليين ، ونهى الإسلام عن الحلف بغير الله تعالى (2) .

---

(1) بلوغ الأرب (٢/٢٨٦ وما بعدها) .

(2) صحيح مسلم (٥/٨٠ وما بعدها) ، « باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى » .

ولشيوع استعمال لفظة « الله » بين الجاهليين قبيل الاسلام كما ذكرت ذلك من قبل، أدخلت فى القسم ، فورد فى أقسامهم مثلا : « لعمر الله » و « ها لعمر الله » كالذي ورد فى شعر زهير :

تعلمن ها لعمر الله ذا قسماً فاقصد بذرعك وانظر أين تنسلك[1]

وورد « ها الله » و « والله » و « آلله » و « نعم الله » و « أي والله لأفعلن » « و أيم الله » و « أيمن الله » و « يعلم الله » و « علم الله » وأمثال ذلك . وقد أقسموا بالكعبة أيضاً فقالوا و « أيمن الكعبة »[2] .

ولأهمية الأيمان وقدسيتها اقترن القسم بشعائر دينية ، فيكون القسم أمام شهود وجمع من الناس فى الغالب ليكونوا شهوداً عليه . وطالما عقد فى المعابد وأمام الأصنام وفى شعائر خاصة تقام لذلك . وقد ذكرت سابقاً « التهويل » ، وهو ايقادهم ناراً يلقون فيها ملحاً ، ليحلف عليها المهول ، أي الذي يحلف . كما ذكرت المحاش بمعنى القوم يحالفون غيرهم من الحلف عند النار ، وهو من المحش أي الاحراق[3] .

ولاقرار الاسلام لكثير من العرف والتقاليد الجاهلية التي لا تتعارض مع مبادئه ، كان من اللازم دراسة فقه أهل المدينة خاصة والحديث للوقوف على أحكام الجاهليين ونظراتهم فى الحق والقانون . وقد ترشدنا دراسة آراء فقهاء أهل المدينة وفتاوى قدماء الصحابة الى التعرف على أصول كثير من العرف والعادات عند أهل الحجاز قبل الاسلام .

هذا هو كلّ ما وصل اليه علمي عن الحياة الدينية عند العرب قبل الاسلام ، ذكرته فى هذا الجزء وفى الجزء السابق له . لقد وجدنا أنها حياة فيها البدائي من العقائد والآراء من

---

(١) المخصص (١١٣/١٣) ، السنن الكبرى (٢٦/١٠ وما بعدها) .

(٢) المخصص (١١٤/١٣ وما بعدها) .

(٣) المخصص (١١٥/١٣) ،

أعتقاد يشابه عقائد الأقوام البدائية فى هذه الأيام ، وفيها الاعتقاد بالله الذي يتمثل فى الأديان السماوية الكبرى . إنها عقائد اختلفت باختلاف البيآت والأحوال الاجتماعية ، فاعتقاد أهل الوبر بحياتهم المنعزلة البسيطة وبيأتهم الساذجه الفقيرة ، لا يمكن أن يكون كاعتقاد أهل المدر والبيأة المتعددة الوجهات المتقدمة فى درجات الحضارة ، ثم إن هذه البيأة نفسها تختلف أيضاً باختلاف الدرجات التي وصل اليها أهل القرى والمدن وباختلاف اتصالهم واختلاطهم بمن أحتكوا بهم من أقوام وبمن دخل فيهم ولجأ اليهم من ناس . ولذلك فهي مختلفة أيضاً ، وهي متبدلة ، فمر عليها لذلك تطور خطير فى الحياة الدينية يتمثل فى هذا الذي رأيناه من ظهور أسماء أصنام جديدة واندثار أسماء أصنام قديمة ، حتى لم يعد يذكرها ذاكر . ولولا وقوفنا على كتابات من فات منهم ومضى قبل الإسلام بأمد ، وفيها أسماء تلك الأصنام ، لكنا فى جهل بها أيضاً ، شأننا فى ذلك شأن من تقدم علينا فى الإسلام ، جهلوا بها لأن الذين سبقوهم كانوا قد قطعوا صلتهم بها وتنكروا لها ، فلم يعرفوا عنها شيئاً ، ولأن من جاء بعدهم فى الإسلام كان قد ترك الكتابة بالأقلام الجاهلية ، وقطع صلته بها ، فلم يعرف من أمر ما ورد فيها من كتابات شيئاً ، فجهلوا لذلك أسماء الأصنام الواردة فيها ، فلم يذكروها فى جملة ما ذكروه من أصنام العرب قبل الاسلام .

والذي توصل اليه علمنا فى الصفحات المكونة لهذين الكتابين أن العرب لم يكونوا متفقين فى عبادة ، ولم يكونوا يعبدون رباً واحداً أو أصناماً معينة محدودة ، وانما كانوا يعبدون أصناماً عديدة ، لكل قبيلة صنم أو جملة أصنام ، تعبدها ، وقد تنساها وتتنكر لها فتعبد أصناماً غيرها . كما رأينا أن أصنام العرب فى الأقسام الجنوبية من جزيرتهم تختلف فى الأسماء أختلافاً بيناً عن اسماء أصنام العرب الشماليين ، وإن ورد بعضها مشتركاً فهو قليل ، وقد أخذ على ما يظهر عن طريق الأخذ والتأثر والاختلاط . ثم إن بعضها من بقايا الأصنام القديمة العامة التي كانت شائعة معروفة عند أغلب الشعوب السامية ، فأسماؤها

فلك ترد فى أكثر كتابات الساميين .

وقد رأينا اليهودية فى الأنحاء الخصبة من جزيرة العرب ، تتبع الخصب والأمل فى الثروة وفى التجارة . ولهذا عشمشت فى منطقة يثرب وفى اليمن وفى البحرين ، وهي تريد الاطمئنان وما أشرت اليه من ثروة لأصحابها وأبنائها ، ثم هي لا تبالي بعد ذلك فى تبشير ولا نشر لعقيدة أنبيائها بين الناس . نعم ، لقد دخل فيها بعض العرب طوعاً أو رهبة ، غير أن من طبع اليهودية أنها ديانة خاصة بشعبها المختار من بين الشعوب ، فهي لا ترحب بدخول الغرباء فيها ، ولا تريد أن « يدنّس » دمها دمٌ آخر . وكل ما أرادته من وجودها بين العرب هو الراحة والاطمئنان والحصول على القوت وسلامة الثروة والسيطرة بها على من اختلطت بهم من أناس . ولذلك فهي راضية مطمئنة ما دامت لا تخشى أحداً . فإذا ظهر من يريد تغيير الوضع والحدّ منه ، اتخذت كل ما عندها من حيلة وطريقة للتخلص منه ، ولهذا لم تقف موقفاً معادياً من الإسلام فى بادىء الأمر لظنها أنه سيكون فى خدمتها وفى متناول يدها ، ولما تبين لها أنه لم يكن عند ظنها ذلك ، وأنه على العكس يحاول إدخال اليهود فيه ، أعلنت الحرب عليه ، وجادلته جدالاً عنيفاً ، وقاومته ، الى أن كانت نهايتها فى جزيرة العرب على يده .

أما النصرانية ، فلكونها ديانة عالمية لم تؤمن بنزولها لشعب واحد مختار ، فقد كان يهمها نشرها بين الناس جميعاً ، وادخال كل الشعوب كائنة ما كانت فيه . وقد كان يدفعها الى ذلك عامل سياسي أيضاً فى أكثر الأحايين ، هو التبشير بسياسة القيصر ، ونشر نفوذ الروم . فكان الروم يؤيدون المبشرين ، ويبذلون لهم المال ، ويتقربون اليهم ، ويشترونهم باسم المسيح ، ويبعثونهم الى أقاصي الأنحاء للتبشير بالنصرانية . وقد كانت قبائل العرب وجزيرة العرب من الأنحاء المقصودة التي تهافت عليها المبشرون . وجزيرة العرب ، وتعدّ

ذو أهمية ، فاصل بين الفرس والروم ، من أحكم القبض عليه أصاب خصمه بضرر عظيم ، لذلك كان من المسلم به إرسال المبشرين الى أصحابه لمحاولة إقناعهم بالدخول فى ديانة الروم .

وقد نجح المبشرون نجاحاً طيباً فى طريقتهم فى التنصير ، فتمكنوا من تنصير بعض سادات القبائل ومن تنصير قبائلهم كلها بذلك . لقد كانوا يلجؤون الى سيد القبيلة ، فإذا أقنعوه بقبول دينهم ، ضمنوا بذلك دخول جميع القبيلة فيه ، فالناس على دين سادتهم وملوكهم . وقد كانت السياسة في بلاد الشأم من العوامل التي دفعت قبائلها العربية للدخول في النصرانية . ولما أعلن الرسول رسالته للناس ، كانت طائفة من العرب قد دخلت فيه . ولولا الإسلام ، لكانت جزيرة العرب جزيرة نصرانية ، ولكان وجه ثقافتها ولا شك شيئاً آخر ، يختلف عن هذا الوجه الشائع اليوم المألوف المعروف . ولا يستبعد عثور المنقبين في المستقبل على كتابات جاهلية قد تكشف عن مدى انتشار النصرانية بين الجاهليين .

وأريد بهذه المناسبة وفى هذه العجالة أن أشير الى أن الجاهليين لم يكونوا كلهم على نحو ما صورهم أهل الأخبار جهلة غفلة في أمور دينهم ، لا يفهمون من الدين غير عبادة الحجر والشجر والجن . يعبدون صنماً ، فإذا لم يروا منه فائدة مرجوة أو إجابة مطلوبة ، نقموا عليه فحطموه ، أو أكلوه إذا كان من مادة مأكولة ، كالذي ذكروه من أمر بني حنيفة التي أكلت ربها زمن الفاقة والمجاعة . فالواقع أن هذه الأخبار إن صح أنها وقعت فعلاً ، فانها حوادث فردية ، وهي نادرة ، ولا يجوز الحكم بالنادر والشاذ .

لقد تعمدت في هذين الجزءين الاشارة الى أمور وردت في مواضع متعددة ، أشرت اليها بايجاز مرة وبتفصيل مرة أو في مرات . تعمدت ذلك لصلتها بالموضع الذى وردت فيه ، ولأهميتها فى ذلك المكان أو فى هذا المكان ، كما أثرت مسائل ومشكلات لينتبه اليها من يأتي بعدي فيصرف جهده ووقته لمعالجتها . أما أنا ، فلم يكن فى الذي بين يديّ ما يساعدني على ايجاد حلول لتلك الأسئلة والمشكلات .

وأريد أن أقول بكل صراحة إن هذه الحلول لا يمكن أن تكون منطقية مقبولة معقولة ، إلا باستنادها الى كتابات جاهلية وآثار من آثار تلك العهود .

هذا ، ولا أريد أن أطيل على القارىء وأمعن في الاسراف فى الـكلام ، ولي معـه في الجزء السابع كلام طويل ، كلام عن لغة الجاهليين وعن لهجاتهم وقواعدها وتنوعها ثم عن شعرها وأمثال ذلك . فحتى ظهور ذلك الجزء أ كفى قارىء هذا الجزء مؤونة التعب على أمل اللقاء فى الجزء الذي وعدته به إن شاء الله .

فهرست هذا الجزء

الصفحة

الفصل الثاني

الصفحة

الصفحة

الفصل الثالث

الصفحة

الصفحة

الفصل الرابع

الصفحة